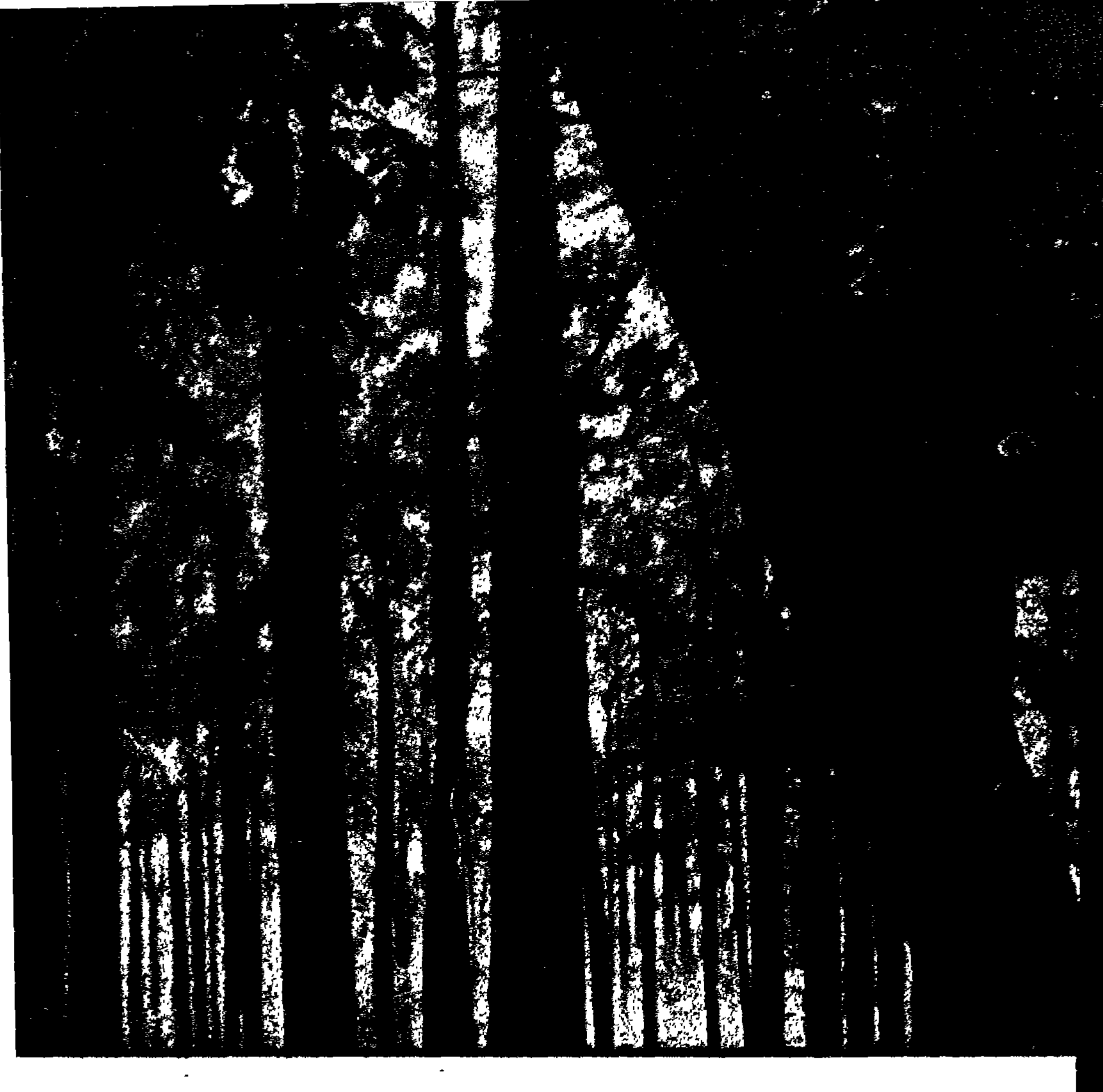


شجرة الحضارة

الجزء الثالث

تأليف : رالف لنتون

ترجمة : الدكتور أحمد فخري

شجرة الحضارة

الجزء الثالث

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مــع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة ــ نيويورك

فبراير ١٩٦١

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

شجرة الحضارة

قصة الانسان منذ فجر ماقبل التاريخ
حتى بداية العصر الحديث

تأليف

الدكتور رالف لنتون

أستاذ الدراسات الانثروپولوجية بجامعة ييل

ترجمة

الدكتور أحمد فخرى

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة

محتويات الكتاب

الجزء الثالث

صفحة

القسم الثامن ـ افريقيا

القسم التاسع ـ الشرق الأقصى

القسم العاشر ـ الدنيا الجديدة

القسم الثامن

افـــريقيــا

الفصل الثامن والعشرون

ما قبل التاريخ

يعتقد دارسو التاريخ الحضارى أن القارة السوداء قد أحسنت تسميتها ؛ اذ بالرغم من أنها من أقدم القارات التى استوطنها الانسان — ان لم تكن أقدمها جميعا — فان ماضيها قد اكتنفه الكثير من الغموض ، اذ لم يعثر على أى وثائق فى أى جهة منها غير تلك التى خلفها الرحالة العرب فى العصور الوسطى ، وذلك اذا ما غضضنا النظر عن تلك المناطق المحدودة التى تشمل كلا من مصر واثيوبيا والساحل الشمالى لتلك القارة .

وهناك قصص وأخبار غير مكتوبة يتناقلها سكان الممالك الزنجية العظيمة التى تنتشر عبر القارة جنوبى الصحراء الكبرى ، وهى تعود الى تاريخ أقدم من كتابات أولئك الرحالة العرب بقرنين أو ثلاثة قرون . ولا شك أن قوائم ملوكهم وقصص الهجرات والغزو ، فيها شىء كثير من الحقيقة ، ومع ذلك فان هذه الأخبار — اذا أردنا أن ننظر اليها كتاريخ — يجب أن نخضعها لكل ما يجب أن تخضع له جميع الوثائق الشفهية عند البحث ، أى يتحتم علينا ألا نقبلها على علاتها .

أما بالنسبة للمناطق الواقعة أبعد من ذلك فى الجنوب ، فان مثل هذه الأخبار تنقصنا أيضا وتحل محلها القصص الفولكلورية . فنحن نجد بقايا ما خلفته حياة الانسان فى كل مكان فى أفريقيا ، ولكن ما زالت هناك مناطق واسعة ممتدة الأطراف لا يمكننا أن نعتبرها من الناحية العملية الا مناطق مجهولة من ناحية الدراسات الأثرية . فقد عثر فوق سطح الأرض على أدوات

يرجع تاريخها الى العصر الحجرى القديم ، فى جميع أجزاء القارة حيث اهتم بعض أعضاء الارساليات الدينية أو موظفى الحكومة بالبحث عنها .

وقد عثر فى بعض المناطق على عدد كبير منها مما أوحى الى الباحثين بأن ذلك دليل اما على كثافة نسبية فى عدد السكان ، أو أن أولئك الناس قد أقاموا فترة طويلة جدا من الزمن فى ذلك المكان ، وهو الأمر الأكثر احتمالا .

غير أن عملية تأريخ البقايا الأثرية الافريقية المبكرة تثير مشاكل خطيرة ؛ فالدورات المناخية العظيمة التى نتجت عنها العصــور الجليدية الأوروبية ، والفترات التى بين العصور الجليدية ، لم تحدث فى افريقيا أكثر من مجــرد تقلبات فى كمية سقوط الأمطار ، كما أن التغيرات التى طرأت على الحيــاة الحيوانية كانت من التدرج بحيث لا تفيد الحفريات الا فائدة قليلة فى معرفة تاريخ ما يعثر عليه ، كما أن تطور الحضارة ، بل ومن المحتمل جدا تطور الانسان نفسه ، لم يسر الا سيرا بطيئا هادئا خلال العصر البليستوسينى .

وتختلف هذه الأحوال اختلافا تاما عن الأحوال التى كانت سائدة فى أوروبا ، اذ لم يستطع الانسان خلال الفترات المتعاقبة من التقدم الجليدى ، أن يجد لنفسه الا مستقرا مزعزعا فى المناطق الواقعة على حدود القارة فى أقصى الجنوب . وابان هذه الفترات العصيبة أصبحت افريقيا ، مثل «الكنيسة» فى آراء « توينبى » أى كانت مستقرا للمكاسب الحضارية التى توصل اليها الانسان قبل ذلك ، وكانت افريقيا هى المكان الذى كان يعود منه الانسان للسكنى فى أوراسيا الغربية فى كل مرة يصبح فيها الطقس دافئا الى حد كاف .

ولما كانت الأحوال المناخية فى افريقيا ثابتة الى حد ما ، وكانت السكنى فيها مستمرة فان مخلفات العصر الپاليوليتى الأدنى فى افريقيا يفتقر الى التغيرات المفاجئة التى كانت تميز مختلف العصور الپاليوليتية المتأخرة فى أوروبا . وقد عثر على أقدم البقايا الحضارية الافريقية التى كشفت حتى الآن فى شمال شرقى افريقيا ، ونرى فيها حضارة قائمة على استخدام شطفات

ومهاشم غير متقنة الصنع ، تذكرنا — ولو الى حد قليل غامض — بحضارات جنوب — شرقى آسيا . وعقب ذلك انتشرت فى افريقيا لمدة بضعة آلاف من السنين حضارات فأس « بلطة » اليد التى عمت المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ومدينة الكاب ، وهى الحضارات التى أخذت فيها أشكال الأدوات تتطور تطورا تدريجيا حتى اتخذت الأشكال التى رأيناها فى حضارات بلطة اليد التى انتشرت فى أوروبا فيما بعد .

ولسنا نملك ، مع الأسف الشديد ، الا القليل من المعلومات عن سكان افريقيا فى العصر الپاليوليتى الأدنى ؛ اذ أن المستكشفات الأفريقية التى عثر عليها حديثا فى جنوبى هذه القارة توحى بأن الانسان قد نشأ فيها . ومن المؤكد أن أشباه الانسان المنتصبى القامة من مجموعة الأوسترالو — پيثيكى (Australopithicine) قد قاربت أن تصبح « حلقات مفقودة » أكثر من أى حفريات أخرى وجدت حتى الآن . فان الجمجمة الغريبة المعروفة باسم جمجمة روديسيا ، وما عثر عليه أيضا منذ وقت قريب فى الكونغو البلجيكى ويحتمل أن يكون معاصرا الانسان النياندرتال ، يدلان على وجود سكان قطنوا فى هذه القارة فيما بعد وذلك قبل ظهور الانسان العاقل ، ولكن الدليل الذى نملكه ما زال ينقصه الكثير حتى يصبح كافيا لاعطائنا نتائج نهائية .

بيد أنه بانتهاء العصر الپاليوليتى الأدنى يصبح من الصعب تطبيق النظريات الأوروبية التقليدية فى تتابع الآثار فى افريقيا . وبالرغم من أنه عثر فى بعض أجزاء أفريقيا على أدوات تشبه تلك الأدوات التى انتشرت فى حضارات الشظفة فى أوروبا ، وهى التى كانت تسمى فى وقت ما بالحضارات الموستيرية ، الا أن سوابقها ومركزها فى تسلسل الحضارات الافريقية ليست من التحديد بحيث تجعلنا نقطع بوجود أى علاقات حقيقية بينها . ويبدو من المحتمل ، حسب الأدلة التى نملكها حتى الآن ، أن هذه الصناعة قد تطورت فى افريقيا نتيجة للعلاقات التى قامت بين الذين كانوا يستخدمون « بلطة » اليد وبين غزاة

جلبوا معهم صناعة النصال من العصر الپاليوليتى الأعلى .

وتشبه أقدم النصال الافريقية فى نواح كثيرة ، تلك التى عثر عليها فى أوروبا ، وفى الشرق الأدنى ، الأمر الذى يكاد يؤكد لنا أن افريقيا لم تعرفها الا وهى فى أشكالها المتطورة . وعلى أى حال فقد طرأ على هذه الصناعات كثير من التعديلات المحلية ، عن طريق التغير التدريجى الذى يحتمل أن تكون قد ساعدت عليه اتصالات جديدة بآسيا ، حتى أصبحت صناعات من النوع الميسوليتى . وقد وجدت هذه الصناعات فى كل جزء من أجزاء القارة ، التى وصلتنا منها معلومات أثرية كافية ، مما يدل دلالة تامة على سعة انتشارها ، كما أن الصناعات ظلت باقية مستمرة فترة طويلة نسبيا فى القارة . فقبائل البشمن الذين يقطنون أقصى الجنوب من القارة كانوا لا يزالون ينتجون الأدوات الميسوليتية فى الوقت الذى وصل اليها الأوروبيون . ولسنا نعرف على وجه التحديد ما اذا كان الأقزام الذين يعيشون فى الغابات الغربية كانوا أيضا يصنعون مثل هذه الأدوات أم أنهم لم يصنعوها فان هذا الموضـــوع ما زال قيد البحث لأن الأدلة الأثرية غير موجودة كما أن صناعاتهم الحديثة لا تساعدنا على البت فى هذا الأمر ، اذ يرجع السبب فى افتقارهم الكامل للمهارة فى أى نوع من الصناعات التى كانوا يتميزون بها من قبل الى اعتمادهم الطويل على جيرانهم الذين كانوا أكثر وأقوى منهم ، وعلى الأدوات الحديدية التى كانت متوافرة فى ذلك الوقت .

وتعتبر الهياكل العظمية التى عثر عليها فى المواقع الأثرية التى يرجع تاريخها الى العصر الپاليوليتى الأعلى والى العصر الميسوليتى ، ذات أهمية خاصـــة لأنها تلقى ضوءا على تاريخ الأجناس فى افريقيا . فبالرغم من أن البقايا ليست كثيرة الا أنها تدل على شيئين : أولهما أن عددا من الأنواع والفصائل البشرية لم يكن موجودا فى ذلك الوقت فى هذه القـــارة ، وأن الخواص الجسمانية الزنجية كانت أقل وضوحا وأقل انتشارا عما أصبحت عليه فيما بعد ، أما سكان

شمال أفريقيا الذين يرتبط اسمهم بالصناعات التى كانت منتشرة فى العصر الپاليوليتى الأعلى فان المميزات القوقازية كانت سائدة كثيرا بينهم ، وهى تشبه المميزات السائدة بين السكان الحاليين للمنطقة . ولقد دلت البقايا المتناثرة التى عثر عليها فى الهضبة الافريقية من شرقى السودان الى جنوب أفريقيا على أن النوع المعروف باسم البوشمن — هوتنتوت كان منتشرا فى وقت ما انتشارا كثيرا نحو الشمال أكثر من انتشاره فى الفترة التاريخية ، فى حين امتدت العناصر القوقازية بعيدا ناحية الجنوب . ونظرا لجهلنا الكامل للون الجلد ونوع الشعر وما أشبه ذلك من المميزات فان الكثير من البقايا التى عثر عليها فى شرقى افريقيا كان يمكن جدا اعتباره قوقازيا لو عثر عليه فى مكان آخر .

والأحوال المناخية فى افريقيا الغربية الرطبة غير ملائمة للاحتفاظ ببقايا الهياكل العظمية ، وفى الوقت ذاته ليست لدينا أية معلومات عن هذه المنطقة . بيد أن المرء يجب أن يستنتج — وذلك عن طريق عملية تصفية بسيطة — أن مركز تطور مجموع الصفات الجسمانية التى ننسبها عادة الى الجنس الزنجى يقع هنا فى هذه المنطقة كما يتحتم على المرء أيضا أن يستنتج أن هذه الخواص قد انتشرت باطراد من أفريقيا الغربية ، بل ويستطيع المرء أن يخاطر فيظن أن هذا الانتشار يرجع الى قوة الاحتمال العظيمة ضد الملاريا الخبيثة التى يتميز بها زنوج افريقيا الغربية . وحتى الآن فان معظم أفراد هذه المجموعة هم من حاملى ميكروب الملاريا ، وكلما اتجهوا الى منطقة ، تكون فيها بعوضة الانوفيليس حاملة الملاريا فانهم ينشرون المرض وتكون العاقبة وخيمة بالنسبة للسكان المحليين . أما الفراغ الذى ينتج عن مثل هذه الكارثة بموت عدد كبير من السكان فسرعان ما تسده زيادة عدد الزنوج والمولدين الذين يكونون أقل تعرضا للاصابة .

وفى الحضارات الافريقية فى العصر النيوليتى سلسلة من المشاكل التى لا يمكن حلها الا بالاستزادة من الحفائر والقيام بعمل البحوث المنظمة فى

منطقتين هامتين بصفة خاصة وهما الحبشة والسودان ، اذ أنهما من الناحية الأثرية يكادان أن يكونا غير معروفتين حتى الآن . هذا ، وليس هناك ثمة شك فى أن الحضـــارات الافريقية فى العصر النيوليتى قد نبعت من المركز الأسيوى ، وأعنى به جنوب غربى آسيا ، وهو المركز الذى وصفناه من قبل فى الفصل السادس عشر اذ أن الناحية التكنولوجية فى كل منهما متشابهة كما نرى فى كل مكان شمالى الصحراء الكبرى الافريقية فى العصر الپاليوليتى آن اقتصاده يقوم على وجود نباتات وحيوانات أصلها من جنوب غرب آسيا .

وبالرغم من احتمال وجود بعض الامتزاج بين هذه الأشياء التى أتت اليهم وشبيهاتها من العناصر الوطنية ، الا أنه لا توجد أية شواهد مقنعة تدل على استئناس أى حيوان ذى أهمية اقتصادية فوق أرض القارة الافريقية . وقد ذهب البعض الى القول بأن افريقيا كانت المكان الذى نشأ فيه الحمار ونوع من الأغنام ولكن لم يقم الدليل على ذلك . فقد استأنس المصريون القط ، غير أن هذا الحيوان قد أفاد كثيرا فى ارضاء الانسان نفسانيا أكثر من ارضائه له من الناحية المادية .

أما بالنسبة للمحاصيل فليس لدينا أى دليل مباشر يشير الى معرفة ما كان يزرع منها فى مجتمعات العصر النيوليتى جنوبى الصحراء الكبرى ، ولكنا نعرف أن عددا قليلا جدا من أنواع الحبوب التى تزرع فى جنوب غربى آسيا يمكن زراعته فى هذه المنطقة ، فان معظم محصولات غربى افريقيا والسودان التى تزرع اليوم ترجع فى أصلها اما الى أصل أمريكى أو أن تكون فى أصلها من محصولات جنوب شرقى آسيا ، أما بقية المحصـــولات فانها سبق أن استؤنست (دجنت) فى الحبشة . هذا ولو سلمنا بما ورد فى التقارير النباتية التى نشرها العلماء الروس فان عددا هائلا من فصائل النباتات قد زرع هناك . ان النباتات التى يحتمل أن تكون قد زرعت جنوبى الصـــحراء الكبرى فى العصور النيوليتية هى أنواع مختلفة من الدخن (الذرة العويجة) من فصائل

السورغــوم والاليوســين والبنسيتوم (Sorghum, eleusine, pennisetum) والفول الســودانى (من نوع ڤواندزيا (Voandzeia)) . فاذا كانت هذه النباتات قد استؤنست فعلا فى الحبشــة فان مشكلة جــديدة ستضاف الى المشاكل المعقدة التى تواجهنا فى محاولتنا تحديد أصول وهجرات النباتات الافريقية فى العصر النيوليتى .

ويبدو أن طريق الهجرة الرئيسى الذى سلكه الوافدون الى افريقيا فى العصر النيوليتى كان عن طريق شبه جزيرة سيناء وعبر البحر الأحمر . وبالرغم من العلاقات الوثيقة التى كانت تربط الحبشة بجزيرة العرب خلال العصور التاريخية والهجرات العديدة التى كان يقوم بها سكان كل من البلدين منــذ ألفى سنة مضت فان بقايا الحضارة النيوليتية لم يعثر عليها بقدر كاف ، ان كانت قد وجدت على الاطلاق فى المنطقة المعروفة باسم القرن الافريقى . ان أعمال الحفر والتنقيب لم تحدث على نطاق كاف فى هذه المنطقة ويتوقع المرء أن يجد الأدوات النيوليتية بين أيدى الأهالى ، لو كانت هذه الأدوات موجودة فى هذه المنطقة . كان سكان الدنيا القديمة ينظرون الى « بلطة » اليد المنتشرة فى كل مكان على اعتبار أنها أداة سحرية تتصل بالبرق ، ولهذا كانوا يحرصون على اقتنائها . وحيث انه لم يعثر عليها فى هذه المنطقة فمن المؤكد أنها لو كانت موجودة فعلا فلا بد أنها كانت نادرة الى حد بعيد .

ويبدو أن أحسن تفسير لعدم وجود البقايا النيوليتية فى شرقى افريقيا هو أنه فى الوقت الذى حدثت فيه الهجرة النيوليتية من آســيا ، كانت معظم السواحل الافريقية على البحر الأحمر من الجفاف بحيث لا يمكنها القيام بأود الاقتصاد القائم على كل من الزراعة وعلى تربية الحيوان الذى كان متوافرا لدى مزارعى جنوب غربى آسيا القدامى ، وذلك فى الوقت الذى لم توجد فيه حياة الرعاة التى جعلت سكنى هذه المنطقة فيما بعد أمرا ميسورا ، اذ لم يكن هذا النوع من الحياة قد تطور بعد . ومن المعتقد أن بعض الحضارات المصرية

المبكرة فى العصر النيوليتى قد أتت الى صعيد مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر ولو كان هذا الأمر صحيحا فانهم لم يخالفوا أية محلات سكنية معروفة تدلنا على طريق الهجرة الذى سلكوه . كما أن الأحوال المناخية قد تفسر ندرة المناطق الأثرية النيوليتية فى أجزاء كثيرة من الصحراء الكبرى اذ أنها قد أخذت فى الجفاف المطرد منذ نهاية العصر الجليدى . وعندما تطورت الطرق الفنية اللازمة للاقتصاد الرعوى ، أخذت الهجرات طريقها من الجزيرة العربية الى القرن الافريقى . وقد استمر هذا الحال خلال الفترة المتأخرة من عصر ما قبل التاريخ ، وهو يمتد فى هذه المنطقة الى ما بعد بداية العصر المسيحى . هذا ، وحتى فى العصور التالية ، فان ظهور الاسلام كان سببا فى الهجرات الواسعة النطاق التى حملت القبائل العربية الى الأراضى شبه القاحلة فى شمال افريقيا [1] . وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نلاحظ أن كلا من الحصان والجمل قد وصلا متأخرين نسبيا الى افريقيا ؛ اذ أن الحصان قد ظهر لأول مرة فى القارة مع غزو الهكسوس لمصر حوالى عام ١٥٠٠ ق . م ، وأخذه المصريون عن الغزاة الذين أتوا اليهم ولم يستخدموه الا فى أغراض القتال فحسب [2] . كانت الخيول تشد الى المركبات الحربية الخفيفة التى تتسع لرجل واحد وكانت

---

(١) لم تبدأ هجرات القبائل العربية الى مصر وشمال أفريقيا بسبب ظهور الاسلام ، بل بدأت قبل ذلك بقرون طويلة وتاريخ القبائل اليمنية حافل بأسماء وأبناء القبائل التى هاجرت أو هاجرت فروع منها الى مصر والى شمال أفريقيا واستقرت فى تلك البلاد قبل ظهور الاسلام . (المترجم)

(٢) ان تاريخ دخول الهكسوس الى مصر هو عام ١٧٣٠ ق . م . وليس عام ١٥٠٠ ، وفضلا عن ذلك فان النظرية التى كان مسلما بها من علماء الآثار فى السنوات العشر الأخيرة هى أن الحصان قد أتى الى مصر أثناء حكم الهكسوس وان كلا من الهكسوس والمصريين قد عرفوه فى وقت واحد . وقد حدث أخيرا (سبتمبر ١٩٥٩) أن أعلنت نتائج حفائر جمعية الآثار البريطانية فى بوهن (أمام وادى حلفا بالسودان) وفيها ما يثبت وجود الحصان فى وادى النيل قبل عصر الهكسوس بزمن غير قصير يرجع الى حوالى عام ١٨٠٠ ق.م . (المترجم)

القوس هى السلاح الرئيسى الذى يستخدمه قائد العربة ، واذا ما اشتد وطيس المعركة كان يحرر يديه وذلك بأن يشد اللجام الى خصره .

وكان لعبقرية المصريين وميلهم الى اتقان الصناعة الفضل الأكبر فى جعل المركبات الحربية المصرية أخف وأقوى المركبات الحربية التى ظهرت فى العالم القديم ، غير أنه فى الوقت ذاته كان حب المصريين للمحافظة على القديم سببا فى أنه عندما توصل المصرى الى حل جميع المشكلات الفنية بالعجلات الحربية ظل يستخدم نفس العربات عدة قرون أخرى . ولم يعرف المصريون الحرب من فوق ظهر الجواد ، وكانوا يستخدمون المركبات الحربية فى أعمال المناوشات وفى مطاردة الأعداء أكثر من استخدامها فى الهجوم على صفوف الأعداء لبث الذعر بينهم . ولسنا نملك الا القليل من المعلومات عن انتشار الخيل من مصر نحو الغرب ، بيد أننا نعلم أنه ابان العصور الرومانية القرطاجنية كانت الخيول تستخدم بصفة عامة فى القتال فى شمال افريقيا ، كما كان الفرسان النوميديون يمثلون أهم فرقة فى جيش هانيبال ، كما ظلت الخيول مستخدمة بعد ذلك قرونا عديدة فى جيوش الرومان . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بوجود اقتصاد قائم على حياة الرعى يرتكز ارتكازا أساسيا على الخيل وذلك فى العصور الكلاسيكية (اليونانية — الروماتية) ، كاعتماد الحضارات التى نشأت فى الصحراء الكبرى فيما بعد على الجمال . هذا وقد تكشف الدراسات الدقيقة للمصادر الاغريقية والرومانية عن الكثير من التفصيلات الخاصة بهذه الحضارة أكثر من تلك التى يمكن جمعها من المصادر الأثرية الضئيلة . ويمكننا القول بأن الخيول قد انتشرت فى النهاية فى ربوع الصحراء الكبرى كافة ، وبرزت أهميتها فى السودان ابان العصور التاريخية أكثر مما يعتقد أكثر النـاس . كانت الممالك العظيمة التى ظهرت فى شرق ووسط السودان تخضع لطبقة أرستقراطية من الفرسان ، وكان الفرسان الذين يلبسون حلل الزرد المعدنية ، هم نواة جيوشهم .

ولم يستخدم الجمل فى مصر حتى العصر البطلمى بالرغم من أنه من المحتمل أن يكون قد عرف فيها قبل ذلك التاريخ بوقت طويل . وهناك تمثال واحد على الأقل لا يقبل الشك يمثل جملا ويرجع فى تاريخه الى عصر الأسرات المبكر [١] . ومن المحتمل أن الجمل قد أتى عن طريق شبه جزيرة العرب الى القرن الافريقى وأقبلت على استخدامه القبائل الحامية السامية التى كانت تقطن المنطقة ، ومن هناك انتشرت الجمال بسرعة هائلة الى جزء كبير من أرجاء الصحراء الكبرى . وقد نتج عن هذا الانتشار أن فتحت مناطق أخرى للسكنى اذ أن فى مقدور الجمل أن يعيش على العشب بعد فصل الأمطار القصير دون حاجة الى شرب الماء . كما جعل فى الامكان أيضا امتداد طرق القوافل التى تعبر الصحراء ، وهى الدروب التى كان الجفاف المطرد قد جعل استخدامها أمرا مزعزعا لا يمكن الاطمئنان اليه .

وفى ضوء هذه المعلومات الضئيلة ، يبدو أن الصناعات الحجرية ذات الطابع النيوليتى قد استمرت فى شرقى أفريقيا ، وفى جميع أنحاء الهضبة من السودان حتى مدينة الكاب ، الى أن حلت محلها الأدوات المعدنية التى ظهرت فى عصور حديثة نسبيا .

ولم تعرف أفريقيا عصر البرونز . وهى حقيقة غالبا ما يرجعها الباحثون الى استكشاف الحديد استكشافا قائما بذاته وفى وقت مبكر . هذا ، ويبدو الآن أن الأدوات الحجرية قد استمر استخدامها على الأرجح الى أن حل الحديد محل البرونز فى البلاد المجاورة لافريقيا فى أوراسيا ، فان الطرق الفنية وأشكال الأدوات والأسلحة توحى بأن افريقيا الزنجية قد أخذت أدواتها الحديدية عن النماذج الهندية والأندونيسية أكثر من تأثرها بأوروبا أو الشرق الأدنى .

---

(١) تمثال صغير عثر عليه فى جبانة أبو صير الملق عند مدخل الفيوم ويوجد فى متحف برلين . (المترجم)

لقد عثر على بقايا النماذج التى تتميز بها حضارات جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى فى مصر وفى المناطق الساحلية التى تطل على البحر الأبيض المتوسط ،ووصلت هذه النماذج الى ذروتها فىجودة الصناعة فىمصر وفى شمال أفريقيا فى أقصى الغرب وكونت جزءا من المركز النيوليتى المستقل المعروف باسم هسبانو — موريتانى (Hispano-Mauritianian) الذى كان مركزا مزدحما بالسكان وذا ثقافة متقدمة . (انظر الفصل الثامن عشر) .

وليس هناك ما يدل على أن الحضارات المصرية فى العصر النيوليتى قد توغلت فى شرقى السودان ، وعلى طول المسافة التى تفصل بين مصر وبلاد المغرب ، فان المناطق الأثرية النيوليتية يقل عددها كلما توغل المرء ناحية الجنوب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما يبدو من المؤكد أن جزءا كبيرا من الصحراء الكبرى لم يكن مسكونا خلال هذه الفترة الحضارية . ومع ذلك فان المناطق النيوليتية تزداد فى العدد عندما نصل الى غربى السودان اذ يوجد الكثير من الأدوات الدقيقة المصنوعة من الحجر وبلطة اليد والفخار المصنوع باليد ، ولكن يستحيل على الانسان أن يعرف نوع العلاقة التى كانت بين المركز الهسپانى — موريتانى فى الشمال وبين الحضارات الزنجية فى غربى افريقيا ، وذلك بسبب الافتقار الكامل الى أعمال الحفر والتنقيب المنتظمة فى هـذه المنطقة .

ومهما كانت ضآلة مخلفات الحضارة الافريقية فى العصر الحجرى فان مخلفات العصر الذى تلاه كانت أكثر ضآلة ، ففى الفترة الواقعة بين نهاية العصور النيوليتية وما كتبه الرحالة العرب فى العصور الوسطى لا نعرف شيئا على الاطلاق عن الشاطىء الغربى لافريقيا . فمن المؤكد أنه كانت هنـاك اتصالات من وقت لآخر مع شاطىء البحر المتوسط عن طريق دروب القوافل فى الصحراء الكبرى ، ولكن الدليل على ذلك ينحصر فى احتمال وجود بعض عناصر ومؤثرات فينيقية فى هذه المنطقة وفى وجود بعض الخرز القديم الذى

يعتز به بعض السكان الحاليين لأنه من المحتمل جدا أن يكون بعض التجار الفينيقيين قد وصلوا الى شاطىء افريقيا الغربى .

أما فى المنطقة الشرقية من القرن الافريقى فقد ظهرت الحضارة الحبشية فى بداية العصر المسيحى . تلك الحضارة التى تأثرت فيما يبدو بالحضارة الاغريقية — الرومانية التى نمت وتطورت خلال العصر البطلمى والعصور الرومانية فى بلاد النوبة ، كما استمدت أيضا الشىء الكثير من عناصر الحضارة الهندية . ويذكر كتاب دليل البحر الأحمر The Periplus of the Erythraean Sea أن بعض التجار الهنود قد استقروا فى بلاد الصومال ابان القرن الأول الميلادى . كما أن الأحباش اعتنقوا المسيحية فى القرن الثالث الميلادى وبهذا وقعوا تحت تأثير بيزنطة — وهو التأثير الذى لا يزال ظاهرا فى فنونهم وفى طقوسهم الكنسية [1] . وبالرغم من وجود الكثير من الآداب الحبشية فان الشىء القليل منها هو الذى وصل الى أيدى علماء الغرب ، ومن المشكوك فيه أن تكون ذات فائدة كبيرة فى القاء الضوء على تطور الحضارة الحبشية حتى بعد ترجمتها .

لقد زارت أرض الصومال بعثة مصرية واحدة على الأقل ، وهى البعثة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ولكننا لا نعرف على التحديد الزمن الذى استمرت فيه هذه الصلة [2] . لقد ترك لنا البطالمة الشىء الضئيل من المعلومات عن سواحل افريقيا الشرقية وهى المعلومات التى

---

(١) صلة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية وطقوسها أقوى وأهم من صلتها بكنيسة بيزنطة . (المترجم)

(٢) لم تبدأ صلة مصر ببلاد پونت (وهى تشمل الصومال واريتريا وجنوبى الجزيرة العربية) فى عام ١٥٠٠ ق.م بل قبل ذلك بأكثر من ألف سنة فى عهد الأسرة الخامسة المصرية واستمرت وقتا طويلا بعد عهد حتشبسوت .

(المترجم)

أشرنا اليها آنفا وهى دليل البحر الأحمر . ومع ذلك فان أكثر المواد التى لها قيمة تذكر فى دراسة الحضارة هى تلك القصص التى خلفها لنا الرحالة سواء منهم العرب أو البرتغاليون منذ القرن الثالث عشر ، وهى القصص التى نفهم منها أن الأحوال فى تلك الأيام كانت مثل الأحوال السائدة فى نفس المنطقة حتى عام ١٩٠٠ ميلادية على وجه التقريب .

وأخيرا ، فان مصر تقف وحدها بعيدة عن التيار العام الذى سلكته الحضارة الافريقية ، ونظرا لأن الحضارة المصرية من أقدم وأهم حضارات العالم فانها تستحق فصلا خاصا بها .

الفصل التاسع والعشرون

مصـــــر

ان التاريخ المصرى والحضارة المصرية كانتا موضع البحث العلمى على أيدى العلماء المختصين لأكثر من قرن كامل من الزمان ، ولذا لا نعجب اذا ما وجدنا أن معظم المكتبات قد اقتنت الكثير من الكتب القيمة التى تعالج هذين الموضوعين . ولهذا سنقتصر فى هذا الفصل على مناقشة تلك النواحى من الحضارة المصرية ذات الأهمية بالنسبة للتطورات الحضارية فى العالم خارج مصر .

فلقد اقترض جيران مصر الأسيويون من حضارتها ، دون تحفظ أو خجل ، الشىء الكثير ، كما اقترض الاغريق من حضارتها ما شاءوا أن يقترضوا ، ولكنهم أخذوا ما استطاعوا رؤيته دون أن يكبدوا أنفسهم مشقة فهمه . وبالرغم من أن الحضارة المصرية قد استمدت جذورها من نفس المصدر الذى استمدت منه حضارات جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى وهى الحضارات التى كانت الأصل الذى تفرعت منه حضارات أوراسيا ، فان الحضارة المصرية اتخذت فى تطورها سبيلا خاصا بها يشعر به الدارس الحديث كما شعر به من قبل الكتاب الكلاسيكيون الذين استطاعوا أن يلاحظوا المصريين فى حياتهم اليومية . وقد ذكر هيرودوت أن المصريين من أغرب المخلوقات البشرية ، وأنهم كانوا يفعلون عكس ما يفعله الناس ، وأنهم ذهبوا فى ذلك الى أنهم كانوا يدخلون المنازل لقضاء الحاجة بدلا من أن يستخدموا الشارع لهذا الغرض كما كان يفعل المتحضرون ، أى الاغريق .

أما السبب فى وجود هذا التباين فهو فى حد ذاته مشكلة طريفة ، فان الشعب المصرى ، والحضارة المصرية أثناء تطورها ، قد امتصا دون شك عناصر كثيرة كانت تتميز بها الشعوب التى كانت تقطن المنطقة قبل العصر النيوليتى . غير أن هذا كله لا يفسر الكثير من هذه المفارقات لأن بعضها كان نتيجة للظروف الجغرافية المحلية . فأرض مصر ليست الا وادى نهر النيل ، أى تلك الواحة المستطيلة التى تمتد مسافة ٦٧٥ ميلا من الشلال الأول حتى البحر ، وتمتد من الشرق والغرب حيثما وصل فيضان النيل ، وما عدا ذلك فهو صحراء جدباء قالوا عنها انها مملكة « ست » عدو الاله « أوزيريس » واهب الحياة . وخمسمائة الميل الأولى من وادى النيل ليست الا أخدودا لا يزيد اتساعه عن اثنى عشر ميلا ، أما فى المائة والخمسة والسبعين من الأميال التالية فان الوادى يصبح شبيها بمروحة منشورة تتخللها المستنقعات ويسير ببطء فيها النهر بطيئا وفى فروع متعددة . ويختلف نهر النيل عن كل الأنهار الأخرى ذات الأهمية التاريخية ، اذ يجرى من الجنوب الى الشمال كما تقع مصر العليا جنوبى مصر السفلى .

وتتبخر مياه الفيضان بسرعة . وبالرغم من أن الوثائق المصرية القديمة قد ذكرت سقوط بعض الأمطار من آن لآخر فى مناطق لا تسقط فيها الأمطار فى الوقت الحاضر فان الزراعة لا يمكن مزاولتها دون تنظيم للرى . ولقد قامت فى مصر قبل فجر التاريخ الحكومات التى استطاعت تنظيم العمل الجماعى اللازم لحفر القنوات وبناء السدود ، والتى كانت تملك الحق فى تسوية المنازعات التى لا يمكن تفاديها حول حقوق الماء .

ويبدو أن هذه الحكومات قد ظهرت أول ما ظهرت فى منطقة الدلتا حيث كانت أعمال الصرف والرى من الأمور المطلوبة ، ولكن استقلال المقاطعات عن بعضها البعض واشتراكها جميعا فى مياه نهر واحد قد أمدها بدافع قوى للوحدة فى دويلات أكبر .

هذا وتعتبر مصر الأرض المثالية بالنسبة للباحث الأثرى الذى يهتم بالعصور التاريخية . فهناك عدد لا يحصى من النقوش بل ومن المخطوطات (البرديات) التى ساعد جو مصر الجاف على حفظها هى وغيرها من المواد الهشة أن تمس بسوء . كما أن اعتقاد المصريين الراسخ فى حياة أخرى بعد الموت ، تشبه حياتهم فى هذه الدنيا ، ومحاولتهم تجهيز من يموت منهم بكل ما يلزمه لتلك الحياة ، كان سببا فى حفظ الادوات التى كان يستخدمها فى حياته اليومية حفظا تاما . بيد أن الموقف بالنسبة للباحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ ليس ، مع الأسف ، باعثا على الرضا ، وذلك لأن الرواسب السنوية من طمى النيل قد أخذت تتراكم فى الوادى بالتدريج الى أن دفنت آثار المحلات السكنية من العصر الباليوليتى والعصر النيوليتى تحت رواسب ضخمة من الطمى سمكها لا يقل عن بضعة أمتار . ان معظم معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ قد أتى الينا عن طريق المواقع الأثرية على حافة الوادى ، وعلى الأخص من الجبانات ، حيث كان الميت يدفن بعيدا عن حافة الأرض المزروعة وبعيدا عن متناول الفيضان .

وبالرغم من أن أقدم الأشياء الأثرية قد أخذت تصل الينا بالتدريج ، فهناك نقط كثيرة ما زالت موضع نقاش وجدل بين العلماء ، ولم نصل الى نتيجة نهائية بشأنها . ففى الفصل السابق ناقشنا موضوع ما قبل التاريخ فى افريقيا متحدثين عن القارة كلها بوجه عام . أما فى مصر فقد أعقبت حضارة بلطة اليد حضارة الشطفة أى الحضارة الاتيرية (Aterian) ، وهى تذكرنا بالعصر الباليوليتى الوسيط فى أوربا . وبعد هذه الحضارة أعقبتها حضارة أخرى وهى الحضارة السبيلية (Sebilian) وهى حضارة ميكروليتية تشبه تلك الحضارات التى بقيت فى ربوع الهضبة الأفريقية الى عصور قريبة نسبيا . وحوالى عام ٦٠٠٠ ق . م جلب المهاجرون الأسيويون معهم بعض النباتات والحيوانات المستأنسة والتكنولوجيا النيوليتية . أما فى الدلتا فقد

زرع سكان مرمدة القمح والشعير وكانت لديهم الماشية والأغنـام والماعز ، وكانوا يستخدمون مناجل خشبية ذات حواف ثبتوا فيها شطفات من حجر الصوان (الظران) واستخدموها فى حصاد القمح الذى كانوا يخزنونه فى صوامع مضفورة من الحصير . كانوا شعبا مستقرا ويعيش فى قرى مسورة مكونة من أكواخ بيضاوية الشكل هيكلهـا من الخشب ، وكانت أوانيهم الفخارية من نوعين : أولهما بسيط غير مزخرف يستخدم لطهى الطعـام ، وثانيهما أوان حسنة الصنع ذات لون أحمر أو أسود . وكانوا صناع أحجار مهرة ، وكان من بين مصنوعاتهم ألواح من « الاردواز » كانوا يستخدمونها لصحن ومزج الألوان التى كانت تستخدم فى تزيين جسم « الانسان » كما كان من بينها فؤوس حجرية مصقولة وسكاكين متقنة الصنع الى حد كبير ، فضلا عن سنان السهام المصنوعة من حجر الظران ، كما كانوا يصنعون أيضـا شصوصا لصيد الأسماك ومخارز من العظم ، ولم يأت عام ٤٥٠٠ ق . م على وجه التقريب حتى بدأوا فى استخدام النحاس .

أما فى مصر العليا فقد ظهرت حضارة نيوليتية أخرى ، وهى حضـارة « تاسا » التى كانت أقل تقـدما من حضارة مرمدة ، وقد ظهرت بعـدها بوقت قليل .

كان التاسيون يعيشون حيـاة نصف بدوية أو على الأقل كان أهلهـا يعيشون فى معسكرات مكشوفة فى أكواخ بسيطة جدا وواهيـة فلم تترك وراءها الا القليل من البقايا . واذا ما طرحنا هذا جانبا نجد أن طريقة صناعتهم (تكنولوجيتهم) كانت تشبه طريقة أهل مرمدة . أما أهم أوجه الخلاف فقد كانت تتمثل فى الأوانى الفخارية التى كانت سوداء اللون ومزخرفة برسوم بيضاء تشبه زهرة الخزامى فى شكلها . ومع أنه ما من شك فى أن أسلاف كل من الفريقين قد وفدوا من جنوب غربى آسيا ، فان أسلاف المرمديين قد عبروا برزخ سيناء فى حين وصل أسلاف التاسيين الى مصر العليا عن طريق البحر

الأحمر متخذين الطريق البرى ولم يتخذوا طريق نهر النيل .

واتحدت مصر السفلى تحت امرة حاكم واحد حوالى عام ٤٥٠٠ ق . م . وقهرت مصر العليا بعد ذلك بنحو مائتين وخمسين عاما ، وقد أمكن تحديد هذا التاريخ بدقة كافية على أساس التقـويم المصرى الذى كانت الدورة السوثية التى تتألف من ١٤٦٠ عاما احدى وحداته . بدأت أولى هذه الدورات فى ذلك الوقت على أساس الملاحظات الفلكية فى كل من منف وهليوبوليس على حدود مصر العليا ، ولم يعش الغزو الشمالى وقتا طويلا لأن كلا من القسمين عاد الى استقلاله حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م ، ومنذ ذلك التاريخ حتى بداية عصر الأسرات حوالى عـام ٣٢٠٠ ق . م لا تعرف الا القليل عن حضـارة مصر السفلى [١] . ومع ذلك فقد ازدهرت فى مصر العليا حضارة غنية وهى حضارة البدارى التى نعرف عنها أكثر مما نعرفه عن أى حضارة أخرى من عصر ما قبل الأسرات لأنها كانت قوية وملأى بالحيوية ، ويبدو أن صلاتها المتكررة بآسيا كانت سببا فى الدفع بها نحو التقدم . وكانت حضارة جرزة ، وهى احدى صورها ، معاصرة على ما يظهر لغزو آسيوى أدخل الى البلاد ، التى كان سكانها من ذوى الرؤوس المستطيلة ، عنصرا من ذوى الرؤوس المستديرة . ومما هو جدير بالذكر أن الغزاة قد وفدوا عن طريق البحر الأحمر متخذين الطريق البرى دون النيـل .

كانت فترة سبعمائة العام التى انفصلت فيها الدلتا عن الصعيد صاحبة الفضل فى ارساء قواعد الحضارة المصرية التى عرفناها فيما بعد . وكان السكان لا يزالون يعيشون فى أكواخ بيضاوية الشكل مثل تلك التى كان يعيش فيها

---

(١) وهنـاك رأى آخر بأن مدة انفصال الصعيد عن الدلتا لم تكن الا فترة قليلة ، وربما حدث الاتحاد الثانى فى أعقاب الثـورة التى قام بها الصعيد فحرر نفسه ثم ضم الدلتا اليه وأصبح الملك « منا » الذى كان ملكا على الصعيد ملكا على شطرى الوادى وأسس الأسرة الأولى .

(المترجم)

سكان مرمدة اذ لم يكونوا قد اكتشفوا بعد كيفية البناء بمواد تبقى على الزمن ، وان كانوا قد تعلموا كيف ينسجون الكتان وكيف يصهرون ويصبون النحاس وكيف يصنعون « الفيانس » ذا اللون الأزرق الضارب الى الخضرة وعمل المينا الخزفية من البلور الصخرى المسحوق . لقد كانت هذه الصناعات التى سبقت ومهدت السبيل لصناعة الزجاج أحد المخترعات المصرية التى ظهرت فيما بعد . وكانوا يصنعون أيضا أوانى فخارية حمراء ذات حواف سوداء ويرجع وجود هذين اللونين فى الاناء الواحد الى اختلاف طريقة الحرق . وكانت صناعة الأدوات المصنوعة من العظم والعاج متقدمة جـدا وكثيرا ما احتوت المقابر على تماثيل صغيرة لنساء عاريات مصنوعة من تلك المواد . وأصبحت ألواح الاردواز أكثر فخامة وحسن صناعة وظهرت فى زخارفها البداية الحقيقية للتقاليد المصرية التى عرفناها بعد ذلك .

وكان الموتى يحملون الى منطقة بعيدة عن متناول مياه الفيضان ، ويدفنون فى حفر بيضاوية الشكل مجهزة بأثاث جنازى متقن الصنع . كانت الجثة توضع على أحد جانبيها مع ثنى الركبتين وتغطى بالحصير ، وكان لدفء الرمال ، التى كانت سرعان ما تحيط بالجثة ، وجفافها التام ، الفضل فى حفظ تلك الجثث اذ حنطتها تحنيطا ناجحا أكثر من أى طريقة أخرى معقدة ظهرت فيما بعد ، وما من شك فى أن هذه العملية كانت العامل الرئيسى الذى أوحى الى المصريين بأفكارهم الخاصة بحفظ الجسد .

هذا ولم يحل عام ٣٢٠٠ ق . م حتى كان لكل من شطرى مصر ملكه وبلاطه ورموزه الملكية وآلهته الوطنية . كان لمصر العليا التاج الأبيض ، وكانت تحرسه الالهة نخبت التى كانت على صورة الرخمة (النسر المصرى) ، كما كان نبات الـ « سوت » (الحلفة) هو الرمز الخاص بها . أما مصر السفلى فقد كان التاج الأحمر خاصا بها وكانت الالهة « واچيت » الهة « بوتو » ، وهى على صورة ثعبان الكوبرا ، حامية لها ، أما شعارها فكان النحلة . وظلت الاختلافات بين

الشمال والجنوب باقية على مدى عصور التاريخ المصرى وأخذت هـذه الاختلافات تكثر حتى لم تعد مقصورة على التنظيمات السياسية وحدها . ويشبه ذلك فى بعض الوجوه ما يوجدمن بين الاسكتدلانديين والانجليز . كان سكان مصر العليا كثيرى الاحتمال للمشاق يميلون الى التنازع ولا يقبلون على الترف بنفس راضية وأشداء فى تمسكهم بالحق . وكانوا من وجهة النظر المصرية قوما محبين للحياة المتطهرة . أما سكان الدلتا فقد كانوا مرحين مهرة يميلون الى اللهو وينزعون الى التجديد ، وكانوا أكثر ميلا الى معارك الفكر منهم الى معارك السلاح ، ولهذا كانوا ينظرون الى سكان الصعيد على أنهم همج غير متمدنين ويسخرون من لهجتهم الخشنة وأساليبهم غير المنمقة .

وحتى فى الوقت الذى اتحدت فيه المملكتان تحت امرة « منا » ذلك البطل الغازى الذى نشأ فى الجنوب ، فقد وجد من الحكمة السياسية ألا يحاول توحيد الحكومتين توحيدا تاما ، بل كان يحكم كملك لمصر السفلى ثم كملك لمصر العليا ، تماما كما كانت الحال فى أوروبا عنـدما كان الشخص نفسه امبراطورا للنمسا وفى الوقت ذاته ملكا للمجر . كان لفرعون قصر وهيئة موظفين فى كل من مصر السفلى ومصر العليا [1] ، وكان فى بعض الأحيان يحكم كملك على الجنوب وأحيانا أخرى يحكم كملك على الشمال . وكان يدل على صفته فى كل من تلك المناسبتين التاج الذى يضعه على رأسه ، اذ كان يضع التاج الأبيض تارة والتاج الأحمر تارة أخرى .

وتميزت الفترة التى أعقبت توحيد شطرى مصر مباشرة بالتقدم الحضارى السريع ، اذ أن مصر كانت ما بين عام ٣٢٠٠ وعام ٢٥٦٠ ق . م مركزا لاحدى القفزات الحضارية التى ما زالت معرفة أسبابها من المشاكل الرئيسية التى

---

(١) لا يوجد فى النصوص ما يؤكد وجود قصرين وهيئتى موظفين ، بل كانت هناك ألقاب للموظفين تدل على أعمالهم الموكولة اليهم .

(المترجم)

تواجه الباحثين فى تطور الحضارات . لقد بلغت التكنولوجيا المصرية خلال الخمسمائة عام الأولى من هذا العصر شكلها النهائى فى كل الميادين ما عدا العمارة . كان الصناع المتخصصون الذين كانوا يتمتعون بمساعدة الطبقة الحاكمة ينتجون الأوانى الجميلة الشكل المصنوعة من أكثر الأحجار صلابة فضلا عن العدد الكبير من الأوانى النحاسية الجميلة الصنع والحلى المصنوعة من الذهب أو من حجر اللازورد أو حجر الفيروز . وأهم من هذا فقد ظهر المحراث فى أول عصر الأسرات . ونحن لا نعرف ما اذا كان المحراث اختراعا محليا أو انهم استعاروه من آسيا . لقد خفف استخدام المحراث كثيرا من مشاق الزراعة وأطلق القوى البشرية التى كانت تستنفد فى الحقول حتى ذلك الوقت من عقالها ، ودفع بها الى ميدان المشروعات الوطنية الأخرى .

وأخذت الكتابة الهيروغليفية صورها النهائية (انظر الفصل التاسع) وأصبحت جزءا متمما للشعائر الدينية والأعمال الحكومية ولم تعترها تغييرات تذكر بعد ذلك الوقت . ويبدو أنه قد حدثت فى الوقت نفسه ثورة عارمة فى كل ميادين النشاط الفكرى اذ أن أولى الأبحاث ذات الصبغة العلمية التى تتناول تشخيص ومعالجة الأمراض والكسور ترجع فى تاريخها الى ذلك الوقت . ونظموا أمور الدين وتبلورت الطقوس الكثيرة الخاصة بالمعابد والقصر . وأخيرا تمكنت الطبقة الحاكمة من الوصول الى نظام من أكثر النظم السياسية التى ظهرت فى العالم حتى يومنا هذا تركيزا وتنسيقا . وفى ختام هذا العصر تقريبا شيدت أهرام الجيزة العظيمة ، ويمكن للمرء أن يدرك عظمة هذه المبانى لو أنه عرف أنه أقدم وأضخم وأعظم ما شيدته يد الانسان ، قد شيد بعد أقل من مائتى عام من المحاولة الأولى التى بذلها المصريون لاستخدام الحجر فى أى نوع من أنواع البناء . لقد استخدمت أبسط الأدوات فى بناء الأهرام ، وهى الطرق المنحدرة والدرافيل (الاسطوانات) والعتلات (الروافع) . أما البكرة فلم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، ولهذا فان الأهرام تعتبر انتصارا للمثابرة

وللقوة البشرية دون غيرها . كما أن عملية تنظيم وتموين هذه القوة الهائلة المستخدمة فى البناء عاما بعد عام كان عملا اداريا من الطراز الأول . لقد قيل ان عامة الشعب من المصريين كانوا متحمسين لهذا النوع من العمل لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يبنون بيت الاله الذى يعتمد عليه مستقبل رخاء الأمة .

ولكن بالرغم من ذلك لم يكن لهم الا حظ ضئيل من الاختيار لأن الفلاحين المصريين فى ذلك الوقت كانوا رقيقا للأرض ، أى تابعين للأرض التى يعملون فيها ومنظمين فى وحدات مثل الوحدات العسكرية تحت امرة ملاحظين كانت مراكزهم تشبه مراكز صف الضباط . فلهذا كانوا معرضين للذهاب للعمل فى الأشغال العامة وأعمال المحاجر والحملات العسكرية ، ويظهر أنهم كانوا ينظرون الى كل واحدة من هذه الحرف الثلاث أنها على قدم المساواة مع أختها . وسيطرت على آخر أسرتين فى عصر الدولة القديمة (الأسرتين الخامسة والسادسة) رغبة ملحة لغزو بلاد النوبة فشنتا حملات مستمرة على سكان تلك البلاد . وكان هذا العمل بالاضافة الى العمل غير المثمر الذى يتمثل فى تشييد الأهرام والمعابد قد استنفد صبر المزارعين كما استنفد موارد بلادهم وأدى فى النهاية الى انهيار الدولة القديمة حوالى عام ٢٢٨٠ ق . م وما تلا ذلك من انهيار سياسى وفوضى . وعندما ظهرت الى الوجود حكومة مركزية قوية فى عام ٢٠٥٢ ق . م كان العامة قد نالوا حريتهم ولم يظلوا عبيدا للأراضى . وبالرغم من أنهم كانوا لا يزالون تحت رحمة جامعى الضرائب الملكية وأنهم فى أغلب الحالات كانوا مستأجرين لأراضى المعبد أو أراضى الملك ، فانهم كانوا يتمتعون بقدر كبير من الحرية التى ظلوا محتفظين بها فيما بعد . وأهم من أى شىء آخر ، كان فى استطاعة الأفراد العاديين أن يرتفعوا فى هذه الحياة . وكم من موظف كبير افتخر فى النقوش التى خلفها من بعده بأنه كان رجلا عصاميا ابن رجل من الطبقة المتوسطة أو من أبناء الفلاحين . وكان على الموظف الطموح ألا يقتصر على أداء واجبه أداء كاملا فحسب ، بل عليه أن يتحبب

وأن يتودد الى رؤسائه ، وذلك لأن كل الثروة والجاه كانت تتسلسل الى أسفل ، منحدرة من أبهة فرعون .

وأهم ما أسهمت به مصر فى ميدان التقدم الحضارى فى العلم كان فى ميدانى التكنولوجيا والدين . وكانت نظمها الحكومية ذات طابع جامد تتخلله الى حد بعيد النظم اللاهوتية ، فجعلت من هذه النظم شيئا غير مقبول خارج وادى النيل . ولم يكن متوقعا من الفلاحين الذين اعتادوا الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات الخارجية أن يلتزموا دائما جانب الأدب مع كل فرد من هذا العدد الهائل من الكهنة والموظفين . كما أن الأمن النسبى الذى تتمتع به مصر والذى ساعدها على الصحراوات التى تكتنفها ، كان من الأسباب التى جعلت فى الامكان وجود نوع من الحكم المطلق لم يكن فى الامكان فرضه فى مكان آخـــر .

وكان المصريون بحق أمهر الصناع فىالعالم الذى سبق العصور الكلاسيكية ولم يحل عام ١٥٠٠ ق . م حتى كانوا يعرفون طريقة مزج النحاس بالقصدير لينتجوا البرونز . كما كان لاستخدام المنفاخ فى ذلك الوقت أثره العظيم فى تسهيل عملية الصهر ، وكانوا يعرفون أكثر المعادن العادية التى نعرفها الآن . كان الحديد نادرا قبل عام ١٠٠٠ ق . م وحتى فى ذلك الوقت لم يحصل عليه المصريون بصفة رئيسية الا عن طريق التجارة . والكلمة المصرية القديمة للحديد هى « معدن السماء » الأمر الذى يثبت انهم بدأوا باستخدام حديد الشهب . أما الذهب فقد كان متوافرا فى مصر أكثر من أى بلد قديم آخر اذ كان يستخرج من عروق الكوارتز التى تحتوى الذهب ، وهذه العروق تتخلل أحجار الجرافيت المحلية ، فضلا عن أن هذا المعدن كان يرسل كجزية من بلاد النوبة أيضا . وكان المصريون يقدرون كثيرا معدن الالكتروم وهو مزيج طبيعى من الذهب والفضة ، بينما كانت الفضة فى حد ذاتها نادرة جدا ، وكانت قيمتها تفوق كثيرا قيمة الذهب . وان ما قام بعمله صناع الحلى الذهبية

من المصريين فى ذلك الوقت لا يمكن أن يصنع خيرا منه أى صائغ فى العصر الحاضر . لقد كانوا على علم تام بفنون صياغة الذهب كلها فيما خلا التذهيب بوساطة استخدام التيار الكهربى . وتفوقوا فى صناعة المينا كما عرفوا طريقة صنع الزجاج الملون ذى الألوان المختلفة ، وأكثر ما استخدموه فيه هو عمل الخرز والتطعيم . هذا ، ويبدو أن طريقة نفخ الزجاج قد تقدمت وتطورت خارج مصر ، ربما فى سورية [١] .

وكان الخشب نادرا فى وادى النيل منذ أقدم العصور ، وكان يستورد من سورية ولبنان حتى فى أيام الدولة القديمة ، وقد أدت ندرة وجود الخشب والحاجة الى استخدام أصغر القطع الى تطور مدهش فى صناعة النجارة الدقيقة وعمل الأثاث . ان جميع التعشيقات المختلفة التى يستخدمها النجارون الآن كانت معروفة لديهم ، وكان المصريون مهرة خبراء فى عمليات تطعيم الخشب بالصدف أو العاج أو وضع قشرة من الخشب فوق خشب آخر ، فضلا عن أنهم كانوا أول من أدرك الامكانيات الجمالية لخشب الأبنوس ،واستخدام هذا الخشب الصلب السهل الكسر . كما أنهم تقدموا الى درجة كبيرة فى التطعيم بالعاج والصدف ، وكانوا أول من دبغ الجلود واخترعوا الطريقة التى ما زالت مستخدمة فى معظم أرجاء العالم حتى الآن . وكانوا أول من عمل رسوما على الجلد ولا تزال مدية السروجى الحديث تصنع على غرار المدى المصرية القديمة أما من ناحية المنسوجات فقد نسجوا الملابس الكتانية بفن ومهارة لا تقل فى روعتها عن تلك التى تنتجها المغازل الحديثة . كما عرفوا الصوف وان كانوا لم يستخدموه الا نادرا ، وان حظر دخول الملابس الصوفية الى المعابد يثبت عدم مصرية أصله . أما المنسوجات القطنية والحريرية فلم تكن معروفة لديهم [٢] .

---

(١) عرفت مصر صناعة الزجاج وعمل الأوانى منه بطريقة النفخ منذ الأسرة الثانية عشرة أى حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . (المترجم)

(٢) لم يعرف المصريون القطن منذ بدء حضارتهم ولكن من المحتمل أنه كان معروفا لديهم منذ القرن السادس قبل الميلاد . (المترجم)

غير أن هناك عنصرا آخر من التكنولوجيا المصرية يستحق الذكر . كان المصريون ينزعون الى استخدام الوسائل الصناعية للتجميل كما يفعل الأمريكيون الآن . وكان الأطباء يعتبرون مد الناس بمثل هذه المساعدات جزءا متمما لنشاطهم . وتحتوى البرديات الطبية على وصفات لازالة التجعيدات وصبغ الشعر الأبيض ، وكان الكحل يستخدم فى اطالة الحواجب وفى رسم خطوط على الجوانب الخارجية من العين . وكان الكحل المستخدم للعين من نوعين : نوع أخضر وهو مصنوع من الدهنج (الملخيت) ونوع رمادى وهو مصنوع من أوكسيد الرصاص . أما المغرة الحمراء فكانت تستخدم فى طلاء الشفاه والخدود ولكن دون مغالاة . أما الأظافر ، وراحتا اليدين وباطن القدم ، فقد كانت تصبغ بالحناء . وكان الرجال والنساء يرتدون الشعر المستعار المصنوع من الشعر البشرى الذى كانوا يصبون فوقه شمع النحل المذاب ، وكان أفراد الطبقات العليا يحتفظون بعدد من الجامات (الشعر المستعار) للمناسبات المختلفة . أما النساء فكن يضعن الشعر المستعار فوق شعرهن الطبيعى بعكس الرجال الذين كانوا يحلقون كلا من شعر الرأس والذقن . وكان الجنسان يشتركان فى ازالة شعر الجسد ، أما اللاتى كن يرغبن فى بلوغ أقصى درجات الأناقة فكن يطلين نهودهن بلون الذهب ويطلين حلمة الثدى باللون الأزرق .

كان المصريون على ما يبدو أول من فكر فى عمل الروائح العطرية الزيتية ، وهى ما زالت مستخدمة فى الشرق الأوسط ، وكان كل من النساء والرجال يحرص على نعومة جلده وذلك بتدليكه بالزيت . أما فى الحفلات فقد كان من عادة المضيف أن يضع فوق رأس كل ضيف من ضيوفه مخروطا من الشحم المعطر الذى كان يذوب بالتدريج بفعل الحرارة المنبعثة من صالة المأدبة ، ويسيل على وجه الضيف وعلى جسده . وكان الرجال والنساء يتحلون بأدوات الزينة وأهمها عقود كبيرة من الخرز ذات ألوان مختلفة فضلا عن الأقراط الضخمة .

وقد بذل الصناع المصريون الكثير من الجهد فى صنع أدوات الترف اذ ان الاقبال الشديد عليها ، والمنبعث من عادة دفنها مع الموتى ، كان له نتيجة غريبة . كانت مقابر الفراعنة والنبلاء تزخر بكنوز الذهب والأحجار الكريمة ، وبالرغم من أن لصوص المقابر قد أعادوا جزءا منها للتداول الا أن العرض لم يكن يفى أبدا بالطلب . ولما كان غش الموتى شيئا سهلا فقد أخذ الصناع فى تقليد الأدوات الذهبية ، وذلك اما عن طريق طلاء المعدن بالذهب ، أو عن طريق معالجة سطحه مما جعل أحط أنواع المعادن تبدو كما لو كانت ذهبا وكان للجهود التى بذلت فى تقليد المواد ذات القيمة وعمل بديل لها ، فضل كبير فى ظهورهم علم السيمياء وهو الأصل فى علم الكيمياء الحديث . وأقدم النصوص السيميائية يرجع تاريخها الى عهد البطالمة ، ولكنها تشتمل ، على الأرجح ، على نصوص ترجع فى تاريخها الى عهود أقدم وهى وصفات لعمل سبائك معدنية أو لجعل سطح بعض المواد يبدو كما لو كان من الذهب . ومما يستحق الذكر أن نفس النصوص الآنفة الذكر قد اشتملت على وصفات لعمل أصباغ تشبه صبغة مدينة صور الأرجوانية الغالية الثمن . وبذلك ظهر علم السيمياء للبحث عن بديلات رخيصة لمواد غالية الثمن ثم دخله الكثير من التعقيدات وتحول الى بحث غامض عن حجر الفلاسفة بعد أن تلقفه فلاسفة الأفلاطونية الجديدة من أيدى الصناع .

أما بالنسبة للرجل الغربى الحديث الذى نما وترعرع فى أحضان المنطق الاغريقى التقليدى ، وفى ظل الفلسفة القائلة بالسبب والنتيجة ، فان الديانة المصرية تبدو غير مفهومة . وتبعا لميله الشخصى فانه سيفسر محتوياتها كعبث صبيانى أو كلمحات من علم مستتر لا يمكن أن يعرفه الا أولئك الذين سبق أن كشفت لهم غوامضه . والحقيقة أنه ليس لأى من الغرضين نصيب من الصحة لقد لخص مرة أحد الحكماء المشتغلين بالطب من رجال الاسكيمو علاقة قومه بقوى ما فوق الطبيعة قائلا « اننا لا نعتقد ، بل اننا نخشى » وقد يلخص

المصرى مثل هذه العلاقة بقوله « اننا لا نعتقد ولكنا نمسكها بأيدينا » فنحن نعرف أسماء ما يزيد على ألفى اله من آلهة المصريين ، الا أننا لا نعرف واحدا من بينها نظر اليه عباده بعاطفة حقيقية ، أو شعروا أمامه بأنهم لا حول لهم ولا قوة . فكل اله منها يمكن مراوغته والسيطرة عليه اذا تمكن الانسان من معرفة الكلمات التى من شأنها أن تمده بالقوة اللازمة . ولا يمكننا تصنيف الآلهة المصرية واطلاق لفظى صالح أو شرير على أى منها . حتى الاله ست ، قاتل أخيه أوزيريس وسيد الصحراء ، لم يكن بأية حال مشابها للشيطان لدى المسيحيين . كان هذا الاله السيد القديم لبعض الأقاليم فى كل من مصر العليا والسفلى ومن ثم كانت عبادة سكان هذه الأقاليم له أمرا مؤكدا ، كما كان هذا الاله نفسه يحتل مركزا مرموقا بين المحاربين الذين يدافعون عن الاله رع اله الشمس ، بل كان هو نفسه يعبد على أساس أنه اله للحرب . كانوا يتضرعون للاله طلبا للمساعدة فى أغراض أخلاقية أو غير أخلاقية ، وكانت الطقوس الدينية التى تمارس فى المعابد تعاويذ وصلوات كما كانت مظاهر للعبادة . وكان المصرى القديم يميل الى معرفة الطرق والأساليب التى يمكن بوساطتها السيطرة على آلهته ، ويستخدم قوتها لمصلحته الخاصة أو لمصلحة الجماعة . ولم يكن يميل أبدا الى البحث فى المشاكل الخاصة بأصل الآلهة أو حقيقة طبيعتها ، ولهذا السبب لم يستطع أبدا أن يصل الى نظام لاهوتى متماسك بل ان الأساطير المصرية فى مجموعها أساطير غير منطقية ومتناقضة . ويبدو أن المصريين يفضلون عدة أساطير تشرح جميعها ظاهرة واحدة أكثر من أسطورة واحدة محددة .

وبينما يعكس هذا النقص فى التوافق المنطقى اتجاههم فى التفكير ، فان العوامل التاريخية ساعدت على ذلك أيضا . كانت مصر مكونة من ٤٢ اقليما كانت فى الأصل مجمـوعات مستقلة سياسيا وكانت دائما تحتفظ ببعض الاختلافات الحضارية الضئيلة . وكان لكل اقليم فى البداية مجموعة آلهته

الخاصة به . وكان سكان هذا الاقليم ينظرون الى اله منها ، أو أكثر من اله واحد ، على أنه حارس الاقليم الخاص ، وكانوا يرفعون اليه الجانب الأكبر من عبادتهم ، وحتى بعد تدعيم مصر سياسيا احتفظت آلهة الأقاليم بولاء أبناء أقاليمهم . وكانت المجموعات الالهية المختلفة منظمة على نسق واحد تقريبا اذ كان كل منها يحتوى عددا من الآلهة يقومون بأعمال متشابهة ، وهو الأمر الذى سهل ادماج الآلهة ، أى امتزاج عدة آلهة فى شخصية اله واحد . وعلى أى حال فقد كان المصريون غير راغبين فى التنازل عن أى قصة من تلك القصص التى ارتبطت بالآلهة المحلية المختلفة ، وكنتيجة لهذا ، أصبح فى الامكان سرد العشرات من الأقاصيص المختلفة والمتناقضة ، والتى تدور كلها حول كائن واحد ، كما استمرت أيضا الطقوس الدينية الخاصة بالآلهة المحلية الأمر الذى أدى الى سلسلة لا تنتهى من المتضاربات والمتناقضات .

كانت أهمية الآلهة ترتفع وتنخفض تبعا لارتفاع وانخفاض أهمية مدنهم أو أقاليمهم . ومع ذلك ، فقد كانت هناك بعض المراكز التى احتفظت آلهتها بنفوذها فى كل عصور التاريخ المصرى . فمثلا كان الاله رع ، أو آتوم ، أو رع — أتوم ، — اله هليوپوليس — هو أقدم الآلهة الرئيسية . كان رع آتوم الها للشمس وخالقا للعالم ، وكان يمثل دائما فى صورة انسان ، وكان يرأس فى عقيدة هليوپوليس مجموعة تتكون من ثمان آلهة تشتمل على أوزيريس وايزيس أما ابنهم حورس فقد كان على رأس مجموعة تتكون من تسعة آلهة وان كان فى نظر المصريين أنه هو رع — آتوم تحت اسم « حور — اختى » ، وكان يلقب بابن رع . ولكن حورس كان فى الواقع يمثل الشمس عند الشروق كما يمثل رع الشمس فى منتصف النهار ، أما أتوم فقد كان يمثل الشمس الغاربة وكان يمثل كرجل متعب متقدم فى السن .

أما فى مدينة هوموپوليس (الأشمونين) فقد كان الاله الرئيسى فيها هو الاله تحوت الذى كان يمثل فى صورة بجسم انسان ورأس طائر الايبس ،

وكان يتحكم فى فصول السنة وفى القمر والنجوم وهو الذى اخترع الكتابة « الهيروغلوفية » ، والحساب ومسك الدفاتر واللغات والسحر والقانون بل وحتى لعبة الضاما ، وكان أيضا رئيسا للوزراء وكاتبا للآلهة ، وكان مثل رع — أتوم خالقا للعالم ، وان كان قد خلقه بطريقة مختلفة ، وكان هو ومن معه من الآلهة مركزا لعقيدة هوموپوليس .

وفى العصور المبكرة وجدت كل من هاتين العقيدتين نفسها وقد دخلت فى منافسة مع عقيدة ثالثة وهى عقيدة « منف » التى كانت تتخذ الاله پتاح اله المدينة الها رئيسيا لها . وتبعا لهذه العقيدة يعتبر الاله پتاح أكثر قدما من الاله أتوم نفسه ، وانه خلق رع — أتوم عن طريق النشاط العقلى المتعمق . وانحدر الآلهة والناس من ذكائه . وكان الاله الصقر ، وهو الاله حورس يمثل قلبه ، أما لسانه فقد كان يمثله اله الحكمة تحوت . وكان پتاح هو الاله الحامى للفنانين والصناع ورجال الأدب ، بيد أن العقيدة التى اشتملت على طقوس عبادته كانت من التجريد بحيث لم تحظ بالتأييد العام من المصريين الذين كانوا يمتازون بتفكير مادى واقعى . وأخيرا انتصرت عقيدة هليوپوليس فى ذلك النزاع الذى دار بين العقائد الثلاث وذلك لسهولة تطبيقها على العقيدة القائلة بتأليه الملوك ، والتى تساوى بين الفراعنة الموتى وبين أوزيريس ، وتساوى بين الأحياء منهم وبين حورس . أما آخر الآلهة الوطنية العظيمة فقد كان أمون — رع اله طيبة .

كان الاله أمون رع فى الأصل الها غير هام لاقليم الصولجان (اقليم طيبة) ولم يكن الاله الحامى لهذا الاقليم ولكنه وصل الى القوة فى عهد فراعنة طيبة . فعندما تم لأولئك الفراعنة السيطرة على كل أرجاء مصر ازداد نفوذه عن طريق فراعنة طيبة بعد ذلك فى كل أنحاء البلاد ، وقويت عقيدته باطراد حتى أضحى كبار كهنته هم الحكام الحقيقيين للدولة ، الأمر الذى حدا باخناتون الملك المارق أن يشن حربا شعواء ضد كهنته هادفا الى الاصلاح الدينى ولكنه خسر المعركة .

وتختلف عقيدة أوزيريس من نواح كثيرة عن غيرها من العقائد العظيمة الأخرى . وتنقسم أسطورة أوزيريس الى جزئين لا تجمع بينهما الا المصادفة ، ففى الجزء الأول نجد أنه قد حكم مصر بالاشتراك مع أخته وزوجته ايزيس وكان أخوه ست يهيم بايزيس حبا ، وقد تمكن من قتل أوزيريس بخدعة ووضع جثته فى صندوق ورماه فى الماء فعام حتى وصل الى شاطىء بيبلوس (جبيل) فى سورية وتبعته ايزيس الى هناك وعادت الى مصر حيث تولى الاله أنوبيس تحنيط الجثة تحت اشرافها . ونزلت روح أوزيريس بعد ذلك الى العالم السفلى حيث أصبح حاكما على الموتى . وأخذت ايزيس الجثة المحنطة الى مكان سرى فى مستنقعات الدلتا حيث حاولت أن تحمل منه (وهى احدى المتناقضات التى قد يفسرها الاعتقاد فى الروح « الكا » بيد أن المصريين أنفسهم ، فيما يبدو ، لم يشغلوا أنفســهم بها كثيرا) ثم ولدت فى الوقت المناسب الاله حورس . واستطاع ست الذى كان يبحث هو الآخر عن جثة أخيه أن يستكشف مكانها فى غياب ايزيس وأن يأخذها معه ويقطع أوصالها ، ويبعثر أشلاءها فى جميع أنحاء مصر . غير أن ايزيس جدت فى البحث عنها حتى استطاعت تجميعها . ولما شب حورس ودخل فى طور الرجولة هب للانتقام لأبيه من قاتله ست ونشبت بينهما معركة ولكنها لم تكن حاسمة انتهت بتحــكيم اله الأرض « جب » الذى حكم بتنصيب حورس حاكما على الدلتا وست حاكما على الصعيد ، ولكنه عاد فوضع المملكتين تحت سيطرة حورس .

ففى النصف الأول من الأسطورة يظهر لنا أوزيريس كاله للخصب ، له تلك السمات التى تميز آلهة الشرق الأدنى ؛ اذ أن حوادثها تشبه تلك التى كانت تروى عن الاله أدونيس الذى كان الها فى بيبلوس ، وتموز الذى كان الها فى بلاد ما بين النهرين . لقد قتل أوزيريس مثلهما ومزقت جثته ودفنت ثم بعثت للحياة مرة ثانية ، وهى دورة كانت تمثل سنويا فى حصاد القمح ودرسه ثم زراعة المحصول الجديد ونموه .

أما الجزء الثانى من الأسطورة فهو تمثيل للتاريخ المصرى الذى يضفى الألوهية على حكم فرعون. كانت ايزيس مثالا للملكة الأخت والزوجة الوفية، فى حين قام حورس بدور الابن الكامل الذى يدافع عن أبيه وينتقم لموته من قاتليه. كما أن التقسيم الأصلى لمصر بين حورس وست ما هو الا ذكرى شعبية للتقسيم الحقيقى لمصر فى عصر ما قبل التاريخ، كما أن التسوية النهائية للتقسيم واعطاء مصر كلها لحورس ما هى الا ذكرى الوحدة المصرية الأولى، التى تمت فى عصور مبكرة تحت لواء الدلتا. وأصبح أوزيريس " الفرعون الكريم والحاكم على أرض الموتى، والاله الذى يرضى بأن يشاركه رعاياه فى خلوده، أصبح هذا الاله أكثر الآلهة المصرية فى شعبيته. وكان آلهة العقائد الأخرى لا يعبدهم غير الطبقات العليا، أما ثالوث أوزيريس وهو (أوزيريس — ايزيس — حورس) فكان معبودا من جميع طبقات الأمة ابتداء من فرعون حتى الفلاحين. وكانوا يمثلون قصة حياته ومماته وبعثه عند مدفنه بأبيدوس على هيئة تمثيلية عاطفية كانت تستمر عدة أيام. وكان الملك يسند الأدوار الهامة فى التمثيلية الى كبار موظفى الدولة، وكانوا يعتبرون دور حورس، الابن المثالى، شرفا خاصا لمن يسند اليه، وكان السكان المحليون وآلاف الحجاج الذين كانوا يجيئون الى الاحتفال يشتركون فى التمثيليات كممثلين خارجيين. وكان الاحتفال ينتهى بملحمة تصور معركة تقوم بين قوات تمثل كلا من جيوش حورس وجيوش ست قاتل أوزيريس لا تنتهى بقتل أحد، ولكن تنتهى باصابات كثيرة بين المشتركين فى تمثيلها، وقد أصيبت وجوههم بالكدمات ورؤوسهم بالجروح.

وأخيرا تتحدث عن اله آخر من الآلهة المصرية وان لم يكن أقلهم شأنا، وهو فرعون نفسه فعندما يتوج فرعون يصبح الاله حورس، وعند موته يتحول الى أوزيريس، وكان يعزز قواه الروحية التى كانت تعتمد عليها البلاد فى رخائها طهارة الدم الملكى. ولهذا السبب كان فرعون يتزوج فى طفولته من

أكثر شقيقاته أو أخواته ملاءمة له . بيد أنه كان يسمح لفرعون عندما يكتمل نموه ، أن يتخذ له من الزوجات والمحظيات ما يشاء وان كان من المستحب بالنسبة لولى العهد أن يكون حائزا لأكبر نسبة من الدم الملكى وهو الأمر الذى حدا ببعض الفراعنة أن يتخذوا فى بعض الأحيان من بناتهم زوجات لهم حتى يضمنوا ذلك .

وكان قصر فرعون يشيد على هيئة معبد [١] ، وكانوا ينظرون اليه على أنه كذلك لأن فرعون كان فى الوقت نفسه كاهنا أكبر وتجسيدا للاله . وكانت الطقوس الدينية التى يقوم بها فرعون كل يوم تبعث القوة فى الطقوس والشعائر الأخرى التى كان الكهنة يقومون بها فى كل مكان فى مصر . كانت أفعاله وملابسه التى يرتديها ، بصفته الاله حورس تسير طول اليوم حسب قواعد تم وضعها منذ وقت طويل . وكان لفرعون مقران : أحدهما فى الصعيد والآخر فى الدلتا ، وكان عليه أن يقسم وقته بينهما بالتساوى حتى يحظى كل قسم من قسمى مصر بالفوائد التى كانت فوق الطبيعة التى ترتبط بوجوده [٢] . وحتى بعد موته كان نفوذ الملك يظل مستمرا اذ يصبح حاميا وطنيا وتصبح مدينة الهرم الخاصة به أو معبده الجنازى غاصا بالكهنة الذين يظلون فى خدمته عدة أجيال يتوارثون وظائفهم .

وكان هناك المئات من الآلهة الأخرى التى لا نعرف عنها سوى أسمائها والأشكال التى كانت ترسم بها ؛ اذ كان المصريون يميلون الى تمثيل آلهتهم بأن يكون جزء من جسم الاله على هيئة حيوان والجزء الآخر على هيئة

---

(١) ربما كان ذلك صحيحا الى حد ما فى العصور المتأخرة نظرا لبناء پيلون عند مدخله ، ولكن القصور والمنازل بصفة عامة كانت لها عمارة مدنية تختلف عن العمارة الدينية .

(المترجم)

(٢) لم يظهر مقر الدلتا الا منذ الأسرة التاسعة عشرة فى مدينة « پر رعمس » فى شرق الدلتا .

(المترجم)

انسان ، وقد عبدوا الحيوانات فى العصور المتأخرة اعتقادا منهم بأن الآلهة حلت فيها . وكانت بعض الأقاليم تتخذ حيوانات معينة كرموز لها ، وكانت تحرم على سكانها قتلها أو استخدامها ، الأمر الذى يدعو الى الاعتقاد بأن النظام كله لا يعدو أن يكون طوطميا . وهناك وجهان غريبان لهذه الآلهة الحيوانية وهذه الرموز ، اذ انه بالرغم من أن الحضارة المصرية فى عصر ما قبل الأسرات كانت أسيوية فى أصولها ، الا أن الحيوانات المتوحشة التى رسموها كانت كلها افريقية ، ولكن فى الوقت نفسه فان اثنين من أبرز الحيوانات الافريقية وهما الفيل والكركدن لم يرد رسم لهما بين رسوم الآلهة .

كانت الشعيرة الهامة المعروفة باسم شعيرة بيت الصباح أهم الطقوس الدينية المتصلة بعبادة الآلهة جميعا . كان فرعون أو كبير الكهنة فى أى معبد يستحم أولا بماء يجلبونه من بحيرة مقدسة ، وهى جزء طقسى فى كل معبد وفى كل قصر . وبعد أن يتم اغتساله يدهنونه بالطيب ويزوده كاهنان يرتديان قناعى تحوت وحورس بكل الرموز الخاصة بمنصبه . ومن النادر أن نرى اشارة فى القصص الشعبية الخاصة بالديانة المصرية الى أهمية الأقنعة بيد أنها كانت تستخدم فى طقوس كثيرة وهى حلقة هامة تربط الحضارة المصرية بالحضارات الافريقية الأخرى . وبعد أن تنتهى عملية التنصيب كان الكاهنان يقودانه ممسكين بيديه الى الهيكل حيث يوجد تمثال للاله داخل ناووس مغلق . وكان عليه أن يحطم الختم الطينى الذى كان يغلق ضلفتى باب الناووس ويفتح الباب ثم يلقى بنفسه علي الأرض أمام الاله ثم يوقظه بعد ذلك بأن ينشد له نشيد ابتهال الصباح ، ثم يأخذ الكاهن التمثال ويطهره ثم يمثل حركات اطعامه ويلبسه الثياب الملونة ويدهن وجهه باللون الأحمر ، ويحليه بالرموز المناسبة ثم يعيده بعد ذلك الى الناووس ، ويغلق الباب وينسحب ماشيا الى الخلف الى أن يترك الهيكل مزيلا آثار أقدامه بقطعة من جريد النخل . وكان كل طلب يطلب من الآلهة المصرية تصحبه القرابين ، ولكنهم كانوا

لا يشجعون ذبح عدد كبير من الماشية . ويتفق هذا مع الاتجاهات المصرية التى تخلط بين السحر والدين فيما يتعلق بعبادة الآلهة فان أداء الطقوس المعقدة على الوجه الصحيح كان أهم بكثير من تقديم القرابين .

أما فيما يختص بالآراء المصرية المتعلقة بالعنصر الروحانى فى الانسان ومصيره بعد الموت فانها كانت غير منظمة وغير منطقية مثل باقى عقائدهم الدينية بل ان وصف هذه الآراء أصبح أكثر تعقيدا بسبب ما حدث فى بعضها من تغييرات خلال عصور التاريخ المصرى الطويل .

كان المصريون فى عصر ما قبل الأسرات يعتقدون بكل تأكيد فى الخلود الفردى لجميع الطبقات لأنهم زودوا مقابر موتاهم بالأثاث الذى كان يختلف من حيث الكمية والنوع حسب موارد العائلة . ولكن تركيز السلطة فى أيام الدولة القديمة حرم عامة الشعب لا من الحرية فقط ، بل وحرمه أيضا من الأمل فى الخلود وذلك لأنه خلال ذلك العصر أو على الأقل فى فترة محدودة منه لم يكن بين الأفراد من له الحق فى التمتع بالحياة بعد الموت سوى فرعون والنبلاء الذين كان فرعون يمنحهم بعض الصيغ السحرية المعينة ، ويسمح بدفنهم بالقرب منه وبذلك يشتركون فى جزء من حيويته الالهية . هـذا ، ولسنا نعلم ما اذا كان عامة الشعب قد وافقوا على هذا الرأى أم لم يرضوا به ، ولكن الذى نعلمه أنهم لم يفقدوا الأمل فى حقهم فى الخلود ، ويثبت ذلك ما حدث من تقدم سريع فى انتشارعقيدة أوزيريس وايزيس وحورس بعـد سقوط الدولة القديمة .

كان المصريون يعتقدون بوجود كائنين روحانيين على الأقل يتصلان بالفرد ولعل أكثر هذه الكائنات وضوحا هى الـ « كا » التى تعتبر قرينا للانسان ، وهناك من الأسباب ما يدفع الى اعتقاد بأنها كانت ، فى العصور المبكرة ، معادلة للمشيمة أى خلاص الجنين . كانت الكا تولد مع الانسان غير أنها كانت تحيا حياة منفصلة عنه خلال حياته ولكنها كانت تتحد مع جسده ثانية فى لحظة

الموت . فاذا أصاب الجسد تحطيم كبير ، أو فقد فقدانا كاملا ، فان الكا تهلك ، ومن هنا نشأت عادة التحنيط وعادة وضع تمثال للميت فى قبره تحل فيه الكا فى حالة فقد الجسد . وكانت الكا تعيش فى القبر وتتغذى على القرابين ، وكانوا يزخرفون جدران القبر ويضعون فيه الأثاث لأجل اسعادها . وكان على كل مصرى أن يضمن لهذه الكا المأوى ، فضلا عن استمرار امدادها بالطعام . وكانت عناية الأحفاد الشديدة بأسلافهم الموتى اجبارية عليهم اذ كان فى مقدور الميت التحكم فى مصائر الأحياء . أما عن القرابين التى يفرضها الاعتقاد فى احترام الموتى من الأسلاف فقد فاقت من حيث كثرتها ما كان يقدم للآلهة ، وكانت تشتمل على ذبح الحيوانات واراقة دمها فضلا عن الماء واللبن والنبيذ .

كانت العلاقة التى تربط بين الأحفاد والأسلاف علاقة منفعة متبادلة . فقد كان فى مقدور السلف أن يضفى على الأحفاد الحظ الحسن أو السيىء ، فى حين كان فى مقدور الأحفاد أن يجعلوا حياة الأسلاف ملأى بالمنغصات الشديدة اذا توقفوا عن تقديم القرابين . وهناك الكثير من الوثائق التى تصور أحد المتعبدين الذين خاب أملهم يهدد قريبه المتوفى بالامساك عن تقديم القرابين له اذا لم يقض له طلبا معينا . هذا وان وجود عبادة للأسلاف ، حتى ولو كانت ذات طابع ناقص مبتور فى مجتمع لا يوجد فيه نظام العشائر أو يعتمد على سلاسل الأنساب ، أمر فريد فى نوعه ويدعو الى الدهشة ، وهو يوحى ، مثله فى ذلك مثل بعض العناصر الحضارية الأخرى ، بأن الأسلوب المصرى المبكر للتنظيم الاجتماعى كان يشتمل على مجموعات ثابتة محلية من الأقارب مثل تلك التى كانت ولا تزال شائعة فى افريقيا الزنجية . ان هذا الاهتمام الكبير بتوفير أسباب الراحة لأنفسهم فى العالم الآخر يوحى بأنهم كانوا يخشون احتمال انقراض ذرياتهم أو أن يأتى اليوم الذى لا تهتم فيه تلك الذرية بأسلافها وهى الظواهر التى لا يمكن أن يفكر فيها من كان يعيش فى مجتمع منظم على أساس العشيرة المستمرة . وهذا ولم تكن المعتقدات الخاصة بعناصر الشخصية

الأخرى أقل من سابقتها فى تحديد معالمها . كان الأفراد يعتقدون أن لهم « با » تترك الجسد فى لحظة الموت . وتمثل هذه الـ « با » فى اللغة الهيروغليفية على شكل طائر اللقلق أو أبو حديج وهو طائر يتميز برأس بشرى ملتح وأمامه مصباح يشير ذلك الى اعتقاد قديم يقول بأن البا تتحول الى نجم ، ومع ذلك ففى امكانها أيضا أن تعود الى الأرض فى صورة الرجل الذى مات أو على صورة طائر أو حيوان أو احدى الأسماك . وسواء أكانت « البا » هى التى تلاقى حساب الميت وتجد السعادة فى العالم السفلى تحت حكم الاله أوزيريس أم غيرها من الكائنات الأخرى ، فان هذا أمر من الأمور التى ما زالت غامضة علينا . وكانوا يرمزون الى الروح ، وهى تمرح بين جنبات حقول الفردوس باسم « آخ » أو الروح الفعالة وكانوا يعتقدون أنها صورة شفافة للجسد عندما كان على قيد الحياة . وأخيرا ، كانوا فى بعض الأحايين يرمزون الى الكائن الأساسى (القوة الحيوية) فى الشخص بكلمة « سخم » .

وظل فرعون يذهب الى جنته فى السماء حتى بعد ظهور عقيدة أوزيريس ، ولكن أرواح الأفراد الآخرين كانت تذهب الى العالم السفلى لتعيش فيه ، ذلك العالم الذى كان جزء منه يسير موازيا لوادى النيل والجزء الآخر يسير تحته ، وكان يفصل بين هذا العالم وبين مصر سلسلة من الجبال تتخللها منافذ ضيقة تستطيع الشمس وأرواح الموتى أن تدخل منها . وكانت الروح تمر أولا بمنطقة مظلمة مخيفة تسكنها الشياطين والوحوش ثم تمر بعد ذلك بعدد من البوابات لا تفتح لها الا اذا أعطت كلمة السر الصحيحة . وفى نهاية هذه الرحلة تصل الروح الى مملكة أوزيريس ، غير أنه ما زال عليها أن تمر بامتحان أخير ألا وهو محاكمة الميت . كان يرأس المحاكمة مجموعة تتكون من اثنين وأربعين الها أو معبودا كل منهم يختص بخطيئة معينة ، وكان على الميت اما أن يعلن براءته من كل تهمة على حدة أو أن يردد التعويذة السحرية التى قد تمنع ذلك الكائن من أن يتكلم ضده . وكنوع من التأييد ضد ما عساه أن يحدث كان

القادرون من الناس يزودون بقرطاس من البردى « كتاب الموتى » يحتوى على تعليمات تشرح ما يجب أن يفعله الميت فى كل مرحلة من مراحل الرحلة ، وتشرح أيضا الكلمات الفعالة التى يجب أن تستخدم عندما تكون الروح مذنبة . ومن الأمور اللطيفة التى يمكن ذكرها عن المعاملات التجارية وأساليبها فى مصر القديمة أنه كثيرا ما يحدث أن تكون بعض هذه القراطيس غير كاملة اذ لم يكتب من القرطاس سوى مسافة بضع أقدام فى البداية ، لأن البائع كان يعتقد أن المشترى لن يكبد نفسه عناء نشره الى آخره . وفى نهاية هذا الاعتراف السلبى أو اعلان البراءة كان قلب الرجل الميت يوزن فى احـدى كفتى ميزان ويوضع فى الكفة الأخرى ريشة بينما يقف صاحب الشأن الى جانب قلبه متوسلا اليه ألا يتكلم ضده ، كما يقف الى جانبه ، متأهبا لالتهام روحه اذا ما صدر الحكم ضده ، وحش رأسه رأس تمساح والجزء الأمامى من جسده على شكل أسد ، والجزء الخلفى على هيئة فرس النهر . أما اذا أعلنت المحكمة أنه مستحق للخلود فان الاله تحوت يسجل الحكم على حين يأخذ الاله حورس الروح من يدها ويقودها الى حيث يجلس أوزيريس . ويجب هنا أن نلاحظ أنه على الرغم من أن كثيرا من الباحثين يعتقد أن محاكمة المصريين للموتى هى الأصل فى الحساب الأخير فى العقيدة المسيحية الا أن أوجه التشابه فى الواقع سطحية اذ أن أوزيريس فى الأسطورة المصرية لم يقم بدور القاضى كما لم يقم أى واحد من أوزيريس أو حورس بدور المخلص أو المنقذ . وزيادة على ذلك فان الخطايا الاثنتين والأربعين كانت متصلة بمحاولات خرق قوانين التحريم أو بالتعدى على الملكية ولم يتعلق الا القليل منها بما نعتبره نحن بالموضوعات الأخلاقية .

كانت مملكة أوزيريس تشبه الى حد بعيد أرض مصر أكثر من مشابهتها للسماء المسيحية ، اذ كانت تتكون من حقلين كبيرين يشبهان كلا من الوجهين البحرى والقبلى فى مصر ، وكانا يقعان فى الجزء الغربى من العالم الأسفل ،

وفيهما كانت الروح تجتمع مرة أخرى مع أقاربها من الموتى ، وتتمتع بكل ملذات الجسد ، كما كانت تخضع لكثير من أوجه الضعف البشرى التى كانت أعمال السخرة أبرزها وأشدها . ولهذا كانوا يضعون عددا من التماثيل الصغيرة فى المقابر كبديلة للميت وعندما يؤمر الميت بعمل شىء ، كان أحدها يسرع قائلا : « سأفعل ذلك » ويسرع فى تنفيذ ما صدر اليه من أمر .

ومن العدل ، قبل أن ننهى حديثنا عن الدين المصرى ، أن نذكر شيئا عن الملك المارق اخناتون الذى كثيرا ما امتدحه الكتاب المعاصرون لخروجه على الدين الرسمى ، وأشاروا اليه على أنه الفرد الأول فى التاريخ الذى نادى بالتوحيد ومدحوه كشبيه بيوحنا المعمدان ، ولكن الوثائق المعاصرة تضعه فى موضع أقل من ذلك . كان أبوه أمنحوتب الثالث من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، أولئك الملوك الأقوياء الذين جمعوا السلطة فى أيديهم وهى الأسرة التى جعل ملوكها من مصر قوة حربية عالمية للمرة الأولى فى التاريخ . وقد أحب أمنحوتب امرأة كان من المحال من وجهة نظر النبلاء المصريين أن يتزوجها لأنها كانت تنتمى الى أسرة من الطبقة الوسطى ووصل به اعتداده بنفسه على الاصرار بأن يجعل منها زوجته الأولى وملكة البلاد ، وكان رد الفعل لدى كهنة آمون لا يختلف كثيرا عن رد الفعل الذى يسرى بين رجال الكنيسة الانجليزية تحت ظروف مشابهة . ويبدو أن الأمر قد وصل الى الحد الذى جعل من بعض رجال القصر المداهنين من لا يظهر لها الاحترام الكافى وكان رد الملك رادعا اذ أجبرهم على حمل جعارين خط عليها اسم الملكة وألقابها ليذكرهم بمركزها [١] . ولم ير الكهنة فى ابن الملك ، وكان يسمى أمنحوتب كأبيه ،

---

(١) لا يوجد فى النصوص المصرية على الاطلاق ما يشير الى وجـــود من كان يعترض على زواج الملك أمنحوتب الثالث من زوجته الملكة « تيى » كما أن الجعارين المعلقة فى السلاسل الذهبية كانت لا تعطى الا الى أقرب المقربين تكريما لهم وكانوا يعتزون ويفخرون بحملها .

(المترجم)

انه يستحق أن يكون الوريث الشرعى من وجهة نظرهم ، وكان يعتقد أن هناك ما يبرر كراهيته للدين السائد فى البلاد . كان أتون أو قرص الشمس الها ساميا معروفا لدى المصريين منذ زمن بعيد وان كان لم يعبده سوى العامة المنحدرين من أصل سامى وهو الأمر الذى أوحى بالاحتمال القائل بأن أم فرعون كانت احدى المؤمنات [1] به . وغير فرعون اسمه الى اخناتون حتى يكرم الاله أتون بذلك وجعل من عبادة أتون دينا رسميا للدولة . واتبع فى هذا الأساوب المعروف فى مصر ، وهو الأسلوب الذى يقضى بأن يجعل كل مؤسس لأسرة جديدة اله مقاطعته الأصلية الاله الرئيسى كمعبود فى البلاد . وبالرغم من أن اخناتون كان مصرا على تقديم عبادة آتون على كل شىء آخر فمن الأمور المشكوك فيها انه كان موحدا بمعنى انه كان ينكر وجود أى آلهة أخرى أو ينكر قوتها . وعلى الأقل فقد استمر فى ممارسة الطقوس التى كان عليه أن يمارسها من أجل توفير الخير للبلاد .

ولكى يحطم نفوذ كهنة أمون بنى اخناتون عاصمة جديدة وحاول أن يبدأ عهدا جديدا فى الفنون والطقوس الدينية . واتخذ الفن المصرى طابعا اصطلاحيا معبرا ، وأصبحت التماثيل والصور المحفورة بالرغم من قيمتها الفنية العالية تمثل المناصب أكثر مما تمثل الأشخاص أنفسهم . ومع ذلك فقد ظهر بجانب هذا الفن الاصطلاحى المعبر أسلوب جديد فى النقش والتصوير أكثر حيوية مما كان قبله ، وهو أسلوب جديد لا يتصل بالأسلوب القديم الا كما تتصل صورنا الهزلية الحالية بفنوننا الجميلة . كان الفنانون أثنـاء تزيينهم للمقابر بعدد لا نهاية له من مناظر الطعام والأثاث والخدم الذين كانوا يرسمون ليقوموا بخدمة الروح ، كان هؤلاء الفنانون يسلون أنفسهم برسم

(١) اتون ومعناه قرص الشمس مصرى خالص وقد ورد فى النصوص المصرية منذ عهد الدولة القديمة كما أن عبادة الشمس بوجه عام عبادة أصيلة فى مصر منذ فجر تاريخها ولم يكن هناك اله سامى اسمه آتون .

(المترجم)

تفصيلات واقعية مسلية يضعونها فى الأركان المظلمة . هذا ، ويظهر نفس الأسلوب المتحرر غير التقليدى فى الرسم على كثير من قراطيس البردى التى رسموا فيها موضوعات مضحكة أو خارجة عن المألوف . تحول اخناتون الى هذا الأسلوب المتحرر وحاول أن يتطور به تطورا يجعله معارضا للأسلوب الذى يفضله الكهنة . وكان اخناتون نفسه يشكو عيبا جسمانيا فأصر على ابراز هذا العيب فى صوره . وأمر بأن يعمل له ولزوجته ورجال قصره أقنعة جبسية للوجه حتى يستطيع الفنانون أن يعملوا نقلا من نماذج مضبوطة . ولحسن الحظ كانت أخته وزوجته نفرتيتى امرأة تستحق التقدير ، ورأسها الذى نحته أحد مثالى العصر المتحررين تمثال من أعظم التماثيل الفنية فى العالم التى تمثل أصحابها تمام التمثيل .

كان أتون الها للسلام على الأرض والمحبة بين الناس . وآمن اخناتون بهذه العقيدة ايمانا عميقا ، ورغبة منه فى نشر تلك المبادىء أخذ فى ارسال خطابات الى ملوك الدول المجاورة معبرا عن رغبته الملحة فى السلام . ولسوء الحظ ، لم ينتظر حتى تتأكد نواياهم الطيبة نحوه فخفض قواته الحربية ، الأمر الذى ترتب عليه انكماش الامبراطورية المصرية التى امتدت فى عهد أبيه الى ما وراء نهر الفرات من ناحية وفى آسيا الصغرى من ناحية أخرى .

وكان آخر ملوك هذه العائلة المتداعية هو توت عنخ آمون الذى ساعد عدم أهميته بحفظ مقبرته حتى يراها عالمنا الحديث . وقد نسى الناس هـذا الملك بعد وقت قصير لدرجة أن أحد الفراعنة المتأخرين بنى مساكن لاقامة عماله فوق مدخل مدفنه ، وبذلك أخفاه عن أنظار لصوص المقابر . وبالرغم من أن معظم الأثاث الفاخر الذى كان فى مقبرة توت عنخ آمون كان من النوع الذى عثر عليه فى مقابر الفراعنة الآخرين ، الا أنه يمتاز ببعض ظواهر غير مألوفة . ومات توت عنخ آمون متأثرا بذات الرئة وهو لم يزل دون العشرين من عمره ، وبالرغم من قصر حكمه الا أن عهده كان كافيا لكهنة آمون لكى يستعيدوا

سلطتهم ويحاولوا بقوة وعزم اعادة النظام القديم وزادوا على ذلك بأن أجبروه على تغيير اسمه من توت عنخ أتون الى توت عنخ أمون . وربما أدركت العائلة المالكة أن الأسرة تسير الى نهايتها فوضعت فى المقبرة الهدايا التى تلقاها فراعنة هذه الأسرة ابان عظمتها ووضعوا معها أدوات أخرى مما كانت تقتنيه الأسرة أو كانت ذات صلة بعبادة أمون . وكانت هذه الطريق هى أضمن الطرق لمنع مثل هذه الأدوات من الوقوع فى أيدى كهنة أمون اذ كانت مقابر الفراعنة من الأماكن المقدسة التى لا يسمح بالاعتداء عليها .

أما التنظيم الاجتماعي والسياسى فى مصر فيؤسفنا أن نقول ان الغموض يكتنف الكثير من تفصيلاته أكثر مما يتوقع الانسان اذ أن الوثائق الشخصية وسجلات القصر التى يمكن أن تصور العلاقات الاجتماعية نادرة نسبيا كما أن المصريين اتبعوا نظمهم على علاتها دون أن يجشموا أنفسهم عناء شرحها وتدوينها فى نقوشهم . بيد أنه يمكننا القول ان الوحدة الاجتماعية الأساسية كانت ، فيما يبدو ، هى الأسرة البسيطة الصغيرة التى تشبه الأسرة عندنا اليوم ، اذ لم تكن هناك فى العصور التاريخية أية سلاسل للأنساب [1] ، كما لم تكن هناك نظم عشائرية كما نعرفها فى المجتمعات الأخرى . وليس لدينا ما يشير الى أنه كان يوجد مهر يدفع للعرائس كما كانت الزيجات الأولى فيما يبدو زيجات تقوم على الحب المتبادل ، كما يلوح أيضا انه كانت هناك نساء فضلن عدم الزواج وكان يسمح لهن بادارة أملاكهن وتوزيع مودتهن على من يفضلن . وكانت المرأة تحتل مكانة رفيعة وكانت المتزوجات منهن يتصرفن فى ثرواتهن الخاصة ويشرفن على ادارة أعمال أزواجهن أثناء غيابهم . ومع ذلك فلم يكن تعدد الزوجات من الأمور المعروفة بينهم . كانت هناك زوجة رئيسية ، أما النساء

---

(١) ظهرت بعض سلاسل الانساب فى نقوش بعض الأفراد فى العصر المتأخر من تاريخ مصر ، حوالى عام ٧٥٠ ق ٠ م ٠

(المترجم)

الأخريات فقد كن اما زوجات ثانويات أو محظيات ، فعلى قدر ما يزداد عدد النساء فى بيت الرجل تزداد مكانته الاجتماعية .

لقد أشرنا قبل الآن الى زواج الملوك من أخواتهم ، وقد انتقلت هـذه الزيجات بعد سقوط الدولة القديمة الى النبلاء كغيرها من الامتيازات الملكية الأخرى . غير أننا لا نعرف ما اذا كانت هذه العادة قد انتقلت الى الصناع والفلاحين أو لم تنتقل . وعلى أى حال ففى النقوش الجنازية نرى أن الرجال من جميع الطبقات الذين كانت تسمح لهم مواردهم المالية بتشييد مثل هذه المبانى ، كانوا يشيرون الى الزوجة الرئيسية بلفظة « أخت » وان كنا نعلم أن هذه العبارة كانت تستخدم للتعزيز والتدليل كما كانت تستخدم للتعبير عن القرابة الحقيقية ، ولهذا سيبقى موضوع انتشار هذه العادة سؤالا بدون جواب صريح محدد حتى تظهر معلومات أخرى جديدة .

وذكر بعض كتاب اليونان والرومان أن المصريين كانوا ينتسبون الى الأم ، بيد أن نقوشهم لم تلق الكثير من الضوء على هذا الموضوع ، وان كان من المعتقد أنهم كانوا ينتسبون الى كل من الأم والأب ، كما هو الحال عندنا اليوم ، كما كانت الثروات والمراكز تورث عنهما . وقد بدأ هذا النظام غريبا فى عيون الرومان والاغريق الذين كانوا يتبعون نظام الانتساب الى الأب فقط . ومما يذكر بهذا الصدد أن الكتاب اليونان والرومان فسروا انتساب المصريين الى الأم بأن النساء المصريات كن يملن الى عدم الاخلاص لأزواجهن ولهذا كانت بنوة أبنائهن دائما موضع شك .

أما الوحدة الاجتماعية المنظمة التى تلى وحدة العائلة فقد كانت وحدة المقاطعة أو الاقليم . كانت المقاطعات فى العصور التاريخية تسير على نظام الوحدات الادارية ولكن قضايا سكان المقاطعة الذين يتحدون فى عبادة اله هذه المقاطعة كانت تنظر أمام حاكم المقاطعة الوراثى الذى كان يشرف على الشئون العامة المحلية والذى كان يشعر بالاعتزاز والفخر بمقاطعته مقترنا

بالاحساس بالعداء نحو الأشخاص الذين ينتمون الى مقاطعات أخرى . ومن المحتمل أنه فى العصور القديمة عندما كانت الاثنان والأربعون مقاطعة مستقلة سياسيا عن بعضها البعض ، كان سكان كل اقليم يتزوجون من الجماعات المتصلة بهم بصلة القربى ، وهو النظام الذى لا يزال معمولا به فى افريقيا الزنجية التى تعتمد فى حياتها الاقتصادية على الزراعة .

أما النظام الذى كان سائدا فى المجتمع المصرى ابان العصور التاريخية فقد كان نظاما قائما على أساس وجود الطبقات مع اعطاء الكثير من الفرص للأفراد للوصول الى طبقة النبلاء . وفى الدولة القديمة كانت هناك طبقتان فقط هما طبقة العامة وطبقة البيت المالك وأقاربه ، التى كان أفرادها يشغلون كل المراكز المهمة فى ادارة البلاد وفى الكهنوت ، وكان وجود العدد الكبير من النساء فى بيوت أفراد الأسرة المالكة كفيلا بايجاد العدد الكافى لهذه الوظائف . ولكن مع تقدم الزمن انقسم المجتمع الى طبقات عدة منها الفلاحون ومنها الطبقة الوسطى التى كانت تتكون من الصناع والجنود المحترفين ثم الطبقة الأرستوقراطية التى كانت تتكون من النبلاء والموظفين والكهنة ، وعلى رأسهم جميعا كان فرعون الذى كانت قدسيته تسمو به فوق مستوى الطبقات أو اعتباره كانسان عادى .

ومما يجدر ذكره أن العبيد لم يرد ذكرهم فى هذه القائمة لأنهم لم يلعبوا أى دور هام فى الاقتصاد المصرى . أما المجرمون وأسرى الحرب فقد كانوا يرسلون اما الى صفوف الجيش أو يساقون الى المحاجر التى كانت كفيلة بالقضاء على أمانيهم . غير أن القليل من العبيد ، وبخاصة من النساء ، كانوا يقومون بالعمل فى المنازل ولكن هؤلاء كانوا يعتبرون من الأتباع ولا ينظر اليهم على اعتبار أنهم سلع مملوكة . فليس من المفيد اقتصاديا أن يعمل العبد فى الأشغال العامة فى حين أن هناك الكثير من الأيدى العاملة الرخيصة التى ترضى بالكفاف من العيش ؛ اذ أنه فى مثل هذه الحالة يكون من الأرخص

تأجير الرجال الذين يحتاج اليهم العمل من آن لآخر فان ذلك أفضل مما يستتبع امتلاك العبيد من التزامات . وقد ذكرنا آنفا نظام استرقاق الفلاحين فى الدولة القديمة ، كما أشرنا أيضا الى انهيار هذا النظام فى نهاية حكم الأسرة السادسة ، غير أن الفلاح المصرى فيما تلا ذلك من عصور لم يعد رقيقا للأرض بل أصبحت مخصصة له اما كملكية حرة أو ليستغلها اذا كانت من أملاك المعابد أو من أملاك الملك . وفى كلتا الحالتين لم يكن حقه فى الأرض يذهب الى أشخاص غرباء بعد وفاته بل كان يرثها أولاده من بعده . وكان على المزارع أن يدفع الضرائب المستحقة على محاصيله وأن يدفع الايجار المستحق للمالك . كما كان عليه أن يتبع ما جرت به العادة منذ القدم ، تلك العادة التى كانت تحدد نوع المحاصيل التى يجب أن تزرع فى مقاطعات معينة . وبالرغم من أن الفلاح لم يكن مقيدا بالأرض بحكم القانون فانه كان مرتبطا بها لحاجته الاقتصادية ، فان الأراضى الأخرى كان يستغلها أشخاص آخرون منذ زمن كبير ، فلو أنه ترك أرضه فان مصيره الوحيد هو أن يصبح من العمال غير المهرة أو المدربين .

وكان الصناع يتركزون فى المدن حيث كان عمال المهنة الواحدة يعيشون فى حى واحد وكان حانوت الصانع هو مصنعه ومخزنه فى آن واحد ، أما الصناع فقد كانوا ينتظمون فى نقابات تشبه مثيلاتها التى كانت منتشرة فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وليس فى امكاننا أن نعرف قيمة دخل هؤلاء الصناع المهرة ، غير أن حظهم كان ، بدون شك ، خيرا من حظ الفلاحين .

ولم يكن هناك غير القليل من الجنود المحترفين فى عهد الدولة القديمة ، غير أنه بمرور الوقت أخذت أهمية المنظمات العسكرية تعظم وتزداد وتصبح لها صفة الاستمرار . كان الجنود من سكان الصعيد محاربين أفضل من اخوانهم من سكان الوجه البحرى ، غير انهم جميعا كانوا لا يميلون كثيرا الى الحرب وهو الأمر الذى يفسر وجود الأجانب فى القوات المصرية منذ عهد

مبكر . كان هؤلاء الجنود الأجانب يأتون فى البداية من بلاد النوبة أو من سورية ، أما « الشردن » أو « رجال الجزر » فكانوا يشتهرون بالشجاعة وكانوا يعملون كحرس خاص لفرعون . وبالرغم من أن بعض الأجانب كانوا من المتطوعين فان الكثيرين منهم كانوا من الأرقاء ، ونحن نعرف أنه فى أيام الأسرة الثامنة عشرة كانت الحملات التى تشن على بلاد النوبة تسبقها فى الغالب غارات على سورية فى سبيل الحصول على الجنود والعكس بالعكس . وغنىّ عن القول أن مثل هؤلاء الجنود لم يكن من السهل استخدامهم ضد أقوام من قبائلهم ، ولكن كانت للجنود الأرقاء دون شك فوائد مؤكدة فى الحروب البعيدة عن مواطنهم . كان أفراد تلك القوات جنودا مدى الحياة غير أنه لم تكن لهم حقوق مدنية تستحق الذكر ، ولهذا كان من الميسور اخضاعهم لأشد النظم تعسفا . ونظرا لأن روابطهم المدنية قد انفصمت عراها عند أسرهم فى الحرب فان حنينهم الى الوطن لم يكن يقودهم أبدا الى التمرد . وكانت الحرب ، فى رأى أولئك الرقيق ، بما فيها من أمور مثيرة وفرص للسلب ، أفضل بكثير من العمل فى المحاجر أو فى الأشغال العامة . وقد ظل نظام الجنود الأرقاء معمولا به فى البلاد الاسلامية الى وقت قريب جدا ، ومن الأمثلة المشهورة ما ذكرناه آنفا عن الانكشارية فى تركيا والمماليك فى مصر .

ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ المصريون يزيدون من استخدام الاغريق الذين أثبتوا تفوقهم كجنود مرتزقة . ومنذ الأسرة التاسعة عشرة وما تلاها من أيام أخذ الجنود يلعبون دورا هاما فى الحياة السياسية . لم يكن الفلاحون قوة يعمل حساب لها ، ولم يهتموا أيضا بالحياة السياسية ، ولهذا السبب كان المتنافسون على العرش أو مؤسسو الأسرات الجديدة يعتمدون اعتمادا كليا على الليبيين والنوبيين أو المرتزقة من الاغريق لأجل تأييدهم كما كان ذلك أيضا سببا فى جعل الحاكمين الذين بيدهم السلطان يسعون الى اكتساب ودهم عن طريق غمرهم بالهدايا . وفى أيام هيرودوت (منتصف القرن

الخامس قبل الميلاد) كان هناك ما يقرب من نصف مليون جندى محترف فى الدلتا وحدها ، وكان كل منهم اما أن يكون واضعا يده على منحة من الأرض أو يتلقى يوميا نصيبا كبيرا من الحبوب واللحم والنبيذ . ومن أعجب الأحداث التى وقعت فى ذلك العصر ذلك التمرد الذى قام به أكثر من ٤٠٠٠ جندى من جنود الغال الذين كانوا فى جيش بطليموس فيلادلفوس . وكانت خطتهم ترمى الى الاستيلاء على الحكم ، ونجحوا فعلا فى نهب خزانة الدولة . ولكن عندما فشلت حركتهم ارتدوا الى جزيرة فى وسط الفرع السمنودى وهى جزيرة تقع فى أحد فرعى النيل ، حيث انتحروا جميعا بطريقة طقسية ، وهى طريقة غالية يمكن مقارنتها بطريقة انتحار اليابانيين المعروفة بالهاراكيرى . وربما لاحظ القارىء أننا لم نشر الى طبقة التجار عند حديثنا عن جماعات الطبقة الوسطى . فقد كانت التجارة الداخلية المصرية تمارس محليا فى أسواق المدينة وتسير على نظام المقايضة وبالرغم من أن الموازين والمقاييس المحددة كانت معروفة ومستخدمة منذ أقدم العصور ، فان قيمة الأشياء لم تكن محددة حتى بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد ولكن قبل ذلك التاريخ كانت هناك جداول مفصلة مبين فيها قيمة كل سلعة بالنسبة الى عدد من السلع الأخرى المطلوبة . بيد أنه فى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد بدأت النقود فى التداول وكانت فى صورة حلقات من الذهب أو الفضة أو النحاس ، ولكن العادة قد جرت بوزنها عند الشروع فى أى عملية تجارية ، أما العملة فقد بدأ استخدامها فى مصر أثناء الحكم الفارسى . ولما كانت الضرائب والايجارات والعشور تجمع كلها عينا فقد أصبح محتما على كل من المعابد والحكومة أن تشتغل بالتجارة ، فاذا كانت هناك أى تجارة خارجية فلابد أن أكثرها كان فى يد الدولة والمعابد . أما بالنسبة لفرعون فقد كانت التجارة فى صورة جزية أو تبادل ملكى للهدايا ، وهو الأمر الذى ترتب عليه عدم سنوح الفرصة

لظهور تجار أثرياء أو مديرى بنوك أغنياء يمكن مقارنتهم باخوانهم فى بلاد ما بين النهرين .

أما الكتبة فقد كانوا يحتلون مركزا متوسطا بين الطبقة العليا والطبقة الوسطى ، ولعل المثل القديم القائل بأن للعلم قوة لم يتحقق فى مكان ما مثلما تحقق فى مصر . كان على الكاتب أن يمضى سنوات طويلة من الدراسة الشاقة حتى يسيطر على صعاب الكتابة الهيروغليفية ، وان كان هذا لا يعنى عـــلى الاطلاق أن تعليمه يقف عند هذا الحد . فقد كان عليه أن يلم بالأدب القديم ، وأن يعرف قدرا كافيا من الرياضيات وعلوم الهندسة حتى يستطيع أن يقوم بالعمليات الحسابية ، وأن يصمم المبانى ويشرف على الأشغال العامة ، بل وقد يصل الأمر الى استدعائه لتنظيم الحفلات الحربية . ومما خلفه لنا بعض الكتاب الناجحين فى تاريخ حياتهم الذى سطروه فى نقوشهم على مقابرهم أو لوحاتهم الجنازية نرى أنهم كانوا ذوى مواهب متعددة مثل مواهب ليوناردوداڤنشى . ولما كان من المحتم على عائلة الراغب فى الالتحاق بسلك الكتبة أن تكون قادرة على اعالته خـــلال سنوات طويلة من الدراسة فقد وقفت مشـــكلة العجز الاقتصادى سدا منيعا فى وجه معظم أبناء الفلاحين والصناع . وعلى أى حال فمتى توافرت لأى كاتب الخبرة والمهارة الكافيتان فله الحق فى أن يطمع فى احتلال أى منصب فى الحكومة بما فى ذلك منصب الوزير . ويجب أن نضع فى أذهاننا ونحن نتكلم عن هذا الموضوع انه كلما قويت الحكومة المركزية زادت رغبة فرعون فى أن تشغل المراكز الادارية عن طريق التعيين بدلا من شغلها عن طريق الوراثة ، وأن يشغلها بأبنـــاء الشعب الذين يطمئن فرعون الى ولائهم له لأنهم يعتمدون فى حياتهم على عطفه . ولما كانت التعيينات فى الوظائف الادارية تمنح كفضل يسبغه الملك على من يرضى عنه فان التقدم كان يعتمد على ثلاث دعائم ، أولاها الطاعة لارادة الملك ، ثم اظهار النبوغ فى تملقه ، ثم مقدرته ، ولم تكن عطايا الملك هى المصدر الوحيد المفتوح أمام

الكاتب للحصول على الثروة بل كانوا يعتمدون أيضا على هبات الأفراد الذين يرغبون فى قضاء مصالحهم مما جعلهم ذوى ثروة ، وهو الأمر الذى مكنهم من التزوج من بنات النبلاء الوارثين وبذلك يصبح لأولادهم الحق فى اعتبارهم من النبلاء المعترف بحقوقهم .

وكانت الطبقة العليا فى المجتمع المصرى تتألف من موظفى الحكومة والنبلاء الوارثين والكهنة . وكما لاحظنا من قبل كان بعض موظفى الحكومة ينحدرون اما من عائلة من العامة أو من عائلة نبيلة ، أما المراكز العليا فى السلك الكهنوتى فقد كانت بوجه عام وقفا على أبناء النبلاء . ولم يختلف ذلك كثيرا عما كان عليه الحال فى الكنيسة فى أوروبا خلال العصور الوسطى . وكان الموظفون ينقسمون الى قسمين وهم رجال الادارة الذين يشرفون على ادارة أمور البلاد وموظفو البلاط الذين كانوا مختصين بالعناية بشخص فرعون وممتلكاته .

وكان الوزير على رأس السلك الادارى ويهيمن على كل الواجبات المدنية المعتادة التى كانت من اختصاص منصب الملك ، وهى واجبات ثقيلة ومشعبة . فقد كان على الوزير أن يقوم بعمل المحكمة العليا فيفصل فى القضايا التى ترفع اليه من المحاكم الابتدائية ، وكانت الآمال الكبار تعقد على سرعة انجازه لمثل هذه القضايا . وكان الوزير يشرف على الأعمال العامة ويتلقى ثلاثة تقارير سنويا عن الأحوال فى المقاطعات المختلفة . وكانت السلطات المسئولة عن الضرائب تبعث بحساباتها اليه فى مقابل ايصالات يوقعها باسم الخزانة الملكية . أما حرس فرعون الخاص فقد كان على الوزير أن ينتخبه بنفسه وأن يعد كل الترتيبات اللازمة اذا ما رغب فرعون فى القيام برحلة من الرحلات . وكان الوزير يذهب كل صباح الى قصر فرعون ، ويقابله ويستفسر عن صحته ثم يعرض عليه شئون الدولة .

ولم يكن الوزير يعمل فى هذا المضمار بمفرده ، بل كان يعاونه موظف كبير آخر يعرف باسم حامل الختم ، وكان يختص بالشئون المالية فى المملكة .

فهو الذى كان يقدر الضرائب ويشرف على جمعها . ولما كانت الضرائب تدفع عينا وليس نقدا ، كان هذا الموظف الكبير مسئولا عن توزيعها وتحويلها الى نقود فيما تلا ذلك من عصور . وكان يختص أيضا بتصريف شئون المؤسسات الجنازية وممتلكات المعابد ، وكانت من أعقد الأمور وأدقها . وأخيرا ، كان عليه أن يحدد مقادير الأجور لمن يعمل فى ممتلكات الدولة والمعابد اذ كانت هذه الأجور تصبح مثالا للأجور فى المملكة كلها . وفى معظم أيام التاريخ المصرى لم يكن هناك الا منصب وزير واحد ومنصب حامل ختم واحد ، ولكن فى أيام الدولة الحديثة كثرت أعمال الادارة الحكومية وتعقدت فأضحى من الصعب على الوزير وحامل الختم أن يديرا المملكة بمفردهما فاستلزم ذلك انشاء منصب لكل من الوزير وحامل الختم لكل من الوجهين البحرى والقبلى على حدة . وظهر فى الأسرة الثانية عشرة منصب جديد وهو منصب « نائب الملك » فى النوبة ؛ اذ دعت الحاجة الى وجوده من أجل العمل السريع فى حالة حدوث هجوم مفاجىء لبعد الشقة بين مركز الحكم واقليم النوبة . وكان هذا النائب الملكى يمارس كل السلطات الملكية ، وكان له بلاط خاص وجهاز حكومى على غرار ما كان للملك نفسه . وكانت الادارات ملأى بعدد كبير من الكتبة . وفيما عدا هذا المنصب الممتاز فان الادارات فى المقاطعات كانت تتمتع بقسط كبير من الاستقلال ، وكان الحاكم فى كل مقاطعة مسئولا عن سلوك رعاياه كما كانت واجباته تشبه الى حد ما تلك التى كانت ملقاة على عاتق الوزير .

وكان موظفو القصر كثيرى العدد الى حد بعيد . ولعل أقرب هؤلاء الموظفين الى شخص الملك تلك الفئة من المستشارين الذين كان يطلق عليهم لقب المكرمين . وكان أفراد الأسرة المالكة ينخرطون بطريقة آلية فى سلك تلك الجماعة التى كانت تتكون بصفة رئيسية من رجال أثبتوا جدارتهم خلال السنين العديدة التى قضوها فى السلك الادارى . كان هؤلاء الرجال العظام

يعيشون فى البلاط الملكى على نفقة الملك ، بيد أن أعظم الامتيازات التى كانوا يفخرون بها هى ما كان يقدمه الملك لهم من تكريم ، اذ يعد لهم مقابر وأثاثا جنازيا على نفقته ويسمح بأن يدفنوا على مقربة منه . وكان أفراد هذه الفئة العظيمة يتقلدون المناصب المتصلة بأعمال القصر فضلا عن العناية بشخص فرعون . وكان شاغلو هذه المناصب يمنحون ألقابا فخرية مثل كاتم أسرار القصر الملكى . وكان البروتوكول الملكى يتميز بالفخامة المتنـاهية ، وكان الموظف الذى يعتنى بشخص الملك يلقب بلقب مدير الثياب الملكية ، يليه خادم اليدين ثم مدير الزيوت والعطور ثم حارس الشعر المستعار الذى يلبسه الملك وكثير غيرهم . أما الملكة ونساء القصر الملكى فقد كانت تحيط بهن حاشية أخرى أكثر أبهة وفخامة للعناية بهن . كما شمل هذا التنظيم الدقيق كل شىء حتى المطابخ الملكية التى كان هناك نظام خاص لترتيب أهمية وظائف من فيها . فقد كان الموظفون الثلاثة الذين يقومون بتقطيع اللحوم الملكية يسبقون فى الأهمية صانع الفطائر وهذا بدوره يسبق صانع المأكولات الخفيفة وأنواع الجبن الذى يتقدم هو الآخر صانع الحلوى .

ولعل أكثر جماعات النبلاء الوارثين فى الأهمية تلك التى كانت تتكون من حكام الأقاليم وعائلاتهم الذين كانوا ينحدرون من صلب الملوك الذين حكموا الأقاليم المختلفة قبل توحيد مصر . وبالرغم من تلك المحاولات التى كان يقوم بها الملوك الأقوياء للحد من قوة حكام المقاطعات والتقليل من أهميتهم فانهم احتفظوا باخلاص رعاياهم لهم . بل وكانوا يصبحون ملوكا صغارا فى كل وقت تضعف فيه الحكومة المركزية . وكان حاكم الأقليم فى حقيقة الأمر نائبا للملك فى اقليمه يجمع بين الواجبات الادارية والطقوس الدينية ككاهن أعظم لاله الاقليم . أما النبلاء الوارثون فقد كانوا يعتمدون فى حياتهم بصفة عامة على الضياع التى كان فرعون قد منحها للعائلة فى الماضى . وبالرغم من أن الكثير من العائلات النبيلة كانت تفاخر بأصلها العريق الا أن مجال الترقية كان

مفتوحا أمام ذوى المقدرة من أبناء العامة الذين شقوا طريقهم فى الحياة فان فرعون كان يغمرهم بفضله ، ويصبحون مؤسسين لأسرات نبيلة .

ومن المهم أن نلاحظ أن طبقة النبلاء المصريين لم تكن فى الأصل طبقة من المحاربين . فبالرغم من أن عددا قليلا من الأسر العظيمة قد أنجب قوادا قادرين على مدى الأجيال ، الا أننا نجد أن كثيرا من الأسر العظيمة أولت اهتمامها للشئون الدينية والادارية أو اقتصروا على وظائف البلاط .

وكان رجال الكهنوت من أهم أركان المجتمع المصرى اذ بالاضافة الى قيامهم بالطقوس اليومية والاحتفالات السنوية للآلهة التى كانت تستمر غالبا بضعة أسابيع كان الكهنة يقومون بعمل التنبؤات ويرفعون الى الاله مطالب الأفراد مقابل أتعاب مناسبة . من المؤسف أن معلوماتنا عن نظم الوظائف فى المعابد معلومات محدودة اذ أنها تقتصر على معرفة أسماء الموظفين المختلفين . كان الكهنة ينقسمون بوجه عام الى طبقتين طبقة الكهنة المتنبئين وطبقة الكهنة العاديين . وبصرف النظر عن المهام التى كانت ملقاة على عاتق كل من الطبقتين فى العصور التاريخية فان هذا التقسيم يوحى بأنه مماثل لما كان يحدث فى كل العالم تقريبا من وجود تفريق بين الكهنة الذين ينزل عليهم شىء من الالهام ويذهبون فى سبات عميق ، ويجعلون الاله يتحدث عن طريق أفواههم ، وبين الكهنة الذين كانوا يقومون باجراء الطقوس المعتادة ويهتمون كل الاهتمام بأن تؤدى على الوجه الصحيح . وكان فى كل معبد رئيس متنبئين ، ثم نائب له ، ثم كاهن ونائب للكاهن ، وهكذا . أما الكهنة من النساء فكان لهن نظام خاص بهن ، وان كن أقل منزلة من حيث الواجبات الدينية من الكهنة الرجال اذ كانت واجباتهن الرئيسية تقتصر على عزف الموسيقى والرقص فى المناسبات الدينية ، وكانت المحظيات المقدسات يلتحقن بمعابد معظم الآلهة . أما المعابد الجنازية الخاصة بالملوك فقد كان يشرف عليها مجموعة منفصلة من الكهنة يقومون بالاشراف على العبادة فيها وتقديم القرابين .

وأخيرا ، فان معظم المدارس التى كانت تدرس فيها العلوم المتقدمة كانت ملحقة بالمعابد اذ كانت العادة السائدة بين ذوى المهن والأطباء وغيرهم أن يحصلوا على اذن خاص ، وأن تكون لهم صلة اسمية بأحد المعابد ، وهذا يشبه الى حد كبير النظام الذى كان سائدا فى أوروبا فى العصور الوسطى .

ويدرك كل من يدرس الحضارة المصرية بأن المصريين كانوا شعبا على حظ كبير من المهارة والعبقرية وانه لم يعق تقدمهم سوى ما وصلت اليه نظم الحكومة من مركزية عنيفة لم يكد العالم يشهد لها مثيلا . كان هناك اتحاد كامل بين الدين والدولة ، وقد ترتبت على ذلك السيطرة الكاملة على أجساد الرعايا وعقولهم . وليس أمام مثل هذه النظم من فرصة للبقاء الا باستمرار الحالة كما هى والابقاء على الأوضاع . ان معظم المخترعات التى تمت وأخذت طريقها فى نهاية الأمر الى الحضارة الأوروبية الأسيوية (الأوراسية) ، قد توصل اليها المصريون ابان الخمسمائة عام الأولى من التاريخ المصرى . بل ولعله من المشكوك فيه ان ما ساهمت به مصر خارج ميدان التكنولوجيا لم يكن نتيجة للتفسير الخاطىء الذى قدمه اليونان والرومان للمعتقدات والطقوس المصرية أكثر من الانتشار الحقيقى للعناصر المصرية .

أما فيما يختص بالحضارات الافريقية فان الموقف هنا يختلف تمام الاختلاف . فبالرغم من أنه من الصعب أن نجد أمثلة متشابهة تمام التشابه بين الحضارة المصرية والحضارات التى انتشرت فى ممالك وسط وغربى افريقيا ، فان المرء يحس بوجود وجوه شبه رئيسية بين الاثنين . وسنوضح هذا فى الفصول القادمة .

الفصل الثلاثون

شعوب أفريقية فى العصور التاريخية

تقسم الصحراء الكبرى قارة أفريقية ، فى جميع عصور التاريخ عنصريا وحضاريا الى قسمين . فقد كان السكان الأفريقيون شمالى هذه الصحراء الهائلة ، فى غالبيتهم من الجنس القوقازى ، كما كانت الحضارات الافريقية فى هذه المناطق فى جوهرها أوروبية أسيوية (أوراسية) . كان شمال افريقية جزءا ممن تشملهم الحضارة الكلاسيكية المعروفة باسم الحضارة الايكومينية (Ecumene) ثم أصبح ابتداء من القرن الثامن الميلادى حتى وقتنا الحاضر جزءا من الحضارة الاسلامية المترامية الأطراف . أما جنوبى الصحراء الكبرى فان الغالبية العظمى من السكان الذين من الجنس المتزنج (negrvid) وبالرغم من تسرب بعض العناصر الحضارية الغربية اليه من آن لآخـر من مصادر خارجية ، فقد ظلت حضاراته هذا الجزء ذات طابع خاص بها . وليس من الضرورى أن نتحدث بشىء من التفصيل عن حضارات فلاحى شمالى أفريقيا وسكان مدنها فان السكان المحليين على ما يظهر قد تكيفوا بسرعة واتبعوا الأساليب التى أدخلها حكامهم المتعاقبون من الفينيقيين والاغريق والرومان والبيزنطيين والعرب . وفى منطقة جبال الأطلس ، وفى بعض مناطق الصحراء الكبرى التى ساعد سقوط الأمطار القليلة عليها بسكنى بعض من يعيشون على حياة المراعى ، عاشت بعض عناصر الحضارة الأكثر قدما خـلال تلك التغييرات ولكن المعلومات التى حصلنا عليها عن هذه المناطق سواء من المصادر الأثرية أو المصادر الكلاسيكية معلومات قليلة لا يعتد بها . واختفت معظم

المخلفات التى بقيت من الحضارات الخاصة بشمال افريقيا عند الغزو الاسلامى لأن البيئة فى هذه المناطق تشابه مثيلتها فى المناطق العربية التى نبع منها الاسلام، لدرجة أنه أصبح فى الامكان ادخال النظم الحضارية الاسلامية بجميع تفصيلاتها . زد على ذلك أن قبائل بأكملها من القبائل العربية التى تعيش على حياة المراعى نزحت الى داخل شمال أفريقيا ، تظاهرها هيبة الاسلام وقوته فتمكنت هذه القبائل من بسط نفوذها الحضارى على السكان المحليين .

وفى العصور التاريخية تمكنت جماعة واحدة فقط من الجماعات التى تسكن الصحراء الكبرى من الاحتفاظ بحضارة مختلفة لها ميزاتها الخاصة وترجع أصولها الى عصر ما قبل الاسلام . تلك هى قبيلة الطوارق (Tuareg) وهم شعب من البربر الذى يقطن الجزء الغربى من الصحراء الكبرى . فبالرغم من أن أفرادها مسلمون اسما فانهم يمارسون عادات كثيرة لا تتفق وتعاليم الدين الصحيحة . وتحتل المرأة مكانة عالية جدا وغير عادية بينهم ، كما أن الانتساب يرجع الى الفرع النسائى . والنساء بوجه عام هن الحارسات الأمينات على وجوه النشاط الفكرى والفنى فى القبيلة . كانت النساء فى العادة هن اللاتى يعرفن القراءة والكتابة ، وكن عادة متعلمات ، بعكس الرجال الذين كان من النادر أن نجد بينهم من يعرف القراءة ، وكان من بينهن الشاعرات والموسيقيات اللاتى لهن شهرة بين مواطنيهم . ولم تعش النساء أبدا بمعزل عن الرجال ، فقد كان يسمح للفتيات والشبان بالانغماس فى حفلات اللهو التى تشبه الحفلات التى يقيمها طلبة الجامعات الأمريكية ، كما كانت تعتبر الصداقات بين النساء المتزوجات والرجال من الأمور العادية المسلم بها . وكان الرجال يمضون أوقاتهم فى تربية الجمال ، وفى الاغارة على غيرهم اذ كان يتوقع من العريس المأمول ، أثناء الفترة التى تفصل بين الخطبة والزواج ، أن يسرق من الجماعات المعادية الجمال اللازمة لمهر العروس . وحيث انه كلما زاد مهر العروس زاد شرف الفريقين ، كان الزواج فى الغالب

يتأخر حتى يصل الرجل الى السن التى يقال عنها منتصف العمر . ولم تكن النساء محجبات ، بعكس الرجال ، فان الرجل يضع فوق وجهه نقابا من القماش الثقيل ، لا يرفعه حتى فى أوقات الأكل أو النوم . وكثيرا ما كانت النساء يطرزن نقب خطابهن وأصدقائهن من الرجال بشعارات مناسبة . وقد فسر الطوارق أنفسهم ارتداء النقب بالنسبة للرجال بأنها للوقاية من الذباب والشمس . وبما أن النبلاء كانوا فى الغالب من أصل قوقازى خالص وذوى بشرة غير داكنة وعيون رمادية اللون فمن المرجح أن لتفسيرهم شيئا من الصحة . أما التنظيم السياسى فقد كان اتحادات مفككة سادت فيها عشائر ارستقراطية قليلة على شعب مستعبد أكثر عددا من هذه العشائر . فبينما كانت العشائر النبيلة من أصل قوقازى ، فان كثيرا من الدم الزنجى كان يجرى فى عروق العشائر المغلوبة على أمرها لأن هذه العشائر كانت من سلالات الأرقاء وبعض جماعات صغيرة وطنية زنجية تشربت حضارة الطوارق ، وسمح لها فى النهاية بالانضمام الى عضوية القبيلة . ولما كانت العادة قد جرت بأن يتخذ بعض الرجال من العشائر النبيلة صديقات من العشائر المسترقة أثناء الفترة الطويلة التى تسبق الزواج ، فان كثيرا من جينات الوراثة كانت تنتقل من الدم القوقازى الى العشائر المسترقة ، يقابلها انتقال ضئيل من جينات الدم الزنجى الى الطبقات العليا .

كان الطوارق — قبل أى اعتبار آخر — قوما يعيشون على تربية الابل ، ولكنهم كانوا يربون أيضا الأغنام والماعز ، كما كانت العشائر المسترقة تمارس الزراعة حيثما كان ذلك ممكنا . وكان دخلهم المنتظم يأتى من حراسة طرق القوافل وسلب القوافل التى كانت لا تدفع « الاتاوة » أو نقود الحماية . وكانوا محاربين أشداء امتدوا بغزواتهم حتى وصلوا الى تيمبوكتو على نهر النيجر .

وشمال شرقى افريقيا ، أى شرقى وجنوب مصر ، منطقة قائمة بذاتها من

الناحيتين الجنسية والحضارية . فللسكان المحليين صفات جسمانية تضعهم فى مركز متوسط من الزنوج والقوقازيين . فهم يجمعون بين اللون الأسمر الداكن والملامح القوقازية . أما الشعر فهو يختلف تماما عن شعر الزنوج الأصليين لأنه خشن جعد جدا لدرجة أنه اذا ما ترك لينمو الى درجة كبيرة فانه يقف منتصبا فيصبح كأنه شجيرة . ولا نعرف على وجه التحديد أصل هذا النوع بالرغم من أنه يعتبر عادة نتيجة للاختلاط القديم بين الزنوج والقوقازيين ، ولكن هذا الامتزاج قد أصبح مع الزمن ثابتا تماما . فاذا كان ذلك صحيحا فانه يتعين علينا أن ننظر اليه على أنه فرع من أحـد الأجناس . وحيث ان المنطقة تعتبر من أكثر المناطق حرارة وأكثرها تعرضا لقسوة الشمس ، فان اللون القاتم يكون مفيدا ، ويكون ثباته نتيجة لعملية اختيار طبيعية .

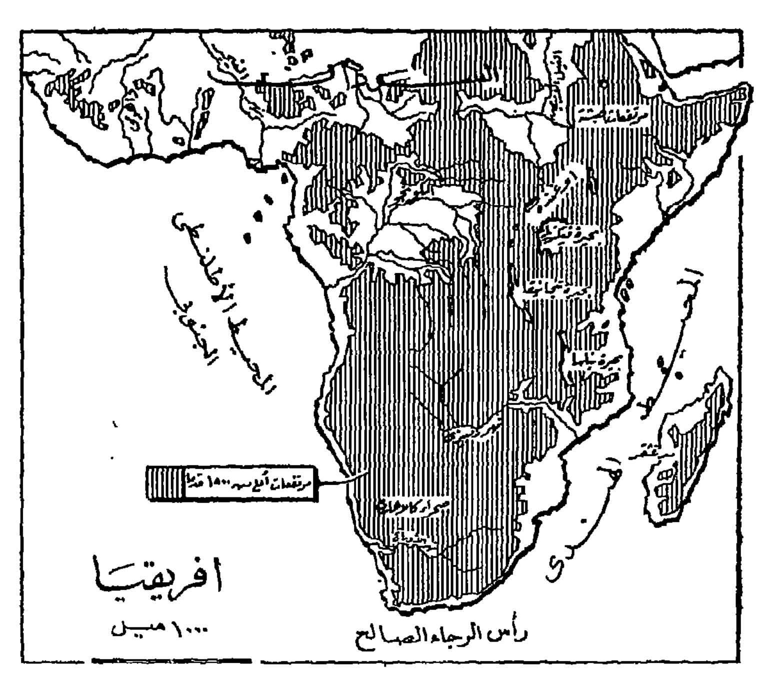
وفى هذه المنطقة ثلاث حضـارات مختلفـة ، اثنتان منها فى الأراضى المنخفضة ، وواحدة فى الهضبة الاثيوبية . وتقوم كل من حضارتى الأراضى المنخفضة على الاقتصاديات القائمة على تربية الحيوان . واحـداها ، وهى الحضارة السائدة فى بلاد الصومال ، تتبع فى كل نواحيها النظام الرعوى المألوف عند الساميين ، ويتركز اهتمامهم الاقتصادى فى الابل والأغنام والماعز، أما المواشى فكان الاهتمام بها ضئيلا وعرضيا .

أما الحضارة الأخرى وهى الخاصة ببلاد الجالا ، وتقوم على الحيوان المستأنس ، فهى حضارة ذات طابع افريقى خالص وتقوم على صناعة الألبان وتعتبر المواشى أعظم الحيوانات أهمية . أما الحضارة الحبشية فهى تقوم على مزيج من الزراعة والاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس ، ولكن الزراعة تستأثر بالأهمية العظمى . ولما كان الأحباش قد اعتنقوا الدين المسيحى فى القرن الثالث الميلادى واحتفظوا خلال الفترة التاريخية بأواصر الصداقة بينهم وبين المسيحيين الآخرين ، والمجتمعات الاسلامية فيما بعد ، فان هذه الحضارة لا تقترب من الحضارات الافريقية بقدر ما تقترب من حضارات الشرق الأدنى.

وفى الحضارة الحبشية تأثيرات بيزنطية قوية وتأثيرات عربية كما كانت الأنظمة الحكومية فى جوهرها ذات طابع سامى .

وانتشر زنوج افريقيا من الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى وشرقى السودان الى أقصى جنوب أفريقيا حيث يقابل الانسان قبائل « الخويسان » أى « البشمن » و « الهوتنتوت » الذين يختلفون عنهم بعض الشىء من الناحيتين الجسمانية والحضارية . وبالرغم من وجود اختلافات محلية عديدة ، اذ أن بعض مظاهر معينة توجد فى كل أنحاء المنطقة مما يجعلها تظهر وكأن هذه الحضارات المختلفة قد انحدرت كلها من أصل واحد فى وقت موغل فى القدم . فالاختلافات بين هذه الحضارات تظهر فى صور واضحة فى ميادين التكنولوجيا ، وفى التنظيم الاقتصادى ، وهما عنصران حضاريان يتأثران تأثرا كثيرا بالاختلافات فى البيئة الطبيعية وبالصلات مع الحضارات الأخرى، كما توجد أيضا اختلافات واضحة فى مقـــدار ، ونوع ، وتنظيم الجماعات الســـياسية .

وكانت هناك نظم اجتماعية معينة موجودة فى كل أنحاء افريقيا الزنجية . فتعدد الزوجات أمر شائع وهو مرتبط بزيادة عامة فى عدد النساء ، وذلك راجع من ناحية الى أوجه النشاط الخطرة التى يمارسها الرجال كما يرجع من ناحية أخرى الى زيادة عدد الاناث على الذكور فى نسبة الولادة وفى نسبة البقاء . ودفع مهر العروس أمر شائع عام ، وكان يقصد منه فى أول الأمر أن يكون تعويضا لعائلة المرأة عن الخسارة التى تلحق بهم لفقدهم لخدماتها ، وخدمات أبنائها الذين فى ضمير الغيب . ولكن مثل هذا التفسير لم يجعل من المرأة شيئا من بين الأشياء التى يمتلكها الزوج ، ولم يمنعها من فصم عرى الزواج اذا تعرضت لاستفزازات تكفى لاغضابها . وبالرغم من وجود نظام الانتساب الى كل من الأم والأب فان الزواج فى كل مكان تقريبا كان من بين الأقارب المحليين من أهل الأب . وكان المقر ، أو المنزل المعتاد للعائلة ، يجمع



العائلة كلها ، وكان لكل زوجة وأبنائها مسكن خاص . وكان هناك ميل قوى لتكوين عائلة مترابطة من أبناء الرجل وأحفاده وذلك بأن يستمروا فى الحياة تحت سقف واحد ، وأن يمتلكوا العقارات مجتمعين وأن يتعاونوا فيما بينهم وفقا لارشادات رئيس من بينهم بحكم الوراثة . أما الرجال الذين يستطيعون الخروج على ذلك ، ويمكنهم تحمل المسئولية ويقيمون منازل مستقلة لأنفسهم ، فانهم يصبحون بدورهم مؤسسين لعائلات جديدة ترتبط بالعائلات الأخرى . وان بضع عائلات من العائلات التى تكونت بهذه الطريقة والتى ما زالت تعترف بوشائج القرابة ، تستطيع أن تكون فرعا للعشيرة كما تستطيع بضعة فروع من العشيرة أن تكون عشيرة أخرى .

وفى خارج مناطق الممالك الكبيرة ، ليست العشائر الا وحدات اقليمية محلية . والعشائر الفرعية ، دون استثناء تقريبا ، تتزوج من الخارج . كما أن العشائر أيضا تتزوج عادة من خارجها عندما تكون جزءا من وحدات سياسية

كبيرة ، أما اذا كانت مستقلة من الناحية السياسية ، فان أفرادها يتزوجون فى داخلها ، وعلى رأس كل مجموعة من الناس المرتبطين برابطة القربى يوجد رئيس أو زعيم يستمد قوته من الدور الذى يلعبه فى عبادة الأسلاف . وكان أعضاء العشائر ، والعشائر الفرعية يميزون أنفسهم فى الغالب بلبس نوع خاص من الملابس ، أو عمل تشريط معين فى وجوههم أو غير ذلك . أما الطواطم ، أى الحيوانات أو النباتات أو الأشياء التى كانت ذات صلة خاصة باحدى الجماعات الانسانية فقد كانت شائعة جدا فى العشيرة الواحدة . كان يحرم على أفراد العشيرة أن يذبحوا أو أن يستخدموا طوطمهم ، ولكنهم كانوا لا يعترضون على قيام أفراد العشائر الأخرى بهذا العمل . وكانت هناك فى العادة أسطورة تشرح هذه العلاقة بين العشيرة والطوطم ، ولكنهم لم يعتقدوا فى أغلب الحالات بأنهم من نسل الطوطم .

كانت المجتمعات منتظمة تنظيما طبقيا ، وهو تقسيم ثلاثى يبدأ بالزعماء ثم العامة الأحرار ، وأخيرا العبيد . وكانت العلاقات بين الزعماء والذين من دونهم علاقة استبدادية (أوتوقراطية) الى حد بعيد . كان هذا النظام يبدأ بالعائلة ، وكان المنتظر من الأطفال أن يظهروا احتراما زائدا لآبائهم ، كما كان يتوقع من الشبان أن يظهروا احتراما زائدا للذين يكبرونهم سنا ، وقد انعكست مثل هذه الاتجاهات فى سلوك أعضاء العشيرة أو العشيرة الفرعية نحو رؤساء هذه الوحدات ، كما انعكست فى سلوك الأفراد الذين لاينتسبون الى عائلات هامة فى المجتمع نحو الملوك والموظفين . أما نظم الانتخابات الشعبية أو الحكومة التى تمثل الشعب فلم يكن لها وجود . وكانت كل المناصب السياسية اما وظائف يتوارثها الأبناء عن الآباء أو يحصل عليها شاغلها بالتعيين . أما الديموقراطية فلم توجد الا فى القرية فقط ولم تتعدها ، اذ كانت الاتجاهات ، كما هو الحال فى جميع قرى العالم ، تقرر عن طريق المناقشة

غير الرسمية بين الرؤساء الطبيعيين للجماعة . وكان للزعماء مستشارون ينتخبونهم بأنفسهم ولا يسمحون لهم الا بتقديم المشورة فقط .

وبالرغم من هذه النظم الأوتوقراطية ، فان نظرتهم الى القانون ، التى تشبه تماما النظرة الأوروبية ، موجودة فى كل المجتمعات الزراعية وفى معظم مجتمعات الذين يعيشون على صناعة الألبان . كان يسمح للزعيم بممارسة سلطاته الأوتوقراطية ، ولكن فى حدود مفهومة واضحة ، ولم تكن مجموعات القوانين بأقل صلاحية لأنها كانت تنقل حرفيا . ومن أهم وظائف الزعماء أن يكونوا قضاة يحكمون بين الناس ، فكانت القضايا ترفع الى الزعيم ، ويقدم المتخاصمان حججهم بعد أن يقسم كل منهما اليمين ، ويعتمد الزعيم فى حكمه على السوابق . وكان يتوقع منه أن يظهر حكمه وصلاحيته لمنصبه وذلك عن طريق المهارة التى يظهرها فى فهم الحجج المتعارضة وفى توقيع العقاب المتناسب مع الجريمة . وفى حالة وجود حكومة بها موظفون ، فمن الممكن أن تستأنف القضايا من المحاكم الابتدائية الى المحاكم الأعلى منها الى أن تصل الى رئيس الوزراء أو حتى الى الملك نفسه . وكان مسموحا بصفة عامة بالحكم بين متخاصمين بوساطة الحكم الالهى عن طريق التعذيب ، ولكنهم كانوا يلجأون الى ذلك فقط عندما تكون الأدلة غير جازمة ، ويترتب على ذلك عدم الوصول الى قرار نهائى .

وكانت الطقوس الخاصة بالوصول الى سن البلوغ عامة بينهم . كانوا يلقنون مجموعات الصبية والبنات الارشادات فى معسكرات منفصلة تقام فى الغالب على مسافة غير بعيدة من القرية . وفى هذه المعسكرات كانوا يعيشون تحت الرقابة الكاملة من أفراد بالغين ولكن يجب ألا يكونوا آباء أو أمهات لهؤلاء الشبان . كان هؤلاء البالغون تلقى عليهم الغشاوة بمختلف الوسائل ، ثم يلقنونهم فى النهاية المعلومات الجنسية ، وغالبا ما كانوا يلقنونهم أيضا بعض المعلومات الدينية السرية . وكانوا يقومون بعمل عمليات مختلفة من تشويه

الجسد فى أغلب الحالات وبطرق شتى . وكانوا يختنون الصبية . أما بالنسبة للبنات فكانوا يقطعون البظر ، وفى المناطق التى يزاولون فيها عمل التشريط فى الوجه ، فانهم كانوا يشرطون وجوه كل من الغلمان والفتيات بالعلامات المميزة للقبيلة .

وكانت عبادة الأسلاف هى الدين الأساسى للعلم فى افريقيا الزنجيـــة . وكانوا أصلا يتوجهون بهذه العبادات الى مؤسسى الجماعات المتصلة بصلة القربى والى الأبطال الذين كانت أعمالهم ما زالوا يتذاكرونها فيما بينهم . كانوا يؤمنون ايمانا ثابتا بأن الموتى يهتمون كثيرا بما سيفعله خلفاؤهم ، وأنهم قادرون على مساعدتهم وكانوا قادرين أيضا على الحاق الضرر بهم ، كما كان فى الامكان التأثير عليهم بوساطة الابتهال وبالأخص تقديم الأضاحى. وعلى هذه الافتراضات الأساســية نشأ الكثير من المعتقــدات والعادات المحلية . فبالاضافة الى أرواح الأسلاف ، كانت هناك آلهة غير آدمية ، ولكن عدد هؤلاء الآلهة وأهميتهم كانت تختلف اختلافا كبيرا بين منطقة وأخرى . وباستثناء القليل من الممالك الكبيرة كانت عبادة الآلهة تقل فى أهميتها عن عبادة الأسلاف .

وكان هناك اعتقاد راسخ فى السحر بكل فروعه ، كما كان المطببون الذين يمارسون هذه المهنة ، يحتلون مراكز مرموقة بينهم . كان الكهنة المحترفون يقومون بالعناية بهياكل الآلهة المختلفة ويشرفون على عبادتها . أما الاشراف على عبادة الأسلاف فقد كان من واجبات رئيس الجماعة من ذوى القربى . وكان هناك أيضا من يحترفون الانباء بالغيب ولا يمارسون غير هذا النوع من السحر ، أما النشاط الرئيسى للمطببين فقد كان موجها بصفة خاصــة الى شفاء المرضى .

كان المطبب ، عادة ، شخصا ذا نزعات هستيرية ، ولما كان هذا المنصب منصبا هاما من الناحية الاجتماعية ، وفى الوقت ذاته يدر الكثير من المال فقد

كانوا يراقبون وجود مثل هذه النزعات فى الأطفال ، وكانوا يشجعونهم وكانوا يصوغون تعبيراتهم فى الصيغ التى تلائم ما ينتظرونه لهم . وعلى النقيض من الاعتقاد السائد فان من النادر ، بل يكاد يكون من المستحيل ، أن نجد رجلا مطببا يشكو من مرض عقلى . فلكى يزاول هذا المطبب عمله بنجاح ، كان يتحتم عليه أن يعرف الكثير فى الحقائق وأن يكون ممتازا فى ذكائه ، وفى الوقت ذاته يجب أيضا أن نعرف أن الغالبية من المطببين ليسوا من أهـل الشعوذة . كان هذا الشخص يعتقد فيما لديه من قوى ، وكان يملك فى الغالب تلك المقدرة التى تسميها الآن الادراك الحسى الزائد ، وكان أيضا فى معظم الحالات معالجا نفسانيا عظيما ، ولديه علم بعلاجات حقيقية للأمراض لا صلة لها بالسحر ، يعالج بها المرضى الذين يشكون من الأمراض العادية . وما من شك فى أن دراسة العقاقير الطبية الافريقية وطرق الشفاء من الأمراض يمكن أن تقدم الكثير من المعلومات الى معارفنا الطبية . كان المطبب يعرف السحر بكل فروعه ، وكان فى مقدوره أن يقتل ، كما كان فى مقدوره أن يبرىء . كان على استعداد لأن يقدم التعويذات التى تؤذى وأن يقدم أيضا الارشادات اللازمة لاستخدامها ، تماما كما يفعل الصيدلانى الحديث اذا قدم السموم . ومع ذلك ، فان هذا كله ليس الا ناحية بسيطة من أوجه النشاط . ويجب ألا نخلط بين المطببين والسحرة الذين يؤذون الناس الذين يوجدون فى كل مكان فى افريقيا الزنجية . فالساحر شخص يمارس دائما السحر الشرير ولهذا يعتبرونه فى كل مكان عدوا لدودا للجماعة ، لأنه يسعى للشر حبا فى الشر . ولم يقتصر أذى السحرة على الأفراد فحسب ولكنه ضد الانسانية عامة . ولذلك كانوا يقتلونهم بدون شفقة حيثما كان يكتشف أمرهم . كانوا يعتقدون أن اشتغال الرجل بالسـحر لم يكن فى الغالب من وحى ارادته واختياره بل كان يفعله دون ادراك اذ كانوا يظنون أن ذلك راجع الى وجود « مادة سحرية » فى الجسد وصفوها بأنها مادة هلامية بيضاء تشبه « البلغم »

بعض الشيء ، ومن الممكن الحصول على مثل هذه المادة بطرق شتى ، كما كان من المحتمل أن تصل الى الشخص بطريق الوراثة ، ومن الممكن أن يصبح الشخص ساحرا شريرا دون أن يدرى . وبما أن أعضاء الجماعة يشتركون جميعا فى الايمان بهذه المعتقدات فان الأشخاص الذين يكتشف أمرهم ويتهمهم المطببون بمزاولة أعمال السحر ، كانوا فى العادة يعترفون ويحكم عليهم بالاعدام دون أى اعتراض . وبينما كان المطببون يعملون فرادى ، اللهم الا عندما تضطرهم آداب مهنتهم الى الاجتماع بغيرهم ، فان السحرة يعملون، كما هو المعتقد ، فى جماعات منظمة يجتمعون فى الخفاء وينظمون معا ما يريدون عمله .

ومن أهم وجوه نشاط المطببين عمل الفتيش . ومن الصعب على القارىء غير الافريقى أن يفهم حق الفهم طبيعة هذه الفتيشات . فانها لم تكن مسكونة بالأرواح كما أنه من المعروف أنها كانت تصنع ، ومع ذلك كانوا ينظرون اليها على أنها كائنات حساسة . كانت القرابين تزيد من قوتها ، كما كان فى مقدورها أن تسمع ، وأن تستجيب للدعوات وأن تجلب الحظ الحسن أو الحظ السيىء ، وترجع قوتها الى كونها مركبة من مواد معينة ومصنوعة بطريقة معينة ، ومعظم المواد التى كانت تصنع منها « الفتيشة » مأخوذة من النباتات والحيوانات، ولكن كثيرا منها ذات القوى العظيمة كانت تشتمل على دم آدمى ، وعظام ، وبعض أعضاء من الجسم . والفكرة مع ذلك لا تختلف كثيرا عن فكرتنا نحو مادة مثل البارود ، فهو مركب من الكبريت وفحم الخشب وملح البارود ، وكل منها غير ضار فى حد ذاته ولكن تصير لها قوة مدهشة عندما تتحد بنسب معينة وبطريقة معينة .

وكان فى استطاعة قطعان الماشية التى جلبها المهاجرون النيوليتيون الى افريقيا أن تنتشر فى المناطق التى تنمو بها المحصولات التى جلبوها معهم بعد جهد كبير ، هذا اذا نمت على الاطلاق . وكانت النتيجة الناجمة عن ذلك هى

تطور وارتقاء حضارة صناعة الألبان الافريقية التى تشبه فى بعض نواحيها الحضارة الأوروبية الأسيوية التى وصفناها آنفا فى الفصل التاسع عشر . وفى العصور التاريخية ، على الأقل ، كان أصحاب حضارات صناعة الألبان الافريقية فى غالبيتهم من الزنوج ، مع أن كثيرا من هؤلاء الزنوج كان يظهر فيهم آثار اختلاطهم بالجنس القوقازى . وكان مركز التطور بالنسبة لصناعة الألبان ، على ما يظهر ، هو شرقى السودان ، وهو المركز الذى ظهرت فيه فى الأزمنة المتأخرة أكثر الخصائص المميزة لهذه الحضارة . وبالرغم من أنها قد تطورت ، كما هو مفترض ، عن طريق الحيوان المستأنس الذى كان يمثل نصف اقتصاديات العالم النيوليتى الأصلى ، فليس هناك شك فى أن جماعات الصيادين وجامعى الطعام ، الذين لم يعرفوا الزراعة على الاطلاق ، قد أقبلوا على هذه الحضارة اقبالا مباشرا ، اذ يصعب علينا أن نفسر ما حدث بين قبائل الهوتنتوت بأى تفسير يقوم على أساس آخر خصوصا واننا نعرف انه حدث فى أجزاء أخرى من العالم ان انتقلت بعض القبائل من حياة الصيد الى الاقتصاد القائم على الحيوان المستأنس فى سرعة وسهولة تامتين .

وركزت كل حضارات صناعة الألبان الافريقية اقتصادياتها على قطعان الماشية ، وكانوا يربون عادة بعض الحيوانات الأخرى ، وأخصها الأغنام ، ولكن بأعداد قليلة ، وكانت أهميتها الحضارية ضئيلة . وفى العصور التاريخية زاولت معظم المجتمعات التى مارست حضارة صناعة الألبان ، فيما عدا الهوتنتوت ، الزراعة فى حدود ضيقة ، حيثما سمحت الظروف المناخية بذلك . وكانت محصولاتهم الأصلية على ما يرجح هى المحصولات الافريقية التى سبق ذكرها ، ولكن منذ القرن السابع عشر فصاعدا أضيفت الى هذه المحصولات محصولات أخرى ، ثم حلت محلها محاصيل غذائية من أصل أمريكى وعلى الأخص الذرة والفول السودانى ونبات المنيوق (mania-) والقرع العسلى . وقد ينجم عن ادخال هذه النباتات ، التى تناسب تماما بيئة الهضبة الافريقية ،

زيادة فى اعتماد الشعوب التى تمارس صناعة الألبان على الزراعة . كانت الماشية هى المحور الذى تدور حوله وتتركز فيه العواطف والحضارة فى حياة السكان . واقتصرت كل الأعمال التى تدور حول الماشية على الرجال ، كما أن جميع الحضارات التى تعتمد على هذا النوع من الاقتصاد تسير على نظام الانتساب الى الأب والامتثال لسلطته . وكان مهر العروس يدفع بعدد من الماشية ، وفى بعض القبائل كانت العلاقة الجنسية التى تتم بين أى شخصين ، كانت والدتاهما قد دفع فيهما مهر بماشية من نفس القطيع ، تعتبر فاحشة منكرة محرمة . وفى بعض القبائل الأخرى كانت الزوجة التى تشترى بماشية حصل عليها الرجل لنفسه بدلا من أخذها من أقاربه تصبح ، فى عرفهم ، بأنها « تل » ولها الحق فى تأسيس فرع جديد من العائلة .

أما الثروة فانها تقدر حسب عدد القطيع الذى يملكه الرجل بصرف النظر عن نوعه ، وقد نجم عن هذا الاتجاه فى العصور الحديثة وجود مواش منحطة النوع ، كما أن سوء استخدام المراعى أضر بالمراعى المحجوزة للوطنيين . وكان حب الرجل لماشيته مضرب الأمثال ، وحتى من كان يملك منهم بضع مئات من الرءوس فانه يعرف كل حيوان يملكه . كانت الحيوانات تبيت فى حظائرها ليلا وترعى بالنهار تحت اشراف الغلمان ، وكانت تحلب فى الصباح وفى الليل ، كما كانت تفصد أيضا للحصول على شىء من دمها . وكانت عملية الفصد تتم من طريق اطلاق سهم صغير من قوس على أحد عروق الرقبة ويؤخذ كوب أو اثنان من دمائها ثم يترك الجرح بعد ذلك ليلتئم . واذا ما حكمنا اعتمادا على سلوك الحيوان ، فان هذه العملية لا تسبب الا القليل من الآلام . ولما كان المصريون القدماء لم يعرفوا هذه الطريقة على ما يبدو ، كما أن جميع الشعوب السامية تقف موقفا سلبيا ازاء استخدام الدم فى أى صورة كانت ، فان ذلك يدل دلالة قوية على أن طريقة تربية القطعان الافريقية طريقة زنجية الأصل ، كما أنها توحى أيضا بوجود بعض تقاليد الصيادين بين

محدثى هذا التنظيم لأن كل الشعوب التى تعيش على الصيد تنظر الى الدم على أنه عنصر هام من عناصر الوجبة الغذائية ، والسهم كما هو معروف هو السلاح الرئيسى للصياد .

وبالرغم من أن معظم المجتمعات التى تقوم على صناعة الألبان فى العصور التاريخية كانت تخرج للصيد فى جماعات كبيرة للقضاء على الأسودوالحيوانات المفترسة الأخرى اذ كان من النادر أن تخرج هذه الجماعات للصيد بغرض الحصول على اللحوم . وحيث ان حيوانات الصيد كانت متوافرة فى كل مكان فى الهضبة ، فان هذا الاهمال لمورد طبيعى هام يبدو أمرا غريبا . وفى كثير من الحالات سمحت القبائل التى تعتمد على صـــناعة الألبان لبعض قبائل الصيادين ذوى المركز الاجتماعى المنحط بأن تشاركها المعيشة فى أراضيها ، وكانوا يحصلون منهم على جلود الوعل والحيوانات المفترسة الأخرى لكى يلبسوها . ولم يدخل على حضارات صانعى الألبان الا تقدم طفيف فى الناحية التكنولوجية . وكان معدن الحديد شائع الاستعمال بينهم كأدوات وأسلحة ، كما كان يستخدم حتى فى أدوات الزينة . كان هذا المعدن فيما يبدو متوافرا جدا . كما أتقنوا استخدامه فى الجزء الشمالى من الهضبة . وكان الحدادون يكونون فى كل مكان طبقة مستقلة بنفسها ذات مركز اجتماعى منحط ، وربما كان تفسير ذلك هو أن طرق الصناعات الفنية الحديدية قد أدخلها صناع أجانب. وكانوا ينسجون الحصر ولكن النول الحقيقى لم يكن معروفا لديهم .

أما الملابس فكانت قليلة ، وكثير من أهالى الشمال الذين يمارســـون صناعة الألبان كانوا يمشون عرايا تماما ، لا يحملون فوق أجسامهم الا بعض أدوات الزينة . وفى أقصى الجنوب كان النساء والرجال يرتدون مآزر قصيرة حول الوسط . وكانت الأغطية المصنوعة من جلود الوعل والحيوانات المفترسة الأخرى عنصرا هاما من عناصر الملابس فى كل أنحاء المنطقة . وكانت الأوانى تصنع من الخشب أو من نبات القرع ، ومع هذا فان أوانى الطهى البسيطة

المصنوعة من الفخار كانت منتشرة بين كثير من القبائل . وكان الفن بدائيا ، واقتصر على بعض الرسوم الهندسية البسيطة التى كانت تعمل بوساطة الحرق فوق سطح الأوانى . وعلى النقيض من غربى افريقيا ، لم تكن هناك تماثيل منحوتة أو أقنعة أو أى أدوات خاصة بالطقوس ، ويرجع ذلك بدون شك الى طبيعة الدين البسيطة وغير المنتظمة ، نسبيا فى المنطقة .

وكان التنظيم الاقتصادى بسيطا . واذا تركنا جانبا الحدادين ، لم يكن هناك صناع متخصصون . كما أن الأسواق التى كانت ذات أهمية كبيرة فى كل الاماكن الأخرى فى افريقيا الزنجية لم تكن من الأمور التى تمتاز بها حضارات صانعى الألبان فاذا حدث ووجدت مثل هذه الأسواق ، فمن السهل أن نعرف أن ذلك راجع الى تأثير أجنبى .

وفى قبائل صانعى الألبان ، كانت المعتقدات الدينية وطقوسها بسيطة للغاية . فلم تكن هناك مبادىء أو قوانين تبحث فى طبيعة الروح ، كما أن المعتقدات التى تتعلق بأحوال العالم الآخر كان يكتنفها الغموض . وكانت نظرتهم نحو خلود الروح بعد الموت تتسم بالاعتدال حتى بين أعظم الجماعات ميلا الى الحروب ، اذ أن نسبة الأمل فى بقاء الانسان حيا لمدة طويلة كانت نسبة قليلة . ولقد اتفقت بعض قبائل صانعى الألبان الشمالية مع الشاعر جوته فى أن الروح ليست هبة وانما هى شىء يناله صاحبه بمجهوده ولهذا اقتصر الخلود على الزعماء والمطببين والأبطال . واعترفت معظم قبائل صانعى الألبان بوجود كائن أعظم ، كما اعترفت بوجود بعض آلهة أخرى . ولكن هذه القبائل كانت تفتقر الى معابد منظمة وأمورها منسقة مثل معابد الآلهة لدى الشعوب التى تشتغل بالزراعة . وعلى وجه العموم لم يهتم الناس بعبادة الآلهة والأسلاف الا فى حالات الخطر فقط ، وكانت الطقوس فى هذه الحالات بسيطة جدا . كانت القرابين الحيوانية تقدم من آن لآخر ، أما القرابين الآدمية فقد كانت نادرة جدا .

وتحتم الحياة بين سكان حضارة صانعي الألبان خلق نظم خاصة في الأماكن التي يقيمون فيها (انظر الفصل التاسع عشر) . كانت الجماعات الافريقية التي تشارك في هذا النوع من الاقتصاد تعيش عادة في أكواخ صغيرة ومنتشرة في كل مكان ويسمى الواحد منها « كرال » يعيش في كل منها عائلة مرتبطة ببعضها . كانت المنازل التي تحتلها الزوجات والأبناء وزوجاتهم تشيد حول حظيرة للماشية تتوسط المكان . ولما كانت الماشية تغرى دائما بالاغارة عليها لسرقتها ، فان معظم جماعات صانعيالألبان الافريقية كانت من القبائل التي تميل جدا الى الحرب ، الأمر الذى مكن لها من أن يكون لها مركز محترم في علاقاتها مع جيرانها الزراعيين الذين لا يميلون مثلهم الى الاعتداء ، وقد أدى ذلك في النهاية الى وجود دويلات عديدة على أطراف المنطقة التي كانت تربى فيها الماشية وأن تصبح الطبقة الأرستقراطية التي تحتفظ بالماشية هي الطبقة الحاكمة للمناطق التي يقطنها سكان أغلبهم من الفلاحين . وهناك ظاهرة عجيبة خاصة بتلك الدويلات ، وهى أن كثيرا من تلك التي نشأت على الحد الجنوبي من السودان لم تنشأ الا منذ عهد قريب نتيجة لهجرات قامت بها قبائل « الفلا » (Fullah) التي أتت من الشرق . ويصعب علينا أن نحدد تماما الجنس الذى تنتسب اليه هذه القبائل التي نرى فيها مزيجا واضحا من الملامح الزنجية والملامح القوقازية . ويبدو أنها كانت أصلا من بلاد السنغال وبعد اعتناقها للاسلام بدأت تهاجر على نطاق واسع نحو الشرق ، وحيثما كانوا يذهبون كانوا ينجحون في السيطرة على الزنوج . وحتى في العصر الحاضر نراهم قد نجحوا في السيطرة على الشعوب الزنجية التي تعمل في الزراعة في المناطق التي لا تخضع خضوعا رسميا لحكمهم .

وفي خارج المناطق التي كانوا يحكمونها كفاتحين ، كان التنظيم السياسي عند رعاة الماشية من السودانيين وسكان شرقي أفريقيا تنظيما بدائيا . كان النظام المعتاد هو اتحاد يقوم بين العشائر والعشائر الفرعية ويراعى فيه مركز

كل عشيرة ومكانتها . أما نظام الرق فلم يكن مهما من الناحية الاقتصادية ، وفى كثير من الحالات لا نرى أثرا لوجوده .

كانت النظم القانونية أقل تطورا هنا منها فى المناطق الزراعية . أما السلطة السياسية التى كانت سائدة بينهم فقد كانت فى العـادة مركزة فى يد زعماء العشائر أو المطببين الذين يتوارثون مهنتهم ، وكانت وظيفتهم الرئيسية هى انزال الأمطار . وكانت النظم الثانونية أقل تطورا هنا منها فى المناطق الزراعية .

وأكثر المظاهر الاجتماعية التى يمتازون بها هى تلك الأهمية الكبيرة التى يعلقونها على تكوين مجموعات من الشباب الذين فى سن متقاربة . وكانت كل مجموعة من الشباب الذين يصلون الى سن معينة يختلفون بدخولها طور الرجولة فىوقت واحد ، ويجرون لافرادها عملية الختان بنفس المدية ، وبذلك يقيمون بينهم عهدا من الاخاء ، ويصبحون مرتبطين برابطة الدم . ومثل هذه المجموعة كانت تخدم معا كوحدة فى الجيش ، وكان لأعضائها حقوق عليهم وواجبات متبادلة بينهم وبين بعضهم البعض قد تمتد فى بعض الحالات الى حد اقتراض الزوجات .

ويسكن معظم أرجاء الهضبة فى جنوبى كينيا سكان من القبائل التى تتكلم لغة البانتو وهى قبائل لم تصل الى هذه المناطق الا منـذ وقت قريب نسبيا . وبالرغم من أن تربية الماشية كانت تضفى على اقتصاد هذه القبائل عندما اتصل بهم الأوروبيون ، فانهم كانوا يعتمدون أيضا فى الوقت نفسه على الزراعة اعتمادا كبيرا أكثر من القبائل السودانية وقبائل صانعى الألبان فى شرقى افريقيا . وقد يكون هذا الاتجاه ازداد نتيجة لمعرفة هذه القبائل للمحصولات الأمريكية فى الوقت الذى اتصل فيه الأوروبيون بتلك المنطقة لأول مرة . وليس هناك شك فى أنه قبل مجىء هذه القبائل الى الهضبة كانت حضارة هؤلاء الغزاة الذين يتكلمون لغة البانتو تشبه تماما حضارة سكان القرى من مزارعى غربى افريقيا ، ويبدو أنهم قد جلبوا معهم أساليب أكثر

تقدما فى التنظيم السياسى . وفى خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر استطاعوا أن ينشئوا فى المنطقة عددا من الامبراطوريات التى لم تعمر طويلا وكان كل منها يرتكز حول زعيم عظيم ومنظم حربى ، ولكن لم تستطع واحدة من هـذه الامبراطوريات تكوين الاداريين المحترفين الذين ساعدوا على الاستمرار فى بقاء الممالك الزراعية ، وأشهر هذه الامبراطوريات هى امبراطورية الزولو التى أنشأها الزعيم « تشاكا » .

وفى أقصى الجنوب من افريقيا استمر الهوتنتوت يحيون حياة هى صورة محرفة جدا من حياة حضارة صانعى الألبان ، وهؤلاء الهوتنتوت قريبو الشبه جدا ، سواء فى مظهرهم الجسمانى أو فى لغتهم ، بقبائل البوشمن . ولا شك أنهم كانوا يتبعون أصلا حضارة لها طابع حضارة البوشمن (انظر الفصل الثـانى عشر) ، ولكن طرأت عليها تعـديلات بسبب صلتهم بمجموعة من مجموعات حضارة صانعى الألبان . وقبل أن يغزو المتكلمون بلغة البانتو هذه الهضبة ، كان نفوذ الهوتنتوت يمتد كثيرا نحو الشمال ، ربما الى حدود كينيا . كانت الماشية والأغنام ذات الذيل السمين هى أهم حيواناتهم المستأنسة لأن كلا النوعين يمكن الحصول على اللبن منه . وكانت النساء هن اللاتى يقمن بأعمال الحلب ، كما كانت الماشية تستخدم كدواب للحمل ، وهما الأمران اللذان جعلا الشعوب الافريقية الأخرى من صانعى الألبان تنظر اليهم كأنهم يأتون أعمالا تقرب من الكفر . وبدلا من أن يعيش الهوتنتوت فى أكواخ ثابتـة (كرال) بوجه عام ، فانهـم كانوا يعيشون فى معسكرات مؤقتة ، وكانوا يكثرون من التحرك من مكان لآخر . وهم يعتمدون اعتمادا عظيما على الصيد الذى يقوم به الرجال ، أما أساس التنظيم الاجتماعى بينهم فهو الجماعة التى تعيش معا وتنتسب الى الأب وتتزاوج من الخارج . ولكن هناك دلالات كثيرة على أن الانتساب الى الأم أو على الأقل الانتساب الى كل من الأم والأب كان معروفا لديهم . وأهم الظواهر الاجتماعية التى يمتازون بها هى الاحترام

الكبير ، والذى يبلغ حد التجنب ، الذى يبديه الاخوة نحو اخواتهم البنات والروابط القوية التى تربط الرجل بأخواله . ولم يعرفوا من التنظيم السياسى الا القليل الذى لا يستحق الذكر . وبالرغم من أنه كان لكل مجموعة منهـم رئيس يرأسهم ، فلم يكن لهؤلاء الرؤساء سلطة حقيقية . أما الدين فلم يكن الا صورة غير منظمة من عبادة الأسلاف ، وكان للقمر شأن كبير فى أساطيرهم، ولكن لم يكن هناك شأن هام الا لثلاث كائنات أخرى ذات قوى فوق القوى الطبيعية كانوا ينظرون اليها على أنها أكثر أهمية من الأشباح العادية للموتى ، بل انهم كانوا يعتقدون أيضا أن هذه القوى الثلاث من أصل آدمى . وكانت الاحتفالات السنوية بمقدم المطر ، والتى كانت تقام فى شهر نوفمبر أو ديسمبر عندما يحين وقت أمطار الصيف ، أهم الاحتفالات الدينية عندهم .

وفى افريقية ، كان الحد الذى يفصل بين الحضارات الزراعية وحضارات صناعة الألبان يتصل اتصالا تاما بنزول الأمطار . فابتداء من حدود الصحراء الكبرى يزداد سقوط المطر كلما سرنا نحـو الجنوب فى مناطق الســودان الغربية والوسطى الى أن يصل الانسان الى الأقاليم الاستوائية الرطبة التى تقع فى الأراضى الساحلية الواطئة ، وفى حوض الكونغو . ولم يكن هــذا التغيير فى المناخ مفاجئا أو سريعا بل كان يسير تدريجيا الى درجة جعلت كلا من الحضارات الزراعية وحضارات صناعة الألبان تعيش جنبا الى جنب فى مساحات واسعة مترامية الأطراف فى الشرق وفى الغرب . وبالرغم من أن بعض القبائل كانت تمارس تربية القطعان والزراعة فى وقت واحد ، فان الأسلوب السائد بينهم كان يتمثل فى العلاقة التكافلية التى تربط بين صانعى الألبان وبين المزارعين الذين كانوا يعملون جنبا الى جنب ، ويتبادلون المنتجات . ومع كل ، فان السيادة السياسية لصانعى الألبان على المزارعين كانت هى النظام المألوف . وعلى طول الحدود الغربية للهضبة الافريقية الكبرى ، كان الانتقال المناخى من ناحية أخرى مفاجئا ، كما أن الحدود التى تفصل بين اقتصاديات

صانعى الألبان والمزارعين كانت تسير تماما مع الخط الذى تسقط فيه الأمطار بمعدل أربعين بوصة سنويا . وحيثما يزد انهمار المطر عن هذا المعدل فان وجود ذباب التسى — تسى ، الذى يحمل مرضا قاتلا للماشية ، كان يجعل من صناعة الألبان عملا غير مربح .

ويصلح الاقتصاد القائم على الزراعة ليكون أساسا لارتقاء ممالك عظيمة مستقرة نسبيا يمكننا أن نقول عنها ، اذا صرفنا النظر عن موضوع معرفة القراءة والكتابة ، انها تستحق أن تسمى مدنيات . وهذه هى الممالك التى سنتحدث عنها فى الفصل القادم ، وكانت كثيرة العدد ومتقدمة جدا فى المناطق التى تقع فى جنوبى السودان مباشرة . وبالرغم من أن النظم الامبراطورية قد تسربت هى الأخرى الى الكونغو فان معظم الدويلات التى قامت هناك تفتقر الى التنظيم المحكم الذى كان يسود الدويلات الشمالية ، وكانت أقل منها تقدما . والى الجنوب من ذلك اختفت المجتمعات المنظمة سياسيا تاركة وراءها جماعات مستقلة أو مجموعات صغيرة من القرى على رأسها زعماء محليون . وتشابهت نظم الحياة الريفية فى كل أنحاء المنطقة التى كان اقتصادها الرئيسى يعتمد على الزراعة لدرجة أن المرء يجد نفسه مضطرا الى الاستنتاج بأنه كانت توجد هناك طبقة حضارية قديمة وفرعية ، فرضت عليها النظم المركزية السياسية فرضا فى مناطق مختلفة دون أن تستطيع أن تغير شيئا كثيرا فى الحياة اليومية لعامة الشعب .

وفى المناطق التى كانت ترتفع فيها جدا النسبة فى نزول الأمطار كانت الماعز والدجاج والكلاب هى كل الحيوانات المنزلية ، ويقل أو يندر وجود أثر لتربية الخنازير . وعلى حدود المنطقة المزروعة كانوا يربون بعض الماشية ولكنا نلاحظ أنهم يميلون جدا الى التخصص فى ذلك مثل ميلهم الى التخصص فى وجوه النشاط الاقتصادى الأخرى . واتصلت القبائل التى تحتفظ بالماشية بالقبائل التى تعمل فى الزراعة ، وكانتا تتبادلان منتجاتهما والمحصولات

الرئيسية للمنطقة التى يغزر فيها سقوط المطر ، هى الموز واليام والتارو ، ويشار الى النبات الأخير عادة فى المؤلفات باسم يام الثور . والموز والتارو نباتان أصلهما من منطقة جنوب شرقى آسيا وقد دخلا الى افريقيا حتما عن طريق المحيط الهندى . كما نعرف أيضا أن فصيلة من فصائل نبات اليام ، على الأقل ، قد جاءت الى المنطقة من جنوب شرقى آسيا . ومن المرجح جدا أن الذين نقلوا هذه المحصولات هم المهاجرون الملايو — پولينيزيون الذين هاجروا الى جزيرة مدغشقر واستقروا فيها . وحيث ان جميع المحصولات ذات الأهمية الاقتصادية التى كانت تزرع فى المناطق الاستوائية الرطبة بافريقيا باستثناء اليام لم تكن من أصل افريقى ، فمن المرجح أن هذه المناطق قد تركت للقبائل البدائية التى كانت تعتمد على الصيد وجمع القوت الى وقت قريب نسبيا .

وفى المناطق التى كانت تسقط عليها الأمطار بكمية أقل كانوا يزرعون الذرة ونبات التيپوكا ومختلف نباتات الدخن (الذرة العويجة) والذرة الصيفية (السورغوم) والفول السودانى . ولكن يجب أن نلاحظ أنه فى هذه المنطقة أيضا لم تكن معظم المحصولات الأساسية فى العصور التاريخية من أصل افريقى . ويبدو من الأسلم أن نفترض أن الزراعة على نطاق واسع ، وهى التى تمهد السبيل لوجود عدد كبير من السكان المستقرين فى مكان واحد ، لم تظهر الا فى عصور متأخرة نسبيا فى افريقيا الزنجية . وحيث ان الحكومات المركزية القوية لا يمكن أن تنشأ بدون وجود مثل هؤلاء السكان فان الحضارات الزنجية يتحتم أن تكون ، هى الأخرى ، من أصل حديث نسبيا .

ومعظم المنطقة التى تشغلها الآن الحضارات الزراعية كانت فى الأصل منطقة ملأى بالأشجار النامية فيها ، أما المناطق الأخرى مثل الجزء الجنوبى من حوض نهر الكونغو والمناطق الساحلية فى غربى افريقيا فقد كانت تغطيها

الغابات الكثيفة ، ولهذا السبب كانت توجد فيها كميات هائلة من الأخشاب الصلبة ومنتجات الغابات الأخرى ، مما جعل فى الامكان حدوث تقدم فنى متقن ومتوازن ، ولو أن ما كانت تنتجه هذه الحضارة من مصنوعات كانت أشياء معرضة كثيرا للتلف . وبعبارة أخرى فان عالم الآثار الذى يعمل فى هذه المنطقة يواجه موقفا يشبه الموقف الذى يواجهه فى جنوب شرقى آسيا . وبعد ادخال صناعة المعادن أهملوا ، فيما يبدو ، صناعة الأدوات الحجرية بكامل أنواعها ، أما الأدوات الخشبية التى كانت كثيرة دائما على مر العصور ، فقد تعرضت للقضاء عليها بسبب النمل الأبيض والمناخ الاستوائى .

وفى العصور الحديثة عندما زادت قيمة الأشياء الأثرية فى حد ذاتها نرى كثيرا من الأوروبيين ينسبون أعمارا طويلة للأدوات ذات القيمة الفنية التى عثر عليها فى غرب افريقيا . وعلى أى حال فان عمر أى تمثـال من التماثيل الخشبية التى لا يصنع مثلها فى الوقت الحالى لا يمكن أن تزيد على مائتين أو ثلاثمائة سنة على أقصى تقدير ، ولكن من الأسلم فى أكثر الحالات أن تقدر مائة عام فقط كعمر لأى أداة لم تخرج من افريقيا قبل عام ١٩٠٠ .

أما صناعة السلال وعمل الحصر فقد كانت متقدمة فى كل أنحاء المنطقة الزراعية ، وكان غزل الملابس متقدما جدا فى الجزء الشـمالى الغربى من المنطقة ، الأمر الذى يوحى بأن هذه الصناعة قد دخلت الى هذه المنطقة كجزء من الحضارة الفيوليتية ويبدو أنها وصلت الى هذه المنطقة من بلاد البحـر الأبيض المتوسط . أما فى الأجزاء الشرقية والجنوبية من المنطقة المزروعة ، فقد استبدلوا الملابس المنسوجة بملابس أخرى مصنوعة من أوراق الأشجار . وهذه الملابس مثل مثيلاتها فى جنوب شرقى آسيا كانت تصنع من أوراق أشجار من عائلة الفيكوسى (Fieus — التين الهندى) ، ولكن بعض تفاصيل معينة فى صناعتها تدل على أنها أصيلة وغير منقولة عن غيرها . وكانت الأدوات الفخارية تصنع فى كل مكان فى المنطقة ، ولكن ندرة وجود أوان فخارية مزخرفة أو

ملونة تجعلنا نعتقد أن هذه الأدوات الفخارية صنعت لتكون أدوات للطهى قبل أى اعتبار آخر . أما الأدوات التى تستخدم لتناول الأطعمة فهى مصنوعة كلها من الخشب أو من قشرة نبات القرع . وكانت المنازل تشيد من الخشب والقش وهى مواد تلائم المناخ السائد فى المنطقة ، وكانوا يتقنون تشييدها اتقانا يدعو الى الاعجاب ، كما أن منازل المدن كانت فى العادة متسعة وكبيرة الحجم .

وكانت صناعة الحديد بما فيها من عمليات الصهر للخامات المعدنية المحلية منتشرة فى كل أنحاء المنطقة ، زد على ذلك أن صناعة صب الشبة (النحاس الأصفر) والذهب بطريقة الشمع المنصهر كانت من الفنون المتقدمة الى حد كبير .

أما البرونز فلم يكن معروفا بينهم ، كما أن العمال الزنوج الذين يشتغلون بعمل الأشياء المعدنية لم يعرفوا خلط المعادن وعمل السبائك منها . وكان الذهب يصاغ كما يصل اليهم من مناجم الذهب الراسب ، أما النحاس الأصفر فقد كانوا يحصلون عليه عن طريق التجارة . ولم يعرفوا استخدام العجلات فى أى صورة من صورها وهو نقص عجيب اذا ما أدخلنا فى اعتبارنا تلك الصلات الطويلة التى كانت تربط سكان الصحراء الكبرى بعضهم ببعض . وعلى النقيض من حضارات صانعى الألبان ، أنتجت معظم الحضارات الزراعية تماثيل محفورة فى الخشب ذات قيمة فنية كبيرة ، وكل الأدوات التى يمكن مشاهدتها فى المعارض الحديثة للفن الأفريقى قد صنعتها بالفعل تلك القبائل التى تمارس مثل هذا النوع من الاقتصاد . وقد وصل الانتاج الفنى الى أوج عظمته فى الممالك الكبيرة فى غربى افريقيا ، وفى الكاميرون وفى الجابون وفى منطقة حوض نهر الكونغو . وفى الممالك العظيمة نرى أن الفائض الاقتصادى المستمد من الشعوب المحكومة قد مكن الطبقة الحاكمة من معاونة الفنانين المحترفين ، بينما مهد الاقبال على أدوات الترف السبيل لوجود أسواق دائمة .

والشيء الذى يجب أن نذكره ونؤكده أنه حتى فى المناطق التى لايوجد فيها مثل هذا التركيز للثروة فان الصناع الفنيين ، مع استثناءات بسيطة ، كانوا دائما عمالا محترفين . وكلمة « بدائى » تسمية غير صحيحة اذا ما استعملت لوصف فن النحت الافريقى ، وأى محاولة لمقارنته بما يعمله الأطفـال أو المجانين ليست الا محاولة تدعو الى السخرية من صاحبها . ان المظاهر المختلفة التى نراها فى الفن التجريدى الافريقى ، وبعض الخصائص التى نشاهدها فى هذا الفن ، ليست الا نتيجة مباشرة لتقاليد وضعت أسسها منذ وقت طويل . وبالرغم من أن بعض الأعمال الافريقية قد تظهر لنا أنها أعمال ساذجة بسيطة اذا حكمنا عليها بمقياس القيم الأوروبية فان الفن الافريقى ليس فنا أقل من أى فن آخر زادت صفاته التقليدية زيادة كبيرة ، مثل الفن البيزنطى .

ومن أهم الظواهر فى الفن الافريقى ذلك التقدم الكبير فى صنع الأقنعة ، ولم يقصدوا من هذه الأقنعة اخفاء وجه مرتديها فحسب ، ولكن قصد بها أيضا منحه لفترة مؤقتة صفات الكائن الذى يمثله القنـاع . وفى كثير من الحالات ، كانت الأقنعة فى حد ذاتها عبارة عن فتيشات ، وبهذه الصفة كانت تقدم لها القرابين بين حين وآخر حتى تستطيع أن تحتفظ بقوتها ، وأن تحتفظ أيضا برغبتها فى المساعدة .

وكان العاج يستخدم بصفة رئيسية فى عمل أدوات الزينة ، وفى عمـل التعويذات ، وقد أتقنوا صناعته كثيرا . وخير ما صنعوه من العاج هو تلك الأقنعة الصغيرة والتماثيل ذات الشكل الغريب التى كان يصنعها أفراد قبيلة الوريجا ، وأنياب الفيلة العظيمة الحجم التى كانوا ينقشونها بالزخارف والتى كانت جزءا من مذبح « بنين » .

وتقدمت أيضا صناعة أدوات الزينة المصنوعة من المعدن تقدما عظيما فى غربى افريقيا ، وبالرغم من أن بعض القبـائل قد توصلت الى عمـل بعض الأدوات الحديدية المتقنة الصنع فان خير ما صنعوه كان من الشبة (النحاس

الأصفر) وهو معدن مستورد ، وكانوا يصنعون أدواتهم منه بطريقة الصب والشمع المذاب (انظر الفصل التاسع) ، وخير ما وصلنا مما صنع من هــذا المعدن هو رؤوس ملوك « ايف » التى يرجع تاريخها الى القرن الحادى عشر الميلادى والتى يمكن مقارنتها سواء فى فكرتها أو كمالها الفنى بخير ما أخرجته مصر من هذا النوع . ولا يزال الأشانتيون مشهورين ببراعتهم فى عمل التماثيل الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصــفر وينظمونها أحيــانا من مجموعات متشابكة لتصور الأمثال الشائعة بينهم . كما نبغوا أيضا فى صب التماثيل المصنوعة من الذهب ، وقد اعترف العالم كله بالتفوق الفنى الذى وصلوا اليه فى صناعة الرؤوس ذات الحجم الطبيعى المصنوعة من البرونز ، وكذلك فى اللوحات ذات الزخارف المعقدة التى قام بصنعها أهل « بنين » .

وفى تقسيم العمل بين الجنسين اشتغل الرجال ، كما هى العــادة ، فى الخشب والمعدن . كما أنهم اشتغلوا أيضا فى عمل الملابس من أوراق الشجر ، وهو مايختلفون فيه اختلافا كبيرا عما هو متبع فى جنوب شرقى آسيا ، واشتغلوا بالفخار والنسيج فى معظم المناطق التى ارتقت فيها هذه الصناعات . وفى الزراعة طهروا الأرض مما فيها من أشجار أو نباتات ، ولكنهم تركوا فى أغلب الحالات أمر الغرس وزراعة المحصولات للنساء . وكان هناك بعض الاستثناءات من هذه القاعدة فى حضارات غربى افريقيا ولكن الاشتغال بالزراعة بالنســبة للرجال كان يعتبر عادة عملا منحطا وكانوا يتركونه للعبيد كلما أمكن ذلك .

وحيثما يوجد الاقتصاد القائم على المزج بين الزراعة وتربية الحيوانات المستأنسة ، كان الرجال يعنون بأمر الحيوانات ، أما النساء فانهن يكرسن كل أوقات فراغهن بعد الانتهاء من أعمال الزراعة وشئون البيت ورعاية الأطفال فى عمل الأدوات الفخارية الضرورية للاستعمال ، وفى عمل السلال ، ويصرفن هذا الوقت فى الأعمال التجارية فى بعض الحضارات الأكثر تقدما . وكانت معظم الأعمال التجارية الصغيرة فى الأسواق فى أيديهن ، وكانت كل امرأة

تحاول أن تنتج فائضا من الطعام لأن الربح الذى يأتى من بيع هذا الفائض كان يعتبر من نصيبها وحدها .

وكان هناك ميل قوى بين كل القبائل الزراعية نحو الاحتراف . وبلغ هذا الميل أوج تطوره فى المدنيات التى كان فيها الأبناء يتوارثون حرفهم عن آبائهم ، كما أن التخصص المحلى الناتج عن توافر مواد معينة أو اتقان صناعات معينة ، كان أيضا من الأمور المعتادة . وامتد نشاط البعثات التجارية الى مسافات بعيدة فى مناطق كثيرة فان الأسواق كانت متوافرة بصفة مستمرة فى كثير من الجهات . ولقد بلغت هذه الأعمال التجارية أوج تقدمها فى المدنيات التى كانت تعتمد على الضرائب التى تفرض على السلع عند البيع كجزء هام من الدخل الملكى .

وساعد على تسهيل الأعمال التجارية استخدام عجلات محلية مختلفة الأنواع كان من بينها كتل من الملح ، وسبائك من قضبان نحاسية ، وأدوات وأسلحة حديدية من أشكال خاصة ، وما شابه ذلك ، كوسيلة للتبادل التجارى. وفى معظم المناطق الزراعية فى افريقيا كانت الوحدة المعتبرة أساسا للتعامل هى أصداف الودع التى كانت تأتى فى الأصل من جزر « مالاديف » أمام ساحل الهند وكانت الملايين من هذه الأصداف تستخدم فى جميع الجهات ، حتى فى غربى افريقيا ، عندما وصل الأوروبيون الى تلك البلاد . ولابد أن هذه الأصداف كانت تنقل عبر القارة ، كما أن وجودها يدل على المدى الذى وصلت اليه العلاقات التجارية الافريقية عندما كانت أمورها فى يد أبنائها الأصليين .

وكانت وسائل الزراعة بدائية اذا قورنت بغيرها . فلم تكن المحاريث معروفة بينهم ، كما أن الآلة الزراعية المفضلة لديهم كانت فأسا ذات يد قصيرة تضطر من يستخدمها أن ينحنى جدا حتى ليكاد رأسه يلمس الأرض . وكان من النادر استخدام السماد أو اتباع نظام المحاصيل الدورية وهى المحصولات

التى كانت تمد الناس بمقومات الحيـاة وكانت ذات أثر قوى على نظـم الاستقرار . فتطهير الأرض مما فيها من نباتات كان عملا من الأعمال الشاقة جدا فى مناطق الغابات التى تسقط فيها الأمطار ، ولكن المحصولات التى كانت تزرع فيها وهى اليام والتارو والموز كانت تجفف التربة ببطء ، وجعلت السكنى الدائمة فى نفس المناطق أمرا ممكنا . وفى المناطق الأكثر جفافا ، كان فى الامكان زراعة الأرض سنتين أو ثلاثا بعد تطهيرها من النبات ثم يتركونها بعد ذلك دون زراعة لعشر أو عشرين سنة . ولا ترجع هذه الدورة فيما يبدو الى استنفاد قوة التربة بقدر ما ترجع الى نمو الأعشـاب البرية فى الأرض المطهرة . ولم يكن فى مقدور المزارعين الوطنيين أن يتغلبوا على ذلك ، ووجدوا أن الأسهل لهم أن يهجروا الحقل الى أن تنمو النباتات الكبيرة فتخنق الأعشاب البرية وتقضى عليها . ولهذا السبب كانت القرى تنتقل من أماكنها كل عشرين أو ثلاثين عاما ، فأصبحت ملكية الأرض قليلة الأهمية ، مع الاحتفاظ طبعا بملكية المناطق الكبيرة بوجه عام . وكلما زاد عدد أفراد الجماعة المحلية أصبح لزاما عليها أن تترك مكانها ، كما كان هناك ميل نحو تقسـيم القرى الى مجموعات من البيوت المتفرقة عندما تكون هناك سلطة مركزية قوية تجعلهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم .

وحيث ان تطهير أرض جديدة لا يمكن أن يتم على وجه مرض الا بمجهود عدد كبير من الرجال أصبح وجود جماعات تتعاون فيما بينها هى الظاهرة الغالبة فى المجتمعات الزراعية . وبالرغم من مساوىء نظام الزراعة المتنقلة ، فقد نشأت مدن كبيرة الحجم فى كثير من مناطق غربى افريقيا أصبحت مستقرا للملوك كما أصبحت مراكز دينية وتجارية ، وهى تشبه فى ذلك مدن الشرق الأدنى فى العصور المبكرة . وقد ساعد على وجـودها واستمرارها تقـدم التجـارة ، الأمر الذى كان يضمن لها امـدادها بما يلزمها من مؤونة ومن المواد الخام .

وأقر كل من الجنسين تعدد الزوجات اقرارا تاما . فضلته النساء لأنه كان يرفع عن كاهلهن الكثير من مشقة العمل ، ولكن الرجال كانوا يفضلونه لأسباب أخرى . ففى كثير من القبائل كانت العلاقات الجنسية محرمة على الزوجة ابان فترة ارضاعها لطفلها ، ولما كان ارضاع الطفل يستمر عادة لمدة سنتين أو ثلاث فقد كان الزوج الذى يقتصر على زوجة واحدة يشعر بكثير من الحرمان . وأصبحت مكانة المرأة عالية جدا نظرا لأهميتها الاقتصادية ، فقد راعت القواعد المتبعة بينهم حقوق الزوجات اللاتى يعشن فى كنف رجل واحد . كانت الزوجة الأولى أو الزوجة التى تنتمى الى طبقة اجتماعية عالية ، ترأس النساء ، أى ترأس نصف العائلة ، وتشرف على أوجه النشاط الذى تقوم به النساء مجتمعات . وكان المفروض على الرجل أن يقسم وقته بالعدل والقسطاس بين زوجاته ؛ وذلك بأن يحدد أياما معينة لكل زوجة بالتعاقب بينهن . وخلال الفترة المخصصة لها كان للزوجة حقوق كثيرة على زوجها . وكان لها الحق دائما فى مشاركتها اياه فى أى أرباح يحصل عليها أثناء اقامته معها ، وفى واقع الأمر لم يكن هذا النظام يختلف كثيرا عن نظام الاقتصار على زوجة واحدة تتبعها أخرى وهكذا . وعلى العموم فان اختيار زوجة جديدة كان يخضع لموافقة الزوجات السابقات ، وكثيرا ما كانت زوجات الرجل يدفعنه للزواج من امرأة معينة يرين أن طباعها تتفق مع طباعهن وتصلح لمساعدتهن فى العمل .

وفى العائلة الحسنة التنظيم ، كانت كل زوجة تكرس فترتها مع زوجها للقيام بجميع الأعمال المنزلية مثل الطهى والعناية بالأطفال بدلا من جميع الزوجات الأخريات ، وبذلك تتفرغ الزوجات الأخريات للعمل فى الحقل وفى أوجه النشاط الأخرى مثل البيع فى الأسواق . وبالرغم من أن مثل هذا النظام يبدو غريبا اذا نظرنا اليه من ناحية القيم الأوروبية الا أن الانسان يجد نفسه مضطرا للاعتراف بأنه يقدم حلا من أعظم الحلول التى عرفت حتى الآن

بالنسبة للمشكلة النسائية التى تتمثل فى جمع المرأة بين قيامها بالأعمال المنزلية ، وفى الوقت ذاته اشتغالها بعمل آخر .

وكان الزوج من الناحية النظرية هو المهيمن على العائلة ، ولكن الرجل الذى يملك شجاعة فائقة فقط هو الذى يستطيع أن يتحدى زوجاته عندما يتحدن فى جبهة واحدة ضده . وكانت الروابط التى تربط بين الابن وأمه قوية على مدى الأيام ، وكانت العلاقة بين الابن وأبيه أقل ارتباطا . أما بالنسبة للاخوة فلم يكن بينهم كثير من الود ، وخصوصا الاخوة غير الأشقاء .

ونرى فى الشعوب المشتغلة بالزراعة عادة الانتساب الى فرع الأم والى فرع الأب على السواء . وحتى فى المجتمعات التى تسير على نظام الانتساب الى فرع الأب نرى بعض النظم التى توحى بأن هذه المجتمعات كانت فى الأصل تسير على نظام الانتساب الى عائلة الأم . وقد وجدت بعض المجتمعات التى تسير على نظام الانتساب الى الأم مشكلة عدم التوافق بينها وبين الاقامة بين قبائل تسير على نظام الانتساب الى الأب حلا لذلك ، وهذا الحل هو ارسال الأبناء الى فرع عشيرة أمهم بعد فطامهم بوقت قصير وهناك يعتنى بهم واحد من اخوتها الحقيقيين أو أحد أقاربها ومع مرور الزمن يكبرون ويتزوجون ويعملون كأفراد فى تلك العائلة .

وهناك نظام طريف آخر نجده فى بعض الحضارات التى تسير على نظام الانتساب الى كل من سلالة الأم وسلالة الأب فى وقت واحد ، والتى كان لكل منها نظمها الاجتماعية والدينية الخاصة بها ، اذ كان كل فرد ينتمى لجماعتين مثل هاتين الجماعتين يحرم زواجه من كليهما . وعلى أى حال فان دراسة نظم الأنساب فى المجتمعات الزراعية ، اذا نظرنا اليها نظرة عامة ، نرى أن نظام الانتساب الأصلى فى المنطقة كان هو الانتساب الى سلالة الأم . وهناك تفسير آخر يمكننا أيضا أن نقدمه وهو أن يكون النظام المبكر لهذه المجموعات المحلية المتصلة بصلة القربى كانت تتبع نفس النظام الذى كان

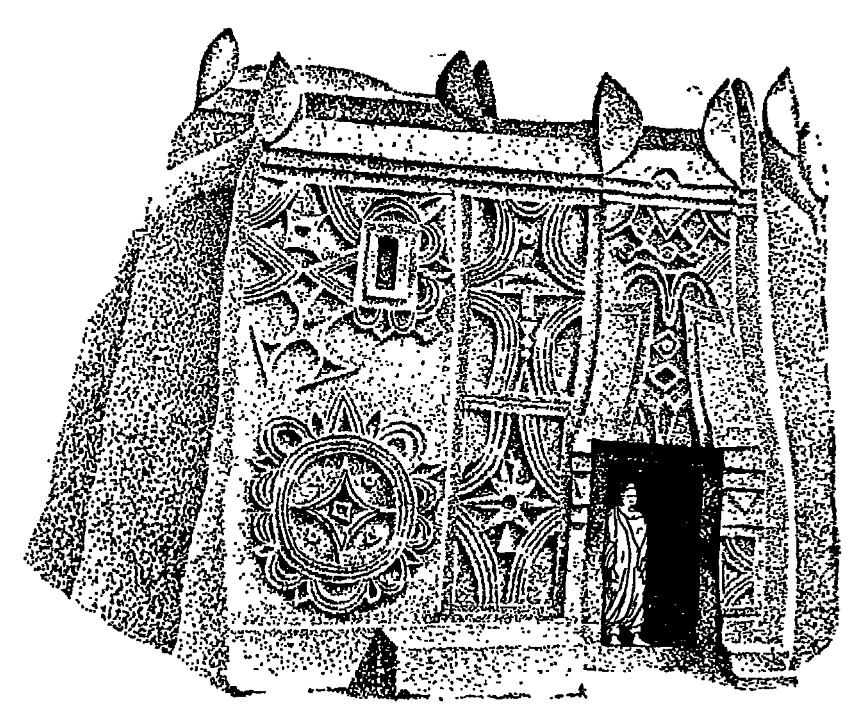
سائدا فى منطقة الأوقيانوسية « أوسيانيا » وهو الذى كان يقضى بالزواج من المجموعة نفسها . وفى مثل هذه المجموعات كانت الأنساب تسير عادة على نظام الانتساب الى كل من الفرعين ، ولكن عندما تتجه مثل هـذه المجموعة نحو الزواج من الخارج فانها تتطور وتسير اما على نظام الانتساب الى عائلة الأم أو نظام الانتساب الى عائلة الأب .

وكان المجتمع يسير على نظام طبقى ، وكان مقسما الى ثلاث طبقات : طبقة الزعماء ، وكانت فى العادة وراثية ، ثم طبقة العامة ، وتليها طبقة العبيد . وبالرغم من أن نظام الرق قد اتسع وازداد شأنه منذ اتصلت أوروبا بهـذه البلاد منذ القرن السابع عشر الى أوائل القرن التاسع عشر ، فليس هناك شك فى أنه كان معروفا فيها قبل ذلك . وهناك نوعان من الرقيق : الأعداء الذين وقعوا فى الأسر حديثا ، وهؤلاء كان ينظر اليهم على انهم فى مرتبة الحيوانات المنزلية ، والأرقاء المنحدرون من عائلات الرقيق التى أمضت وقتا طويلا تحت نظام الرق أو هؤلاء الأفراد من رجال القبائل نفسها الذين استرقوا سدادا لدين أو تكفيرا عن أخطاء بسيطة . وغالبا ما كان الرقيق يتصل بعائلة سادته الأحرار لعدة أجيال ، وكانوا يعتبرون بيع مثل هذا العبد الموروث وصمة فى جبين كل من العبد وسيده ؛ لأنه يدل على أن كلا منهما قد فشل فى علاقة اجتماعية مشروعة مع صاحبه . وكان فى الامكان بيع عبيـد الدين والمجرمين الذين أدينوا بسبب جرائم تافهة فى داخل القبيلة نفسها ، وكان من المحرم بيعهم خارجها ، وعلى الأقل كانوا لا ينظرون الى مثل هذا العمل نظرة الرضى والقبول . وكانت العلاقة التى تربط بين العبد والسيد تحددها نظم موضوعة منذ أوقات طويلة وتضمن لهم فيما عدا أسرى الحرب درجة معقولة من العدالة وحرية العمل . وكان السادة مسئولين عن عبيدهم ، كما كان العبد الموروث الذى يعمل عند عائلة من العائلات الكبيرة يتمتع بمركز أفضل فى كثير من النواحى من المركز الذى كان يتمتع به الرجل الحر الفقير .

وفى داخل المجتمع الطبقى كان لزعماء العشيرة الأصلية والعشيرة الفرعية مكانة هامة . كان مركز الزعامة فى العادة وراثيا فى عائلة معينة ، وهى أقرب العائلات الى الفرع الأصلى المباشر الذى انحدر منه الجد الأكبر لهـذه الجماعة التى ترتبط بروابط القربى . وكان الزعيم يختار من بين أبناء هـذه العائلة على أسس مزاياه ومقدرته أكثر من ترتيب مولده ، وكانوا يعتقدون أن القوة الروحية للجماعة كلها قد تجسدت فيه ، ولهذا السبب كان مثل هذا الزعيم يلعب دورا هاما فى جميع الطقوس الدينية التى من شأنها ضمان رفاهية الجماعة . أما فى الشئون الدنيوية فقد كان هو الموجه والمشرف على جميع أعمال المجموعة ، كما كان يقوم بالفصل فيما ينشأ بين أفرادها من منازعات .

وكان لكل مجتمع من المجتمعات التى تسير على نظام الاقتصاد القائم على الزراعة مجموعة قوانين على درجة كبيرة من التقدم ، كما كان لها نظم مرعية وأساليب قضائية . كانت القوانين تحفظ بدقة وكان للسابقات القانونية أثر هام عند نظر القضايا ، وكانوا يدعون الشهود ليؤدوا الشهادة بعد أن يحلفوا اليمين ، كما كان لكل من الجانبين الحق فى أن يوكل من يتولى شرح موضوعه. وباختصار ، كان النظام كله يشبه النظام الأوروبى تماما . وكانوا يلجأون ، كما كان الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى ، الى المحاكمة عن طريق التحكيم الالهى ، والتعذيب فى القضايا التى تكون الأدلة فيها متضاربة بحيث يصعب على القاضى أن يصل فيها الى قرار ، أو فى المحاكمات التى تعقد للفصل فى القضايا الخاصة بالسحر حيث يصعب جدا اثبات مثل هذه القضايا بالطرق القانونية المعتادة . وكانت تجربة براءة المتهم أو ادانته بطريقة الحكم بتناول السم من الأمور العادية بينهم ، ولكن الكمية التى كانت تعطى للمتهم لم تكن كافية للقضاء عليه .

وكان للدين فى المجتمعات الزراعية أهميـة تزيد كثيرا عن أهميته فى المجتمعات التى تعيش على صناعة الألبان . كان أهل الزراعة يعتقدون أن



بيت مشيد بالطين – نيجيريا

أسلافهم موجودين معهم فى كل وقت ، وأنهم لا يساعدون المنحدرين من أصلابهم فحسب ، ولكنهم أيضـا يقتصون منهم اذا ما اقترفوا أية أخطاء أخلاقية . وكانوا ينظرون الى السلف من الذكور خاصة بنفوس ملؤها الخوف أكثر من الحب . ومما يجدر ذكره أنه فى كثير من المناطق التى اعتنق فيها بعض أفراد القبائل الدين المسيحى وما استتبع ذلك من القضاء على ذلك السجن الذى كان يضعهم فيه أولئك الحراس غير المنظورين الذين كانوا يسهرون على جعل أبناء القبائل فى وضعهم القديم ، نرى أن النتيجة هى انهيار واضح للمعتقدات الوطنية . والى جانب الأسلاف كان هناك أيضا عدد من الآلهة ينظمون فى العادة على غرار العائلات البشرية . كان أولئك الآلهة ذوى صلة بقوى الطبيعة ، أما الذين كانوا يتمتعون بمراكز كبيرة من بينهم فقد كان لهم رسل ذوو قوى فوق القوى الطبيعية ، وخدم يعملون كوسطاء بين الآلهة وبين

البشر . وغالبا ما كان الناس يسعون بجد لاكتساب رضا هؤلاء الخدم أكثر مما كانوا يفعلون بالنسبة لسادتهم الآلهة الكبار . وقد بلغت هذه المعتقدات، كما هو المتوقع ، أوج تطورها فى الممالك العظيمة اذ انها كانت بالنسبة للقروى العادى لا تزيد عن مجرد أسماء مقدسة وكائنات تدور حولها أساطير شائقة ، ولكن لم تكن لهم بها صلات كبيرة .

وبصرف النظر عن أرواح الأسلاف التى كانت دائما تحيط بهم ، فان اهتمام القرية كان مركزا فى الفتيش الخاص بها ، وكان المطبب للقرية هو الذى يقوم بعمله عندما يبنون القرية ، وكان ينتقل مع القرية الى أى مكان تذهب اليه . وكانوا يحتفظون عادة بهذه الفتيشات داخل منزل فى داخل القرية أو فى خارجها ، حتى تضمن للجماعة دوام الصحة وحسن الحظ . وكان عليهم أن يسترضوها وذلك بتقديم القرابين ومعاملتها بإله من الآلهة . وبجانب الفتيش الرئيسى للقرية كان للجماعة عادة فتيشات أخرى لتساعدهم فى بعض وجوه نشاطهم مثل صيد الحيوانات ، وصيد الأسماك ، والزراعة ، وكانوا يزيدون من قوة كل منها باقامة الحفلات وتقديم القرابين فى أوقات معينة . وأخيرا ، كان فى حوزة كل فرد فتيشات شخصية يلبس بعضها ويترك البعض الآخر فى منزله ، وكان يعتقد أن بعضها يجلب الحظ الحسن بوجه عام ، والبعض الآخر للمساعدة فى بعض أوجه النشاط الخاصة مثل الصيد والحصول على المال .

وأخيرا ، يجدر بنا أن نذكر شيئا عن الجماعات السرية التى كانت منتشرة بين قبائل المزارعين . ولكن مما يثير العجب حقا أن جماعات صانعى الألبان لم يقبلوا ، فيما يبدو ، على مثل هذه الجماعات على الاطلاق . وأصل هذه الجماعات غامض ، ويرى البعض أنها قد نشأت تقليدا لنظام المرابطين بين سكان شمال افريقيا المسلمين ، كما يحتمل أيضا انها قد تطورت كنتيجة لنظام تنوير المراهقين بتفهيمهم بعض الأسرار وهو النظام المنتشر على نطاق واسع

بين سكان تلك المناطق . وعلى أى حال فان هذه الجمعيات السرية من أبرز الظواهر التى ميزت حضارات افريقيا الزراعية . كانت هذه الجمعيات بمثابة جمعيات دينية فى بعض نواحى نشاطها ، ولكنها كانت فى نفس الوقت منظمات للمساعدة المتبادلة ، وللسيطرة الاجتمـاعية ، ولابتزاز الأموال فى بعض الأحيان . كان لكل جمعية أقنعتها الخاصة ، وملابسها المميزة التى ترتديها فى الحفلات العامة التى كانت تقيمها بين حين وآخر . وكان المفروض أن النساء والأطفال والرجال الذين ليسوا أعضاء فى الجمعية يجب أن يؤمنوا بأن هؤلاء الراقصين المقنعين انما هم كائنات لها قوى فوق قوة الطبيعة ، وكانوا يقتلون أى شخص يكشف شخصياتهم الحقيقية . وكان لكل جمعية علامات يتعارف بها أفرادها ، كما كانت لهم كلمات سر خاصة ، وكان أعضاؤها يتعاهدون على المساعدة المتبادلة كما هو الحال عند الماسونيين الأحرار .

وأصبحت هذه الجمعيات عاملا من العوامل فى توحيد القوى فى مناطق تنقصها الوحدات الكبيرة السياسية ، كما مكنت أعضاءها من السفر خارج أراضيهم وهم مطمئنون . وحيثما كانت السلطة السياسية قوية كان رجال الحكم ينظرون اليهم نظرة كراهية بطبيعة الحال ، وفى داهومى صدر الأمر بمنع مثل هذه الجمعيات والتهديد بقتل كل من ينتمى اليها . واختلف نشاطهم باختلاف المناطق ، ولكن تنفيذ ما فيه خير الجماعة كان دائما من أهم أهدافهم. وكانت الزوجات اللاتى يتكبرن ويخرجن على طاعة أزواجهن ، أو اللاتى ينحرفن عن الطريق السوى ، عرضة للعذاب المبرح بل والقتل أحيانا ، يقوم به رجال مقنعون من أعضاء الجمعية . وان الشبه بين الكلوكلوكس كلان وبين جمعيات غربى افريقيا شبه كبير ، وهو أكثر من أن يكون مجرد مصادفة . وبجانب هذه المنظمات السرية التى يقرها المجتمع ، كانت هناك منظمات يتجه نشاطها لغير صالح المجتمع . فاذا ضربنا الصفح عن جمعيات السحرة التى سبقت الاشارة اليها وشككنا فى عدم وجودها ، فقد كانت هناك جمعية الفهد الذى كان أفرادها يقتلون الناس ، ويأكلون لحومهم كجزء مما يقومون به من السحر الأسود .

الفصل الحادى والثلاثون

الحضارات الأفريقية

لا يدرك الا القليل من الناس مدى ما وصلت اليه حضارات كثير من المجتمعات الافريقية من غنى وتقدم فى الوقت الذى اتصل بهم الأوروبيون لأول مرة . ففى المناطق التى جاء منها معظم أسلاف الزنوج الأمريكيين كان هناك عدد غير قليل من الممالك العظيمة التى تستحق أن يطلق عليها بحق اسم مدنيات فى جميع النواحى ، ما عدا معرفة القراءة والكتابة . ولم يقلوا مطلقا عن أوروبيى العصور الوسطى فى الفنون والحرف ، أما من ناحية استكمال تنظيمهم السياسى ، والمهارة التى كانوا يظهرونها فى ادارة منظماتهم الاجتماعية، وتوجيهها لتوطيد نظامهم السياسى ، فانهم كانوا أكثر تقدما من أى بلد فى أوروبا قبل القرن السادس عشر . ولن نكون مبالغين اذا قلنا ان الزنوج الافريقيين قد أظهروا عبقرية فى بناء الدولة فى موطنهم لا يمكن أن يجاريهم فيها شعب آخر باستثناء شعب الانكا الذى كان يستوطن پيرو فى أمريكا الجنوبية .

ومن المعروف أن كل مدنية تضم الى نفسها عناصر حضارية من مصادر متعددة ، ولا يستثنى من ذلك المدنيات الافريقية الزنجية . فالصلات بينها وبين مدنيات مصر وساحل البحر الأبيض المتوسط قد قامت منذ أقدم العصور . ونعرف أيضا أن مصر اتجرت مع القبائل الزنجية فى أعالى النيل منذ عام ٣٠٠٠ ق.م على الأقل[١] . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠—١٢٠٠ق.م)

(١) رقم ٢٥٠٠ ق . م أقرب الى الصواب .

فتح المصريون بلاد النوبة واحتلوها ، وأقاموا لهم نائبا للملك فى ربوعها . ويبدو أن المدنية المصرية قد هالت النوبيين فتقبلوها بحماسة ، بل وأصبحوا عبادا مخلصين للاله أمون رع المصرى فتوثقت بذلك العلاقة بين مدينة طيبة المقدسة وبين نپاتا عاصمة النوبيين . وعندما استقر شاشانق وأتباعه من الليبيين فى بلاد مصر هرب كثير من كهنة طيبة الى نپاتا وزادوا من عملية نشر الحضارة هناك . وفى عام ٧٣٠ ق . م غزا النوبيون مصر ذاتها ولكنهم فى ذلك الوقت كانوا قد أصبحوا مصريين أكثر من المصريين أنفسهم . وحاولوا ابان الفترة القصيرة التى مكثوها فى الحكم أن يحيوا بعض الطقوس الدينية التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة حتى فى هذه البلاد التى لم تكن تحب التغيير ، كما رحبوا أيضا باللاجئين المصريين الذين هاجروا اليهم فى السنين الأخيرة من حكم الأشوريين والفرس . واحتفظت بلاد النوبة باستقلالها فى أيام البطالمة والرومان واستطاعت أن تخلق لنفسها حضارة مستقلة خلال الستة القرون الأولى بعد مولد المسيح اتحدت فيها العناصر المصرية والاغريقية والرومانية ، ولكن مع شىء كثير من الابتكار . وفى القرن السادس الميلادى اعتنق النوبيون الدين المسيحى ، واستطاعوا أن يصدوا هجمات المسلمين المتعاقبة حتى منتصف القرن الرابع عشر عندما سقطت مملكة دنقلة المسيحية فى يد الفونج ، وهم زنوج مستعربون كانوا فى الأصل يسكنون منطقة النيل الأزرق ، ومنذ ذلك الوقت شاركت بلاد النوبة فى المدنية الاسلامية .

من ذلك نرى أنه كانت هناك فرص كثيرة سانحة أمام المؤثرات المصرية ومؤثرات بلاد الشرق الأدنى الأخرى ، والمؤثرات اليونانية والرومانية ، لتصل الى افريقيا الزنجية عن طريق شرق السودان ، ولكن يصعب علينا أن نعرف الى أى مدى اشتركت هذه المؤثرات فى تأسيس الحضارات الزنجية الواقعة الى الجنوب والى الغرب ، فذلك أمر يصعب تحديده . ويتوقع الانسان أن يجد أقدم العناصر الحضارية التى استعاروها ، وهى التى من أصل مصرى ،

لا تزال قائمة حول أطراف المنطقة التى انتشرت فيها قديما . وقد وجدت بالفعل عناصر فى بعض الحضارات الزنجية المتقدمة تذكرنا بأشياء فى الحضارة المصرية القديمة ، فالفكرة ذات الانتشار الواسع الخاصة بألوهية الملك الذى يعتمد رخاء البلاد وسعادتها على قوته ، دليل على ذلك . كما أن وجود عادة زواج الملك من أخته وهى العادة التى كانت منتشرة فى كثير من ممالك وسط افريقيا تدل أيضا دلالة قوية على تلك الصلة .

وطبقا لهذا النظام كانت على الملكة واجبات ، ولها امتيازات ، ولها أيضا مركز وثروة تشبه ما كان للملك لأنها تعتبر دائما أختا له . وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن مصر أن الملكة كانت فى الوقت ذاته أختا وزوجة وهى نفس العادة التى كانت متبعة فى القبيلة الأوغندية « باهيما » ، كما تشبه الديانة فى قبيلتى « اليوروبا » و « الأشانتى » بما فيهما من نظام كهنوتى متقن وآلهة متعددة يعبد كل منها على حدة ، وحيوانات مقدسة ما كان فى ديانة مصر . كما اعتقد الاشانتى أيضا فى وجود قرين روحانى كان يزور القبر بعد الموت ، وكانوا يقدمون له القرابين تماما كما كان يفعل المصريون الذين كانوا يعدون قبورهم من أجل راحة ال « كا » . ومما يزيدنا ايمانا بوجود هذه الصلة القديمة أن الاشانتى يطلقون على هذا القرين للروح اسم « كرا » ولكن هذه الأشياء التى ذكرناها وغيرها من العناصر الأخرى التى توحى باثر مصر نراها موزعة توزيعا غير منتظم ولهذا يصعب علينا تفسيرها على أساس انتشار التأثير المصرى . ويبدو من الأرجح أن وجودها فى كل من مصر وافريقيا الزنجية كان نتيجة لتطور مستقل فى كل منهما بعد أن تفرعا من أصل واحد ، من حضارة حامية قديمة . ونحن نعلم أن القبائل الحامية لم تستقر فى وادى النيل فحسب ، ولكنها استقرت أيضا فى معظم الصحراء الكبرى عندما كان المناخ فى هذه المنطقة خيرا مما هو عليه الآن . وتشير كل الدلائل الى أن الحاميين ، وهم من أصل قوقازى ، أخذوا يتسربون الى الشعوب الزنجية التى

فى الجنوب منذ العصور النيوليتية ، ان لم يكن قبل هذا التاريخ . وقد بقى منهم حتى الآن البربر ، وهم من سلالة سكان الصحراء الكبرى الحاميين فى العصور التاريخية . وقد ساعد اعتناقهم للدين الاسلامى على جعل توغلهم فى الجنوب شــيئا شبيها بالحملات الصليبية ، اذ كان هذا التوغل على نطاق واسع ، ولكنه لم يكن شيئا جــديدا بالنسبة اليهم بل كان استمرارا لما كان يحدث منــذ وقت طويل .

ولم يحل القرن التاسع الميلادى حتى كان البربر بعد أن دخل عليهم القليل من الدم العربى قد أنشأوا عددا من الممالك فى كل أنحاء السودان الغربى ، كان أكثرها أهمية « سونجهاى » و « غانا » فى منطقة نهر النيجــر ، وفى القرن الرابع عشر الميلادى أخضعت مملكة ماندنيجو كل أنحــاء السودان الغربى . وامتزج الدم البربرى بالدم الزنجى امتزاجا كبيرا . وكانت الغالبية العظمى من الأسرات الحاكمة فى هذه الممالك السودانية من الزنوج ومع ذلك فانهم كانوا فى أعماق نفوسهم يؤمنون بالحضارة الاسلامية ، كما كان تنظيمهم السياسى يسير على النمط الاسلامى . وقد ذهب الكثيرون الى القول بأن الممالك الزنجية الوثنية التى قامت فى المناطق الأبعد من ذلك فى ناحية الجنوب ، قد أخذت حضاراتها من تلك التى كانت فى الســودان ، ولكن الواقع هو أن كيان الممالك الوثنية يختلف تماما عن النظم الاسلامية لدرجة أنه لا يمكن أن تتصور أن يكون هناك أى تأثير عليهم غير ذلك الحافز نحو التقدم الذى يصاحب وصول مؤثرات من حضارات أخــرى . وقد تفوق الوثنيون على الشعوب الاسلامية فى تنظيمهم السياسى المتشابك ، وفى المهارة التى أظهروها فى الاستفادة من النظم التى كانت سائدة بينهم لتقوية السلطة الملكية .

ولنأخذ مملكة أوغندة (حضارة شعوب الباجاندا) . ومملكة داهومى كمثلين لهذه الممالك الوثنية . فأولاهما تقع فى الطرف الشرقى من حدود الممالك

الوثنية ، ولم يصل اليها الا الشيء الضئيل من النفوذ الاسلامى . أما مملكة داهومى فهى تقع فى الطرف الغربى من خط الحدود ، وقد نشأت بعد أوغنده بوقت طويل . وكانت فى هــذه المنطقة ممالك كثيرة لهــا علاقات كثيرة مع الممالك الاسلامية الواقعة حول النيجر ، كما كانت للمنطقة الساحلية الافريقية علاقات حضارية هى الأخرى . وبالرغم من أن رحــلة « هانو » (Hanno) القرطاجنى هى الرحلة الوحيدة التى وصلت الينا أخبارها[1] ، فما من شك من أنه كانت هناك رحلات أخرى غير رسمية حدثت قبل تلك الرحلة وبعدها بقصد استعمار تلك البلاد ، فان الذهب والعاج اللذين كان يكتظ بهما الساحل الغربى واللذين تركا اسميهما فى قسمين سياسيين من أقسام المنطقة ، كانا اغراء قويا للقرطاجنيين المعروفين بمهارتهم وشجاعتهم فى البحث وراء الكسب. كانت داهومى فى المنطقة التى استقبلت الاتصالات الأولى للتوغل الأوروبى الحديث ، وبالرغم من أنه يصعب علينا أن نحدد مدى تأثير هذه الاتصالات الجديدة على النظم القائمة هناك ، فما من شك فى أنها غيرت الاقتصاد الوطنى، ونقلت الاهتمام من الانتاج الزراعى العادى الى الاتجار فى الرقيق ، واشعال الحروب جريا وراء المنفعة .

أما أوغنده فانها تقع فى شمال غربى بحيرة فكتوريا ولها خط ساحلى طويل تحميه جزر بعيدة عن الشاطىء ، مما جعل حركة الاتجار على طول الساحل أمرا سهلا . وبالرغم من أن « الباجندا » لم يصلوا الى معرفة استخدام الشراع أو أى سفن غير القوارب الكبيرة التى كانت تصنع من الألواح الخشبية فان المستوى العالى الذى وصل اليه تطورهم التكنولوجى قد انعكس فى اتقان

---

(١) كان « هانو » ملاحا فينيقيا عاش حوالى عام ٥٠٠ ق . م . وكتب وصفا لرحلة قام بهــا لاستكشاف شاطىء أفريقيا الغربى تمهيدا لتأسيس مستعمرات تجارية فيها . وقد وصل هانو فى رحلتــه الى ما بعد « ســيرا ليون » ، اذ أنه زار رأس بالماس .

(المترجم)

صناعة هذه القوارب التى استخدموها فى الحملات الحربية التى كانوا يشنونها على القبائل المجاورة ، كما أن قائد أسطول القوارب كان يعتبر من الموظفين المهمين . واذا ما أردنا أن ندخل فى بعض التفاصيل لرأينا أن الصيد كان المصدر الرئيسى للحصول على الطعام الذى يحتوى على المواد البروتينية ؛ اذ كانوا يجففون الأسماك ويوزعونها عن طريق التجارة فى كل أنحاء المملكة .

وطبقا لما ذكرته المصادر الوطنية فان تنظيم مملكة باجندا حدث على يدى شعب حامى من صانعى الاپان غزا المنطقة منذ حوالى خمسمائة سنة مضت ، وأسس الأسرة التى ما تزال تتربع على كرسى الحكم . وفى الوقت الذى اتصل بهم الأوروبيون كان هؤلاء الغزاة قد انصهروا فى بوتقة الوطنيين من الناحيتين الجسمانية والحضارية ، كما كان للزواج المستمر بين الغزاة وأبناء البلاد أثره فى طبع كل من الأسرة المالكة والعامة بطابع واحد وهو الطابع المتزنج . ومن الناحية الاقتصادية ، كانت الطبقات كلها تعتمد اعتمادا أساسيا على الزراعة، وكان لديهم أيضا بعض الماشية ولكنها كانت تعتبر بصفة عامة نوعا من أنواع الترف . وكانت الماعز هى الحيوان المنزلى الشائع ، أما الرجل العادى المحظوظ الذى يملك بعض الماشية فانه كان يتركها لترعى مع قطيع الزعيم ، وذلك لأن رعى الماشية كانت تتولاه جماعة خاصة تسمى « هيما Hima » يتوارث أفرادها هذا العمل . ولم تكن الجماعات الأخرى تضعهم فى مركز اجتماعى ذى قيمة .

وكانت هناك أنواع مختلفة من المحصولات ولكن المصادر الرئيسية للطعام هى الموز المعتاد ونوع آخر كان من النادر أن يؤكل فجا ، اذ كانوا يفضلون غليه فى الماء ثم يهرسونه حتى يصبح عجينة . وعجينة الموز هى العنصر الأساسى فى الوجبة الوطنية ، وتشبه فى ذلك وجبة الرز فى بلاد الشرق الأقصى . وبالرغم من أن هناك أنواعا أخرى من الطعام ، الا أنهم كانوا ينظرون اليها على أنها أشياء عرضية وتشتهى فقط من أجل طعمها ، وللتنويع الذى تضفيه على

الوجبة . ومما يجدر ذكره انهم لم يستخدموا ألبان كل من الماشية والماعز الا قليلا . وبالاضافة الى أنواع المحاصيل المختلفة كانوا يزرعون نوعا من أنواع التين تمدهم قشوره بما يلزم لهم من الثياب المصنوعة من قشور الشجر وهى ثيابهم التى يرتدونها كملابس وطنية .

وكان للزراعة بين قبائل الباجندا آثارها الهامة فى نظمهم فى الانتاج وفى المساكن وفى التنظيم الاجتماعى . فمنذ أن تزرع شجرة الموز تستمر فى انتاج شجيرات أخرى منها ويستمر الجميع فى انتاج محصولات جديدة قد تستمر لخمسة وعشرين أو ثلاثين عاما ، مما ساعد على استقرار الاقامة فى أماكن ثابتة . زد على ذلك ، أن المحصول كان من الوفرة بحيث يستطيع أن يقيم أود عدد كبير من السكان وذلك بالرغم من أن النساء كن هن اللاتى يقمن بأعباء الزراعة كلها ، وقد قيل بأنه كان فى مقدور المرأة الواحدة أن تتولى العناية بعدد من أشجار الموز يكفى لاطعام أربعة رجال . ولكن فى الوقت ذاته كانت نسبة الموت بين الذكور كبيرة بسبب الحروب ، والقرابين البشرية التى تتطلبها المناسبات المختلفة حتى أصبح عدد النساء بالنسبة لعدد الرجال بين السكان ثلاثة الى واحد ، وقد ترتب على ذلك وجود مجتمع فيه متسع وفائض من الوقت والجهود مع الامكانيات اللازمة للتقدم فى الصناعات واتقانها ، ووجود الطقوس الدينية المعقدة .

وكانت التكنولوجيا فى جوهرها هى نفس التكنولوجيا التى وصفناها آنفا فى كلامنا العام عن القبائل الزراعية . ولكن قبائل الباجندا كانت تختلف عن معظم الشعوب الافريقية لاصرارها على تغطية الجسم كله بالملابس . وبالرغم من أن الأولاد قبل بلوغهم سن المراهقة كانوا يسيرون وهم عرايا ، وكانت البنات يرتدين نقبة أو مئزرا تتدلى منه شرائح متناثرة من أوراق الموز ، فانهن بعد بلوغ سن المراهقة كن يرتدين ثيابا تلف أجسادهن وتغطيها من الابطين حتى القدمين . أما الرجال فقد كانوا يرتدون ملابس أكثر من النساء

تتكون من مئزر يلفونه حول الوسط ، ثم قميص طويل ، وفوق ذلك ثوب يشبه العباءة . وكانت كل هذه الملابس تصنع فى الأصل من قشور الشجر وكانت صناعتها هى أهم الصناعات التى يقوم بها الرجال .

وكان المزارعون يفضلون العيش فى مساكن رحبة فسيحة على أن يعيشوا فى القرى . وكان كل مسكن منها تحيط به مزارع الموز ويقيمون حول كل من المسكن وزراعة الموز سياجا يضمهما وكانت المنازل دائرية ومخروطية الشكل ومغطاة بالقش . وكان مدخل البيت يحميه رواق صغير أو مظلة فوق أعمدة وقد اتبعوا ذلك فى منازل الزعماء بل وفى مقر الملك نفسه ، ولم تختلف هذه المنازل الكبيرة عن منازل غيرهم الا باتساع رقعتها وكبر حجمها وكثرة عدد المقيمين فيها . فمثلا كان المقر الملكى المشيد فوق أحد التلال بالقرب من بحيرة فكتوريا ميلا ونصف ميل فى الطول ، وميلا فى العرض ، وبين المسكن الذى كان يقطنه الملك وبين المدخل الرئيسى كانت توجد مساكن المئات من الموظفين والحرس والعبيد ، بينما رصت مقرات الزعماء العظماء على الطريق خارج أسوار المقر الملكى .

ومن بين الظواهر غير العادية التى امتازت بها مملكة باجندا ، والتى ساعدت دون شك على قيام الحكومة المركزية بأداء عملها بنجاح ، تلك الشبكة الفخمة من الطرق الجميلة . كان اتساع كل منها عادة نحو أربعة أمتار ، وكان سطحها صلبا كما كانوا ينشئون جسورا تخترق المستنقعات . وكان زعيم كل مقاطعة يقوم ، كواجب من واجباته ، بالمحافظة على الطريق الذى يمتد من مقر الملك الى مقره ، فى حين كان على كل نبيل فى أى مقاطعة أن يحافظ على الطريق الذى يربط بين مقره وبين مقر زعيم تلك المقاطعة . وقد ساعد وجود هذه الشبكة من الطرق على تحركات الجنود ، وفى تبادل البضائع المصنوعة اذ كان لديهم أسواق عديدة كان يجلب اليها الصناع المحترفون ، والفلاحون المحليون ما لديهم من منتجات . وكانت الأسواق فى

العادة تعقد فى أيام مختلفة من الأسبوع وفى مناطق يمكن أن يقطع الانسان المسافة بين كل اثنين منها مشيا على الأقدام ، ولهذا كان فى استطاعة الباعة المتجولين أن يحزموا بضائعهم بعد فض أحد الأسواق ويسيروا بها الى سوق آخر . وكان يقوم بالاشراف على كل سوق موظف مسئول يقوم بالمحافظة على النظام ومعاقبة الذين يغشون فى التعامل ، وكانت الحكومة تحصل ضريبة قدرها عشرة فى المائة على المبيعات .

وكان التنظيم الاجتماعى والسياسى عند الباجندا صورة من تقاليدهم فى نشأة الدولة . فلم يكن هناك غير ثلاث طبقات يسود فى كل منها النظام الوراثى وهى طبقة العبيد وطبقة العامة ثم أعضاء العائلة المالكة . وحيث ان تعدد الزوجات كان هو القاعدة المتبعة ، فقد كان المتوقع من الملوك أن يكون لديهم عدد من الزوجات أكثر مما لدى أى فرد من رعاياهم ، كمظهر من مظاهر هيبتهم ، ولهذا السبب كان عدد أفراد الجماعة الملكية كبيرا جدا . ومع ذلك فلكى يحولوا دون قيام الحروب الأهلية كان معظم اخوة الملك الحاكم يقتلون عندما يعتلى العرش ، وأن يقتلوا أيضا أى واحدة من بناته اذا تزوجت أو ولدت طفلا ، ولهذا السبب كان يحدث نقص فى الجماعة الملكية فى كل جيل .

ويلى أعضاء الجماعة المالكة التى كان يحرم على أفرادها أن يشغلوا مناصب ادارية ، عدد من الموظفين الذين يعملون فى ادارة البلاد . وبين هذه المجموعة من الموظفين وبين النبلاء الاقطاعيين فى أوروبا بعض وجوه شبه سطحية . وعلى أى حال ، فقد كانوا يعينون جميعا بأمر الملك ويدينون بالولاء له مباشرة . وحيث ان كل تعيين فى الوظيفة كان ينتهى آليا بوفاة الملك ، وأن كل رجل حر كان يعتبر صالحا لتولى مثل هذا المنصب فان هؤلاء الموظفين الاداريين لم يكونوا فى يوم من الأيام طبقة يرث فيها الأبناء وظائف آبائهم .

وكان العبيد فى الغالب من أسرى الحرب أو من سلالة هؤلاء الأسرى ، ولكن كان هناك أيضا رقيق من الباجنديين أنفسهم وهم الأطفال الذين كان

يرهنهم آباؤهم كضمان لسداد دين ، والذين كانوا يعتبرون عملهم فى خدمة الدائن كفائدة للقرض . كان الرقيق يعاملون عموما معاملة حسنة ، وكانوا يتخذون النساء الرقيقات كمحظيات وكانت الواحدة منهن تصبح حرة متى ولدت طفلا من سيدها . أما بالنسبة للرجال من الرقيق فان أكبر ضرر كانوا يتعرضون له هو صلاحيتهم لأن يقدموا كقرابين بشرية وهو ما كانت تتطلبه طقوس كثيرة فى ديانة الباجندا .

وكان العامة ينتظمون أصلا فى ست وثلاثين عشيرة تنتسب كلها الى فرع الأب وتتزوج من خارج القبيلة . ولكن عندما اتصل بهم الأوروبيون لأول مرة كانت ست من هذه العشائر قد فقدت شخصيتها عن طريق الامتزاج مع العشائر الأخرى . وكان لكل عشيرة زعيم يختاره مجلس شيوخ العشيرة ، وعندما يتبوأ مركزه كانوا يطلقون عليه اسم مؤسس العشيرة الأول ، اذ كانوا يعتقدون أن ذلك المؤسس قد تجسد فيه . وكان لكل عشيرة طوطمان ، كانا من الحيوانات فى العادة ، وكانوا يطلقون على عشيرتهم اسم الطوطم الأكثر أهمية . وكان محرما على أعضاء العشيرة أن يذبحوا أو أن يستخدموا هذا الطوطم ، ولكنهم لا يعترضون اذا قام أحد أفراد العشائر الأخرى بمثل هذا العمل . وكانت العشيرة تنقسم الى عدد من العشائر الفرعية . وكانت الظاهرة الرئيسية التى تميز منطقة كل عشيرة فرعية هى الجبانة التى يدفن فيها أفرادها . وبعد أن تستخدم هذه الجبانة مدة ثلاثة أجيال متعاقبة تصبح هى والمزارع التى تحيط بها ملكا لأعضاء العشيرة الفرعية لا ينازعها فيها أحد ، ولا يستطيع الملك أن يأخذها منهم ، وكان لكل عشيرة فرعية زعيمها وفى أغلب الحالات معبد يعبد فيه مؤسسها أو أحد آلهتها .

وتنظيم العشائر والعشائر الفرعية المحلية أقدم كثيرا من دولة الباجندا . وقد فرض الغزاة الحاميون عليهم النظام الادارى للدولة ولكنهم حرصوا على ابقاء كل منهما منفصلا عن الآخر . وكان زعماء العشيرة والعشيرة الفرعية

ممنوعين من الاشتراك فى الحكومة الوطنية ، وكان من النادر أن يعين الموظفون ليحكموا قوما من عشائرهم . وفى نفس الوقت فان حق العشائر المختلفة فى شغل بعض الوظائف التى تضفى الشرف على أصحابها كان داعية لجعل ولاء العشيرة سببا فى ربط أفراد الرعية بالحكومة المركزية . ولنضرب بعض أمثلة قليلة . كان منصب حارس المقابر الملكية وراثيا فى عشيرة « القرد » وكان حارس الملك يختار من عشيرة الفأر ، أما الرجال الذين كانوا يحملون الملك على أكتافهم أينما ذهب خارج مقره فانهم كانوا يجندون من عشيرة « الجاموسة » . وحراس البوابة الملكية كانوا من عشيرة « عش الغراب » ، وقارعو الطبول الملكية من عشيرة « فرس النهر » وكانت زوجته من عشيرة « كلب البحر » هى التى تعد فراشه . وكان على كل عشيرة أن ترسل زوجات منها للملك ، كما كانت ترسل جماعات من الأولاد والبنات من وقت لآخر من العشائر المختلفة للخدمة فى المقرات الملكية وفى منازل كبار الموظفين .

وكان كيان الدولة كله يدور حول الملك الذى كانت أعماله المكلف بالقيام بها دينية وسياسية فى الوقت ذاته . ويلى الملك مباشرة موظفان هما ال « كاتيكيرو » أو الوزير الأول ، وال « كيمبوجوى » أو حامل حبل سرة الملك . ويقوم الأول بادارة شئون المملكة ، ويقوم الثانى بالاشراف على الهياكل الوطنية . وبذلك تطابق وظائفهما الناحيتين الرئيسيتين فى واجبات المنصب الملكى . وكانت المملكة كلها مقسمة الى عشر مقاطعات ، يرأس كلا منها موظف كبير يسمى « باسازا » أو المحاكم ، وكان عليه أن يطبق العدل ويحافظ على النظام ويشرف على الأشغال العامة ، كما كان عليه أن يقدم فرقة من الجنود وقت الحرب ، وأن يحافظ على سلامة بنايات معينة فى المقر الملكى ويقوم بترميمها عند الحاجة ، كما كان عليه أيضا أن يمد المقر الملكى بالمآكل بواقع شهر كل عشرة أشهر ، وكان على كل حاكم من حكام الأقاليم واجبات أخرى خاصة . فقد كان على « باسازا » مقاطعة « كايا داندو » وهى

المقاطعة التى يقع فيها المقر الملكى ، كان عليه أن ينوب عن الملك فى المناسبات المختلفة فى الأوقات التى يكون فيها الملك فى عزلة ، وكانت هذه الاعتزالات كثيرة نظرا لطبيعة الملك المقدسة . وكان باسازا مقاطعة « بوسوجو » تحتل مركزا عظيم الأهمية لأنه كان يتكفل بأبناء الملك الذين كان يتحتم عليهم الاقامة فى مقاطعته ، كما كان يلعب دورا رئيسيا فى اختيار الملك الجديد . وكان باسازا مقاطعة « بوسيدا » هو أمين المقابر الملكية وكان منصبه هو المنصب الوراثى الوحيد فى عائلة معينة . وكانت أوامر تعيين « الباسازات » تنتهى بموت الملك وذلك بالرغم من أنه كان من الممكن أن يعاد تعيينه . وعلى أى حال فكان يتحتم أن يخلفه عضو آخر من نفس العشيرة . وكان لكل باسازا مقر فى العاصمة ومقر آخر فى المقاطعة التى يحكمها ، وكان يشرف على كل مقر وكيل عنه يمثل الحاكم فى غيابه . ويلى الباسازا ستة موظفين من صغار النبلاء يتدرجون فى أهميتهم وكانوا يحكمون المراكز الفرعية فى المقاطعات . كان هؤلاء الستة يعينون بوساطة الملك بعد استشارة « الحاكم » ولكنهم كانوا مسئولين أمام الملك وحده ، وكانوا مثل الباسازا يملكون مقرات فى العاصمة ، كما كان يتوقع من كل الموظفين أن يمضوا أوقاتا كثيرة هناك . وكان النبلاء جميعا من كل الطبقات يكونون المجلس الأعظم للمملكة الذى يكاد يكون فى حالة انعقاد دائم .

كان تطبيق العدالة من أهم المسئوليات الملقاة على عاتق جميع الموظفين باستثناء موظفى القصر . هذا ، وكان الانتقام الشخصى محرما تحريما تاما اللهم الا فى الفترات التى كانت تفصل بين موت الملك واعتلاء ملك آخر على العرش ، اذ كانت الفوضى تسود فى مثل هذه الفترة . وكانت هناك مجموعة قوانين ، وكانت تعدل من وقت الى آخر بقرار من الملك . وكان النبلاء فى كل طبقة يعملون قضاة يحكمون بين الناس فى مقاطعاتهم الخاصة ، وكان فى الامكان استئناف الأحكام من المحاكم الابتدائية الى المحاكم العليا حتى تصل

القضية الى الملك نفسه . وفى حالة المنازعات كان يفرض على كل من المدعى والمدعى عليه أن يدفع مبلغا متساويا يضيع على من يخسر القضية ، وهو اجراء مفيد حتى لا يشجعوا المنازعات غير الضرورية . وكانوا يلجأون الى التحكيم الالهى عن طريق التعذيب عندما تكون الأدلة غير قاطعة . وكانوا يستخدمون التعذيب لانتزاع الاعترافات ، وكان من الجـائز أن يحتفظوا بالمشتبه فيهم فى أماكن للحجز انتظارا للمحاكمة ، ولكن لم تكن هناك أماكن خاصة لتنفيذ الأحكام التى تصدر بالسجن . وكانت العقوبة الشائعة للجرائم الصغيرة هى قطع بعض أجزاء الجسم وهى تتدرج ما بين صلم الأذن وجدع الأنف الى الخصى أو بتر الأعضاء . أما هؤلاء الذين كانوا يدانون فى جرائم كبيرة فكانوا فى الغالب يحتفظون بهم لتقديمهم كقرابين بشرية .

وكانت الضرائب تجبى بغير انتظام ، وتفرض عندما تفرغ الخزانة الملكية ، ولكن طرق جبايتها كانت منظمة . كان يعين فى كل مقاطعة من المقاطعات ستة من الموظفين لجبايتها ، واحد يعينه الملك وآخر تعينه الملكة الأخت ، وثالث تعينه الملكة الوالدة ، ورابع يعينه الوزير الأول ، وخامس يعينه أمين التفتيشات الوطنية ، والسادس يعينه حاكم المقاطعة . وكان جباة الضرائب يزورون كل نبيل ويحددون قيمة الضريبة التى يجب أن تدفعها المنطقة على أساس عدد البيوت التى تحتويها . وكانت الضرائب تدفع عينا ، وكان يسمح بشهرين بين تقرير الضريبة وجمعها حتى يعطوا المزارعين الوقت الكافى لجمع السلع اللازمة . وكان الملك يأخذ نصف المتحصل ويقسم الباقى بين الملكة الوالدة والملكة الأخت والوزيرين العظيمين . أما البازا والنبيل فقد كانا يأخذان جزءا من الضرائب المحصلة من مقاطعتهم . وكان الفلاحون يؤخذون للعمل كجنود أو كعمال فى الأعمال العامة . وكان هناك نظام غريب يقضى بأن يدفع كل رجل يؤخذ للعمل مبلغا مجزيا لرئيس العمال قبل أن يبدأ العمل بالرغم من آنه لم يكن يحصل على أجر مقابل عمله .

وكانت الأسرة المالكة تحيا حياة مختلفة ، فى نواح كثيرة ، عن حياة عامة الشعب وعن الموظفين . فقد كانت الشخصيات الرئيسية فى العائلة المالكة هى الملك والملكة الوالدة ثم الملكة الأخت . وكان لكل منهم ، وخصوصا الملك ، شيء من الصفة الالهية يذكرنا بما كان فى مصر القديمة . كان الملك يحيط نفسه بسياج من الطقوس الكثيرة ، وكان على كل انسان يقترب منه أن يخر ساجدا أمامه . وبالرغم من أن الملك لم يكن يخضع لقيــود الزواج فانه كان يملك عددا لا يحصى من الزوجات اللاتى كن يقدمن اليه كهدايا أو كرشوة أو اللاتى يرثهن من حريم أبيه ، أو اللاتى يجذبن أنظاره . وكانت أرفع النساء شأنا بينهن هى تلك التى اختارها أبوه لتكون زوجة له . وكانت الزوجات جميعا يعشن فى مقر الملك ، وكن خاضعات لرقابة مشددة لضمان شرعية الأبناء الذين يلدنهم ، والذين كانوا يحتفظون بطواطم أمهاتهم اعترافا منهم بانتســابهم لعشيرة أمهاتهم ، وبالاضافة الى ذلك الطوطم كان عليهم أيضا أن يحترموا طوطمى الأســد والفهد .

وكان كل أمير من الأمراء عند بلوغه الانتهاء من مرحلة الفطــام يسلم لحاكم مقاطعة (باسوجا) كان يعين وصيا عليه ويخصص له ضيعة صغيرة . وكان الابن الأكبر الذى كان محرما عليه أن يرث العرش يشارك الحاكم فى الاشراف على اخوته من الذكور بينما تكون الابنة الكبرى للملك مسئولة هى أيضا عن أخواتها البنات . وقلما كان يبقى حيا أحد من أبناء الملك بعد موته فترة طويلة ، وذلك لأنه بمجرد اختيار الذى سيجلس على العرش كان هو وأمه يجمعان اخوته الذين يحتمل أن يحصلوا على تأييد شعبى ويرسلان بهم الى مكان معين ويوضــعون فى مكان مغلق تحت حراسة مشــددة ثم يتركون ليموتوا جوعا وعطشا . أما بنات الملك فكن يعاملن بكل احترام غير أنه كان يحرم عليهن الزواج أو أن يكون لهن ذرية ، وفى الوقت ذاته لم يكن مطالبات بالمحافظة على عفتهن . وكان بعضهن يصبحن كاهنات ، بينما كانت

الأخريات يعشن كنساء يتمتعن بحريتهن يمتلكن ضيعات صغيرة ، ويعشن حياة تسودها الفوضى والعبث .

وعند وفاة الملك كان يعقد اجتماع عاجل يحضره الوزراء العظام والحكام الأوصياء وأكبر أبناء الملك . وعندما يقررون من الذى سيخلف الملك فى حكم البلاد كان يعلن موت الملك باطفاء النار المقدسة التى كانت دائمة الاشتعال عند مدخل مقر الملك ويخنقون حارسها ، ويقرعون طبولا خاصة لا تستخدم الا فى هذه المناسبة فقط . وكانت دقات الطبول تحمل الأنباء الى كل أنحاء المملكة فتسود الفوضى فى الحال فى جميع أنحاء البلاد ، وتقوم الحروب بين الحكام والنبلاء يحارب بعضهم بعضا ، وينهب الأقوياء جيرانهم الضعفاء ، ويستدعى جميع الأمراء الى مقر الحكم ويعلن الحكام الذين يقومون بالوصاية على الأمراء من سيكون الملك القادم . وبعد ذلك يتحدى الوزير الأول أى أمير من المرشحين الذين خاب أملهم ، وكل من ينتصر لهم ، أن يبارزوه بالسلاح وتصبح أم الملك الجديد هى الملكة الوالدة ، كما كانت تختار احدى أخواته الشقيقات أو غير الشقيقات لمنصب الملكة الأخت . وكان يعين أيضا فى ذلك الوقت نفسه بعض الموظفين المهمين جدا ، وكان الملك يحضر احتفالا هاما يعرف باسم « التهام البلاد » يضفى الصفة الشرعية على أحقيته فى العرش ، ولكنهم كانوا يؤجلون حفلة التتويج لمدة ستة أشهر يلبس فيها الملك الجديد ثياب الحداد على أبيه .

وكان الحاكم المشرف على المقابر الملكية يأخذ الملك الميت الى مقاطعته حيث تحنط جثته ، وبعد أن يتم ذلك يحملون جسده الى المبنى الذى أعد ليكون قبرا له . وكان الرعايا يأتون بالملابس المصنوعة من قشور الشجر كقرابين للملك الميت ، وكانت هذه الملابس تكدس فى المنزل حتى يمتلىء الى السقف ، وبعد ذلك يغلقون الباب ويختمونه . وكانوا يحضرون أربعة من خدم الملك الخصوصيين وأربعة من زوجاته ومئات من العبيد والأسرى ويقتلونهم

ضربا بالهراوات ويلقون بأجسادهم حول المبنى . وبعد مضى ستة أشهر كانوا يفتحون المنزل ويأخذون رأس الجثة المحنطة وينظفونه ثم يشرب أحد الرجال الجعة واللبن من هذه الجمجمة فيصبح بعد ذلك الوسيط الذى يتكلم عن طريقه روح الملك الميت الى الناس . وكانوا يعيدون الجمجمة ثانية الى القبر ، أما عظم الفك وحبل السرة فكانوا يضعونهما فى معبد من المعابد التى فى مقر الملك الميت . وكانوا يحتفظون دائما بمقرات الملك ، وكان وزراء الملك الراحل وموظفو قصره وكثير من زوجاته يستمرون فى خدمة روحه . وعندما يموت أحد هؤلاء الموظفين كان يعين موظف آخر بدلا منه . وكان على الملك الحاكم أن يزور معبد أبيه مرة خلال مدة حكمه . وعندما تشرف زيارته على نهايتها كان يعطى اشارة يقبض بعدها على مئات من المشاهدين الذين كانوا يشاهدون تحركات الملك ويقدمون قرابين لروح أبيه .

وتقام حفلة التتويج عندما تنتهى فترة الحداد على الملك ، وكان الملك الجديد وأخته يقسمان اليمين قبل تولى السلطة ، ثم يلبسان الملابس الملكية . وبعد ذلك يحضرون أمام الملك رجلين معصوبى العينين يقنصان من الطريق فكان يرمى أحدهما بسهم يجرحه ، ثم تأخذ جماعة صغيرة هذا التعس وتلقى به على حدود مملكة مجاورة ، كانت فى حالة حرب دائمة مع الباجنديين ، وبعد أن يشوهوه يتركونه هناك ليموت . أما الثانى فكانوا يقـودونه الى المكان الذى تقدم فيه القرابين حيث يبدأون فى قتل ثمانية رجال آخرين الواحد بعد الآخر ، ثم يلفون أمعاءهم حول رقبته ، ويمنح بعد ذلك لقبا خاصا ، ويصبح مسئولا عن زوجات الملك . وأخيرا ، يبنى حكام المقاطعات مقرات للملك وللملكة الوالدة والملكة الأخت . وكان لكل من هذه السيدات بلاطها الخاص ووزراؤها وموظفو البلاط وكانوا مماثلين لزملائهم الذين فى خدمة الملك سواء فى اللقب أو فى اختصاص العمل .

وكانت عقيدة الباجنديين ، فى الأمور الخاصة بما فوق القوى الطبيعية ،

مصبوغة صبغا قويا بالسحر ، ففى هذه البلاد كما فى جميع بلاد افريقية ، كان يوجد مطببون من بين وجوه نشاطهم عمل الفتيشات والأعمال السحرية والابراء من المرض . وكان هؤلاء المطببون يختلفون تماما عن الكهنة الذين يلحقون بخدمة آلهة معينة ، وان كان هناك بعض الازدواج فى عمل الفريقين مثل الانباء بالغيب الذى كان يعد من أهم أعمال المطببين ، ولكن الكهنة كانوا يمارسونه أيضا . ولكن المطببين كانوا يزاولون عملهم فى التنبؤ بالغيب عن طريق القاء أصداف الودع ودراسة أحشاء الطير وبعض الطرق الموضوعية الأخرى ، فى حين كان كهنة المعابد يزاولون عملهم فى الانباء بالغيب عن طريق الوحى . وكان الدين الباجندى يدور حول عبادة الموتى . كانوا يعتقدون أن الأرواح العادية تعود بعد أعوام قلائل من وفاة الميت فتتجسد فى أطفال من نفس العشيرة فكانوا يسمون الطفل باسم الشخص الذى مات ثم لا يعبدون روحه بعد ذلك . وخلال الفترة التى تفصل بين الموت والتجسد كان عليهم أن يقدموا القرابين للروح ، وبالرغم من أن الأرواح كانت بوجه عام أصدقاء للأقرباء الا أنها كانت سريعة الانتقام اذا ما أهملها أقرباؤها كما كانت تعاقبهم على السلوك غير السوى ، وكثيرا ما يكون غضبها سببا فى حدوث الأمراض.

وكانت الآلهة العظيمة عند الباجنديين فى حقيقة الأمر ، أرواحا لأنهم كانوا يعتقدون أنهم كانوا بشرا يعيشون فى يوم ما على الأرض ، وكانت كل عشيرة تعبد روح الجد الأول كالهها الرئيسى . وكان هذا الجد يتجسد فى زعيم العشيرة عند تولى منصبه . وكانوا يعبدون روح الجد الأول ، وكانوا يقيمون لها معبدا ويعينون له كهنة ويحيطونه بكل مظاهر الالوهية . ولم تكن هذه المتناقضات المنطقية التى تشتمل عليها مثل هذه المعتقدات المتعددة من الأمور التى تضايق الباجنديين ، فقد كانوا يشبهون المصريين القدماء فى هذه الناحية. كانوا ينظرون الى جميع الموتى من الملوك بأنهم آلهة وطنيون ، وكثيرا ما كان الملك الحاكم يستشيرهم اذا وجد نفسه أمام احدى المشاكل . أما الآلهة الذين

لم يكونوا من أرواح الأسلاف فقد ساووا بينهم وبين الظـواهر الطبيعية المختلفة . وأهم الآلهة الباجندية هو الاله « موكاسا » Mukasa الذى كان مرتبطا ببحيرة فيكتوريا ، وكان هو الذى يأتى بالسمك ويتحكم فى العواصف كما كان الها للخصب . وكان لكل اله معبد ، أو عدة معابد ، يقوم على خدمته فى كل منها هيئة كاملة من الكهنة ، كما تلحق بها الضياع الخاصة والأرقاء الذين يقومون بالعمل فيها . وكان للآلهة الأكثر أهمية معبد رئيسى يؤمه الملك وكبار الموظفين وذلك الى جانب معابد أخرى صغيرة متفرقة فى أنحاء البلاد ، يؤمها عامة الشعب . وفى كل معبد وسيط يقوم بالاتصال بين المتعبدين والالهة، وكان ينقل أسئلة المتعبـدين ومطالبهم الى الاله ، وعنـدما تكون الروح مستولية على جسمه ينطق باجابة مفككة يقوم الكاهن بتفسيرها . وكانت تصحب الابتهالات قرابين تختلف حسب أهمية الطلب ، ومركز العابد . وأسوأ ما فى ديانة الباجنديين هو انتشار القرابين البشرية بينهم ، اذ كانوا يقدمونها كجزء من عبادة الآلهة العظيمة . وعندما كانوا يخافون من حلول كارثة عامة ، كانوا يقدمون المئات من الأشخاص كقرابين فى وقت واحد ، اذ كان هناك ثلاثة عشر مكانا فى المملكة تقدم فيها مثل هذه القرابين الجماعية . وكان الأسلوب المتبع فى تقديم القرابين يختلف من مكان الى آخر . ففى أحد الأماكن كانوا يضربون الضحايا بالهراوات حتى يموتوا ، ثم تترك أجسادهم لتأكلها الضباع والعقبان ، فى حين كانوا يكسرون أذرع وأرجل الضحايا فى مكان آخـر ويتركونهم على الشاطىء للتماسيح لتلتهمهم وهم أحياء .

وكان حظ أوغندة أسعد كثيرا من حظ معظم الدويلات الزنجية الأخرى. فان صعوبات النقل ، وعدم وجود زيت البترول ، والموارد الطبيعية ذات الأهمية البارزة ، حمتها من الاستغلال الأجنبى ، يضاف الى ذلك أن المناخ لم يشـجع الأوروبيين على الاستقرار هنـاك . وكان لتأسيس الارسـالية البروتستانية الانجليزية عام ١٨٧٧ والارسالية الكاثوليكية الفرنسية عام ١٨٧٩

فضل فى اختفاء المظاهر الدموية من الدين الوطنى . وبعد وفاة الملك موتيسا Mutesa عام ١٨٨٤ تمزقت البلاد بفعل الحروب التى اندلعت نيرانها بين المرشحين للعرش الذين كان يساعدهم البروتستانت أو الكاثوليك أو المسلمون ، وفى عام ١٨٩٤ أصبحت أوغندة محمية بريطانية . وقد أظهر الأغنديون رغبة ملحة فى التعليم ، وليس هناك شك فى أنهم سيلعبون دورا هاما فى تقدم احدى المدنيات الافريقية الحديثة .

وكان لداهومى ، وهى تقع على شاطىء الرقيق فى غرب افريقية علاقات طويلة ووثيقة مع الأوروبيين أكثر من أى مملكة زنجية أخرى . فقد زارها أولا البرتغاليون فى منتصف القرن الخامس عشر ثم أصبحت مركزا هاما لتجارة الرقيق . وفى منتصف القرن التاسع عشر كانت معروفة لدى الأوروبيين الذين كانوا يزورونها دائما أكثر من أى دولة زنجية أخرى بما فى ذلك الأشانتى . وكان سكان غربى افريقية قد تعودوا التجارة والإنتاج التجارى عندما وصل الأوربيون لأول مرة ، وكانت معظم الحرف يتوارثها الصناع المحترفون الذين سهلت روابط القرابة بينهم أمر تكوين النقابات ، كما أن التجار الذين كانوا يتعاملون فى سلع مختلفة كانوا فى أغلب الأحيان ينظمون صفوفهم ليحافظوا على الأسعار ، وليضمنوا المنافسة العادلة بينهم . ولهذا السبب لم يكن النشاط التجارى الذى جاء فى أعقاب الاتصال الأوروبى أمرا جديدا عليهم ، اللهم الا من ناحية كثرته . وقد نتج عن ادماج السلع الأجنبية فى حضارة هذه البلاد والحاجة الى توزيع السلع المستوردة فى جميع أنحاء المملكة ، والمكاسب التى كانت تجبى من وراء الرقيق ، نتج عن ذلك كله اتاحة الفرصة للعامة ، بما فيهم النساء ، لكى يجنوا ثروات كبيرة . وحتى الملك نفسه كان تاجرا ، وكان يستمد معظم دخله من التجارة بالاضافة الى الدخل الذى يأتيه عن طريق الضرائب وعن طريق دخل الجمارك .

ومن المحتمل أيضا أن يكون الاتصال الأوروبى قد لعب دورا مماثلا فى

التطور التكنولوجى فى داهومى : فلقد كانت جميع شعوب هذا الجزء من افريقيا عمال معادن مهرة ، وقد أثبت العثور على عدد من الرؤوس الفخمة الصنع لملوك « ايفى » فى القرن الحادى عشر أن هذه المهارة كانت قد أتمت تقدمها قبل وصول الأوروبيين ، ومع ذلك فقد كانت هناك رواية يرويها سكان مملكة « بنين » المجاورة تشير الى أن الفن قد دخل فى القرن الخامس عشر على يد فنان برتغالى ، وكانت هناك عشيرة تنسب اليه من سابكى النحاس يقولون انهم من نسله . ويمكننا أن نؤكد أن الأوروبيين لم يدخلوا هذه الصناعة الى افريقية ولكنهم ربما أسهموا فى وصولها الى حد الكمال فى مملكة « بنين » . ونلاحظ فى هذه المنطقة بعد القرن الخامس عشر التأثير الأوروبى من ناحية الموضوعات ، لا من ناحية التقاليد الفنية ، فالبنادق مثلا نراها مرسومة بالكثرة التى رسم بها غيرها من الأسلحة الوطنية ، وكثيرا ما نرى رسوما لأفراد من الأوربيين نرى فيها المهارة أكثر مما نرى فيها شيئا من العاطفة نحو أصحابها .

وكان المجتمع الداهومى منظما تنظيما طبقيا دقيقا . ففى أسفل السلم كان يقبع الأرقاء الذين كانوا فى هذه الحالة من الأسرى الأجانب أو من المجرمين . فلم يكن فى داهومى أرقاء وراثيون بسبب وجود قانون قديم ينص على أن كل من يولد على أرض داهومى فهو حر ولكن ذلك لم يمنع من استعباد بعض الرعايا الداهوميين اذا ما اقترفوا بعض الأخطاء ، وهو اتجاه شجعه وجود تجار الرقيق من الأوروبيين . ولم يستعبد المجرمون فقط ، بل ان بعض أعضاء البيت المالك الذين كان الملك يشك فى مطامعهم السياسية كان يقبض عليهم ويصبحون رقيقا ويباعون فى الخارج . ولهذا فان أجداد الزنوج الأمريكيين كانوا ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة وما أشبههم فى ذلك بالمعتقلين فى أى معسكر من معسكرات الاعتقال .

وبين طبقة الأرقاء وطبقة الأحرار توجد طبقة أخرى وهى طبقة رقيق

الأرض أو خدامها وهم أبناء الرقيق المملوكين للملك الذين يعملون فى الضياع الملكية . ولم يكن يسمح ببيع هذه الطبقة ولكن فى الوقت ذاته لا يسمح لها بمغادرة الأرض . أما العامة الذين يكونون غالبية الشعب فكانوا ينتظمون فى أربعين عشيرة لم يفرض عليها أن تعيش فى أماكن معينة فى البلاد . وكان لكل من هذه العشائر زعيم مسئول عن تسوية النزاع الذى ينشب بين أعضاء العشيرة ، كما كان يشرف أيضا على ما يحدث بين أفرادها من زواج ، ولما كانت مهور الزوجات كلها تمر من بين يديه فان المنصب كان مربحا للغاية . وكان من حقه أيضا أن يأخذ الدخل الذى يأتى من استغلال الأملاك المشتركة للعشيرة ، كما كان له الحق فى استدعاء أعضاء العشيرة للعمل . وكان يستمد أهميته من الدور الذى يلعبه ككاهن أعظم لعبادة أسلاف العشيرة ، وكان يدين بسلطة لاتصاله الوثيق بأرواح الأسلاف . وكانت المتقدمات فى السن من نساء العشيرة يتمتعن بسلطات عظيمة لأنهن سيصبحن عاجلا أو آجلا من أرواح الأسلاف .

كان أعضاء العشيرة متفوقين فى أنحاء المملكة ، ولكنهم كانوا يحافظون على التضامن عن طريق عقد اجتماعات سنوية يعبد فيها كل الذين ماتوا من أعضاء العشيرة بجانب الذين وقعوا فريسة للاسترقاق وتركوا وطنهم . وكانت الوحدة الاجتماعية الرئيسية فى داخل العشيرة هى العائلة المترابطة التى كان رئيسها يدير أملاكها ، وكان يعامل هذا الرئيس باحترام عظيم أثناء حياته ويؤله بعد وفاته . وكانت غاية ما يطمح اليه كل رجل أن يؤسس عائلة مترابطة وأن تنمو هذه العائلة حتى تصبح عشيرة فرعية . ونتجت من هذا النظام عادة أخرى وهى أنه طالما كان فى مقدور النساء أن يعملن فى التجارة وأن تكون لهن ثروات مثل الرجال ، فقد تطور النظام الاجتماعى وأصبح للنساء الحق فى تأسيس عائلات مترابطة . كان فى مقدور المرأة التى تجمع لنفسها ثروة كافية أن تشترى أرضا ، وأن تبنى مقرا ، وأن تشترى زوجات تقرضهن لشبان

تختارهم بغرض انجاب الأطفال . وكانت « الزوجات » ينادينها بلقب «الزوج» بينما كان الأطفال الذين أصبحوا فرعا جـديدا ينادونها على اعتبـار أنها « الأب » ، ويظهرون لها شعائر الاحترام الرسمية الواجبة نحو الأب الحقيقى. وفى الجيل الذى يعقب هذا كان أبناء مثل هذا الفرع يشترون الزوجات ويحضروهن الى مقر الفرع كالمعتاد ، ولكن البنات كن لا يغادرن المقر ، بل كن يحضرن أزواجهن اليه . وكانت الفروع التى تفتقر الى الأبناء تلجأ الى الزواج من سلالة الأم ، ولكن مثل هذا الأمر كان يحدث عند الضرورة فقط . والفروع التى تؤسسها النساء هى التى كانت تستمر جيلا بعد جيل ، وكانت النتيجة التى ترتبت على ذلك هى أن هذه الفروع أخذت فى النمو السريع وكانت متعددة ومزدهرة أكثر من المعتاد .

وكان الملك يغدق الضياع على العامة كمكافأة على خدماتهم . وكانت هذه الضياع تورث للبكر من الأبناء ونجم عن ذلك وجود طبقة نصف نبيلة عرفت بين الأوروبيين باسم ال « كابوسير » Caboceer ، وكان هـؤلاء الكابوسير يدعون للخدمة العسكرية مثل كل أحرار الداهوميين ، وكونوا نواة فرقة الفرسان الوطنيين . وكان لجميع الأفراد من سلالة الملوك الداهوميين الحق فى التمتع بمرتبة الامارة ، ولم يحل القرن التاسع عشر حتى كان هؤلاء الأمراء قد أضحوا من الكثرة بحيث أصبحوا عشرة فى المائة من مجموع الشعب . ولم يحرم الزواج على نساء هذه المجموعة ، ولكن بما أن أزواجهن كانوا فى العادة من العامة فقد كانت لهؤلاء النساء السلطة المطلقة فى المنزل ، وكن مشهورات بالتهور فى سلوكهن من ناحيـة علاقاتهن الجنسية . وكان يسمح للملك بالزواج من أميرات عندما تكون رابطة الدم الحقيقية بينـه وبينهن بعيدة ولكن كان أبناؤه من الأميرات ممنوعين من تولى العرش لأنهم كانوا يعتقدون أن شرعية ذلك موضع شك . وكان المفروض ألا يشـتغل الأمراء والأميرات بالتجارة أو بأى نوع آخر من الأعمال اليدوية ، كما كانوا

عموما ممنوعين من تولى أى نوع من المناصب الادارية . أما دخلهم فقد كان يأتيهم من الضياع التى يتوارثونها ، ومن الهبات التى يغدقها عليهم الملك .

كانت رابطة القربى فى داهومى رابطة قوية الى أبعد الحدود . وكانت واجبات الفرد تجاه الأقارب العديدين تعوق حريته الشخصية فى كل ناحية . ولعل الفكرة الخاصة بالصديق الوفى التى اختصت بها داهومى نشأت كرد فعل لهذه العادة . فقد كان لكل رجل داهومى أو امرأة داهومية صديق من جنسه يشترط ألا يكون من أقاربه أو أقاربها ، ويكون هذا الصديق الوفى موضع الثقة الكاملة ، وقد اعترف بهذه العلاقة كل من القانون والعرف . حتى الملك نفسه كان له صديق وفى يختاره من العامة . وكان هذا الصديق الوفى محل ثقة صديقه التامة أثناء حياته وكان عليه أن يساعده فى كل ما يفعله سواء أكان ذلك قانونيا أو ضد القانون . فاذا ارتكب أحد الناس جريمة وهرب كانوا يلقون القبض على صديقه الوفى ويعذبونه لأنه متى سمع صديقه بذلك فان ولاءه سيحتم عليه بكل تأكيد أن يسلم نفسه فورا . ومن الجائز أن يتقدم الصديق الوفى لمساعدة صديقه بتزويده بالمال اللازم لشراء زوجة وفى مثل هذه الحالة كان من المفهوم أنه عندما تبلغ الابنة الأولى من هذا الزواج سن الزواج كان للصديق الوفى الحق فى أن يتخذها زوجة له دون أن يدفع مهرا لها . وقد أيد القانون الداهومى هذه العادة التقليدية تأييدا قويا . فلو هربت الفتاة أو فقدت بكارتها بسبب صلتها برجل آخر فان جميع نساء عشيرة الصديق الوفى المتزوجات من رجال ينتمون الى عشيرة الرجل الذى تسبب فى هربها أو فقد بكارتها يصبحن فى الحال بصورة آلية مطلقات من أزواجهن . وكانوا يهيئون للسيد الذى أسىء اليه الفرصة لاختيار عروس له من بين كل بنات عشيرة الخطيبة الخاطئة اللائى بلغن سن الزواج دون أن يدفع مهرا أو ابداء أى اشارة الى أى ارتباط سابق بترتيبات الزواج من أى شخص آخر . وعندما يموت الرجل كان المتوقع من صديقه الوفى أن يشرف على جنازته

وأن ينفذ وصيته ، وكان المعتاد أن يفضل الشخص صديقه الوفى للافضاء اليه بالوصية ويفضله على أى شخص من أقاربه . وكانت هذه العلاقة بين الأصدقاء ذات أهمية كبرى لدى الداهوميين جعلتهم يتخذون لأنفسهم صديقا ثانيا وثالثا من الأصدقاء الأوفياء الذين كانوا يأخذون مكان الصديق الوفى الأول فى حالة وفاته .

وكان فى المقر الملكى فى أبومى (Abomey) حوالى ثمانية آلاف شخص ، كلهم من النساء تقريبا . وكان لدى الملك أربعون زوجة من عشيرة الفهد كن يقمن على خدمته وذلك عدا عدة آلاف أخرى من الزوجات لم يتصل أكثرهن بالملك ، ولم تكن لهن علاقة به كزوج . فمثلا كان الألفان والخمسمائة فارسة أمازونية اللاتى كن أفضل فرق الجيش الداهومى من بين زوجات الملك وذلك بالرغم من أن معظمهن كن عذارى ، اذ كانت العلاقات الجنسية محرمة عليهن تحريما كاملا ، ومن خالفت ذلك كان نصيبها القتل . وكانت بعض أولئك الزوجات يعملن كأرشيف حى ويحفظن فى ذاكرتهن أمور المملكة المعقدة . فقد كان يخصص لكل موظف ابتداء من الوزير الأول الى القاضى المحلى زوجة من زوجات الملك تعتبر « أما » له . وكان مفروضا أن تكون هذه المرأة حاضرة فى كل المناسبات عندما يقوم بعمله كموظف حتى تستطيع معرفة كل ما يحدث وتبقيه فى ذاكرتها وتنقله الى الملك .

وكان للملك وزيران عظيمان ينتخبهما من بين العامة . واحد منهما هو « المينجان » (Mingan) الذى كان فى الأصل يعمل جلادا لدى الملك ، ثم ازدادت بعد ذلك واجباته الى أن أصبح وزيرا أول يصرّف أمـور المملكة . وكان دائما يتزوج ابنة الملك الكبرى ويقف على يمين العرش فى المناسبات الرسمية . أما الوزير العظيم الآخر وهو « الميهو » (Mehu) فكان مسئولا عن الاشراف على القصر الملكى ، كما يقوم بالاشراف أيضا على جميع أعضاء مجموعة الأمراء ، وكان يتزوج من ابنة الملك الثانية ويقف على شمال العرش.

وبالاضافة الى هذين الوزيرين كان يوجد موظفون عديدون يشتغلون فى ادارة المملكة ، وبالرغم من انهم كانوا من العامة الا أنه كان هناك اتجاه قوى لجعل مناصبهم وراثية . وكان يعين لكل موظف يحتل منصبا كبيرا أحد الأمراء كملازم له ، وكان هؤلاء الملازمون يتمتعون ببعض امتيازات المنصب ولكن لم تكن لهم أى سلطة .

وكان الملك يختار فى حياته ولى عهده الذى يكون فى العادة أكبر أبناء الزوجة الأولى التى اختارها له أبوه الملك الراحل ، ولكن الصلاحية للمنصب كانت توضع أيضا موضع الاعتبار . وكان يعطى لولى العهد ضياع كثيرة وزوجات عديدات ، وكان يشترك مع أبيه فى الحكم قبل وفاته .

وكانت المملكة مقسمة لاعتبارات ادارية الى اثنتى عشرة مقاطعة يحكم كل منها حاكم وراثى . وكانت كل مقاطعة تضم قرى عديدة يرأس كل منها زعيم وراثى أيضا . وكان لكل زعيم منهم الأدوات الخاصة بمظهر وظيفته وهى عصا مزخرفة وكرسى كان شكله يختلف باختلاف المنصب ، كما كان ارتفاعه يتناسب مع أهمية المنصب أيضا . كما كان من بين تلك الأدوات غليون للتدخين ومظلة تنشر فوق رأسه فى المناسبات الرسمية وكانت المهمة الأساسية لهؤلاء الزعماء هى اقامة العدل . وكانت مالية الدولة تسير على أساس سليم ومنظم . وكانت الضرائب التى تجبى من المبيعات أكثر مصادر الدخل أهمية ، وكانت الضرائب تفرض أيضا على التركات كما كان الملك يستولى على ضياع المجرمين بعد مصادرتها ، وكثيرا ما كان يحدث لأحد العامة الذى يتفاخر ويزهى دون وجه حق بثروته ، أن يحكم عليه بعد تلفيق تهمة له . وكان هناك عدد كبير من صغار الموظفين . وكان الموظفون جميعا تحت رقابة جهاز سرى منظم تمام التنظيم متغلغل فى جميع الادارات .

وكان القيام بعمل الاحصاء احدى المميزات الخاصة بنشاط الدولة الداهومية . فقد كان يجرى فى كل عام احصاء دقيق لعدد سكان داهومى

يتضمن تقارير عن المواليد والوفيات . وكان لكل شخص يمثلونه بحصوة ، وكان بعض الموظفين المختصين يكلفون باحصاء العبيد وأسرى الحرب وقتلى المعارك . وكان هذا الاحصاء بطريقة الحصى يقسم الى خمس عشرة وحدة . واحدة منها كانت للذكور البالغين ، وأخرى للنساء البالغات ، وثالثة للأطفال من الجنسين الذين لم يبلغوا الثالثة عشرة من عمرهم . وكانت أكياس الحصى توضع فى منزل خاص فى العاصمة وتعتبر مرجعا دائما لمعرفة ما اذا كان عدد الشعب فى ازدياد أم أنه أخذ فى النقصان ، ورسم السياسة اللازمة تبعا لذلك .

ويعتبر وجود جيش دائم ظاهرة أخرى مميزة للدولة الداهومية فقد كان يتوقع من الرجال الأحرار ذوى الأجسام القادرة أن يقدموا أنفسهم للتجنيد السنوى الذى كان يحدث فى بداية الفصل الجاف ، أى فى الوقت الذى تكون فيه فترة راحة من العمل فى الزراعة . ولكن هذا التجنيد العام لم يكن ذا أهمية عسكرية كبيرة ؛ اذ أن الجنود لم يكونوا مدربين أو مسلحين تسليحا كافيا ، ولكن قوة الدولة كانت تكمن فى جيشها المنتظم ، وكان هذا الجيش يتكون من حرس القصر ورجال البلاط وأبناء الزعماء وطبقات معينة من المجرمين وفرقة الأمازونيات . وكانت القوة كلها منتظمة فى شكل فرق عسكرية ، كان على رأس كل منها ضباطها ولكل منها لباسها الخاص بها . وكان الرجال يكونون جناحى الجيش . أما الأمازونيات فكانت فى القلب . وكان عدد الأمازونيات حوالى ألفين وخمسمائة أمازونية مقسمات الى خمس مجموعات . المجموعة الأولى هى مجموعة حاملات البنادق وكان عددهن كثيرا ويكون القوة الرئيسية ، ثم المجموعة التى تحمل القربينات أو البنادق القصيرة وكن من النساء المحنكات المتقدمات فى السن ، ثم صائدات الفيلة ، وهن أعظم النساء جرأة واللاتى كن يصاحبن الملك فى رحلات الصيد ، ثم مجموعة حاملات الأمواس ، وهن مجموعة صغيرة مسلحة بأمواس مستقيمة يبلغ طول سلاحها خمسة وأربعين سنتيمترا مصممة خصيصا للاطاحة برقاب الزعماء من الأعداء ،

وأخيرا ، كانت هناك مجموعة من الشابات حاملات الأقواس واللاتى كن يشتركن فى الاستعراضات ، ولكن لم يشتركن فى المعارك الا قليلا . وكانت النساء الأمازونيات دائما مسلحات ، ويداومن على التدريب ، وذلك عن طريق المناورات الكثيرة ، وقد أثبتن همتهن وحميتهن ابان حروب الغزو الفرنسية ، وربما كن أفضل الجنود الوطنيين فى افريقية .

وكان ملك داهومى يشن الحرب بانتظام فى كل عام ضد جار من جيرانه . وكانت البواعث على هذه الحروب اقتصادية فى معظم الحالات ، اذ كانت الأسلاب وبخاصة الرقيق ، الذين كانوا يحصلون عليهم من هذه الحملات موردا هاما من موارد الدخل الملكى . وكان الكثير من أساليب الحرب فى داهومى يشبه الأساليب التى كانت تستخدمها الدول الأوروبية ذات الحزب الواحد . كانوا يرسلون الجواسيس الى المنطقة التى يراد مهاجمتها متنكرين فى زى التجار ويرشون الموظفين فى ذلك البلد كلما أمكن ذلك . وكانوا يقومون بحملة منظمة لاثارة روح الحرب بين مواطنيهم اذ كان عملاء الحكومة يذهبون الى الأسواق لنشر الاشاعات عن الأعمال العدائية الشنيعة التى ترتكبها الدولة التى ينوون الهجوم عليها ، وكان كل شيء يدبر لكى يظهر أن العدو هو المعتدى ، وأن داهومى قد اضطرت اضطرارا أن تخوض غمار الحرب رغم ارادتها .

والدين الداهومى منظم حول مجموعتين من الكائنات ذات القوى فوق الطبيعية وهما أرواح الأسلاف والآلهة الوطنية . كانت فكرة الداهوميين عن طبيعة الرجل الروحية أكثر تعقيدا من فكرة الأوروبيين عنها . فكل شخص داهومى كان يضم الى نفسه كائنا ذا قوة فوق قوة الطبيعة وهى روح أحد الأسلاف . وكان هذا الكائن يقدم المادة التى يتشكل منها جسد الفرد ، ثم يقوم بعد ذلك على خدمته كحارس ومعين له . وكان لكل فرد قضاؤه وقدره الخاصان به اللذان يكشف له عنهما أحد المنبئين بالغيب . وبالرغم من أن

القضاء والقدر لم يكن لهما شكل معروف فانه يجب أن يسترضوهما بتقديم القرابين ثلاث مرات فى العام على أقل تقدير . والى جانب هـذه الكائنات الخارجية ، كان هناك ثلاث كائنات داخلية . كانوا يعتقدون أن الروح الشخصية للفرد هى التى شكلت الجسد من المادة التى قدمتها الروح الحارسة . وكانت هذه الروح الشخصية تسكن فى الرأس وتتحكم فى تفكير الشخص ، وكانت تترك الجسد مؤقتا أثناء النوم ، وليست الأحلام التى يراها الشخص أثناء نومه الا التجارب التى تعرضت لها الروح أثناء ذلك . أما القوة الحيـوية الأساسية فى الفرد فانها كانت تتمثل فى « أفعى » ساووا بينها وبين حبـل السرة . فاذا أحسن الفرد معاملة هذه الأفعى وكسب ودها فانها تغدق على صاحبها الثروات التى يأخذها من الرجال الآخرين الذين أهملوا « الأفاعى » الخاصة بهم . وأخيرا ، كان لكل فرد شرارة الهية ، قطعة من الالهة « ماوو » (Mowu) التى تزوده بقوة الالهام .

وعند الوفاة كانت هذه الكائنات تتفرق ؛ فكانت الروح الحارسة تبحث لها عن آخرين لتحميهم الى أن ترجع الى الأرض ست عشرة مرة . أما عن القوى الحيوية فانها لو عبدت كما يجب أن تعبد أثناء حياة الفرد ، فانها تنضم الى قوى العشيرة وتقويها والا فانها تهرب وتذهب بعيدا نحو الجبال وتثير المتاعب ، فأما الشرارة المقدسة فانها تعود الى الالهة « ماوو » ، وأما الروح الشخصية فتصبح شبحا يضرب فى الأرض حتى تقام لها جنازة مناسبة يتحتم أن تقام فى وقت لا يزيد عن ثلاث سنوات . فاذا لم يقيموا هذه الجنازة فانها تصبح شبحا دائما شديد العداء للأقارب الذين أهملوا شأن قريبهم . وبعد الجنازة كانت الروح تذهب الى الالهة « ماوو » وتقدم لها الحساب عن حياتها ، وتصاحبها الشرارة المقدسة لتشهد عما اذا كانت الروح قد قالت الحق . وفى النهـاية كانت تصل الى أرض الموتى حيث كانت تعيش حياة مماثلة تقريبا لحياتها التى كانت تحياها على الأرض ، ولكنها كانت تهتم اهتماما كبيرا بما يفعله أقاربها

كما كانت فى العادة تصبح حارسا لواحد منهم كما ذكرنا آنفا ، وكانت طقوس عبادة الأسلاف توجه بصفة رئيسية لهذا الجزء من طبيعة الفرد الروحية .

وكانت كل عشيرة تعبد أسلافها فى حفلات عظيمة تقام سنويا كما كان الملك يقدم فروض العبادة للأسلاف الملكية مرة كل سنة نيابة عن الأمة كلها . وكان ينتهى هذا الاحتفال الوطنى الذى كان يعرف باسم « العادات » ، والذى كان يستمر عدة أيام تقام فيها الولائم ويظهر فيها كل شخص مدى ثروته وغناه ، وكان ينتهى باستعراض فخم يقام فى الميدان العام الكبير أمام القصر . كان جلاد الملك ، وممثلون لكل من تولى هذا المنصب قبله يقفون تحت منصة عالية كانت تلقى منها الحيوانات التى يطيحون برؤوسها . وفى ختام هـذا الاحتفال كانوا يرمون عشرين أو ثلاثين رجلا اليهم فيطيحون كذلك برؤوسهم، ويعرضون أجسادهم بعد ذلك وهى معلقة على نصبات تقام لهذا الغرض فى الميدان . وفى حفلة « العادات » العظيمة التى تقام بمناسبة موت الملك وجلوس خلفه على العرش كانوا يقتلون الكثير من حراس الملك وزوجاته وموظفى القصر ومئات من الضحايا ليكونوا فى صحبته فى العالم الآخر .

وكانت القرابين البشرية تقدم أيضا حينما يرغبون فى ارسال رسائل مهمة لأرواح السلف ، وكانوا يسلمون الضحية رسالة ليوصلها لهؤلاء الأسلاف ثم يعدم . وبالرغم من هذا كله فان عادة تقديم الضحايا البشرية كانت أقل أهمية وأقل استخداما فى داهومى عن مملكة أوغنده . وان المرء ليشك فى أن قيمة الانسان مهما كان نوعه وما يمكن أن يأتى من مكسب من بيعه لتجار الرقيق كان هو السبب المباشر للاقلال من ذلك فى داهومى .

وجنبا الى جنب مع عبادة الأسلاف ، انتشرت عبادة الآلهة الذين لم يكونوا من آصـل انسانى فى يوم ما ، وكان هـؤلاء الآلهـة فى ثلاث مجموعات وهم آلهة السماء وآلهة الأرض وآلهة الرعد . وعلى رأس مجموع آلهـة السماء كانت تتربع الالهة « ماوو » الهة القمر التى كانوا ينظرون اليها على

أنها أم لكل الآلهة ، وبالرغم من أنهم لم ينظروا اليها على أنها كائن أعظم أو حتى على أنها خالق . وكان رفيقها هو « ليسا » Lisa اله الشمس . وكان أفراد مجمع الهة الأرض كلهم من الرجال باستثناء معبود واحد فقط ، وعلى رأسهم كان يتربع توأمان هما أول أبناء ماوو وليسا . أما الآلهة الأخر فى هذا المجمع فقد كانوا أحفادها . أما مجمع آلهة الرعد فقد كان على رأسه الابن الثانى لماوو الذى كان يتحكم فى الرعد والمطر والنار والبحر . وكان لكل من المجموعات الثلاث طقوسه الدينية وعبادته الخاصة ، ويكون عابدوه طائفة دينية خاصة ، وكانت هذه الطوائف الدينية تشبه فى نواح كثيرة الجمعيات السرية التى كانت موجودة فى البلاد الأخرى فى غربى افريقيا ، ولكن وجودها كان ممنوعا منعا باتا فى داهومى .

وكان لكل اله معبد ، أو أكثر ، يتكون من منزل دائرى الشكل مشيد من القش ويحتوى على تمثال له يضعونه فوق منصة مبنية من الطين . وكانت هيئة المعبد تتكون من زعيم الكهنة يعاونه عدد من المساعدين يؤخذون من أعضاء الطائفة القدامى وعدد من الأعضاء المدنيين غير الكهنة الذين قد تمت احاطتهم بأسرار الديانة وعدد من الأعضاء الجدد الذين كانوا فى دور التمرين للاحاطة بهذه الأسرار ، وكانت المجموعة الأخيرة تعيش فى مبنى خاص يقام داخل حرم المعبد . وكان لكل طائفة طقوس تختلف اختلافا بسيطا عن بعضها البعض ولكنها كانت كلها تسير على أسلوب كان من أهم مبادئه حلول الاله فى جسد الكاهن واستحواذه عليه ، وكانت الرقصات الدينية التى يقوم بها العابدون أثناء الطقوس تؤدى هى الأخرى الى حلول الاله فى جسد بعض هؤلاء العابدين . وكانت مطالب الناس من الآلهة يصاحبها تقديم القرابين لكى تجاب ، وقد ينضم الأفراد الى مثل هذه الطائفة الدينية اما بالوراثة واما وفاء لنذر .

وعندما يموت أحد أعضاء الطائفة يأخذ مكانه عضو آخر من نفس

العشيرة . وكان الأطفال ينذرون لاحدى هذه الطوائف ، وكان عليهم أن يمروا بسلسلة طويلة من حفلات الارشاد لتعليمهم الأسرار . وفى خلال هذه المراحل كان من المفروض أن يقتل الاله العضو الجديد ثم يعيد اليه الحياة بعد ذلك ، وكان يمر هذا العضو بتجارب مختلفة وامتحانات قاسية فيها الكثير من التعذيب حتى تحل فى جسده روح الاله ، وفى النهاية تفتديه عائلته بدفع مبلغ كبير من المال . وكان أعضاء الطوائف الدينية المختلفة يقصون شعورهم على طريقة خاصة ويلبسون أدوات زينة تميزهم عن غيرهم . ودراسة هذه الطوائف الدينية فى داهومى ذات أهمية كبرى للأمريكيين لأنها هى أساس عادات الفودو voodoo عند الزنوج الأمريكيين التى أسىء فهمها . فان هذه الطوائف الدينية ، وكل ما تفرع عن الفودو ، كانت فى جوهرها طيبة المقصد والغاية ، ويجب ألا نخلط بينها وبين السحر الشرير الذى كان أعضاء هذه الطوائف الدينية يعارضونه ويحاربونه محاربة شديدة .

واضمحلت أهمية داهومى بعد الغاء تجارة الرقيق ، وفى نهاية القرن التاسع عشر عندما اتجهت أوروبا لتكوين المستعمرات ، وقعت داهومى من نصيب فرنسا التى احتلت مقر الحكم فى أبومى وأرسلت بآخر ملك للبلاد الى المنفى فى عام ١٨٩٢ . ولكن بالرغم من أن الداهوميين قد خضعوا لقوة الجيوش الفرنسية فانهم لم يفقدوا الأمل أبدا فى نيل استقلالهم والعودة الى نظامهم الملكى . ويقال انه يوجد مرشح معين لكل منصب فى المملكة ، وعندما يأتى اليوم الذى ينسحب فيه الأوروبيون فان النظم القديمة للحكومة يمكن أن تعود بين يوم وليلة .

ومجمل القول أن التنظيم الاجتماعى والسياسى للممالك الزنجية كلها يحتوى على ظواهر عديدة مشتركة بينها . ويبدو أن نظمهم الأساسية جميعها كانت تحتوى تجديدات مختلفة ولكنها مستمدة جميعها من نفس الأسس تقريبا . ففى هذه النظم كلها كانت طبقة المشتغلين بالزراعة منظمة فى مجموعات

من الأقارب المترابطين ، وعلى رأس كل منها يتربع زعماء يعملون على تسوية الخلافات بين الأعضاء كما كانوا فى الوقت ذاته كهنة لعبادة الأسلاف . وقد ظل هذا التنظيم العائلى منفصلا تماما عن تنظيم الوظائف التى تعتمد عليها الدولة فى ادارة دفة الأمور فى البلاد . وحتى عندما كانت المناصب وراثية فى هذا النظام البيروقطراطى فان زعماء العائلات المترابطة كان يحرم عليهم أن يتولوها ، وكانت الممالك الزنجية جميعا ممالكا أوتقراطية وكان للملك فيها سلطة منح الحياة والحكم بالموت ، كما كان الملك أعلى السلطات التى تستأنف اليها القضايا لأن تحقيق العدالة كان من أعظم مهام منصبه . وبينما كانوا ينظرون الى رحمة الملك بعين الرضى ، فانهم كانوا يعتبرون عدم استخدامه لسلطته بشىء من الاستبداد ضعفا ووهنا . وكان شخص الملك مقدسا دائما ، كما كانوا يعتقدون أن حالة الملك الجسمانية لها أثرها على رفاهية الدولة ، ولضمان ذلك فكثيرا ما كانت توجد نصوص رسمية تنص على قتل الحكام المرضى أو الذين أنهكتهم الشيخوخة .

وفى كل مكان ، كان الأسلاف الملكيون موضع عبادة وطنية عامة ، وكانوا يقومون بالسهر على حراسة المملكة . وكان المقر الملكى دائما فخما وعلى نطاق كبير ، ولهذا كان يبتلع الكثير من الدخل الوطنى . كان يشمل الحراس وعددا كبيرا من موظفى البلاد ومئات من الزوجات . وبالرغم من أنه كان من النادر أن يتم عزل زوجات الملك عزلا تاما ، فقد جرت العادة بحراستهن لمنع الزنا . ولم يكن لدى أى مملكة من الممالك الزنجية هيئات تشريعية أو أى هيئة أخرى لتمثيل الشعب فى ادارة الحكومة . وبالرغم من أنه كان للملك دائما مجلس ، فان أعضاء هذا المجلس كان يختارهم الملك بنفسه وكانت مهمتهم استشارية بحتة . وكما كان الحال مع زعماء العائلات المرتبطة بروابط القربى فان أقارب الملك كانوا يبعدون عن تولى الوظائف . وكانت نساء المجموعة الملكية يتمتعن

فى كل مكان بدرجة كبيرة من الحرية فى علاقاتهن الجنسية ، وكان محرما عليهن انجاب الأطفال ، واذا ولد لواحدة منهن أى طفل فانه كان محرما عليه الانتساب الى المجموعة الملكية .

ويبدو من غير المحتمل أنه عند بعث الحضارة الافريقية ، وهو الأمر الذى يتوقع حدوثه فى خلال القرن القادم ، فان الأفريقيين سيتجاهلون هذه النظم القديمة التى مرت عليها قرون طويلة . ومن الأمور المشكوك فيها بنوع خاص أنه سيكتب النجاح لأى محاولة لفرض الحقيقة الواقعة وادخال المظاهر الخارجية للحكومة الديموقراطية على الحضارة الافريقية .

القسم التاسع

الشرق الأقصى

الفصل الثانى والثلاثون

الهند فى عصر ما قبل التاريخ

تدين أوروبا بمركزها كقارة من القارات للتحديدات الاغريقية ، بعكس الهند التى حرمت من مثل هذا المركز لنفس النظرة المحدودة . وتتساوى شبه جزيرة الهند من حيث الحجم تقريبا بأوروبا اذا ما استثنينا منها الروسيا ، وعدد سكانها خمس مجموع سكان العالم . أما مناخها فيتدرج من القمم الثلجية الى الغابات الاستوائية المتكاثفة ، الى صحارى قاحلة لا تدانيها فى قحولتها غير الصحراء الكبرى . وما من منطقة نعرفها على مدى العصور التاريخية تماثل شبه جزيرة الهند فى الحجم وفيها هذه المجموعات الكبيرة ، والمختلفة ، من الأجناس واللغات والحضارات ، ولا يزال ذلك كله باقيا حتى الآن ، ففيها قبائل ما زال أفرادها يعيشون على الصيد وجمع الطعام ، وهى لا تبعد أكثر من مائتين أو ثلاثمائة ميل من المدن الكبيرة الحديثة ، كما أن أكبر مصانع الصلب فى العالم تقع على مقربة من قرى يعيش فيها صناع يصنعون بأيديهم ما تحتاج اليه القرية ، توارثوا هذه الحرف عن جدودهم وما زالوا يزاولونها بأساليب كانت تعتبر أساليب عتيقة عندما أغار الاسكندر المقدونى على اقليم البنجاب . ولا يمكننا أبدا أن نصف مثل هذه البلاد وصفا كافيا فى مجلد واحد ، فما بالك اذا ما حاولنا ذلك فى فصول قليلة . ولهذا فان الضرورة تقتضى أن نقصر مناقشتها الحالية على عناصر الحياة الهندية التى تساعدنا على وضع هذه الحضارة فى مكانها اللائق بها بين حضارات العالم ، والدور الذى لعبته فى أخذها وعطائها للعناصر الحضارية .

وتعتبر الهند من الناحية الجغرافية أكثر عزلة من أى جزء آخر فى أوراسيا . فقد عزلتها جبال الهملايا الهائلة من ناحية الشمال عن بقية القارة وأصبحت لها حصنا ضد الغزو شبيها بخط ماجينو . ويقع الطرف الغربى من هذا الحصن فى صحارى وجبال بلوخستان (Baluchistan) ، فى حين نرى غابات ومستنقعات آسام المنيعة قد دعمت طرفه الشرقى . وكأى خط دفاع لا يدخله التجديد لم يستطع هذا الخط أن يصمد فقد تمكن الغزاة من اختراق جبال هملايا أكثر من مرة . وبصرف النظر عن هذه التحصينات التى على الحدود أثبتت الهند ، باتساع رقعتها وعمقها ، انها كانت خط دفاع آخر أكثر مناعة . وقد كتب قائد مغولى أغار على وادى السند يقول « ان هذه بلاد شريرة . فماؤها ردىء وشمسها تقتل الرجال » . وقد وجدت الموجات المتعاقبة من المغيرين الشماليين نفسها فى أرض مزدحمة بسكانها الذين عاشوا فيها وقتا طويلا ، وأدركوا أنه رغم مهارتهم الحربية والسرعة التى تم بها غزوهم فى البداية انه ما زالت أمامهم حروب لا تنتهى ضد المناخ وضد الأمراض . وكان السكان القدامى دائما يخرجون أحسن حالا بعد ذلك الصراع البطىء والمستمر من أجل الحياة ، ذلك الصراع الذى كان يعقب كل غزو أو احتلال جديد . ولم يكن أمام الغزاة من فرصة للحياة الا بمزج دمائهم بدماء الشعب المقهور وقبول الكثير من أساليب الحياة الهندية . أما أحفادهم فقد أصبحوا جزءا لا يتجزأ من الهند ، ووجدوا لأنفسهم مكانا فى كل من المجتمع والدين الهنديين اللذين كان لهما كيان محكم ومرن . وبلغ النظام الفسيفسائى الذى ذكرناه آنفا عند حديثنا عن الشرق الأدنى أوج عظمته فى الهند ، حيث حلت مشكلة التشابه الكامل فى الحضارة بالتوفيق بين عدد لا يحصى من المجتمعات الفرعية ذات الأصول المختلفة لتصبح صورة متماسكة لها فى مجموعها شكل واضح ولكن لكل وحدة منها مكانتها الخاصة تحميها القوانين الدينية ووجوه نشاط خاصة بها . وبفضل هذا الأسلوب استطاعت الحضارة الهندية أن تحتفظ بكيانها

كوحدة حضارية مستقلة لها مميزاتها لمدة ثلاثة آلاف سنة . لقد اقترضت هذه المدنية كثيرا جدا من المدنيات الأخرى ، وهى تشـبه فى ذلك جميع المدنيات الأخرى ، ولكنها كانت تختار لنفسها ما تقترضه ثم شكلت ما اقترضته ليتلاءم مع أساليبها ونظمها الخاصة .

ويرجع جزء من السبب فى الاختلافات الهندية الى العوامل البيئية الطبيعية، فشبه جزيرة الهند مقسمة الى أربع مناطق جغرافية . ففى أقصى طرفها الشمالى حيث توجد منحدرات جبال الهملايا ذات الغابات الكثيفة لا يعيش الا عدد قليل من السكان . وبين جبال الهملايا وجبال فيندهيا Vindhya الواقعة الى الجنوب منها تقع منطقة وديان أنهار خصبة وسهول ، وهى المنطقة التى يقول عنها الهنود أنفسهم انها قلب وطنهم ، وهى المنطقة التى اتخذت فيها الحضارة الهندية شكلها التاريخى . وحتى « أرض الأنهار الخمسة » (البنچاب) فانها ليست ذات مناخ واحد . ففى الناحية الغربية يقع وادى السند — وهو منطقة كانت تكثر فيها الغابات فى الماضى وكانت مهدا لحضارة عظيمة — ولكن فى عصرنا الحاضر تجردت هذه المنطقة من الغابات ، كما أن سقوط الأمطار فيها لا يسير على قاعدة ثابتة يمكن الاعتماد عليها ، مما جعل الزراعة أمرا مستحيلا فى أماكن كثيرة ، كما جعلها تعتمد على الرى فى المناطق الباقية . وفى الناحية الشرقية يقع وادى الجانج بأمطاره الغزيرة ومناخه الشديد الحرارة ، وبين الاثنين نجد منطقة قليلة الأمطار يسودها مناخ موسمى متقلب بين جو استوائى حار وآخـر معتدل بارد . وجنوب جبال الفيندهيا تشغل المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة هضبة عالية نسبيا هى هضبة الدكن وتحدها من الشرق ومن الغرب جبال عالية هى جبال غات التى تسير موازية للسواحل ، ثم تنحدر فى أقصى الطرف الجنوبى ويصبح اسمها هناك تلال نيلجيرى Niligiri وساعد ارتفاع الهضبة على جعل المناخ المعتدل يسود المنطقة وهو أمر ما كان ليحدث لولا ارتفاع الهضبة ، اذ لولا ذلك لأصبح المناخ مناخ المناطق الحارة . هذا ، وقد أثر وجود جبال الغات على الرياح الموسمية التى تسود المنطقة

فجعلت نزول الأمطار فيها معتدلا . وكانت المنطقة مغطاة فى الأصل بغابات غير كثيفة من الأشجار التى تتساقط أوراقها فى بعض فصول السنة . وعلى طرف شبه الجزيرة ، بين جبال الغات والبحر سهل ضيق فيه عدة بحيرات داخلية ، وهذه المنطقة من أشد المناطق حرارة وأغزرها مطرا وتشبه من ناحية أثر البيئة على النبات والحيوان شبه جزيرة الملايو وأندونيسيا . فمنحدر جبال الغات المتجه ناحية البحر مغطى بغابة استوائية كثيفة ، وقد نجح بعض السكان الذين يعتبرون من أكثر سكان الهند تأخرا فى حضارتهم ، ان لم يكونوا من أكثر سكان العالم تأخرا ، فى العيش فى هذه المنطقة . وتعيش فى السهول الساحلية وعلى هضبة الدكن مجموعات متحضرة يثبت طابعها الجسمانى كما تثبت لغتها أنهم من السكان الأصليين . والرياح الموسمية هى أهم ظواهر المناخ الهندى وهى التى تؤثر على القارة بأسرها .

وفى الهند ثلاثة فصول مناخية فقط : فصل بارد جاف يبدأ فى أكتوبر وينتهى فى فبراير ، وفصل حار جدا وجاف ويبدأ فى مارس وينتهى فى يونيو ، ثم فصل مطير يستمر من يونيو حتى سبتمبر ، وهى الشهور الأربعة التى تسقط فيها الأمطار التى تعتمد عليها الزراعة فى كل أنحاء الهند . وتصل الرياح المشبعة بالرطوبة التى تكونت بعيدا فوق المحيط بين الهند وافريقيا الى ساحل المالابار فى جنوب غربى الهند حوالى منتصف مايو ، ومن هناك تسير بانحراف عبر شبه الجزيرة الى أن تصل الى خليج البنغال حيث يزداد تشبعها بالرطوبة وتسقط أمطارا غزيرة جدا على بورما وعلى أقاليم البنغال وأسام فى شمال شرقى الهند .

وتتسبب جبال الهملايا فى تغيير اتجاه الرياح الى ناحية الشمال الغربى حيث تمر ببطء عبر شمال الهند ثم تقل الأمطار كلما اتجهنا الى الغرب . وتصل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى هذه المنطقة عادة بعد مضى ثلاثة أسابيع من بدء هبوبها على الجنوب ، ثم تنتهى حوالى أول سبتمبر حيث تبدأ الرياح

الموسمية الشمالية الشرقية فى الهبوب ، وهى الرياح التى تهب من داخل أوراسيا وتمر فوق الأراضى الجرداء ، ويصاحبها هواء بارد مع قليل من الأمطار أو لا تصاحبها أمطار على الاطلاق ، وهذه الرياح هى التى تسبب الشتاء المعتدل فى شبه جزيرة الهند . أما الطرف الجنوبى من الهند فهو المكان الوحيد الذى لا يسقط عليه الا القليل من الأمطار . وبسبب طول فصل الجفاف ، كان الرى معروفا فى الهند منذ عصور ما قبل التاريخ . ومع ذلك ، فان كلا من المحصولات والسكان يعتمد اعتمادا كبيرا على هبوب الرياح الموسمية ، وقد أظهرت التجربة أن سقوط الأمطار فى معظم أجزاء الهند يكون غير كاف بمعدل سنة كل خمس سنوات تقريبا بينما يكاد ينعدم سقوط الأمطار فى عام كل عشرة أعوام ، وهو الأمر الذى يهدد دائما بحدوث مجاعة . وقد كانت هذه المجاعات المتكررة حلا قاسيا وان كان حاسما لمشكلة تضخم السكان فى الهند ، وهى المشكلة التى لا يوجد لها الى الآن حل آخر أرحم من ذلك الحل .

ومن وجهة نظر عالم الأجناس الاجتماعى فان الهند بلد لا يعانى من مشكلة الأجناس لأن الطابع الجسمانى قلما يدل بمفرده على المركز الاجتماعى . وبالرغم من أن كلمة ڤارنا (Varna) التى تعنى اللون هى الكلمة التى تدل فى اللغة السنسكريتية على التقسيمات الأربعة الرئيسية فى نظام الطبقات ، وان التفسير القديم لوجود الطبقات هو أن ذلك النظام وضع ليحمى المجموعة الآرية الحاكمة من اختلاطها مع غيرها بالزواج بمن هم أقل منها ، فان البراهمة ذوى اللون الداكن فى جنوب الهند الآن ليسوا بأقل أرستقراطية بسبب لونهم ، كما أن بعض المنبوذين ذوى الجلد الأبيض والعيون الرمادية فى بعض مناطق شمال الهند لا يرفعهم لون بشرتهم الى فوق مستواهم الاجتماعى ، ومع ذلك فاللون الفاتح للجلد هو مقياس الجمال بين الهنود كما هو الحال بين الزنوج الأمريكيين .

ومن ناحية التطورات الجسمانية فى دراسة علم الأجناس نجد أن الهند

تمدنا بعدد غير قليل من المشاكل المدهشة . فان التطورات الحديثة فى دراسة الأجناس ، وهى التى تميل الى الأخذ بنظرية التغير السريع بدلا من النظرية القديمة التى تقول بالبقاء طويلا دون تغيير ، قد زادت من التعقيدات بدلا من أن تنقصها . فقد كان من الصعب تفسير الاختلافات العنصرية الهندية عندما كانت الأجناس تعتبر ذات كيان محدد . أما الآن وفى ضوء النظرية الحديثة التى تقول بأن الأجناس يمكن أن تتغير عن طريق عدد كبير من التأثيرات البيئية التى لا نعرف عنها الا الشيء القليل ، وان أنواعا بشرية جديدة يمكن أن تأتى الى الوجود عن طريق تثبيت الخصائص التى تنتج من اختلاطها بالتزاوج يفتح مجالا واسعا للدراسة لا حدود له ، فان الأحوال الاجتماعية فى الهند تناسب تمام المناسبة ايجاد عدد كبير من السلالات الانسانية . ومن بين الأشياء التى لم يتحول عنها نظام الطبقات فى الهند هو ضرورة الزواج من داخل الجماعة . وفى نفس الوقت كانت أى جماعة جديدة تأتى الى الهند تتحول الى نظام الطبقات فى الحال .

أما الغزاة الذين دخلوا الهند وهم على جهل بنظام الطبقات واتخذوا لأنفسهم محظيات من السكان المحليين ، فقد تحولوا خلال أجيال قليلة واتبعوا العادات التى كانت سائدة هناك فى نظام الطبقات ، وساعدوا دون أن يشعروا بذلك على ادخال بعض مميزات سلالتهم الى الهند . كما أن جماعات العصابات المغامرة التى فرضت سيطرتها على بعض المقاطعات فى عصور الفوضى والاضطراب ادعت لنفسها حقوقا طبقية دون أى اعتبار لاختلاف أجناسهم الأصلية . وأخيرا ، كان كل مصلح دينى يظهر فى الهند يبدأ بانكار نظام الطبقات ويرحب بالمؤمنين بتعاليمه من كل المناطق ومن كل طبقات المجتمع ثم لا تلبث طائفته الدينية حتى تتحول الى طبقة أخرى بعد أجيال قليلة . زد على ذلك أنه لما كان لكل طبقة مبادئها الخاصة بالمأكل ، ولها ملابسها وتقاليدها الاجتماعية الخاصة بها بما فى ذلك قواعد الزواج ، فان فرص التبادل والاتحاد فى المؤثرات

الوراثية والبيئة كانت ممكنة الحدوث الى أبعد حد ممكن . ومما يشاهده الانسان فى الوقت الحاضر ، لو أراد دراسة نظام الطبقات الهندى كمجموعات محلية ذات أثر فعال قام على أساسها ذلك النظام ، فانه يجد بين أفراد أى طبقة من هذه الطبقات ، حتى ولو لم تظهر الا من قرون قليلة ، يجد بينهم شيئا من الشبه العائلى .

ولا شك أن الهند يمكن أن تكون أحسن ميدان فى العالم لدراسة الطرق الفعالة فى التطور الانسانى لو عرف المرء بالضبط العناصر الجنسية التى شاركت فى تكوين السكان الحاليين . ولكن لسوء الحظ ، فان جميع المحاولات التى بذلت لمعرفة حقيقة تاريخ الأجناس فى الهند يقوم أكثرها على الفروض ، ويبدو أن الأمر سيظل على ذلك فى المستقبل . فعادة حرق جثث الموتى عادة قديمة بكل تأكيد فى معظم أنحاء الهند ، وبالرغم من أن لها مميزات ذوقية وصحية الا أنها لا تساعد على الاطلاق أى مشتغل بدراسة الانتربولوجيا وتاريخ الأجناس فى أى منطقة هناك .

ولن يمكننا أن نصور لأنفسنا التاريخ القديم لأجناس الهند الا على أساس المعلومات الحضارية وأوجه الشبه فى الناحية الجسمانية بين الهنود فى الوقت الحاضر ، وبين غيرهم الذين يعيشون فى مناطق أخرى .

ولو عملت فى الهند بحوث پاليونتولوچية على نطاق واسع مثل تلك التى قام بها العلماء فى أوروبا ، لأصبح من المحتمل العثور على أقدم الأجناس التى عاشت هناك ، وليس هناك ثمة شك فى أن شبه الجزيرة كانت عامرة باستمرار منذ الوقت الذى لم يكن فيه الناس قد عرفوا عادة احراق الجثث أو أى طقس آخر من طقوس التخلص من جثث الموتى .

فمنذ العصر الميوسينى كانت الهند موطنا لجماعات كثيرة العدد من القردة الشبيهة بالانسان ، من بينها ذلك النوع الكبير الحجم الذى كان يعيش على الأرجح على الأرض ويسمى « دريو — بيثيكوس (Dryopithecus) »

والذى كان يعتبر خير المرشحين حتى ظهرت الاستكشافات الافريقية الحديثة ، لأن يكون ذلك النوع من الرئيسيات الذى كان له الشرف أن يكون الفرع المباشر الذى تنتسب اليه طلائع الانسان أو ما يسمى تحت الانسان . ان بعض الحوادث الجيولوجية مثل حالة ارتفاع جبال الهملايا قد سببت الاضطراب فى الحياة العامة لتلك القردة الشبيهة بالانسان ، كما يحتمل أيضا أن تكون قد أثرت على تطورها ، ولكن ليس هناك ما يشير الى أن تغييرات بيئية حدثت فى شبه الجزيرة وكانت من السعة بحيث تقضى على سكانها من الرئيسيات .

وحتى اذا فرضنا أن الهند لم تكن من بين المناطق التى تطور فيها جنسنا الانسانى فانها دون شك كانت من أولى المناطق التى احتلها أسلافنا من الانسان الذى يسير على قدميه ، وحتى فى وقتنا الحاضر ما زالت توجد فى جنوب الهند جماعات لا تختلف فى طابعها الجسمانى الا اختلافا ضئيلا عن ذلك الطابع الذى يتميز به انسان آل « وادجاك » (Wadjak) فى جاوة وهو أقدم نوع أمكن التعرف عليه من جنسنا البشرى . وما زالت أجناس عديدة لها نفس مميزات الانسان الذى يسمى عادة ما قبل الأسترالى أو الاسترالى الأقدم (Proto-Australoid) ، تعيش فى معظم المناطق الجنوبية فى الهند . هذا ويجدر بنا أن نذكر أن « بداءتهم » الجسمانية لا ترجع بحال الى تأخرهم الحضارى ، اذ أنهم فى حقيقة الأمر ، أنتجوا وخلدوا مدنيات يمكن أن نقارنها بحق مع أى مدنية أخرى حققها القوقازيون الآريون فى شمالى الهند ، الذين اشتهر أمرهم .

وبما أن الهند تفتقر تماما الى وجود بقايا الهياكل العظمية القديمة ، فنحن مضطرون الى الاتجاه نحو التوزيعات الحالية للسكان كأساس لاعادة بناء تاريخ الأجناس فيها . ففى جنوب الهند نرى أن الكثرة العظمى من السكان لهم نفس الطابع المسمى ما قبل الاوسترالى أو الاوسترالى الأقدم الذى

سبقت الاشارة اليه ، أما فى شمال غربى الهند فان الطابع الرئيسى هو الطابع القوقازى الذى يتميز به سكان البحر الأبيض المتوسط وهم لا يختلفون عن الطابع الغربى من هذا الجنس الا فى أنهم أطول منهم قامة بعض الشىء وأكثر منهم سمرة ، ومن الممكن أن تعلل هذه الاختلافات على أنها من نتائج الاقامة الطويلة فى بيئة استوائية أو شبه استوائية ذات شمس قوية . وفى نفس المنطقة وفى مناطق أخرى ممتدة على الساحل الغربى للهند ، يوجد عنصر ذو رأس مستدير لا يبدو أنه يرتبط بالمقاييس الجنسية الأخرى ، غير أن وجوده قد يرجع الى غزو من خارج الحدود الشمالية الغربية وهى منطقة لا زالت الرؤوس المستديرة فيها شائعة .

وهناك فى سفح جبال الهملايا يعيش عنصر مغولى قوى يمكن تفسيره بسهولة على أنه نتيجة لقدوم بعض الشعوب عبر الحواجز الجبلية ومن آسام من ناحية الشرق . ويجد المرء فى شمال شرقى الهند طابعا جسمانيا خاصـا يمتاز بالجمع ما بين استدارة الرأس وسمرة اللون والملامح المغولية . ويمكن تفسير ذلك بأنه نتيجة للاختلاط بين الجنس الأوسترالى الأقدم والجنس المغـولى .

وامتزجت هذه الأنواع المختلفة لتنتج أنواعا لا حصر لها من السلالات المحلية . وعلى وجه العموم ، فان الأوسترالى الأقدم هو أقوى العناصر فى جنوب الهند ، ثم تنتجه بعد ذلك ناحية الشمال على طول الساحل الشرقى . وتعتبر العناصر المغولية أقوى العناصر فى وادى السند ، ويلوح انها انتشرت من هناك فيما يبدو ناحية الشرق وناحية الجنوب . وما من شك فى أن العنصر الأوسترالى الأقدم هو الذى كون السكان الأصليين فى كل أنحاء شـبه جزيرة الهند ، أما القوقازيون الذين من جنس البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانوا على الأرجح أول الغزاة الذين غزوا هذه المنطقة ، لأننا نعرف من دراسة بقايا أقدم الهياكل العظمية التى كشفت هناك أن هذا الطابع قد اتصل بمدنية

وادى السند التى نرى فيها كثيرا من أوجه الشبه بمدنيــات بلاد الرافدين والمناطق الأخرى الواقعة الى الغرب منها .

ويعتبر العنصر المغولى ، على ما يرجح ، آخر من دخل الهند من العناصر الهامة وقد استقر هنا عن طريق الهجرات التدريجية وليس عن طريق الغزو على نطاق واسع . وبالاضافة الى هذه العناصر الرئيسية ، توجد عناصر أخرى ثانوية لا حصر لها من الدم الأجنبى التى وفدت الى تلك المنطقة . فقد دخل الاغريق والساسانيون والمغــول والفــرس الزرادشتيون والفرس المسلمون والعرب والسوريون وأهالى المــلايو والصينيون الى الهنــد ، وأسهموا بجيناتهم فى هذا المزيج الغنى المختلف الأنواع .

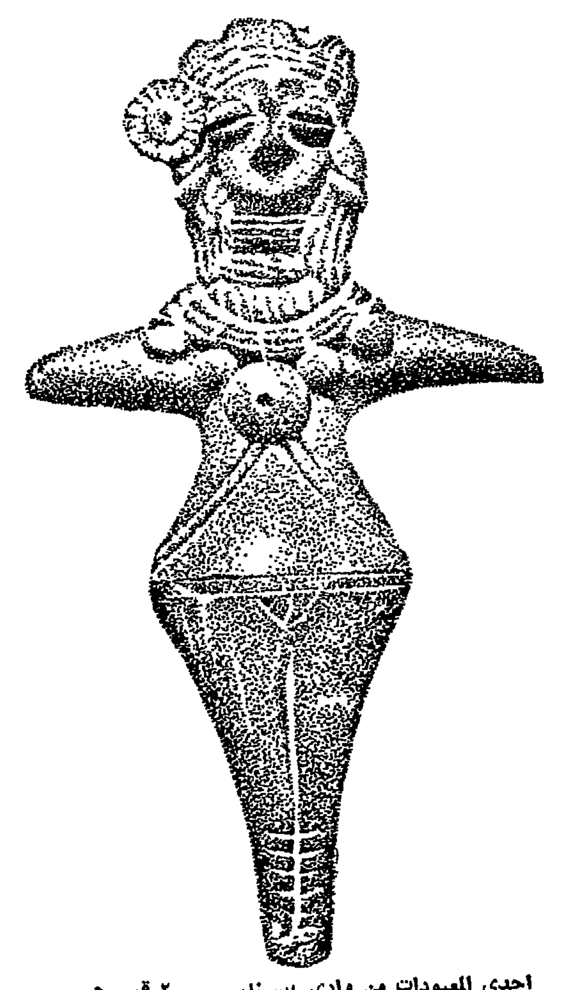
ومما يثير العجب حقا ان العنصر الجنسى الذى أدخله الآريون الغــزاة لا يمكن التعرف عليه . فمن المفترض عادة انهم كانوا من الجنس الشمالى (Nordic) ذوى الشعر الأشقر ولكن من العبث أن يبحث المرء عن أى فئة باقية بين السكان تحمل مثل هذا الطابع ، اذ أن الحرارة والشمس فى الهند تجعلان البيئة غير ملائمة لذوى الشعر الأشقر ، فلو فرضنا أن هذه المجموعة الجنسية قد غزت الهند على نطاق واسع ، فقد اختفت دون أن تترك وراءها أى أثر .

أما موضوع اللغات فى الهند فهو بدوره موضوع معقد يشابه فى تعقيده موضوع الأجناس ولكن فى استطاعتنا اختزال المجموعات المحلية التى لا نهاية لها الى أصول رئيسية قليلة كما حدث فى موضوع الأجناس ، فأقل الجماعات ، وفى نواح معينة أكثرها أهمية ، هى جماعة الأوسترية (Austric) . فان لغات هذه الجماعة ما زالت منتشرة فى جنوب شرقى آسيا وفى المحيط الهادى . فالجماعات التى تتكلم بها فى الهند ، هى — دون استثناء — جماعات ذات حضارة بسيطة تعيش فى مناطق نائية مما يوحى بأن هذه الجماعة قديمة جدا فى شبه الجزيرة . فلغات المجموعة الدراڤيدية منتشرة فى كل أنحاء الهند جنوب

نهر جوداڤارى باستثناء الـ « براهوى (Brahui) » فى أقصى الشمال الغربى . ووجود بعض الكلمات الدراڤيدية وأصوات المقاطع فى اللغات الهندو — أوروبية المنتشرة فى شمال الهند يوحى بأن اللغات الدراڤيدية كانت منتشرة فى معظم أنحاء شبه الجزيرة . وأخيرا ، فان اللغات الهندو — أوروبية أى اللغات الآرية يستخدمها السكان فى أنحاء شمال الهند .

ويثير انتشار اللغات الدراڤيدية بصفة خاصة الكثير من المشاكل الهامة ويؤكد مرة أخرى أنه ليس من الضرورى أن يكون للطابع الجسمانى واللغة صلة فيما بينهما . فلو أن اللغات الدراڤيدية كانت فى الأصل متصلة بالجنس الأوسترالى الأقدم ، كما يوحى بذلك التوزيع الحالى ، فانه يبدو من المرجح جدا أن السكان القوقازيين من سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط الذين استوطنوا شمال غربى الهند قد تحولوا الى استخدامها خلال الفترة التى تفصل بين وصولهم الى الهند ووصول الغزاة الآريين حوالى ١٥٠٠ ق . م . ولو أن اللغات الدراڤيدية ، من ناحية أخرى ، قد جلبها الغزاة من جنس منطقة البحر الأبيض المتوسط الى الهند ، فان المرء يجد نفسه وقد واجه مشكلة أكثر صعوبة وهى كيفية تحول كل جنوب الهند الى استخدام هذه اللغة مع العلم بأن ذلك العنصر الجنسى لم يكن ذا أهمية كبيرة فى تلك المناطق فى أى وقت من الأوقات .

وما زالت المعلومات التى لدينا عن الهند فى عصر ما قبل التاريخ معلومات قليلة وغير واضحة على الاطلاق ، ومبنية على أساس أشياء أثرية عثر عليها فوق سطح الأرض أكثر من قيامها على أساس نتائج حفائر منظمة . ومع ذلك فهى تشير الى أن الهند منذ أقدم العصور ، كانت الأرض التى يتلاقى فيها نوعان مختلفان من الحضارة تمام الاختلاف . ففى العصر الپاليوليتى القديم كانت شمال غربى الهند مركزا لحضارة من حضارات بلطة اليد التى تنتمى الى التقاليد المشتركة بين افريقيا وغرب أوراسيا . أما شرقى وجنوبى الهند فقد



احدى المعبودات من وادى السند ـ ٢٠٠٠ ق . م .

كانت تنتشر فيهما تقاليد حضارات المهشم والشطفة التى كانت شائعة فى جنوب شرقى آسيا . ولا يمكننا فى الوقت الحاضر التعرف بدقة على الحد الفاصل بين الحضارتين اذ من المرجح جدا أن هذا الحد كان يتغير مع تغيرات الطقس ابان الحقبة التى تبلغ فى مداها عدة آلاف من السنين ، والتى عاشت فيها هاتان الحضارتان معا فى شبه الجزيرة . وربما يتوقع الانسان أن يكون توزيع كل منهما مرتبطا بأحوال بيئية معينة كأن تحتل حضارات بلطة اليد المناطق التى تتشابه فيها البيئة الطبيعية مع البيئة التى تسود جنوب غربى آسيا ، وتحتـــل

حضارات المهشم والشطفة المناطق التى تشبه بيئتها بيئة جنوب شرقى آسيا أو أندونيسيا . لقد عثر على بقايا من العصر الپاليوليتى الأعلى والعصر الميوليتى فى مناطق عديدة فى الهند ، ولكن لم يعمل حتى الآن الا القليل من البحوث حتى تتيسر معرفة توزيعها أو مدى صلاتها الخارجية .

ونرى بوضوح فى بقايا العصر النيوليتى استمرارا للتأثير المزدوج لكل من حضارتى جنوب — شرق وجنوب غرب آسيا . فان الأدوات النيوليتية التى عثر عليها فى جنوب الهند وشرقها تمتاز بوجود أعداد كبيرة من أشكال مختلفة من القدوم والفأس مع ندرة وجود أدوات حجرية مشطوفة ، ومعظم أشكال المطرقة تشابه نظائرها فى جنوب شرقى آسيا وفيها كل خصائصها ، كما نرى فى الأدوات النيوليتية التى عثر عليها فى شمال غربى الهند ، بما فيها من الأدوات الحجرية وبعض الأشكال الخاصة من الأوانى الفخارية ، ارتباطا كبيرا بغربى آسيا . فمنذ وقت غير بعيد عثر فى مقاطعة مدراس فى جنوب الهند على مصنع أدوات نيوليتية ، واتضح من دراسة تلك الأدوات امتداد تأثير الحضارة النيوليتية الغربية الى الجنوب الشرقى . فبالاضافة الى المطارق والبلط والأزاميل قد احتوت أدوات مدراس على مجموعة كبيرة من الأدوات المشطوفة الصغيرة مثل السكاكين والمقاشط ورؤوس السهام وغيرها . والواقع أن هذه الأدوات لا تناسب التقاليد المشتركة فى جنوب شرق آسيا مع ما تمتاز به من اعتمادها الكبير على الغاب الهندى فى عمل القاذفات التى تقذف فى الهواء ، وفى عمل الأدوات القاطعة .

ويعتبر التقدم الكبير فى تشييد المنشآت الميجاليتية الظاهرة البارزة فى تكنولوجية جنوب الهند ابان الفترة التى تبدأ من العصر النيوليتى حتى فجر العصر التاريخى ، فهناك مواقع ميجاليتية عديدة فى هذه المنطقة . ويقال انه يوجد فى منطقة هضبة الدكن وحدها حوالى مليون موقع تحتوى على دوائر وأحجار قائمة منتصبة (menhirs) وأخرى منبسطة تشبه المنضدة ومقابر

محفورة فى الصخر ، ونلاحظ فيها انها مشيدة بأحجار بعضها قد سويت جوانبه والبعض الآخر على طبيعته . وتحتوى المقابر على هياكل عظمية ، الأمر الذى يدل على أن عادة حرق الجثث لم تكن قد بدأت بعد . هذا ، وكان الطابع الجسمانى للسكان القدماء مثل طابع السكان المحليين فى المنطقة حتى الآن وهو الطابع المسمى قبل — الأوسترالى ووضعوا مع الموتى بعض الأوانى الفخارية الخشنة الصنع ، ومن الواضح أنها كانت أوعية للطعام المقدم كقرابين كما وضعوا معهم أيضا مجموعة من أدوات الزينة المصنوعة من الحجر ، وبعض الأسلحة . وفى الجزء الأخير من العصر الميجاليتى وضعت فى المقابر بعض الأدوات المعدنية بكميات كبيرة ، وكان النحاس والبرونز والحديد والذهب مختلطة بعضها ببعض فى تلك المواقع منذ البداية .

وقد شابهت حضارة جنوب الهند فى العصور الميجاليتية حضارة دنج — صن فى جنوب شرقى آسيا لأن كل حضارة من الحضارتين كانت مرتبطة بالمنشئات الميجاليتية . ولسوء الحظ يمكننا تحديد تاريخ معين لأى منهما بشىء من الدقة . ومع ذلك ، فمن المرجح أن صناعة الأدوات المعدنية قد وصلت الى جنوب الهند وجنوب شرقى آسيا بعد أن تم تطورها . ولكن حتى اذا صح ذلك ، فمن المرجح أن الهنود من أهالى الجنوب قد أدخلوا تحسينات على طرق من علموهم صنع الأدوات الحديدية على الأقل . وعلى قدر ما نعلم ، فان جنوب الهند هو المكان الأول فى العالم الذى كان يصنع فيه الصلب على حسب طرق معينة للحصول عليه ، كما أن الطرق البسيطة الفعالة التى استخدمت فى انتاج هذا المزيج من الحديد والكربون لا زالت تستخدم فى تلك المنطقة .

ويوحى عدد المواقع الميجاليتية وحجم الأحجار التى استطاعوا نقلها واقامتها بازدحام جنوبى الهند بالسكان فى العصور القديمة . هذا ويبدو أن الزراعة كانت تمارس منذ أقدم العصور ، وقد أمكن التعرف على الأرز بين القرابين التى كانت توضع فى المقابر الميجاليتية ، ويظهر انه كان من المحصولات

الرئيسية . ونظرا للاتصالات الحضارية مع جنوب شرقى آسيا فانه يبدو من المرجح أن أولئك الذين أقاموا المنشــآت الميجاليتية قد زرعوا المحاصيل الجذرية والفاكهة التى كانت تزرع فى مركز حضارة جنوب شرقى آسيا ، والتى يصعب التعرف عليها من الناحية الأثرية ، كما كانوا يعرفون أيضا نظام الرى واستخدامه . وليس لدينا من الشواهد ما نستدل منه على أنهم قد عرفوا المحراث أو أنهم قد استأنسوا الجاموس الذى بدونه لا يكون للمحــراث الا أهمية محدودة عند العمل فى الحقول المروية .

ويعتبر وجود المدافن الجماعية هو الطريق الوحيد الذى يدلنا على شىء من تنظيمهم الاجتماعى أو السياسى ، اذ أن استخدام الجبانات ذاتها لفترات طويلة ، بالاضافة الى الانشاءات الميجاليتية ، وما كانت تحتاج اليه من يد عاملة منظمة ، يدل على وجود مجموعات كبيرة من المتصلين بصلة القربى ، نرجح انه لم تكن هناك دول مركزية ذات حكومات أوتوقراطية فى ذلك العصر .

وبينما نرى فى جنوب الهند أن ما عثر عليه من الآثار يورثنا الحــيرة والارتباك ، فان البحوث الأثرية فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة يعطينا صورة متماسكة ذات اطار واضح دقيق . ونظرا الى أنه لم يمكن التعرف على وجود حضارات وادى السند الا منذ قرابة ثلاثين سنة فقط ، فانه ما زالت هناك ثغرات كثيرة فيما عثر عليه حتى الآن ولكن أعمال التنقيب القائمة الآن ، أو تلك التى ستنفذ فى المستقبل ، كفيلة بأن تسد هذه الثغرات . فحوالى عام ٣٣٠٠ ق . م على أقل تقدير ، ان لم يكن قبل ذلك ، كانت فى وادى السند حضارة عظيمة تطورت فى القاعدة النيوليتية فى جنوب غربى آسيا ، وليس هناك دليل مباشر كاف على وجود جذور أصيلة لهذه الحضارة فى وادى السند نفسه لأن أعمق المستويات فى المناطق التى أجريت فيها أعمال الحفر كانت تحت مستوى الماء . ولكن الأشياء الأثرية الكثيرة التى عثر عليها فى جبلى بلوخستان وسيستان اللذين يجاوران وادى السند تدل على وجود

حضارات نيوليتية فى هذه النواحى تشبه تلك التى عثر عليها فى بلاد ما بين النهرين فى العصور السابقة لنشأة المدن . وحتى لو فرضنا أنه ليس هناك أمل فى كشف الدليل على أصل حضارة وادى السند والاتجاهات التى سارت فيها أثناء تطورها فان هذه الحضارة نفسها تقيم الأدلة الكافية على انتسابها لحضارات جنوب غربى آسيا فانها على نمط هذه الحضارات فى مرورها بالمراحل المتعاقبة التى بدأت باستخدام النحاس ثم البرونز ولكنها زالت قبل معرفتها لمعدن الحديد . وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين المستخدمين فى الطعام ولم يعثر حتى الآن على الرز . وتوحى الرسوم العديدة للماشية ، وبينها بعض رسوم تمثلها وهى تستخدم فى أعمال الجر بأن الأساس الاقتصادى لحضارة هذه المنطقة كان مزيجا من الزراعة وصناعة الألبان . ويبدو أن العجلة والمغزل كانا معروفين لديهم منذ أقدم العصور ولكن يستحيل علينا أن نحدد ما اذا كان المحراث قد استخدم أو لم يستخدم لديهم ، اذ لم يعرف حتى الآن أى شيء يماثله أورسبوم تثبت وجوده ، وهـذا على نقيض العربات الصغيرة العديدة المصنوعة من الطين أو من البرونز بطريقة الصب والتى كانت على ما يبدو اللعبات المفضلة لدى أطفال وادى السند القدماء . وكانوا يطحنون الحبوب فى أجران ، وقد عثر فى أحد المواقع الأثرية على دوائر رصفت أرضيتها بالطوب المحروق الذى صقلته أجيال كثيرة من الأقدام الحافية ، وكانت توضع فى وسطها الأجران الخشبية .

ومن المحتمل أن يكونوا قد زرعوا القطن اذ عثر على ملابس قطنية . كما شكلوا من حجر الصوان والنحاس ثم البرونز بعد ذلك أشكالا مختلفة ، ومن بين تلك الأدوات المطارق والبلط والمناشير التى تثبت فيها الأسنان ، ومن أهم ما عثر عليه هناك جزء من قطعة من مسطرة مصنوعة من البرونز عليها تقسيمات محددة بدقة مما يثبت أن سكان وادى السند كانوا على علم تام بالمقاييس

المضبوطة ، كما كانت هناك صنجات للموازين مصنوعة من البرونز مرتبة على أساس معقد .

والأوانى الفخارية كثيرة العدد ، وحتى ما عثر عليه منها فى أعمق المستويات فى الحفائر كان مصنوعا على آلة الفخار ، وقد أجادوا احراقه . ومعظم الأوانى الفخارية كانت أوانى للطهى خشنة الصنع ، ولكن الأوانى الجيدة الصنع منها كانت تدهن باللون الأسود فوق أرضية حمراء ثم تصقل بعد ذلك حتى يكاد سطحها يحاكى « اللاكيه » فى صقله . أما الرسومات فان أكثرها يمثل رسم الأزهار ، ولكنه قلما كان يظهر فيها شىء كثير من الابتكار أو الحيوية .

وكانت هناك تماثيل صغيرة لا حصر لها مصنوعة من الطين وأغلب الظن أنها كانت لعبا للأطفال . وقد عثر على معظم هذه التماثيل فى منطقة واحدة ، مما يدعو الى الظن بأن ذلك المكان كان مركزا لصناعتها لأجل تصديرها . وقد عثر على كثير جدا من التماثيل النسائية غير المتقنة ، وهى عارية تماما ولا تلبس الا بعض أدوات الزينة ، وهى على الأرجح تماثيل للالهة الأم التى كانت مرتبطة بعقائد الاخصاب المنزلية . ومن الظواهر الغريبة فى هذه الحضارة ندرة وجود الأشياء المنحوتة ، ومما يزيد الدهشة أن الأمثلة القليلة التى عثر عليها تدل بوضوح على مهارتهم الفائقة وبأسلوبهم الناضج المتقدم ، فمن بين ما عثر عليه جزء علوى من تمثال لرجل مصنوع من الحجر الرملى الأحمر وهو أكثر اتقانا ومحاكاة للطبيعة حتى من التماثيل المصرية التى صنعت فى ذلك العصر . وكان الرأس منفصلا والرقبة مجوفة مما يوحى بأنه كان لهذا التمثال رؤوس متعددة مما يذكرنا بالآلهة ذات الرؤوس والأذرع العديدة التى ظهرت بعد ذلك فى الهند . ومن المحتمل أن معظم أعمال النحت الكبيرة الحجم كانت تصنع من الخشب ولهذا السبب لم تبق الى الآن .

وأهم الأعمال الفنية التى بقيت من تلك الحضارة هى تلك الأختام المسطحة

ذات الشكل المستطيل التى كانت تصنع من حجر جيرى أبيض يسهل نحته ، وكانوا ينقشون فيها صورا لحيوانات أو كائنات ذات قوى فوق قوة الطبيعة ، أتقنوا صنعها بمهارة وحيوية فائقة . وجميع الحيوانات المنقوشة عليها هندية ، ولكن فى الوقت الحالى لا توجد كلها فى وادى السند . هذا ويعد الشكل الذى يمثل فيلا وفوق ظهره غطاء ذا أهمية خاصة ، اذ أنه يعتبر أول دليل على استئناس ذلك الحيوان ، وذلك الى جانب ذكر الفيل الذى يعلوه الغطاء ، الذى ورد ذكره فى قصيدة جلجامش البطولية وهناك رسوم عدة تمثل أشجارا وحيوانات تتفيأ بظلها مما يشير الى عبادة الأشجار ، كما يحتمل أن يكون شكل الانسان ذى الوجوه الثلاثة الذى يجلس متأملا على نمط احدى طرق التعبد الهندية هو أصل شكل الاله سيڤا (Siva) الذى ورد ذكره فى العصور التاريخية فيما بعد . وعلى كثير من هذه الأختام نرى كتابات قصيرة مكتوبة بحروف لا تشبه أى حروف أو علامات معروفة مستخدمة فى أى مكان آخر .

وان الدقة التى رسمت بها هذه العلامات وعددها ، وهى أكثر من أن تكون حروفا أبجدية وأقل من أن تكون علامات مصورة ، تدل على أن حضارة وادى السند قد استخدمت المقاطع فى الكتابة . ولم يمكن العثور حتى الآن على أى كتابات أخرى ، ومن الأسلم أن نفترض بأنهم كانوا يدونون كتاباتهم على مواد قابلة للفناء . وان الاناء الذى عثر عليه منذ وقت قريب وعليه نص مكتوب بحروف سومرية قديمة ، يبعث على الأمل فى امكان العثور على نقوش مكتوبة بلغتين ، ومالم يتحقق ذلك فلن يكون لدينا أى مفاتيح لمعرفة اللغة التى كانوا يتحدثون بها .

والمدن الباقية من حضارة وادى السند ترينا مستوى عاليا من الحضارة أكثر مما توضحه لنا فنونها . فان هذه المدن كانت تخطط على صورة طرق مستقيمة متقاطعة منها طريق أو عدة طرق رئيسية متسعة توصل بينها طرق ضيقة . وليس هناك أى شك فى أنها كانت تخطط أولا ثم تشيد المنازل بعد

ذلك ، وهو الأمر الذى استمر متبعا طيلة أيام التاريخ الهندى . ومن أهم ما كشفت عنه أعمال التنقيب تلك الظاهرة الغريبة وهى عدم وجود أى مبنى يمكن أن يقال عنه انه معبد أو قصر . وفى « موهنچو دارو » عثر من قاموا بالحفائر فيها على بقايا منطقة متسعة ومسقفة فوق أعمدة كثيرة ، ولكن لا توجد بها جدران داخلية ، مما يحمل على الظن بأنها كانت سوقا ، كما عثر أيضا على مبنى كبير يضم حجرات عديدة من المحتمل أنه كان مركزا اداريا . وعثر أيضا على حوض للسباحة واسع وجيد البناء تحيط به حجرات صغيرة تشبه حجرات تغيير الملابس . ومن المحتمل أن هذا الحوض كان يستخدم فى أحد طقوس الطهارة الدينية وهو يشبه ما يفعله الآن الهندوس الحاليون . ومن الصعب علينا أن نتصور أن مثل هذه الحضارة الفنية كانت تخلو من وجود المعابد ، ولعلهم فى ذلك العهد البعيد كانوا يفعلون ما فعله الهنود فى العصور التالية ، اذ أن الهنود كانوا دائما يحترمون المتعبدين المتوحدين أو الذين يلجأون الى الغابة ليتعبدوا بعيدا عن الناس ، ولهذا ربما كانت تقام طقوس العبادة فى هياكل على حافة المناطق الآهلة بالسكان .

لم تكشف حتى الآن الا منطقة واحدة لدفن الموتى وهى تحتوى على أوان بها رماد أجداث الموتى وبعض أجزاء العظام ، مما يدل على أن عــادة الاحراق كانت تمارس فى ذلك الوقت . ومما يثير الدهشة أيضا خلو المدن التى حفرت من القصور ، الأمر الذى يصعب تفسيره ، وخير تفسير لذلك هو أن نفترض أن ما عثر عليه من مدن حتى الآن وأجريت فيها أعمال الحفر والتنقيب هى من مدن الأقاليم ، وأن عاصمة تلك الحضارة ، التى كانت تسمى امبراطورية بحق ، ما زالت لم تكشف بعد .

وكانت المنازل تتألف من طابقين عاليين مبنيين بالطوب المحروق جيدا ، وكانت الجدران تغطى بطبقة من الملاط أو ترش بالجير ، ولكنها تفتقر تماما

الى الزخرفة ، وربما كانت الجدران الداخلية تغطى بالستائر ، أما الأثاث فقد كان لديهم الكراسى وربما أيضا بعض النضد والأسرة .

وكانت أول مدينة تجرى فيها الحفائر من مدن هذه الحضارة هى مدينة « موهنچودارو » التى خلت تماما من التحصين ، كما أن الكشوف التى عثر عليها خلت أيضا من وجود الأسلحة ، الأمر الذى دفع الكتاب القدامى الى رسم صورة مجتمع مسالم مثالى . ولكن الحفائر التى أعقبت ذلك أظهرت بوضوح أن بعض المدن كانت مسورة ، وان مدينة واحدة على الأقل كانت قلعة محصنة ، بل ان مدينة « موهنچودارو » نفسها عثر فيها على ما يثبت أن المدينة كانت قد هوجمت وتعرض سكانها للقتل .

ولم تقتصر حضارة وادى السند على وادى السند وحده ، بل عثر على أماكن أخرى من هذه الحضارة فى بلوخستان وفى سيستان ، بل وامتدت جنوبا حتى كافياواز كما ظهرت بعض الأدوات التى تنتمى أصلا الى حضارة وادى السند فى وادى الجنج ، ولكن لم يعثر هناك حتى الآن على أى مناطق أثرية يمكن أن نقول انها تابعة لحضارة وادى السند ، الأمر الذى يوحى بأنه حتى فى ذلك الوقت البعيد كان التقسيم الثنائى القديم فى التقاليد المشتركة بين جنوب شرقى آسيا وجنوب غربى آسيا ، معروفا فى ذلك العهد .

وفى معظم مدن حضارة وادى السند نجد أن أعمق المستويات أصبح الآن تحت مستوى المياه الجوفية ويتعذر اجراء الحفائر فيها . ومع ذلك فان هذه الحضارة ترجع فى تاريخها الى عام ٣٣٠٠ ق . م دون شك وذلك بمقارنة تاريخها بتاريخ مدنية بلاد ما بين النهرين . لقد أظهرت هذه الحضارة شيئا كثيرا من علامات الاستقرار ، ويلوح أنها وصلت الى أوج تقدمها فى العصر الذى وصلت الينا هذه المعلومات عنها . وأعقب ذلك تدهور تدريجى فى هذه الحضارة وانخفاض فى عدد السكان كما أن السكن فى معظم تلك المدن قد قارب نهايته بل وانتهى حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . وهناك من الأسباب ما يدعونا

الى الاعتقاد بأنه قد حدثت تغييرات مهمة فى المناخ فى الفترة التى تفصل بين بدء تطور هذه الحضارة وبين زوالها . فان الطوب المحروق الذى كانت تبنى منه جميع المبانى ، حتى المساكن العادية ، يتطلب الكثير من الأخشاب اللازمة للوقود ، على حين نرى فى طريقة تشييد المنازل ، وعمليات تصريف المياه فى الشوارع الكبيرة ، أن عملية تصريف مياه الأمطار الغزيرة كانت مشكلة من مشاكل أولئك الناس . ولهذا فمن المرجح أن الطقس فى العصر القديم كان أكثر أمطارا مما هو الآن ، كما أن الغابات كانت دون شك أكثر اتساعا . وقد أسهمت عمليات اقتلاع أشجار الغابات واجهاد الأرض عن كثرة الرى وعدم الصرف ، فان هذه العوامل بالاضافة الى تغير المناخ جعلت هذه المنطقة من العالم منطقة لا يستحب السكن فيها .

وتدل أعمال النهب والقتل التى وقعت فى « موهنچودارو » على أن الضربة القاضية التى أصيبت بها جاءت على أيدى غزاة من الهمج المتوحشين . ولكن اذا سلمنا بذلك ، فهناك اختلاف هام فى التاريخ بين ذلك الغزو المفترض وبين عام ١٥٠٠ ق . م . وهو الزمن التقريبى الذى يذكر عادة كوقت الغزو الآرى . ولا يوجد بين الشعوب التى غزت الهند شعب كثرت عنه الأقوال أكثر من الشعب الآرى ، وأصبح الكثير من الناس يعتقدون بشأنهم اعتقادات يؤمنون بها كما لو كانت معتقدات دينية . والرأى المسلم به هو أنهم وفدوا الى الهند حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . وأنهم قتلوا أو استرقوا السكان الوطنيين ، وأقاموا نظام الطبقات حتى يضمنوا نقاء دمهم ، ثم تحولوا بعد ذلك من الحرب الى التصوف الدينى وأحدثوا تلك المجموعات من الآلهة ، وتلك النظريات التى قامت عليها جميع نظم الفلسفة الهندية التى ظهرت فيما بعد ، وأصبحوا أسلافا لأعظم المجموعات الثلاث التى تحتل أرفع مكانة فى هذا التقسيم الطبقى ، كما انتشرت لغتهم فى معظم أنحاء الهند .

لقد قامت هذه الآراء على أساس الدراسة التى تؤمن بصحة كل ما ورد

فى الآداب السنسكريتية ، وليس على أساس الدراسة النقدية . لقد أعطى الآريون لغتهم لشرق ووسط الهند ولكن فيما عدا ذلك يجب أن توضع تلك الآراء على بساط البحث لمناقشتها ونقدها . فالأدب نفسه يحتوى على الكثير من المتناقضات ، وأصبح فى مقدورنا الآن أن نعيد النظر فى تلك الصورة على أساس ما وصل الينا من معلومات كثيرة عن الهند قبل الغزو الآرى وعن الآريين أنفسهم عندما وفدوا الى الهند . فالغزو الآرى للهند ، هو قبل أى شىء آخر واحد من سلسلة الهجرات التى قامت بها الشعوب التى تتكلم اللغة الهندو — الأوروبية من شرق أقاليم الاستپس الى مناطق أكثر حضارة من منطقتهم الأصلية . لقد كان لأولئك الغزاة فى كل مكان آداب كثيرة ، وكانوا يتداولونها عن طريق الرواية اللفظية ، وان هذه الآداب المختلفة تتفق على اعطائنا صورة لحياتهم ، فيها ملامح مشتركة مما يجعلنا نكون فكرة عن حضارتهم الأصلية بقدر كبير من الدقة . والصورة التى يمكننا أن نصور بها ذلك المجتمع هى أنه مجتمع يتكون من قبائل تحيا حياة شبه بدوية ، ويغيرون على الآخرين لسرقة ما لديهم من ماشية ، وكثيرا ما كانوا يغيرون على غيرهم وهم يمتطون عربات السباق . وكانوا يدمنون الشراب والميسر ولا يفكرون فى الكائنات ذات القوى الخارقة للطبيعة الا وقت الحاجة فقط . وحتى فى هذه الحالة كانت تتملكهم الشكوك فى جدوى عباداتهم وكانوا يلجأون الى التسليم بالقضاء والقدر تسليما يكاد يكون آليا ، يتمثل فى قول « بيوولف » الذى كانوا يرددونه كثيرا : « ان القدر يذهب الى أى مكان يتحتم ذهابه اليه » ومن السهل أن تتصور أن هؤلاء الناس يمكن أن يستقروا ويصبحوا مزارعين قانعين ، كما تصورهم الآداب الآرية على مثل هذه الحالة فى الهند ، ولكن من العسير أن تتصور أنهم يستطيعون أن يتحولوا الى قوم يميلون الى المناقشات الفلسفية العميقة أو تنشأ بينهم أساليب حياة النسك والتقشف

واحترام النساك الذين يلتجئون الى الاعتزال فى الغابة منصرفين الى حيـاة التـأمل .

ان الأساس الذى يجب أن يقوم عليه تصورنا للحياة الآرية هو التناقض المباشر بينها وبين ما وصل الينا من حضارة وادى السند ، فقد تركت لنا حضارة السند ثروة كبيرة من الآثار التى ما زالت باقية ولكن لم تصل الينا أى وثائق مكتوبة ، ولكن الآريين فى الهند لم يتركوا لنا الا الشىء القليل جدا من الآثار ، ومع ذلك فقد خلفوا لنا ثروة كبيرة من الآداب . انها حالة قرينة من القرائن العرضية ضد دليل قاطع . فقد عثر على قليل من الأوانى الحجرية التى ربما كانت تستخدم فى طقوس تقديم القرابين التى جـاء ذكرها فى الڤيدا ، ولكن لم يعثر حتى الآن على أى منطقة أثرية عاش فيها الآريون أو على أى جبانة دفنوا فيها موتاهم . أما الآداب التى بنينا عليها تصورنا للحياة الآرية فهى مكونة من أربع مجموعات تعرف باسـم الڤيـدا . فالـ « ريج ڤيـدا » (Rig Veda) التى يجب أن تكون أقدمها جميعا استنادا الى دراسة اللغة التى كتبت بها ، تتكون من أناشيد ، كان بعضها يغنى والبعض الآخر يتلى عند تقديم الأضاحى والقرابين . والـ « اثارڤاڤيدا » (Atherva Veda) هى أكثرها جميعا فى البدائية ولكن لها أهميتها فى الناحية اللغوية ، وهى كتاب للسحر أكثره تعويذات ورقيات ووصفات طبية . والـ « ساما ڤيدا » (Sama Veda) مجموعة من الأغانى تستخدم عند تقديم القرابين ، وتشمل كثيرا من الأشعار التى وردت فى الريج ڤيدا ، مضافا اليها اشعار أخرى من عصور أحدث . أما الـ « يا چوج ڤيدا Yajung Veda » فتتكون من مجموعة من الـ «مانترا» (Mantra) أى صلوات وعبارات رمزية .

وسواء أكانت الكتابة التى كانت تستخدم فى حضارة وادى السند قد اختفت نهائيا أم أنها كانت الأصل الذى تفرعت منـه الأبجديات الهندية التى ظهرت فيما بعد — وهو موضوع ما زال موضع نقاش بين العلماء — ففى

الحالتين يلوح أنه مرت على شمال الهند فترة طويلة لم يكن فيها الناس يعرفون القراءة والكتابة . وفى خلال هذه الفترة كان الناس يتناقلون الآداب الڤيدية عن طريقة التلقين الشفهى . وفى العصور التى تلت ذلك كانوا يصرون اصرارا قويا على نقل هذه الآداب نقلا صحيحا ، وكانوا يعتقدون أن أى خطأ فى الأداء أو دس على النصوص الصحيحة الأصلية ، يسبب الموت لمن يقترفه اذ يصيبه الموت من أسباب فوق قوى الطبيعة . وعلى أى حال ، فليس هناك ما يثبت أن مثل هذه التعليمات الشديدة كانت متبعة فى العصور المبكرة ، فضلا عن أن مرور ألف سنة على الأقل بين وضع الأناشيد القديمة فى الـ « ريج ڤيدا » وبين وقت تدوينها مدة كافية يهيىء الفرصة لادخال بعض التغييرات . بل ان الـ « ريج ڤيدا » نفسها يجب أن يكون تم تأليفها فى مدى زمن طويل لأننا نجد فى ثناياها نوعين مختلفين من الاقتصاد . فجزء من هذه الأناشيد يعكس أمامنا صورة من حضارة تقوم على اقتصاديات الألبان لقوم يحيون حياة شبه بدوية ، وتشبه هذه الحضارة شبها كبيرا حضارة شعب منطقة الاستپس الشرقية ، فى حين يعكس البعض الآخر من هذه الأناشيد صورة حضارة تعم فيها الحضارة الزراعية والحياة المستقرة فى القرى ، ويعيش أهلها فى بيئة غابات لم يكن فيها للماشية الا نصيب ثانوى من الأهمية . وخير تفسير لذلك هو أنه فى خلال الزمن الذى استغرقه وضع أناشيد الـ « ريج ڤيدا » كان الغزاة الآريون يلائمون أنفسهم للحياة الهندية وان الأناشيد المختلفة تعكس لنا حاجاتهم ونظراتهم تجاه المراحل المختلفة فى تلك الملاءمة .

فلا شك أن الغزاة الآريين عندما استقروا هناك دخلت عليهم عناصر كثيرة من الدم والحضارة من سكان البلاد القدماء ، ولكن يلوح أنهم لم يحبوا الاعتراف بذلك بل ويرفضونه فى صورة غير عادية . فمن أغرب ما فى الڤيدا أنهم كلما أشاروا الى السكان الأصليين يسمونهم الـ « داسيوس » (Dasyus) يصفونهم بأنهم ذوو لون أسود وأنوف فطساء . فاذا كان مثل هذا الوصف

ينطبق على بعض سكان جنوبى الهنـد من الجنس البروتو — أوسترالى فلا يمكن أن ينطبق على سكان شمال غربى الهند ، وهم من جنس البحر المتوسط الذين يتحتم أن يكونوا أول من التقوا واصطدموا بهم على ما نظن. ويصفون الداسيوس فى بعض تلك الأناشيد بأنهم كانوا همجا متوحشين ، وفى أناشيد أخرى نراهم يبتهلون الى الآلهة لكى يساعدوهم للاستيلاء على مدنهم وحصونهم ذات الأسوار المشيدة من الحجر.

وما من شك فى أن حضارة السند كان لها فضل كبير على تطور المدنية الهندية فى العصور التالية ، بل يستطيع الانسان أن يرى بوضوح كثيرا من أوجه الشبه بينها وبين المدنية الهندية فيما بعد ، أكثر مما نراه بين هذه المدنية الأخيرة وبين حضارة منطقة الاستپس التى أتى منها أولئك الغزاة. فحضارة الاستپس تعتمد على تربية الماشـية لقوم يحيون حياة شبه بدوية ، وهذا ما يجعل الباحث يميل الى الظن بأنه فى خلال الفترة بين وصول الآريين واتمام وضع الڤيدا حدث امتزاج بين الغزاة وبين من ظل باقيا من أهل حضارة السند. ومن الأمور التى يحتمل حدوثها أنه فى وقت نمو الفولكلور المختلط يمكن حدوث الخلط بين الصراع الذى كان بين أجداد من ظل حيا من حضارة السند ، وبين السكان الأصليين من الجنس البرو — أوسترالى الذى كان فى شمالى غربى الهند عند قدومهم ، وان ذلك الصراع اختلط بالمعارك التى حدثت بين الآريين وبين من بقى من سكان حضارة السند الذين كانوا عند قدوم الآريين على حالة كبيرة من الضعف والتدهور الحضارى. ومن الممكن أن ألفاظ « أسود » و « ذى الأنف الأفطس » وغيرها أصبحت أوصافا مجازية تطلق على الأعداء مثـل التعبير بلفظ « الهون » (Huns) الذى كان يستخدمه الأوربيون والأمريكيون عند اشارتهم الى الألمان أيام الحرب العالمية الأولى.

وربما كان هذا الافتراض افتراضا بعيدا ولكنا نرى شيئا شبيها له فى الجزر البريطانية حيث صار شعب الـ « پكت » (Picts) موضوعا لكثير من

القصص الفولكلورية . فنحن نعرف من المصادر المعاصرة أن الـ « پكت » كانوا فى حقيقة الأمر من الـ « جويدل » (Goidels) وكانوا من الـ « كلت » (Celts) الذين كانوا فى الأصل فرعا من حضارة الـ « هلستات » (Helstatt) الذين وفدوا الى اسكوتلندة من ايرلندة فى عصر الفوضى فى آخر أيام احتلال الرومان لبريطانيا ، واستمروا بعد ذلك كجماعة مستقلة من الناحيتين السياسية والحضارية حتى القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد . فمن ناحية المظهر الجسمانى يلوح انهم كانوا يشبهون الاسكوتلنديين من سكان السهول الواطئة ، اذ انهم كانوا طوال القامة ، ذوى شعر أحمر وفى وجوههم نمش . ولكن بالرغم من ذلك نراهم يوصفون فى الفولكلور بأنهم قصار القامة داكنو الجلد متهورون يعيشون فى الخفاء ، ويمارسون طقوسا مليئة بالفحش ، ويصنعون شرابا سريا ولكنه قوى المفعول جدا ، وهو جعة من نبات الخلنج . ولا يكاد يوجد شك بأن هذه التفاصيل ليست الا ذكريات شعبية عن سكان اسكوتلندة الأصليين فى العصر النيوليتى الذين تم التغلب عليهم منذ قرون كثيرة ، قبل أن يفد الى تلك البلاد الكلتيون الذين كانوا يستخدمون الأسلحة المصنوعة من المعدن .

لقد سبق أن وصفنا حياة الآريين الأوائل (انظر الفصل التاسع عشر) ، أما حياة الآريين فى الهند فى ختام العصر الڤيدى فانها كانت ، على ما يظهر ، شبيهة بالحياة الريفية فى قرى الهند الشمالية فى العصور التاريخية . لقد تضاءل شمال غربى الهند حتى أصبح لا يعول الا سكانا قليلى العدد متأخرين فى حضارتهم . حتى وادى السند نفسه كان ينظر اليه كمنطقة اقليمية فحسب وتحول مركز كثافة السكان ومركز النشاط الحضارى الى أعلى وادى الجنج . وكان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين ، وكانوا يربون الماشية ويحلبون لبنها ، ولكن أهميتها كانت ترجع الى كونها حيوانات تستخدم فى الجر . كان المحراث والعجلة يستخدمان هناك منذ عهد بعيد ، وكانوا على علم بأكثر

المعادن المعروفة ويستخدمونها . وأصبحت الخيل حيوانات تستخدم فى مظاهر الأبهة ، ولا تستخدم الا فى القتال فقط . كانت كل عربة يركبها اثنان ويجرها جوادان ، ولكنهم لم يركبوا الخيل على الأرجح . وكانت الحروب بين الجماعات الآرية المختلفة تباشر بخفة ونشاط ولكنها بدأت تصبح حرفة يتخصص فيها صاحبها وتسير على أساليب خاصة للفروسية .

وفى الفيدا المتأخرة نرى صورة مثالية لما يجب أن تكون عليه القرية ، فمن الواجب أن تشيد القرية فى مكان فى الغابة أزيلت أشجاره ، ويجب أن يكون تخطيطها مستطيلا ومحاطة بسور من قوائم خشبية ، ولها بوابة محصنة فى منتصف كل ضلع من السور ، ويوصل بين كل بوابتين أمام بعضهما طريق واسع مستقيم بحيث يتقاطع الطريقان فى وسط القرية . ويقوم فى مكان تقاطع الطريقين مكان مرتفع يظلله سقف من القش أو شجرة كبيرة ليكون ظلها مكانا لاجتماع الهيئة الحاكمة للقرية . وكانت هذه الهيئة مكونة من خمسة شيوخ يعرفون باسم « پنشيات » (Panchayat) . وفى داخل السطور طريق واسع يدور حول القرية كلها ، وكان يستخدم فى المواكب . وكانت منــازل القرية تبنى من الأغصان الملطوسة بالطين أو من الغاب الهندى (البامبو) ، وكانت سقوفها من القش المضفور . كانت الحقول المزروعة تنتشر حول المدينة فى مساحات طويلة غــير عريضة ، يعطى كل واحــد منها لعائلة من العائلات . أما الأراضى التى كانت ترعى فيها الماشية فكانت مشاعا بين الجميع . وظل تخطيط المدينة على شكل مستطيل أمرا له قداسة دينية بين الهندوس فيما بعد ، وما زلنا نراه حتى الآن فى بعض المدن الهندية التى توجد فيها معابد كبيرة .

ان الفارق الرئيسى بين العصور الفيدية المتأخرة وبين العصور التاريخية هو فيما يتعلق بتكوين المجتمع والدين . لم يكن نظام الطبقات قد عرف بعد ، ولكن كان تقسيم السكان الى محاربين ومزارعين وصناع وكهنة معروفا بينهم وكان هناك تقسيم مشابه لذلك كان سائدا بين أقدم السكان الفرس الذين

كانوا متصلين بصلة القربى بالآريين الهنود القدماء ، ولكن لم يوجد فى كل من النظامين طبقة تشابه طبقة المنبوذين التى ظهرت فيما بعد ، بل ان الكهنة أنفسهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أصبحوا طبقة تختلف عن الطبقات الأخرى اختلافا واضحا . كان رئيس كل عائلة يقوم بدور الكاهن عند تقديم القرابين التى كانوا يكثرون فى تقديمها طبقا لما تطلبته الديانة الڤيدية . كان براهمة ذلك العصر جماعة قليلة من المتخصصين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين الدينيين للعائلات الأرستقراطية المحاربة الذين كانوا يحتاجون الى خدماتهم فى المناسبات التى تتطلب أداء الطقوس الصعبة أداء صحيحا اذ كان الكهنة حتى ذلك الوقت يعتمدون على الطبقة الأرستقراطية المحاربة وكانوا يعتبرون أنفسهم أتباعا لهم .

وكان النساك يوجدون أيضا فى آخر العصر الڤيدى . كانوا أفرادا يتجنبون الاتصال بالمجتمع العادى ولا يزاولون أى نشاط ، ووجدوا لهم مكانا يحقق لهم وحدتهم فى الغابة ، وهناك كانوا يعطون الارشادات لأولئك الذين كانوا ينشدون الوصول الى معرفة طبيعة الكون وطبيعة الانسان ، فمنذ أيام ذلك العهد البعيد كان الانسان نفسه هو موضوع الدرس والتأمل . فالفكرة الهندية المجردة التى ظهرت فيما بعد ، تلك الفكرة التى تقول بأن الحياة المادية ليست الا سرابا خادعا كانت فكرة معروفة لهم ، على الأقل ، فى صورتها الأولى التى لم يكن قد تم تكوينها بعد . وكان القرويون المحليون يعولون النساك عن طيب خاطر ، اذ كان يسعد أولئك القرويين أن يمدوا أولئك النساك بالطعام ، والشىء القليل الذى عساهم يحتاجون اليه من مستلزمات الراحة فى مناخ كمناخ الهند ، وذلك فى مقابل الفوائد السحرية التى تحل على تلك الجماعة بسبب وجود ذلك الناسك على مقربة منهم ، بل لقد وصل بهم الأمر الى الاعتقاد بأن مجرد لمس يده عندما يمدها لأخذ هدية منهم كان يغدق جزءا من قوته الروحية على مقدم الهدية .

كانت القرية الهندية فى ذلك العهد مكونة من عدد من العائلات التى يتصل بعضها ببعض بصلة القربى عن طريق الانتساب الى فروع الذكور . وبالرغم من أن نظام العائلة الممتدة الكبيرة قد بدأ يظهر ، فان مثل هذه الوحـدات العائلية كانت قليلة العدد ، ولم تكن تستمر الا وقتا قصيرا . كانت العائلة الڤيدية النموذجية تقتصر على زوجة واحدة للرجل بالرغم من أن تعدد الزوجات كان مسموحا به ، وكان يزاوله من تسمح به حالته المادية . وكان الزواج فى سن الطفولة غير معروف بينهم ، كما كان يسمح للأرملة أن تتزوج مرة أخرى . ولم يكن هناك مهر يدفعه الرجل لعروسه بل كانت الزوجة تحضر معها بائنة ذات قيمة الى العائلة الجديدة ، وكانت العادة أن يتزوج أبناء القرية من خارج قريتهم كما هو الحال فى الهند فى الوقت الحاضر .

كانت العشيرة تتكون من سكان بضع قرى يتحدون فيما بينهم ، وكانت القبيلة تتكون من بضع عشائر . واستنادا الى ما ورد ذكره فى الآداب الڤيدية كانت هناك فى الأصل خمس قبائل آرية ، ولكن بعد وصولهم الى الهند زاد عددهم زيادة كبيرة . كانت العشائر المختلفة التى تتكون منها القبيلة مرتبة حسب أهميتها ، وكان من بينها عشيرة أو عشيرتان يتمتع أفرادها بأرفع مركز فى القبيلة . وكان نظام الحكم فى القبيلة نظاما ديموقراطيا فى جميع مظاهره ، اذ كانت السلطات التشريعية والادارية فى يدى مجلس من رؤساء العائلات . فاذا كان الـ « پانشيات » الأصلى ، وهو مجلس الخمسة الذى جاء ذكره فى الـ « ريج ڤيدا » قد وجد حقا فقد اختفى لتحل محله جماعة أكثر عددا . ونظرا لأن الاجتماعات كانت علنية ، وليست لها صبغة رسمية ، فقد كان لدى القرويين فرص واسعة ليعبروا عن آرائهم ازاء جميع الموضوعات التى تهمهم ، فقـد كانت التقاليد الديمقراطية قوية حتى فى داخل النظام القبلى .

وكان الملك على رأس القبيلة ، وكانت الواجبات الملقاة على عاتقه هى الواجبات الملقاة على عاتق زعيم الحرب والمنفذ للقانون . كان المنصب فى العادة

وراثيا فى عشيرة معينة ، ولكن الشخص المفروض اختياره كان ينتخب من بين أعضاء رجال القبيلة . كانت الاتجاهات الديمقوقراطية ما زالت قوية ، وفى عدد قليل من القبائل كان الملك ينتخب فى فترات معينة ، وظلت اتحادات القبــائل وما فيها من مجالس للحكم باقية بينهم حتى القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد . كانوا يسمحون للملك بأن يجمع ضريبة خاصة لنفسه فى مقابل الواجبات الملقاة على عاتقه ، ولكن هذه الضريبة لم تتجاوز أبدا ســدس المحصول . وعلى أى حال فقد كان الملك يحتفظ بمنصبه طالما كانت القبيلة راضية عنه ، فاذا أساء التصرف كان من حقهم عزله من منصبه . وبالرغم من أن نفوذ الملك زاد زيادة كبيرة فيما تلا ذلك من عصور فان النظم الديموقراطية التقليدية ظلت متبعة فى عدد من المناطق ، ومن الأمور الشائقة التى تستحق الذكر أن المملكتين اللتين جاء منهما كل من « الجوتاما بوذا Gautama Buddha وڤاردامانا Vardhamana » مؤسس الديانة الچينية كانت كل منهما حتى وقت ظهورهما تسير على النظام الديمقراطى . ولما كانت محتويات كتب الڤيدا تكاد تقتصر على الأمور الدينية فان معلوماتنا عن هذا الموضوع فى الوقت المبكر من الحضارة الآرية وافية الى حد كبير . كان مجمع المعبودات يســير بوجه عام على الأسلوب الهندو — أوروبى . وكان أعظم أولئك المعبودات هو المعبود « اجنى » (Agni) اله النار الذى كان يقوم بدور الرسول بين الناس والآلهة والمعبود « اندرا » (Indra) اله السموات الوسطى وسحب العواصف ، الذى كان فى الوقت ذاته الها للحرب ، وهو الذى كان يقود الآريين أثناء حروبهم مع الداسيوس . كان اندرا ، على ما يظهر ، هو المثل الأعلى للمحارب الآرى فى أقدم العصور الڤيدية . كان يقتحم حومة الوغى بقلب منشرح ويتمنطق بزردية من الذهب ، وفى استطاعته أن يأكل لحوم ثلاثمائة ثور ، ويشرب ثلاث بحيرات من شراب الـ « سوما » دفعة واحدة وكانوا يعبدون الشمس فى مظاهر مختلفة ، وتحت خمسة أسماء على الأقل .

كان « ڤشنو » (Vishnu) ، الذى أصبح فيما بعد فى الديانة الهندوسية أحد الآلهة الرئيسية الهامة ، من آلهة الشمس ولكنه لم يحتل الا مكانة بسيطة فى مجمع الآلهة الڤيدية . وكانوا يعبدون السماء المترامية الأطراف تحت اسم « ديوس — بيتر » (Dayous - Pitar) (قارن ذلك باسم چوبتر) وكان معبودا خيرا رحيما ، أما المعبود « رودرا » (Rudra) اله العواصف فقد كانوا يخشون بأسه أكثر مما كانوا يحبونه ، وفى العصور التالية وحدوا بينه وبين « سيڤا » (Siva) أحد آلهة الثالوث الهندى .

وأخيرا ، كان « ڤارونا » (Varuna) وهو اله آخر للسماء ، ويتمثل فيه كل الفضاء الواسع ، هو أقوى الآلهة الڤيدية ، وكان يمتاز بانفراده من بينهم فى اهتمامه بسلوك الانسان ، وكانت الصلوات ترفع اليه لينفذ ذنوب المبتهلين اليه . كانت الأجرام السماوية عيونه التى بوساطتها يراقب أعمال الناس على الأرض ، ولم يكن يخفى عليه أى عمل من أعمالهم . كان الآلهة يطلبون تقديم القرابين اليهم من الحيوانات التى توضع فى النار ومن شراب الـ « سوما » التى بالرغم من ذكرها المستمر فى الطقوس الڤيدية ، وان كلا من الآلهة والناس كانوا يحبونها ويقبلون على شربها فان كل ما نعرفه عنها انها كانت شرابا مسكرا يستخرجونه من عصير نبات لم يعرف نوعه حتى الآن . وكان المتعبدون يعتقدون أن الآلهة يأكلون القرابين وانها تغذيهم غذاء ماديا وكان « أجنى » رسول الآلهة يحمل اليهم وهم فى السماء خلاصة تلك القرابين فى دخان النار التى توضع فيها لاحراقها .

لا يوجد فى كل ما ذكرنا حتى الآن سواء عن العقائد الدينية الڤيدية أو عن العقائد الڤيدية ما يخالف فى أى صورة من الصور حضارة أى شعب من الشعوب التى تتكلم اللغات الهندو — أوروبية التى خرجت من منطقة الاستپس الشرقية الى ضوء التاريخ ، ومع ذلك فان عنصرا جديدا يظهر حتى فى الـ « ريج ڤيدا » . ففى الكتاب العاشر توجد بعض أناشيد مجردة وفلسفية

ذات طابع يميزها ، نرى فيها فكرة الـ « پوروشـا (Purusha)»، وهو كائن عظيم يحيط بالكون من كل ناحية ويوجد متخللا فى ثناياه . انه هو الكل ، ما كان وما سيكون ، وجميع الأكوان ، كما هى ، ليست الا جزءا من كيانه . وهذه الآراء المتعلقة بألوهية الكون نراها فى أسس جميع الديانات والفلسفات الهندية التى ظهرت فيما بعد . ومن الصعب أن نعتقد أنها نشأت من عقول أولئك الناس القبليين غير المجربين ، قليلى التصور ، الذين يقولون فى نشيد آخر فى الڤيدا « ان اندرا يخور كالثور طالبا الـ « سوما » الخاصة به » .

ونحن لا ندرى حتى الآن مدى فضل الآريين على الديانة الهندية فيما تلا ذلك من عصور ، ولكن فضلهم عليها أقل بكل تأكيد مما نسبه اليهم الكتاب البراهمانيون . ولم يبق من جميع المعبودات الڤيدية معبود ذو نشاط فى الديانة الهندوسية المتطورة الا المعبود « ڤشنو » ، ومع ذلك فان صفاته تغيرت تغيرا يكاد يجعلنا لا نعرفه . ان عقيدة تناسخ الأرواح — وهى عقيدة أساسية فى الديانة الهندوسية — يلوح أنها لم تكن معروفة للآريين الأوائل ، وكذلك أساليب النسك ، ووجود جماعة من الكهنة الذين يتوارثون مهنتهم ، ويكونون جماعة تتحكم فى غيرها بعلمها ومهارتها فى صلتها بما هو فوق الطبيعة ، كانت كلها أمورا لا تتلاءم أبدا مع القيم الآرية القديمة . كما نعرف تلك القيم فى حضارات أخرى خارج الهند . واذا اتجه الانسان مباشرة الى الدليل الأصلى متجاهلا التعليلات العقلية ، والتفسيرات التى قدمها الكتاب المتأخرون ، فانه يرى نفسه مضطرا للقول بأن غزو الآريين للهند سار على نفس الطريق تقريبا الذى سارت عليه معظم الغزوات الأخرى التى جاءت بعد ذلك . فقد كان يحدث عند كل غزو أن السيطرة السياسية والعسكرية تكون فى يد الغزاة فى مبدأ الأمر ، ثم يتبع ذلك استيعاب أولئك الغزاة ، وتظهر فى الوقت ذاته نهضة جديدة للحضارة القديمة . ومن المحتمل أنه مع مرور الزمن لم يكن الغزو

الآرى أكثر من حادث من الحوادث التى حدثت فى ذلك العهد الطويل من حياة المدنية الهندية ذات الطابع الخاص .

والشيء الوحيد الذى يمكن تقديمه ضد هذا الرأى هو انتشار اللغات الآرية فى معظم بلاد الهند ، ولكن هذه المشكلة ليست مشكلة خاصة بالهند وحدها . ففى جميع المناطق التى غزتها الشعوب التى تتكلم اللغات الهندو — أوروبية نجح الغزاة فى نشر لغاتهم بالرغم من أن حضارتهم ، بل وحتى مظهرهم الجسمانى ، اختفى بعد وقت قليل . والمنطقة الوحيدة التى لم يحدث فيها ذلك هى منطقة بلاد ما بين النهرين حيث وجدت اللغات الهندو — أوروبية منافسا لا يقل عنها قوة ، وهذا المنافس هو اللغات السامية التى كانت هى الأخرى غريبة عن البلاد . أما عن السبب الذى يجعل بعض اللغات تستمر فى فترات تغير الحضارات بينما لا يستمر بعضها الآخر فان ذلك مشكلة من ألطف مشاكل القوى المحركة للحضارات ، وهى من بين المشاكل التى لم نعرف لها حلا حتى الآن .

الفصل الثالث والثلاثون

الهند فى عصرها التاريخى المبكر

يصطدم أى باحث فى التاريخ الهندى بحقيقة واضحة وهى عدم اهتمام الهنود أنفسهم بالتاريخ . ان تلك النظرة العامة الى الكون بأنه ليس الا سرابا خادعا وان الحوادث تحدث فى دورات متتابعة لا يمكن الا أن تحيل صاحبها الى شخص لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة عن الزمان أو المكان .

فالبراهمانيون الذين كانوا يحتكرون التعليم ركزوا اهتمامهم فى الفلسفة والدين أكثر من اهتمامهم بما يحدث أمامهم . زد على ذلك أنهم كانوا يقولون ان ما كانوا يقومون بعمله عادة ليست الا أشياء تمارس منذ القدم فأصبحت لها قداستها تبعا لذلك ، ولهذا لم يهتموا أبدا بالتقدم الحضارى . ونتيجة لذلك يتحتم علينا أن نعيد كتابة تاريخ الحضارة الهندية اعتمادا على المادة العرضية التى نجدها فى الآداب الرومانتيكية ، والدينية ، ومن المبادىء الأثرية ومما كتبه الزوار الأجانب .

بل ان تاريخ الهند السياسى غامض فى كثير من النواحى ، ولا يحقق ما يتطلبه مستوى الدقة التى ينشدها علماء الغرب فى كتابة التاريخ الا بعد الغزو المسلم الأول . ان أسماء الأسرات الهندية ، وأسماء العدد الذى لا يحصى من الملوك الذين حكموا خلال الألفين والخمسمائة السنة ، وظهورهم واختفاءهم ، أمور لا معنى لها فى أكثر الحالات لمن يكون غير متخصص فى هذه الدراسة . ولهذا السبب فان الحوادث السياسية التى اقتصروا على ذكرها هى الحوادث التى كانت ذات دلالة حضارية باقية ومستمرة .

واستنادا الى المصادر التى وصلت الينا من أقدم أيام العصر التاريخى يمكن تقسيم الهند كلها الى ثلاث مناطق. لقد اتصــل شمال غربى الهنــد بالحضارة الغربية فى القرن السادس قبل الميلاد عندما ضم الملك دارا الأول البنجاب والسند الى الامبراطورية الاخمينية الفارسية. وتلا ذلك غزو آخر لم يكن فى حقيقة الأمر أكثر من هجوم للاستيلاء على الثروة، وهو الغزو الذى قام به الاسكندر الأكبر، وما حدث بعد ذلك من تأسيس أسرات متعاقبة من الغزاة الذين أتوا من الجبال الشمالية الغربية ومن منطقة الاستپس، الذين سرعان ما اقتبسوا عناصر الحضارة الهلينستية. ويبدأ وصف الأوروبيين لتلك البلاد بما كتبه «سكيلاكس» (Skylax) وهو اغريقى أرسله دارا لاستكشاف وادى السند حوالى عام ٥٠٠ قبل الميلاد (لم يصل الينا ذلك الوصف كاملا وانما عرفنا مقتطفات منه فى مؤلفات الكتّاب الذين جاءوا فيما بعد).

وبقيت هذه الأسرات حتى نهاية الممالك الهلينستية فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ولا شك أن أهم ما وصل الينا من الوثائق عن ذلك العهد هو ما كتبه «ميجاستينس» (Megasthenes) وكان ســـفيرا للامبراطورية السلوقية التى كانت فى الشرق الأدنى، والذى ذهب الى الهند عام ٣٠٢ قبل الميلاد وقضى أعواما طويلة فى بلاط الامبراطور الماورى «تشاندراجوپتا» (Chandragupta).

أما عن شمال غربى الهند فليس لدينا مصادر أجنبية مبكرة، ولا تكاد توجد أى كتابات تاريخية محلية. ولكن بالرغم من ذلك وصلت الينا اشارات كثيرة الى الحضارة المعاصرة فى الآداب والأساطير البوذية القديمة. ويرجع تاريخ هذه الاشارات الى القرن الخامس قبل الميلاد، وهو وقت احتــلال الفرس لشمال غربى الهند. وما وافى القرن الثانى بعد الميلاد حتى أصبح الفن البوذى يمثل حياة «المستنير»، وهو يقوم برسالته، تحيط به مناظر من الحياة اليومية التى نخرج منها بالكثير من المعلومات.

أما فى جنوبى الهند فالوثائق الخاصة به تبدأ فى عصر أحدث ، لأن أقدم الكتابات فيها لا يرجع تاريخها الى أبعد من قبيل بداية العصر المسيحى . وعلى أى حال ، فان هذه المنطقة كانت على صلة مستمرة بغيرها من الحضارات القديمة ، وكثيرا ما وردت اشارات اليها فى الآداب الاغريقية ابتداء من القرن الأول الميلادى . وهناك أيضا اشارات كثيرة اليها فى الآداب الصينية ، وهى اشارات لا يمكن أن تصبح بسهولة فى متناول العلماء الغربيين . ان جنوب الهند منطقة يحميها البحر ، ولهذا لم تتعرض للغزو حتى جاء المسلمون واحتلوا شمال غربى الهند فى القرن التاسع الميلادى . ولكن منذ القرن الثامن ، أو السابع قبل الميلاد على أقل تقدير ، كانت التجارة تصل الى موانىء جنوب الهند من جهة الغرب . وما حل القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد حتى كانت تجارتها مع كل من الشرق والغرب تجارة مزدهرة . كانت سفن جنوبى الهند تمخر عباب البحر الى بلاد العرب ، والى الشاطىء الشرقى من افريقيا ، والى اندونيسيا وجنوبى الصين ، ووصلت صلة هذه المنطقة بالحضارات الغربية الى أعظم وأزهر درجاتها حوالى بداية العصر المسيحى . فقد كان الرومان يتلهفون لهفة شديدة على الحصول على الجواهر والتوابل الهندية ، وعلى الأخص الفلفل . ولما لم يكن لديهم الا القليل من المحصولات التى يمكن أن يأخذها الهنود فى مقابل ما يحصلون عليه منهم ، فانهم كانوا يدفعون ثمن تلك الواردات بالعملة الذهبية ، وكانت هذه العملة الذهبية الرومانية تستخدم فى مناطق كثيرة فى جنوبى الهند . وكان هناك جنود من اليونان والرومان يخدمون ملوك جنوبى الهند كجند مرتزقة ، كما كان فى جنوبى الهند أيضا جاليتان رومانيتان ، وفى واحدة منهما أقيم معبد للامبراطور أوغسطس ، وكان من بين الأجانب الآخرين الذين استقروا فى جنوبى الهند يهود ومسيحيون سوريون وصلوا الى هناك فى القرن الأول الميلادى ، ومسيحيون من الفرس أتوا فى القرن الرابع الميلادى ، كما جاء اليها أيضا عرب ما زال أحفادهم الى

اليوم يكونون عنصرا هاما من عناصر سكان منطقة الملابار ، كما كانت لهم تجارة واسعة مع الصين ظلت مستمرة ، وكانت مزدهرة فى أيام الرحالة « ماركوپولو » .

وفى فجر العصر التاريخى فى كل منطقة من هذه المناطق الهندية الثلاث نرى كثيرا من العناصر الحضارية المتشابهة فيها كلها ، ولكننا نرى فيها أيضا بعض الاختلافات المحلية الواضحة . كان كل من شمالى وجنوبى الهند يختلفان فى اللغة اختلافا صريحا ، فقد ورث سكان الشمال الذين كانوا يستخدمون اللغات الهندو — أوروبية كثيرا من التقاليد الآرية . أما سكان الجنوب الذين كانوا يستخدمون اللغات الدراڤيدية فقد احتفظوا فيما بينهم بعادات كثيرة وهى غير آرية بكل تأكيد . وكانت هناك أيضا اختلافات واضحة فى شمال الهند بين شرقها وغربها . كان الغرب معرضا للغارات ، وكان الباب الذى تتسلل منه القبائل الجديدة التى تأتى الى شبه الجزيرة منذ أيام فجر التاريخ . أما شمال شرقى الهند ، وهى منطقة وادى الجنج ، فكانت أقل تعرضا للغزو ، وحتم مناخها ومواردها الطبيعية أن تستمر حضارتها الأصلية وقتا غير قصير . فان الغزاة الذين دخلوا الى بيئتها الاستوائية الرطبة من الشمال أو من الغرب وجدوا أنفسهم مضطرين ، لكى يحيوا ، أن يقتبسوا وسائل الحياة المحلية . كان جنوبى الهند فى مركز يسمح له بأن يتقبل وينقل العناصر الحضارية دون أن يقع عليه ضغط خارجى . ويلوح أنه كان يلعب دور المعطى أكثر من دور المستعير ، اذ كان يوفد المبشرين والمغامرين الذين نشروا المدنية الهندية فى اندونيسيا والبلاد القريبة منها فى أرض القارة ، أما ما استعارته من مصادر خارجية فانها اختارت ما كان يروق لها ، وعدلته ليلائم نوع الحياة التى كانت سائدة فيها .

وليس لدينا الا القليل من الأدلة المباشرة عن التأثيرات الحضارية لغزو الأخمينيين لشمالى غربى الهند . فقد أطلق دارا الأول على البنچاب والسند

اسم الستربية العشرين فى امبراطوريته ، التى كانت أعظم امبراطوريات العالم فى ذلك الوقت . ويذكر هيرودوت وجود جنود من الهنود بين تلك الجيوش المكونة من أجناس مختلفة التى سيرها الفرس ضد الاغريق ، ولكن الأهم من ذلك هو أن ستربية الهند كانت تقدم جزية سنوية مقدارها عشرة أطنان من تبر الذهب أى ما يقرب من ثلث الايراد الكلى للامبراطورية الفارسية . ويمكننا أن نقول ونحن مطمئنون ان الفرس الذين أتقنوا فن تنظيم البلاد ، وأول فاتحين فى العالم أدركوا أن حكم الرعية بالموظفين خير من حكمهم بالجيوش ، قد عنوا بتنظيم الادارة فى مثل هذا الجزء النفيس من ممتلكاتهم . ومن المحتمل جدا أنهم قدموا الى الحضارة الهندية نظما جديدة من التنظيم السياسى ، بل ربما أعطوها فكرة الامبراطورية نفسها . فمن الأمور التى تسترعى النظر أنه عند انتهاء الاحتلال الفارسى نجد أن بعض الولايات فى وسط الهند تتجه نحو الفتح ، على حين نجد أن شرقى وجنوبى الهند فى الوقت عينه مقسم الى ممالك شبه بدوية . ونستطيع من دراسة ما خلفه لنا « مجاستينس » وما كتبه « أرثساسترا » (Arthsastra) ، وهو هندى من « كاوتيليا » (Kautilya) الشىء الكثير عن تكوين الامبراطورية الماورية ، وفيها الكثير مما يشبه النظم الفارسية . وكان هناك أيضا تأثير فارسى على الفن فى شمالى الهند ، نراه واضحا فى بعض الآثار مثل الأعمدة التى أقامها الملك « أسوكا » (Asoka) ولكن هذا التأثير سرعان ما انتهى تحت وقع أساليب الفن الهلينستى .

لم يكن غزو الاسكندر الأكبر للهند أكثر من غارة قام بها . أما الحاميات الاغريقية التى تركها هناك فقد زالت نهائيا من الوجود بعد خمسين عاما من رحيله . كانت الامبراطورية الماورية التى ظهرت بعد الغزو الفارسى مباشرة ، وهى أولى الامبراطوريات الهندية ، امبراطورية وطنية الى أبعد الحدود . ولا ترجع التأثيرات اليونانية فى الحضارة الهندية الى الاسكندر وحده بل تدين بأكبر قسط للملوك الهمج غير المتحضرين من « الاسكيذيين » (Scythians)

و « الكوشان » (Kushans) بنوع خاص ، فقد كونوا أسرات مالكة عديدة فى شمال غربى الهند حوالى ظهور المسيحية . أحس أولئك الهمج غير المتحضرين بتفوق الحضارة الهلينستية فأقبلوا على محاكاة أساليبها الظاهرية . وبالرغم من أن الصلة بالغرب المتأثر بالحضارة الهلينية قد استمرت لعدة أجيال ، فان الحضارة الهندية لم يدخل اليها الا القليل من العناصر الاغريقية الأصل كان أبناء القارة من اليونانيين ضعافا دائما فى ميدانى الادارة والتنظيم الاجتماعى ، وكانوا فى العصــور الهلينستية يقتبسون دائمــا نظم الولايات التى كانوا يغزونها . فالأساليب الفنية فى الصناعة ، رغم ما أخرجته من أعمال فنية ممتازة ، كانت على الأكثر مساوية ان لم تكن أقل ، مما كان فى الهند . أما فلسفة الاغريق وعلومهم فقد كانت غريبة عن الروح السائدة فى البوذية والهندية المنتشرة بينهم . ولكن نجد فى ناحية واحدة فقط ، وهى ناحية فن نحت التماثيل ، ان تأثير الاغريق يتخذ طابعا مستمرا فعالا . فان اعتناق ملوك الكوشان للديانة البوذية واستخدام الفنانين المحليين من الاغريق فى صنع تماثيل لا حصر لها لم تلبث حتى أصبحت عنصرا من عناصر هذه الديانة ، وقد ترك ذلك أثرا خالدا على أسلوب الفن البوذى فى جميع بلاد الشرق .

ولم يأت القرن الخامس قبل الميلاد حتى نجد شمالى الهند وقد استكمل كثيرا من المميزات الثقافية التى ما زالت باقية فيه حتى الآن ، فان حياة سكان القرى العاديين يلوح انها لم تتغير الا قليلا بين ذلك العصر البعيد والعصر الحاضر ، وما فيه من ثورة سببها استخدام الراديو وسهولة الانتقال . فلو أن شخصا من العصر الحاضر استطاع أن يطوى صفحات الزمن ويعود الى ذلك الوقت البعيد فسيذهل من اتساع وانتشار الغابات وكثرة اســتخدام الخشب فى البناء ، فان بعض المدن الكبرى مثل « پاتاليپوترا » (Pataliputra) التى كانت عاصمة الامبراطورية الماورية كانت مشيدة كلها من الخشب بمــا فى ذلك قصورها ومعابدها وكان يحميها سور خشبى وخندق يحيطان بها .

وفى معظم بقاع المنطقة ، فى الوقت الحاضر ، لا يكاد أهلهـا يجدون خشبا يصنعون منه عروقا لحمل سقوف منازلهم ، ويستخدمون فى انضاج طعامهم حلقات من روث الأبقار . وسيدهش أيضا لقلة الملابس التى كان يلبسهـا سكان الجزء الشرقى من المنطقة . فقـد اقتصرت ملابس الرجال على قطعة قماش واحدة صغيرة من القطن تلف حول الوسط ، أما النساء فكن يلبسن نقبة قصيرة . وكان الأغنياء يعوضون أنفسهم عن رخص هذه الملابس بعملها من نسيج أحسن ، وبالجواهر التى كانت كثيرة الى درجة أن النسـاء كن يعتبرنها حملا ثقيلا ولكن من نوع فريد . والفوارق الاجتماعية نفسها التى يدهش لها المسافر فى الهند فى الوقت الحاضر كانت موجودة على الأرجح فى ذلك العهد . فبالرغم من أن مركز الفلاح الاقتصادى كان خيرا منـه الآن فانه كان يدفع سدس محصوله كضريبة مباشرة كما كان مستغلا استغلالا سيئا لاحتكار الدولة للملح ، كما كان يدفع ضريبة أخرى على كل ما يبيعه ، وغير ذلك من المظالم .

وعلى أى حال ، فان الفارق فى الدخل بين الأفراد فى ذلك العهد كان يتضح فى المظـاهر أكثر من اتضاحه فى مستوى المعيشـة . كانت أعمـدة قصر « تشاندراجوپتا » (Chandragupta) مغطاة بصفائح الذهب ، ولكنه كان ينام فوق حصير وكان يأكل نفس الطعام الذى يأكله الفقير العادى ولم يختلف عنه الا فى اضافة كمية أكبر من التوابل . ولهذا ، فانه عندما اعتزل الناس وعاش متوحدا فى الغابة بعد أن أدركته الشيخوخة لم يضح الا القليل جدا مما يمكن أن يقال عنه انه من ملذات الحياة .

وكانت المحصولات ذاتها ، وهى القمح والشـعير فى الغرب والرز فى الشرق ، تزرع بالطريقة نفسها التى تزرع بها الآن . وكانوا يسوقون الماشية لحلبها عند « ساعة غبار الأبقار » ، ولكنهم لم يكونوا يقدسون تلك الأبقار

كما يقدسها الهندوس فى الوقت الحاضر ، وكانوا يذبحون الحيوانات قربانا للمعبودات فى احتفالات طويلة تتكلف الكثير من المال .

أما عن التنظيم الاجتماعى فقد كان نظام العائلة المترابطة ، ونظام القرية من النظم التى مضى عليها وقت طويل وكانا الأساس فى بناء المجتمع ، ومن المحتمل أن سكان كل قرية كانوا يتزوجون من خارج قريتهم كما يفعلون الآن . وكان السواد الأعظم من سكان كل قرية من فلاحى الأرض ، ومعهم بضع عائلات من المتخصصين ، وهم غالبا حداد ونجار وفخار وكاهن يسدون حاجاتهم الضرورية . وكانت توجد بينهم الأقسام الأربعة الرئيسية للطبقات وهم البراهمانيون (Brahmans) والكشاتريا (Kshatriya) والفايسيا (Vaisya) والسودرا (Sudra) فى شمالى الهند ولكنا لا نملك أى دليل على وجود الأقسام الفرعية التى لا حصر لها التى يمتاز بها نظام الطبقات الحديثة ، أو تلك التعاليم الشعائرية الكثيرة التى تحدد الآن العلاقات بين الأفراد المنتمين الى طبقات مختلفة . ولا يذكر « مجاستينس » تلك الطبقات . ولو كان لها وجود فى شمالى غربى الهند فى القرن الثالث قبل الميلاد لما خفيت على مثل هذا الشخص الحصيف الذى امتاز بقوة الملاحظة .

وفى الوقت الذى عاش فيه « بوذا » ، أى فى القرن السادس ق . م . كانت توجد جامعات حقيقية يقصدها شبان من العائلات الكبيرة ، يذهبون ليتلقوا دروسا فى المؤلفات المقدسة كجزء من التعليم الذى يناسب مكانتهم . وكانت احدى تلك الجامعات فى « تاكسيلا » (Taxila) فى غربى الهند عاصمة الستربية الفارسية القديمة . كان جميع الرجال المنتمين الى الطبقات العليا الثلاث يتلقون تعليما فى الفنون والشعائر المقدسة ، وكان ذلك يتمشى مع الأساليب الآرية القديمة التى تتطلب من رئيس العائلة أن يقدم القرابين بدلا من عائلته ، وأن يقدم الحاكم القرابين بدلا من رعاياه . وعلى أى حال ، فهناك أدلة عديدة على أن البراهمانيين كانوا يغتصبون لأنفسهم بصفة مستمرة مزيدا

من القوة والسلطان . وكانت هذه الحركة أقل أهمية فى شمالى غربى الهند حيث تسببت الغزوات المستمرة لشعوب غير هندية فى تركيز السلطة فى يد طبقة الكشاتريا ، وهى الطبقة الحاكمة من المحاربين التى كانت لا تمانع فى أن ينتمى اليها الآخرون وتستوعب المحاربين الغزاة . وفى شمالى شرقى الهند لم يكن التنازع على السلطة بين البراهمانيين والكشاتريا قد بدأ يظهر فى ذلك العهد . لم يكن البراهمانيين قد خصصوا أنفسهم لدور الناصحين للملوك ، أو عرفوا قيمة الفوائد الكثيرة للسيطرة دون تحمل المسئولية ، أوأن الكشاتريا تنازلوا عن جميع مطالبهم نحو العلم أو الوصول المباشر لمعرفة ما فوق الطبيعة . ومما يستحق الذكر أن وجوه نشاط الكشاتريا كانت أكثر شبها بأخلاق وصفات الغزاة الأوائل من الآريين ، بينما لم يتوافر ذلك فى البراهمانيين .

وهناك دائما رابطة قوية بين آلهة أى شعب مغلوب وبين البلد الذى كانوا يسهرون عليه . فمن المنتظر منهم أن يكون موقفهم غير ودى نحو الوافدين الجدد ، وكثيرا ما يجد الانسان أن بعض الغزاة يعترفون بالقوى السحرية للمغلوبين ويلجأون الى كهنتهم ورجال الطب فيهم ليتوسطوا من أجلهم الى أرباب البلد القدماء . وقد سبق أن ذكرنا أن الآلهة الهندوسيين المتأخرين لم يكونوا هم أنفسهم آلهة الآريين الڤيديين ، كما ذكرنا أيضا أنه حتى المعبودات التى بقيت أسماؤها مثل « ڤيشنو » فان الصلة بين صفاتهم الڤيدية القديمة وصفاتهم البراهمانية المتأخرة لم تكن الا مهارة فلسفية . وربما كان ازدياد أهمية البراهمة فى ذلك الوقت ليس الا رجوعا الى الحالة التى كانت سائدة فى الهند قبل الآريين .

وما حلت بداية العصر التاريخى حتى أصبح للعقائد الدينية والعادات فى شمالى الهند عدد من المميزات الخاصة بها ، وأهمها الاعتقاد فى تناسخ الأرواح وعقيدة الـ « كرما » (Karma) . وبالرغم من أن الاغريقى « فيثاغورس » كان يدرس تناسخ الأرواح لتلاميذه ، وأن هناك اشارات

اليها فى الميتولوجيا الكلتية ، فمن المرجح أن مثل هذه العقيدة لم توجد فى الڤيدا القديمة ، ولم تكن جزءا من الميراث الثقافى للشعوب الهندو — أوروبية بصفة عامة . فنحن نعلم أن نوعا من الاعتقاد فى تناسخ الأرواح ، مع تحسينات وتعديلات مختلفة ، ظهر ظهورا مستقلا فى كثير من أرجاء العالم ، وربما كانت تلك الصورة الهندية قد تم تطورها على يد الفلاسفة الذين كانوا قبل الآريين عندما كانوا يحاولون ايجاد حل منطقى للمشاكل التى يخلفها تصميم الانسان على انكار أنه من الممكن أن يفنى نهائيا .

ومهما كان أصل هذا الاعتقاد فان مصير الروح ، حسب الرواية الهندية ، مقبول عقليا ومناسب منطقيا أكثر من أى مثيل له فى أى انتاج حضارى آخر . وبينما نلاحظ أن عقائد الطوائف الهندية المتباينة قد اختلفت بشأن بداية ونهاية رحلة الروح فانها تتفق جميعا فيما بينها فى الجزء الأوسط منها ، وهو الجزء الذى يتناول ماضى ومستقبل الشخص . لقد بدأت الروح كشىء كلى ، غير محدد أو معين من القوى الروحانية ، وأمدت الجسد بنوع وضيع من الحياة . وعندما يموت جسد صاحبها تنتقل الى جسد آخر حاملة معها الخبرة التى حصلت عليها فى حياتها السابقة . وبتجمع هذه الخبرات الكثيرة التى تحصل عليها من حياة بعد أخرى ، تأخذ الروح شكلها وتقوى مع مرور الزمن . وبالاضافة الى الخبرة ، فان كل روح تحصل لنفسها على رصيد مما يمكن أن نسميه حساب المكسب والخسائر الروحى ، وهو نتيجة الأعمال الحسنة والأعمال السيئة التى اقترفتها أثناء تناسخها المتوالى . وهذه كلها مجتمعة هى الـ « كرما » الخاصة بالشخص وهى التى تحدد المكانة التى يجب أن يولد بها ثانية فى المجتمع ، والحظ الحسن أو السيىء الذى يصادفه .

كان الاعتقاد فى الكرما ذا أهمية كبرى فى سير الأمور فى المجتمع الهندى لأنها ساعدت على جعل نظام الطبقات شيئا معقولا . فالشخص الذى يولد فى طبقة السودرا أو طبقة المنبوذين يكون قد احتل هذه المكانة التى لا يحسد

عليها ؛ لأنه المكان الذى جعلته الكرما صالحا له فى المجتمع . المكان الذى يستطيع فيه أن يحصل على نوع الخبرة اللازمة له ، لتتقدم روحه وتحصل على الثواب أو العقاب الذى جعلته أخلاقه فى الماضى مستحقا له . وترتب على ذلك أن كل من يحاول ترك طبقته يغامر بقذف نظام تطوره الروحى فى فوضى لا قرار لها ، وبهذا يتسبب فى تنزيل درجته خطوات كثيرة فى تناسخ روحه . كان كل من يحب الحصول على « كرما » طيبة يستطيع أن يصل الى غرضه عن طريق تقديم القرابين ، والمراعاة الدقيقة لتنفيذ الطقوس على الوجه الصحيح وتقديم الحسنات للبراهمانيين والنساك ، وعمل الخير بوجه عام . وعلى أى حال فان أهم شىء بالنسبة للروح هو ازدياد الوعى والحكمة اللذين يزيدان من تقدمها فى ارتفاعها ؛ فالشخص الذى يخصص نفسه تخصيصا كليا لصالح الأعمال يضيف الشىء الكثير الى حساب حسناته ، وبذلك يستطيع أن يؤخر نفسه مدى عدة مرات من التناسخ الممتع ، ولكن ذلك لا يغير من وضعه حتى يتمتع بالمزايا التى سبق أن اكتسبها بفعله للخير .

وأقصر طريق للتقدم الروحانى هو أن يصبح الانسان ناسكا . وقد لاحظ « ميجاستينس » وجود جماعات من الناسكين أعادت الى ذهنه صورة الندوات العلمية الهلينستية التى كانت توجد اذ ذاك فى بلاده . فقد قال بأن مناقشات أولئك الفلاسفة الهنود كانت كلها عن الموت ، ولابد أن مثل هذا الشاغل القوى قد بدا غريبا فى نظر ذلك الاغريقى المحب للحياة . ومنذ أيام بوذا نفسه كانت عقيدة تناسخ الأرواح أصبحت ثابتة تماما فى الهند ومن المحتمل أن المناقشات التى ذكرها ميجاستينس كانت تتعلق بدور الكرما ووظيفتها والأدوار المتتابعة فى تطور الروح .

ففى أيام « ميجاستينس » كان الناسكون قد أصبحوا منذ قرون كثيرة شيئا عاديا فى الحياة الهندية . وعلى ختم عثر عليه فى « موهنچو — دارو » نرى شخصا فى جلسة كانت توصف بأنها جلسة الناسكين فى العصور التالية .

وما من شك فى أن نظام النساك نشأ فى الهند ومن المحتمل جدا أنه كان معروفا فيها قبل مجىء الآريين ، وعلى أى حال ، فهو شىء لا مثيل له بين حضارات الذين يتكلمون اللغات الهندو — أوروبية خارج الهند . وربما كان النسك الهندى فى بدايته شبيها من الناحية السيكولوجية بالبحث عن الرؤيا والالهام لدى هنود شمالى أمريكا . فقد كان طالب الرؤيا يصوم ويوقع على نفسه بعض أنواع التعذيب ليستدر بهذا العمل عطف احدى الكائنات ذات القوى التى فوق الطبيعة . فاذا نجح فان ذلك الكائن يظهر أمامه ويعده بالمساعدة ويذكر له فى الوقت ذاته أشياء معينة يحرم عليه فعلها ، وعلى الانسان مراعاة ذلك مراعاة تامة حتى يحتفظ بصلته مع هذا الكائن . يكون الانسان أثناء قيامه بذلك فى شبه غيبوبة مغناطيسية ، كما أن الصوم المستمر والآلام التى يوقعها على نفسه تجعل ذلك الشخص يرى ما يشبه الأحلام ويسمع أصواتا ، يستطيع اذا فكر فيما مر به فى ماضى حياته من خبرة ، أن يجعل منها تجربة منتظمة من تلك التجارب الخاصة بما فوق الطبيعة والتى تساعد ثقافة الشخص على أن يتوقع حدوثها . وهذا يشبه الى حد كبير ذلك الانسان الذى تجرى عليه تجارب التحليل النفسى الحديث ، فانا نراه يقص بأمانة أحلاما فرويدية اذا كان القائم بالتحليل النفسى ممن يتبعون مدرسة فرويد ، وأحلاما يونجية اذا كان المحلل النفسى من مدرسة يونج .

ولو صرفنا النظر عن موضوع أصل النسك فانه منذ الوقت الذى بدأ فيه النسك الهندى يظهر فى التاريخ كان القيام بأشياء قاسية شديدة يحمل فى ثناياه التحدى ضد القوى التى فوق الطبيعة . وكان الناسك يصوم ، وكان صومه فى الواقع تحديا للمعبودات لأن ذلك يزيد من قواه الروحانية . وفى أسطورة من أقدم الأساطير ، نقرأ عن ناسك استطاع أن يقوم بالكثير من كفارات التوبة حتى أصبح له من القوة ما جعله يجبر المعبودات على طاعته . وعندما تقدمت الآراء الخاصة بوحدة الوجود ، أى وحدة الله والكائنات ، تضاءلت

هذه الفكرة وحلت محلها فكرة أخرى اتجهت فيها أعمال النسك نحو اخضاع الجسد ليتحرر العقل ، ويتحرر ذلك الكيان الأساسى الذى يطلق عليه الأوروبيون اسم الروح ، يتحرر من تلك التضييقات التى يفرضها الجسد . ولا يمكننا أن نذكر على وجه التحديد الوقت التى حدثت فيه تلك التغييرات ، ولكن خلال الألف عام الأخيرة على الأقل كان الهدف الأساسى للنسك الهندى هو معاونة الروح فى محاولتها الوصول الى الاتحاد مع السرمدية التى لا نهاية لها ، وأن تمر بحالات الاستغراق والنشوة الروحية التى تدرك أثناءها معنى هذا الكون .

كان الناسك يصل الى هدفه بعد عدة مراحل : أولاها قطع الصلة بكل ما يربطه بالدنيا بما فى ذلك ما يربطه بعائلته أو ثروته ، والاعتزال فى مكان بعيد فى الغابة حيث يتفرغ للتأمل ، ولتمرينات رياضية مختلفة تستهدف حصوله على السيطرة التامة على جسمه ، ويعنى فيها عناية كبيرة بالتنفس وأوضاع الجسم . ونظرا لوجود اهتمام شعبى متزايد بهذا الأمر ، فان نساكا كثيرين استطاعوا ، بكل تأكيد ، أن يتحكموا فى مراكز الأعصاب تحكما يدعو الى الدهشة . وأدهشت الأعاجيب التى كانت تحدث من جراء ذلك العوام من الناس ، وساعدت النساك دون شك على ملء آنية الطعام التى يحملونها للاستجداء ، ولكن هذا التمرين لم يكن هدفا فى حد ذاته فان الغرض منه هو منع الجسد من أن يتطفل على وجوه نشاط العقل والروح .

وبعد أن تتم السيطرة على الجسد تبدأ الخطوة الثانية وهى السيطرة على العقل . ويصل الانسان اليها عندما يتمكن من أن يخلى عقله اخلاء تاما من القناعة المتعمدة ، ويسيطر على سير التفكير ، وبهذا يحرر الروح ويعدها لخوض تجربة أعمق ، وتستطيع الروح المنطلقة (المحررة) أن تمر بلحظات من الاتحاد مع الروح الدنيوية وتعود من تلك اللحظة بحكمة وقوة علويتين (فوق طبيعة البشر) . فاذا كان الشخص خيرا محسنا احسانا كافيا فيمكنه أن يعطى جزءا من قدرته ومعرفته الرفيعة الى أولئك الذين لم يمروا بتلك

التجارب ، وبهذا يعين الـ « كرما » التى لديهم على ارتقائها وتطورها . وحتى اذا لم يعطهم أى ارشاد أو تعليم فان القوة والفائدة الروحانية يمكن أن ينالهما الناس اذا لمسوه ، ولهذا السبب فان الشخص التقى الذى يملأ له اناء طعامه يحصل بذلك على جزائه ومكافأته .

ومهما كان رد الفعل الذى ينتاب المفكر الغربى الذى يساوره التشكك فى هذه الآراء ، فانه يجب أن يعترف بقيمة النسك الهندى فى النظام الاجتماعى . فالكتب المقدسة التى تم تأليفها حوالى بداية العصر التاريخى تقول بأن حياة النسك كانت مفتوحة أمام أعضاء الطبقات الثلاث التى تحتل أعلى مكانة ، لكنها كانت محرمة على طبقة السودرا وعلى طبقة المنبوذين بطبيعة الحال . كان هذا النظام يهيىء مخرجا للذين لم يحالفهم التوفيق فى الحياة ، ويؤدى ما أداه نظام الجماعات الدينية فى العصور الوسطى الذى كان يقبل عليه أولئك الذين يؤمنون بالآراء الصوفية الغامضة ، والذين لم يقدروا على مجابهة متاعب الحياة الدنيوية . ولم تقتصر حياة النسك على الباحث فى الروحانيات بل شملت الأمير الذى تعب من منصبه ، والزوج الذى لم يعد يطيق معاشرة زوجته ، أو التاجـر الذى يلاحقه دائنـوه ، فان أى واحد من هؤلاء كان باستطاعته أن ينضم الى صفوف الرجال المقدسين . كان يذهب الى الغابة ويعتزل الناس ، ويحيا حياة بسيطة طاهرة ، وفى أكثر الأحيان كان يتتلمذ على أحد الرجال المقدسين ذوى الشهرة ، فيعمل خادما له ويتلقى فى مقابل ذلك ارشاداته . وفى بعض الأماكن أقامت جماعات من المتوحدين الذين كانوا يقضون الوقت فى مناقشات فلسفية وفى دراسات للآداب المقدسة ، وفى التأمل . وخلال العصر التاريخى المبكر كان كثير من هذه الآداب ما زال ينقل عن طريق التلقين الشفهى ، وكان يتحتم معرفته وحفظه بطريق الصم حفظا غيبا .

ومنذ بداية العصر التاريخى كان يوجد تفريق واضح بين البراهمانيين والنساك . فالبراهمانيون يستطيعون أن يصبحوا نساكا ، ولكن أكثرهم لم يفعل

ذلك : كان البراهمانيون مهرة فيما يتعلق بما فوق الطبيعة ، وكانوا كهنة محترفين يعرفون الطقوس المعقدة الطويلة التى تتطلبها الديانة الهندوسية : وفى خارج نطاق واجبـاتهم الدينية كانوا يحيون حيـاة عادية اللهم الا تلك الحدود التى تفرضها عليهم تعليمات طبقتهم : كان كثيرون منهم يحبون الحصول على الثروة أو السيطرة الاجتماعية ، ومن الأمور الواضحة أنه خلال العصر التاريخى المبكر كانوا يستهدفون تقوية سلطانهم دائما فى شـمالى الهند ، ومحاولة اجتذاب أفراد القبائل الأصلية الى اعتناق الديانة الهندوسية .

وكان ازدياد ادعاءات البراهمانيين ، وازدياد الطقوس الطويلة التى تكلف الكثير من المال ، والتى لا يستطيع أن يقوم بها سواهم ، سببا فى قيام ثورات دينية ضدهم فى القرن السادس قبل الميلاد ، دعا اليها زعيمان عظيمان وهما « الجواتاما بوذا » و « ڤارذامانا ماهاڤيرا » مؤسس الديانة الچينية . ولد كل من هذين الزعيمين من طبقة الكشاتريا ، وأصبح كل منهما ناسكا مؤمنا بعقيدة التناسخ والكرما دون أن ينكر منها شيئا ، ومع ذلك كانت تعاليم كل منهما موجهة ضد الطقوس البراهمانية . وما زال بعض أتباع الچينية يعيشون حتى الآن فى الهند كطائفة قليلة العدد يمتازون باتباعهم طقوسا معقـدة ، ويراعون مراعاة تامة دقيقة عدم قتل أى روح فى أى صورة من الصور . يقوم الكاهن الچينى عند أداء عمله بكنس الطريق أمامه بمكنسة ليزيل ما عساه أن يكون فيه من حشرات حتى لا يطأها بقدميه ، ولا يشرب ماء فى مكان مظلم حتى لا يبتلع أى شىء حى يمكن أن يكون فى ذلك الماء حتى لا يتسبب فى قتله . ولكن أهم اعتقاد فى مذهبهم هو مراعاتهم التامة لمبدأ « أهميسا » أى عدم الايذاء ، وهو نوع من « عدم المقاومة » فى جميع الحالات ، وكان المهاتما غاندى قبل موته — بالرغم من أنه كان من غير الچينيين — متأثرا بالعقيدة الچينية .

وبالرغم من أن المبشرين الچينيين استطاعوا أن يضموا الكثيرين فى جنوبى

الهند الى عقيدتهم ، فان هذه الديانة لم يقدر لها الانتشار فى أى وقت من الأوقات خارج شبه الجزيرة الهندية . أما الديانة البوذية فقد كانت وما زالت قوة فى العالم مدى ألفى سنة ، ولهذا السبب سنفرد لها فصلا خاصا .

سبق أن ذكرنا أن الوثائق المكتوبة التى وصلت الينا من جنوبى الهند لا ترجع الى أبعد من بداية العصر المسيحى ، بل ان المعلومات التى من ذلك العصر لا يمكن أن نقول عنها انها معلومات كافية . فمن المرجح أن الحضارة المادية ونظم الحياة فى القرية فى فجر التاريخ كانت كمثيلاتها فى شمال الهند ، شبيهة جدا بالأوضاع الحالية . كان نظامهم السائد نظاما زراعيا ، ولكن مع معرفتهم معرفة لا بأس بها لجميع فروع الصناعات الفنية اللازمة لهم . كانوا يزرعون كل محصولات جنوب شرقى آسيا ، وأهم هذه المحصولات هو الرز المروى . وكانوا يستخدمون المحراث الذى يجره الجاموس فى اعداد حقول الرز ، ونظرا لأنهم كانوا يحلبون هذا الحيوان ، وهذا يخالف ما كان يتبعه سكان جنوب شرقى آسيا مع حيواناتهم ، فمن المحتمل أنهم كانوا يتبعون فى ذلك التقاليد التى كانت متبعة بين الشعوب التى تسكن بعيدا فى الشمال . أما تقدمهم فى النواحى الفنية فقد كان مساويا ، ان لم يكن متفوقا ، على شمالى الهند فى العصر نفسه . كانت المبانى الهامة تشيد من الخشب وكانت متسعة ومتقنة التشييد ، وكانت صناعات المعادن متقدمة الى حـد كبير ؛ اذ كانوا يصنعون أدوات من الصلب ويصدرونها الى غيرهم . وتتمثل رغبتهم وحرصهم على حب الجمـال فى صنع الأدوات العاجية ، وحفـر الخشب ، والنسيج ، وصناعات المعادن . واذا حكمنا على أعمالهم الفنية فى تلك المنطقة فيما تلا ذلك من عصور عند انتشار البوذية ، فقد كان فنهم فنا طبيعيا يمتاز بقوة وحركة غير عاديتين .

أما فيما يختص بالتنظيم الاجتماعى وبالديانة فى جنوبى الهند فهما أكثر صعوبة لو أردنا معرفة ما كانا عليه اذ ذاك . وخير مرجع معاصر يمكننا الاعتماد

عليه هو التولكاپيام (Tolkapplyam) وهو مؤلف باللغة التاميلية (Tamil) يرجع تاريخه الى بداية العصر المسيحى . فبالرغم من أن هذا المؤلف مؤلف خاص بدراسة النحو ففيه فصول عن موضوعات أخرى . ولا تقتصر فائدته على ما ورد فيه من معلومات ، بل ان دراسته من ناحية اللغة التى كتب بها أمر هام جدا لأن اللغة التاميلية كانت على ما يظهر أنقى اللغات الدراڤيدية التى استخدمها سكان جنوبى الهند ، وأكثر اللغات انتشارا فى ذلك العصر ، وما ورد فى ذلك المؤلف من معلومات تعبر عن الكثير مما كان فى جنوبى الهند .

ومن دراسة هذا المؤلف نعرف أن الشعب الذى كان يستخدم اللغة التاميلية كان مقسما فى الأصل الى أربعة أقسام : سكان الجبل ، وسكان الغابة ، وسكان السهل ، وسكان شاطىء البحر . كان لكل قسم رئيسه ، وكان لكل قسم وجوه نشاط محددة يتخصص فيها على أساس الموارد التى تنتجها البيئة الطبيعية للمنطقة . كان كل قسم يتكون من جماعات عدة لكل منها عمل يتخصص فيه أفراده ، وكانوا يتبادلون منتجاتهم مع منتجات الجماعات أو الأقسام الأخرى . فمثلا كان سكان الشاطىء ينقسمون الى صيادى أسماك ، وصيادى لؤلؤ ، وبحارة سفن ، وصناع سفن ، وعمال ملح ، وصناع أصداف ، وتجار يتعاملون مع البلاد الأخرى . ولا تدلنا المصادر المبكرة عما اذا كانت حرف هذه الجماعات الفرعية وراثية أو لم تكن كذلك ، ولكن اذا حكمنا بما نعرف أنه كان سائدا فى معظم الحضارات المماثلة فى جنوب شرقى آسيا يمكننا القول انه من المحتمل جدا انها كانت وراثية .

وتدعم الدراسات الاتنولوجية الحديثة فى جنوبى الهند هذه النتيجة . فمثل هذا التقسيم للحرف ما زال يوجد بين قبائل تلال نيلجيرى وهى قبائل غير هندوسية . تسكن احدى هضاب تلال نيلجيرى ثلاث قبائل وهى «تودا» (Toda) و « كوتا » (Kota) و « بدجا » (Badaga) فقبيلة التودا تربى وتحلب الجاموس وتعد السمن وهو مادة لا غنى عنها ، ليس فى تغذية القبائل

الأخرى وحسب ، بل وفى القيام بشعائرهم الدينية ، وهم لا يزاولون أى عمل اقتصادى آخر . أما الكوتا فهم مزارعون يزرعون الحبوب ، أما البدجا فصناع وتجار وموسيقيون أيضا . وتعتمد القبائل الثلاث بعضها على بعض اعتمادا تاما فى الناحية الاقتصادية ، ويسكن بعضها مع بعض فى المنطقة ذاتها ويسود بينها الوئام والصفاء . ولكن فى الوقت ذاته يعيشون فى قرى مختلفة ، وكل قبيلة منها يتزاوج أفرادها فيما بينهم ، ولكل قبيلة ملابسها التى يتميز بها أفرادها ، ولهم طريقتهم الخاصة فى الحياة المنزلية وتنظيمهم الاجتماعى والديانة . وهنالك أشياء محرمة (طابو) يتحتم عليهم مراعاتها وهى تسيطر على العلاقة بين أفراد القبائل المختلفة ، وعلى الأخص فى المسائل المتعلقة بالأشياء التى تخصص فيها وأتقنها أبناء القبيلة . فمثلا يحرم على أى غريب أن يدخل أى دار حلب للجاموس فى قبيلة التودا عند خض اللبن . وبالرغم فى أن القبيلتين الأخريين تعترفان للتودا بأن أفرادهما هم المالكون الأصليون للمنطقة ويكنون لهم شيئا من الاحترام ، لهذا السبب فان النظام السائد بين الجميع ينقصه ذلك الترتيب الطبقى الصريح بين السكان ، الذى يمتاز به نظام الطبقات الهندى . كما أن المراسيم الدينية لكل قبيلة من هذه القبائل يؤديه أعضاء من القبيلة نفسها .

وليس فى استطاعتنا معرفة ما كان عليه التنظيم الاجتماعى الداخلى للقبائل العديدة التى عاشت فى جنوبى الهند فى مستهل العصر التاريخى . ولكن رغم ذلك فان الدراسات الحديثة للشعوب الدراڤيدية ، وهم من سلالة السكان الأصليين القدماء ، ترينا أنه من المحتمل أن تنظيمهم الاجتماعى كان شبيها بالتنظيم الميلانيزى بما فيه من عشائر ، وفروع العشائر ، واشتراطات الزواج المعقدة . والحقيقة الواضحة الوحيدة أن معظم — ان لم يكن جميع — الجماعات التى تستخدم اللغة التاميلية كانت فى الأصل تنتسب الى الأم ، بل كانوا فى بعض الحالات ينتسبون الى الأم التى يجب أن تكون من الجماعة

المحلية نفسها . وكان مركز المرأة ، بل وما زال ، مركزا ممتازا الى حد كبير ، وللنساء المتقدمات فى السن السيطرة على الشئون العائلية . وبالرغم من أن اعتناقهم للهندوسية أدخل الى مجتمعهم الكثير من الأمور الخاصة بالحياة الجنسية لدى الهندوس ومنها الاصرار الشديد على بكارة الفتاة عند الزواج ، واستمرار عفة المرأة بعد الزواج ، فان ما لدينا من معلومات عن بعض القبائل الأصلية التى ما زالت باقية حتى الآن ، وبعض العادات التقليدية بينهم ، توحى الى حد كبير أن بعض النظم الخاصة بالتجربة الجنسية قبل الزواج ، وهى عادة منتشرة فى جنوب شرقى آسيا ، كانت موجودة بين تلك القبائل فى العصور المبكرة . وكان زواج المرأة بأكثر من رجل أمرا مقبولا على الأرجح بين بعض القبائل مثل التودا ، ولكنا لا نجزم بأنها كانت عادة منتشرة بين الجميع لأن هذا الأمر مرتبط دائما بقلة الموارد الطبيعية ، وقلة عدد السكان نظرا لعادة وأد البنات وهن فى سن الطفولة . ومما يدل على اهتمامهم بموضوع الجنس اهتماما كبيرا أنه من بين دواوين الشعر الثمانية وهى التى أبقى عليها الزمن باللغة التاميلية ، نرى أن ثلاثة منها يحتوى كل واحد فيها على أربعمائة قصيدة فى الغزل .

ولا تمدنا الآداب القديمة بوصف يحدد واجبات وظيفة زعماء الأقسام ، ومدى التنظيم السياسى لتلك الأقسام . كانت الممالك التى تجمع أكثر من قسم واحد موجودة منذ أقدم العصور ، وكانت الأعمال الرئيسية فى هذه الممالك هى اعلان الحرب وجمع الضرائب . ويكاد التاريخ المبكر لجنوبى الهند أن يكون سلسلة حروب متصلة الحلقات ، ومما يدعو الى الدهشة أن يظل مثل ذلك المستوى الحضارى مستمرا فى مثل هذه الظروف . ولكن تلك الحروب كان يقوم بها ، على ما يظهر ، جنود محترفون وان عامة الشعب كانوا يستبدلون سيدا بآخر دون أن يؤثر ذلك كثيرا فى حياتهم الخاصة .

ولاحظ « ميجاستينس » أهمية الجمعيات الشعبية فى ادارة جنوبى الهند .

ففى أيامه ، وفى الأيام التى تلتها ، كان هناك تقليد ديموقراطى قوى فى ادارة البلاد . وبالرغم من أن ذلك يظهر لأول وهلة انه يتعارض مع وجود ذلك العدد الكبير من الأسرات الميالة الى الحرب التى تعاقبت فى حكم البلاد فقد كان الملوك أنفسهم يترددون فى البت فى أى أمر خطير دون استشارة ممثـلى الشعب . كانت الوحدات الاجتماعية بين الطبقات الدنيا من الشعب من كل حجم ونوع تحكمها لجان تمثل جمعيات ينتخبها أفراد تلك الجمـاعات ، ولم يكن هذا التقليد مقصورا على القرى والنواحى ، بل كان ساريا أيضا بين نقابات التجار والجماعات الدينية . ومن الأمور الطريفة ما نعرفه عن طريقة تنظيم القرية حسب الوثائق المكتوبة التى وصلتنا من القرن العاشر الميلادى ، وقد قالوا عنه اذ ذاك انه كان تنظيما قديما . كانت القرية تعتبر الأرض الخاصة بها شركة بينها ، وكان استخدام تلك الأرض ، بل وسير الحياة فى القرية ، تديرها جمعية يختار أعضاؤها عن طريق القرعة ، ومدة صلاحيتها عام واحد . كان لجميع الأفراد الذين لهم حقوق الملكية فى القرية ، بما فيهم النساء ، الحق فى أن يكونوا أعضاء فى تلك الجمعية اذا كانوا من ذوى الأخـلاق القوية ولديهم بعض المعـرفة بالتعاليم الهندوسية . وكانت الجمعية تختار من بين أعضائها من يشرف على الحـدائق أو على استخدام الأرض ، أو الرى ، أو مساحة الأراضى ، أو الاشراف على خدم القرية ، أو اقامة العدل ، أو جمع ودفع الضرائب ، أو الاشراف على المعابد ، أو على الصدقات .

ومن المستحيل أن نعرف على وجه اليقين ما كانت عليه ديانة جنوبى الهند قبل عهد البراهمانيين . فمن الأشياء التى نستطيع أن نقول انها تكاد أن تكون مؤكدة انه كانت توجد معبودات عدة فى كل قبيلة . كان بعضها متماثلا مع بعض الظواهر الطبيعية بينما كان بعضها الآخر ، على ما يظهر ، هم بعض الأجداد المؤلهين أو بعض الأبطال الوطنيين . وكانوا يعرفون دون ريب عبادة الثعبان كما يلوح أنهم كانوا يكرمون بعض الحيوانات الأخرى . ولا يكاد

يوجد شك فى أن الديانة السابقة لعصر البراهمانيين كانت تعنى عناية كبرى بعبادة عضو التناسل وعمل طقوس من أنواع مختلفة لأجل الاخصاب ، وربما كان القيام ببعض الأعمال السحرية أكثر أهمية بين سكان جنوبى الهند مما كان فى شمالها .

ولم تستطع الامبراطوريات الشمالية ، التى كانت فى العصر السابق على العصر الاسلامى ، أن تمد سلطانها على الجنوب الذى كان يسكنه الدراڤيديون وكان « اسوكا » الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد هو الملك الوحيد الذى غزا منطقة الدكن ، ولكن من خلفوه على العرش تراجعوا نحو الشمال . وترتب على ذلك أن الدراڤيديين لم يضطروا فى يوم من الأيام لقبول حضارة الهندو — أوروبيين الذين كانوا فى الشمال ، وان ما أخذوه منها اختاروه هم بأنفسهم . وقد ساعد على قبولهم للبوذية ، ثم الهندوسية المتأخرة ، ما احتوته هاتان الديانتان من مبادىء كثيرة غير آرية الأصل ، أخذوها على ما يظهر من حضارات دراڤيدية شمالية . تقول أساطير شمالى الهند ان أقدم البراهمانيين الذين زاروا جنوبى الهند ذهبوا الى هناك حوالى عام ٨٠٠ ق . م وانه ما وافى القرن الثانى والقرن الثالث ق . م حتى كان عدد كبير من المبشرين البراهمانيين والچينيين يؤدون عملهم فى المنطقة . ويلوح أن الدراڤيديين رحبوا بالديانات الثلاث لاهتمامهم بالقوى السحرية التى ادعتها لنفسها كل واحدة من تلك الديانات ، فاعتنق الجنوب كله الديانات الشمالية ، اللهم الا بعض القبائل المتأخرة التى تعيش بين الجبال . وربما كانت عملية التغلغل الحضارى الشمالى شبيهة بما حدث فى اندونيسيا فى عصر لاحق لذلك العصر . فنحن نعلم أن أمراء من الهنود ، وبعض الكهنة البراهمانيين ، وطدوا مراكزهم بين القبائل الوطنية بفضل ما كانوا يملكونه من حضارة متفوقة ، وان أولئك الأمراء والبراهمانيين وثقوا صلاتهم مع العائلات الحاكمة بالمصاهرة ، أو بقيامهم ببعض المناصب المربحة مثل وظيفة رئيس الوزراء ، أو كوسطاء بين المعتنقين

الجدد للديانة والآلهة الهندوسية . ومما يستحق الذكر أنه ما وافى القرنان الثالث والرابع الميلاديان حتى كان هناك ملوك براهمانيون فى جنوب الهند . ويرجح أن اقبالهم على الديانات الشمالية كان اقبالا حماسيا ، وان الملوك كانوا يغدقون على المبشرين كثيرا من الهدايا ، وأن عددا من أهم المبانى الأثرية التى شيدت أثناء العصر البوذى فى الهند توجد فى الجنوب ، حيث نرى حتى الآن كثيرا من الاستوپات التى يرجع تاريخها الى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد .

الفصل الرابع والثلاثون

البـــــوذية

ان أهم ما قدمته الهند لمدنية العالم هى الديانة البوذية التى كادت أن تختفى نهائيا فى موطنها الأصلى ، ولكنها أصبحت احدى الديانات الرئيسية فى الدنيا . وتحتوى هذه الديانة على فرق لا يستطيع الانسان حصرها ، ويبلغ عدد أتباعها نصف عدد جميع الطوائف المسيحية مجتمعة . ولا تقتصر أهمية البوذية على أنها دين من الأديان ، ولكن أهميتها الكبرى هى أنها تعبير صادق عن الفلسفة الهندية الأصلية . كان « سيدذارثا » (Siddhartha) الذى يعرف أيضا باسم « الجواتاما » (Guatama) وباسم « ساكيامونى » (Sakeyamuni) وباسم بوذا شخصية تاريخية . ولد عام ٥٦٣ ق . م ومات عام ٤٨٣ أو عام ٤٨٦ ق . م . وربما سببت هذه الأسماء الكثيرة شيئا من الارتباك للباحث الأجنبى ، ولكن اسم « سيدذارثا » كان اسمه أيام طفولته ، واسم جواتاما اسمه الخاص بالعشيرة التى ينتمى اليها ، وساكيامونى ليس الا لقبه كناسك ، أما اسم البوذا فهو التسمية الالهية له . وقد ظل بوذا حيا حتى علم كثيرا من تلاميذه ، وأشرف على تنظيم الديانة التى أسسها . ومن المرجح أن يكون ما نسب اليه من أقوال ، وما حدث له فى حياته من حوادث كان صحيحا رغم أنه مر نحو قرن من الزمان ، على أقل تقدير ، والناس يتناقلون هذه الأقوال والقصص عن طريق الرواية الشفهية . وعلى أى حال ، فقد حدث لبوذا ما حدث لغيره من مؤسسى الديانات الكبيرة ، اذ أصبحت الأساطير التى حيكت حوله أهم شأنا من الحقائق .

وهناك عقيدة هندوسية قديمة تقول بأن روح الاله تحل فى أحد الأشخاص عندما يظهر شر كبير يتهدد العالم فيأتى هذا الشخص لينقذه وذلك لأن الاله « ڤشنو » ، وهو المكلف بالمحافظة على العالم ، كان له « اڤاتارات » (Avatar) متعددة . لم يكن « ساكيامونى » — حسب البوذية الأصلية — الا واحدا من سلسلة من الـ « بوذا » الذين ظهروا فى أزمنة مختلفة فى الماضى والذين سيظهرون فى المستقبل . لقد مرت به تجارب لا حصر لها بسبب تناسخ الروح وهى مدونة فى الـ « جاتكا » وهى مجموعة قصص شعبية تأخذ بلب قارئها . وبعد أن وصل الى أعلى درجات التطور الروحانى ، وهى درجة الـ« بوذيساتڤا» (Bodhisattva) استراح مع الآلهة فى أعلى السموات ، ولكن عطفه على الجنس الانسانى جعله يأخذ على عاتقه عبء آخر تناسخ روحى ، فدعا جميع الآلهة وعلمهم قانون البوذية ، وقدم اليهم خليفته « البوذيساتڤا مايتريا » الذى يعتقد البوذيون فى العالم أن وقت ظهوره قد اقترب . وبحث « الجواتاما » عن أم تلائمه لكى يولد مرة أخرى واختار « مايا » (Maya) زوجة أحد حكام الـ « ساكياس » فى نيبال على الحدود الشمالية الشرقية للهند . وعندما أعلن قراره أظهرت الدنيا ابتهاجها فحطت غمامة من الطيور المغردة فوق القصر ، وأزهرت الأشجار فى غير أوقاتها ، واعتكفت « مايا » فى حجرات القصر الخاصة بالنساء حيث ظهر لها البوذيساتڤا فى صورة فيل أبيض لونه كاللؤلؤ له ستة أنياب حمراء ، وهو بكل تأكيد زائر أبهى مظهرا من الملاك الذى أتى للبشارة فى الديانة المسيحية . فلما جاء وقت الولادة ذهبت مايا الى حديقة « لمبينى » (Lumbini) خارج بوابة المدينة وولد بوذا من جنبها الأيمن وهى واقفة على قدميها ، وتلقف الالهان « اندرا » (Indra) و « براهما » الطفل الوليد على ذراعيهما وأرسل ملكا الناجا (Naga) ، وهما الهان من آلهة الهند الأصلية على صورة الثعبان ، فأرسلا جدولين من الماء الحار والماء البارد

لأجل غسل الطفل . وفى لحظة ولادته خطا السيذارثا سبع خطوات نحو كل جهة من الجهات الأربع ، وبذلك استولى على الدنيا كلها .

ووصلت الأم والطفل الى القصر فى عربة يجرها الملائكة ، وماتت الأم من شدة فرحها بعد ولادة الطفل بأيام سبعة ، ثم ولدت فى الحال مرة أخرى فى السماء بين الآلهة . وقامت خالة « السيذارثا » بتربيته ، وكانت تسمى « مهاپراچاپاتى » (Mahaprajapati) . وتروى الأسطورة أن الطفل ولد وفيه علامات تدل على التوفيق وحسن الطالع ، فكانت أصابعه متصلة بغشاء جلدى بينها ، وفى أعلى رأسه تتوء ، وله أذنان كبيرتان تمتدان الى أسفل ، وعلى أخمص قدميه علامة ساقية « القانون » . وعندما رآه أحد كبار الحكماء تنبأ له بأنه اما أن يصبح ملك الدنيا أو مخلص الجنس البشرى . وعندما ذهب الطفل لأول مرة الى المعبد خرت تماثيل الآلهة ساجدة أمامه ، وكان يناقش الحكماء ومن كانوا يقومون بتعليمه فيدهشون لحكمته . وعندما كان فى الثالث عشرة أو الرابعة عشرة من عمره ، وجلس لأول مرة يتأمل تحت ظل احدى الأشجار ، بقى ظل الشمس ثابتا فى مكانه ليحميه حتى لا تنقطع تأملاته .

ولما بلغ الحلم اختار له والده الملك فتاة لتصبح زوجة له ، ولكن والدها شك فى أن ذلك الشاب الحالم الجميل الصورة يستطيع أن يصبح زوجا قديرا وحاكما لشعبه . ولهذا السبب التجأ الى حيلة ، طالما وردت فى جميع أساطير العالم ، وهى التنافس بين الخطاب ، فقال الوالد بأنه سيزوج ابنته للشاب الذى يستطيع أن يشد أقوى الأقواس ويرسل سهمه الى أبعد مسافة . وتفوق « السيذارثا » بطبيعة الحال وأرسل سهمه الى مسافة أبعد من جميع منافسيه . وتزوج بعد ذلك « يوسوذارا » (Yosodhara) وعددا من الزوجات الثانويات اللاتى أتين معها . وعلى أى حال ، فان ملذات الحريم لم تنجح فى ارضائه ، وأخذ يتأمل فيما يحتويه هذا الكون من أحزان وشرور . وحدث فى يوم من الأيام أنه قابل شيخا طاعنا فى السن ، ورجلا مريضا ، وجثة ميت ، فأكد له

سائق عربته أن هذه الأشياء الثلاثة هى مصير كل انسان ، فكان ذلك الحادث سببا فى وضع حد لما كان يحس به من عدم الاطمئنان . ذهب الى أبيه ورجاه أن يسمح له بأن يصبح ناسكا ، فرفض أبوه رجاءه وسعى لتحويل أفكاره الى مباهج ومسرات جديدة . وولد له ابن ، واحتفوا بذلك باقامة احتفالات كبيرة ، ولكن السيذارثا قال عندما أبلغوه مولد الطفل « هذه رابطة أخرى يجب فصمها » . وفى ليلة الاحتفال فر من القصر ومعه سائق عربته «تشانذاكا» (Chaudhaka) وحمل الآلهة حوافر جياده فى أيديها حتى لا يسمع الحراس صوتها عندما تمر بهم . وعند حافة الغابة ودع السيذارثا جياده وسائق عربته ، ثم قص شعره الطويل وتبادل ثيابه مع أول فلاح قابله ، وقد كان بطبيعة الحال أحد الآلهة فى ثياب التخفى . وزار جماعات متعددة من القديسين الناسكين وفى نهاية المطاف أصبح تلميذا لـ « أرادا كلما (Arada Kalma) » ، وبعد أن قام بما تفرضه التعاليم المعتادة فى التأمل والتمرينات على النسك أصبح قديسا . وأخيرا استقر فى « بيهار » (Bihar) الجنوبية التى اختارها لجمال مناظرها الطبيعية ، وجمع حوله جماعة مكونة من خمسة من تلاميذه ، وقام بأعمال من التقشف الشديدة وانتشر صيته فى كل مكان .

وزاد تقشف السيذارثا زيادة كبيرة حتى خشى الآلهة على حياته ، وأرسلوا أمه من السماء لترجوه أن يكف عنه . وأخيرا استقر رأيه على أنه لن يصل الى ما ينشده عن طريق التقشف فأخذ يأكل ويستحم ، وأعلن عن قراره فى العدول عن الصوم والقيام بأعمال اليوجا ، فتركه تلاميذه الخمسة فى الحال . وأخذ يتجول فترة من الزمن من مكان الى مكان ، وأخيرا جلس فى مكان يسمى « بوذ — جايا » (Bodh-Gaya) ، تحت شجرة من أشجار التين الهندى (Pipal) ودخل فى دور تأمل رفيع كشف له طريق الخلاص . وأدرك « مارا » (Mara) ملك الشياطين ما تتعرض له مملكته على الأرض من خطر ، وحاول أن يصرفه عن غرضه فأرسل عليه الوحوش لاخافته ولكنه كان

قد أصبح الـ « بوذا » فتجاهل وجودها . وعاد « مارا » فأرسل اليه بناته الجميلات ليقدمن له كل ملذات الجسد ، ولكن بوذا تجاهلهن أيضا . وتكشفت له الحقيقة وهى أن جذور كل الآلام تكمن فى الرغبة التى تنبع من الأفكار الخاطئة فى النفس ، فاذ محيت الرغبة زال الحزن والألم .

وظل بوذا فى مكانه تحت شجرة التين الهندى أربعة أسابيع كاملة بعد أن تكشفت له الحقيقة ، وفى الأسبوع الخامس هبت عاصفة شديدة ، ولكن ملك الناجا أتى على صورة ثعبان كوبرا عظيم الحجم ، ونشر درقته فوق «المستنير» ليحميه من المطر . ولم يبق بعد ذلك الا الواجب الأخير وهو نشر مذهبه فى العالم ، وعندما طلب منه « اندرا » و « براهما » أن يفعل ذلك شرع فى تأدية رسالته .

ومنذ هذه اللحظة أصبحت حياة بوذا ، كما ذكرتها الأساطير ، سلسلة من المعجزات . فاذا تركنا المعجزات جانبا وبحثنا عن الحقيقة الصريحة نجد أنه عاش أربعين سنة بعد استنارته ، وأنه جابه المشاكل الكثيرة التى صادفته أثناء تأسيس دينه الجديد بحكمة وواقعية . وبالرغم من أنه قوبل فى بدء دعوته ببعض ألشك ، بل وبالعداوة الصريحة من أفراد قلائل ، فانه لم يتعرض أبدا للاضطهاد ، بل خاض بنجاح تلك التجربة المريرة فى حياة أى نبى عند رجوعه الى بلده ، وتحويل أفراد عائلته هو الى دينه الجديد . كان يشترط على أتباعه الفقر والطهارة وعمل الخير ، ويطلب منهم أن يلبسوا لباسا يميزهم ، وهو الثوب الأصفر وحلق قمة الرأس . ونظمهم فى جماعات من رهبان الأديرة الذين يسيرون فى تنظيم جماعتهم على نظام مماثل لنظام الجمهوريات الصغيرة الذى كان سائدا آنذاك فى شمالى الهند . وفى خلال الفصول غير الممطرة كان الرهبان والراهبات ، اللاتى قبل البوذا انضمامهن الى تنظيمه الدينى بعد شىء من التمنع ، يخرجون للتبشير بالدين الجديد . أما فى الفصول الممطرة فكانوا يعودون الى أديرتهم ، ويقضون الوقت فى التأمل والدراسة .



بوذا الجالس ، من سرناث

وكانت البوذية فى صورتها الأولى ، مثل الديانة المسيحية ، بسيطة وصريحة وما زال البوذيون يتذكرون الكثير مما قاله بوذا :

« يوجد أمران شاذان يجب تجنبهما . هناك حياة الملذات ، وهى وضيعة دنيئة وتتعارض مع الذكاء ولا تليق بالانسان وهى عبث باطل . وهناك حياة

التقشف وهى حياة تعسة ولا تليق بالانسان وهى عبث باطل أيضا . وظل الانسان الكامل بعيدا عن كل من هذين الأمرين المتطرفين ، ووجد سبيلا وسطا يقود الى الراحة والمعرفة والاستنارة والى النرڤانا (Nirvana) وهى الملجأ الأخير . انظروا أيها الرهبان ، ها هى ذى الحقيقة المقدسة بشأن الألم . ان الولادة والشيخوخة والمرض والموت وفراق الانسان لمن يحبهم ، انها كلها آلام . انها التعطش الى اللذة ، والتعطش الى البقاء والتعطش الى ما هو فان . وها هى ذى الحقيقة عن محو الآلام . انها القضاء على تلك الشهوة بالقضاء على الرغبة » .

وقال أيضا : « ان الحسنات والمعرفة والفضيلة هى المقتنيات التى لا تزول . لأن يعمل الانسان عملا حسنا مهما قل ، أعظم من أن يقوم بأشق الأشغال . ان الانسان الكامل يصبح كمن لا وجود له اذا لم يفن نفسه فى نفع الكائنات الحية » .

« ان مذهبى هو مذهب الحنان ، وهذا ما يجعل السعداء فى الأرض يجدونه صعبا . ان طريق الخلاص مفتوح أمام الجميع . اقضوا على شهواتكم ، ولكن اعلموا أن من يعتقد أنه يمكنه أن يهرب من شهواته باقامته فى حمى دير انما يغش نفسه . ان الحقيقة الكاملة هى العلاج الأوحد الذى يشفى من الشر » .

وخلال الأربعين السنة التى عاشها بعد استنارته كان بوذا يلقى دروسه على أتباعه ، وأوضح لهم مذهبه شيئا فشيئا . أنكر بوذا فائدة التفريق بين الطبقات ، ولم يكن ذلك فى أيامه أمرا صعبا كما أصبح فيما بعد . كما أنكر مفعول الطقوس والقرابين ، وكان ذلك ضربة شديدة مسددة ضد ما كان للبراهمانيين من مركز ممتاز . ولم ينكر وجود الآلهة ولكنه قال بأنهم لا يستطيعون معونة الناس فى الوصول الى هدفهم النهائى لأنهم أيضا مربوطون الى عجلة الحياة . وأهم من ذلك ، أنكر بوذا فكرة تقمص الأرواح

بالرغم من أنها كانت عقيدة متأصلة جدا فى التفكير الهندى ، وبذلك أصبحت أحد الاتجاهات الفكرية الأساسية فى الديانة الجديدة . بل وذهب الى أبعد من ذلك عندما أخذ يتشكك فى وجود الروح ككائن مستقل قائلا انها ليست الا التراكم الكارمى للأعمال الحسنة والسيئة التى تربط الرغبة بعضها ببعض . وعندما سأله أحد تلاميذه عن بدء الدنيا أجابه بأن ذلك السؤال لا ترجى فائدة من ورائه ، وبهذا أنقذ البوذية انقاذا أبديا من الصراع بين الآراء البدائية عن نظام الكون ، وبين التقدم العلمى فى دراسة طبيعة هذا العالم ، وهو الأمر الذى سبب وما زال يسبب الكثير من القلق والمتاعب فى الديانة المسيحية .

كان القصد من هذا الانكار هو استبعاد الخرافات ، وترك الانسان حرا لاتباع الطريق الثمانى ، وأولها : الأفكار الصحيحة ، التى يظهر أنها كانت تعنى قبل كل شىء الاصرار على الصدق لأنه يمكن الوصول اليه عن طريق المنطق . أما الثانى : فهو التمنيات الصحيحة التى كان مفروضا أن تحل محل تلك الشهوات الشخصية الوضيعة التى حرمها . ومن هذه التمنيات الصحيحة الحب المجرد لخدمة الآخرين ، وحب العدل ، وما ماثل ذلك . والثالث : هو الكلام الصحيح ، والرابع : الخلق الصحيح ، والخامس : الحياة الصحيحة ، والسادس : الجهد الصحيح ، ويعنى بذلك التفكير المتسم بالذكاء والعمل للوصول الى الأغراض المنصوص عليها فى المذهب ، والسابع : هو الاهتمام الصحيح ، ويعنى على ما يظهر التخلص من افتخار الشخص بما عمله ، وذلك بادراكه بأن لكل شخص نقصا ، أما الثامن : وهو أقلها وضوحا فهو الطرب الصحيح ، الذى يلوح أنه يعنى السرور والفرح الذى يحصل عليه الانسان من التأمل والتفكير ، بدلا من ذلك الطرب الناشىء عن الانغماس فى الملذات .

ولا شك فى أن هذه المبادىء كانت بسيطة ، وكانت تدعو الى الكثير من بحث كل فرد عما فى داخل نفسه ، ولهذا فشلت فى أن تروق للشخص العادى . ومع مضى الزمن أضيف الى البوذية كثير من الطقوس ، كما أن المنازعات

المذهبية أدت الى تأسيس عــدة طوائف وفرق . أما التحــول الى البوذية « المهيانا » (Mahayana) (العربة الكبرى) فقد بشر بها نجارچونا (Nagarjuna) فى القرن الأول أو القرن الثانى بعد الميلاد . افترض مذهب « المهيانا » وجود كائنات يسمى كل منها « بوذيساتڤا » (Bodhisatva) الذى رفض النيرڤانا عن قصد ليبقى على الأرض ويساعد فى الخلاص النهائى للحياة كلها . وهذا المذهب يعارض عقيدة « الهنايانا » (Hinayana) (العربة الصغرى) فى الخلاص كمكافأة لما يبذله كل شخص من جهود . وقد أدى افتراض وجود عدد كبير من الآلهة الى تغييرات فى موقف البوذيين تجاه بوذا نفسه . فبدلا من أن يكون شخصا مستنيرا أصبح الها ، كما يفهم الغربيون هذا التعبير . وتسبب المذهب الجديد ، بما فيه من امكانيات غير محدودة لاضافات دينية وسحرية ، فى نشر البوذية فى أرجاء الهند والتبت ، ومن التبت وصلت الى الصين واليابان . أما مذاهب « الهنايانا » ، وكانت مذاهب مبسطة نسبيا ، وتسير على تعاليم البوذية الأصلية الى حد كبير ، فقد بقيت فى جزيرة سيلان ، وفى بعض مناطق جنوبى — شرق آسيا ، وحتى هذه المذاهب أيضا أصبحت ملأى بالطقوس الدينية المتشعبة .

وتدين البوذية فى وصولها الى مرتبة الديانة العالمية بالشىء الكثير لما أظهره بعض الملوك نحوها من عطف . ففى القرن الثالث قبل الميلاد اعتنق « أسوكا » هذه الديانة ، وكان امبراطورا للأسرة الماورية ، وأول امبراطور يمد سلطانه على جزء كبير من جنوبى وشمالى الهند . ارتاع « أسوكا » لما جلبته الحروب من آلام ، فأوقف غزواته مختارا ، وخصص سنواته الأخيرة للأعمال النافعة والدعوة الى الدين ، وأمر بكتابة مبادىء الدين الجديد على أعمدة تقام فوق صخور الجبال فى جميع أرجاء مملكته كمراسيم ملكية صادرة منه . وبعد ذلك بثلاثة قرون اعتنق هذه الديانة ملوك الكوشان الذين حكموا فى شمالى غربى الهند ، ويظهر أن مؤسسى هذه الأسرة كانوا من قبائل الترك الرحل الذين غزوا

الهند آتين من مناطق الاستپس فى طرق الغزو المتبعة منذ آلاف السنين ، ولكنهم كانوا يحبون الظهور بمظهر المتمدينين فدعا « كانيشكا » (Kanishka) أعظم ملوكهم مجمعا دينيا لتوضيح المذهب البوذى ، كمحاولة لازالة ما ظهر من خلافات .

ويرجع الفضل فى دخول البوذية الى التبت الى ملكة تقية من أصل هندى ، أما فى اليابان فقد وصل اليها المبشرون الأول بدعوة ملكية . ومع كل ، فان أقوى الأسلحة البوذية عند غزوها لآسيا كانت المذاهب الدينية والآراء الفلسفية للبوذيين ، وما لديهم من نظام المبشرين المتسولين . ولم تكن جامعة « نالاندا » الكبيرة (Nalanda) فى بيهار الجنوبية التى كان يقيم فيها ما يقرب من عشرة آلاف راهب مدرسة يتعلم فيها الرهبان وحسب ، ولكنها كانت المكان الذى يتوق الى الوصول اليه الزوار الأتقياء من البلاد الأخرى ، وقد درس فيها كل من الحاجين الصينيين الشهيرين شوان تسانج (Hsüan Tsang) و « اى تشنج » (I Ching) فى القرن السابع ، وكتب كل منهما أوصافا شائقة لذلك المركز العلمى الذى ما زالت أطلاله المترامية الأطراف باقية حتى اليوم .

أما الاعتقادات المفككة القائلة بأن لكل شىء فى الطبيعة روحا ، وهى الاعتقادات التى كانت منتشرة بين بعض سكان آسيا ، فانها لم تستطع أن تقف على الاطلاق ضد الآراء المنطقية ، والتى تتمشى مع العقل ، التى جاء بها المبشرون الهنود ، وكان للزخارف الدينية بما فيها من التماثيل والصور ، والطقوس الجميلة الوقورة التى صاحبتها ، أثر شامل بين تلك الشعوب . وحتى فى الصين نفسها ، حيث ووجهت البوذية بعدد من الأفكار الفلسفية المحددة تحديدا واضحا ، فان المبادىء الميتافيزيقية ورضا الناس عن البوذية اكتسب الى هذه الديانة جزءا كبيرا من السكان خلال الفترة المضطربة التى مرت على الصين بين القرن الثانى والقرن السادس بعد الميلاد . وحدث فيما بعد ، عندما

أخذت البوذية تدخل فى دور الاحتضار فى الهند ، أن ظهرت طوائف جديدة فى الصين بفضل الكتب السنسكريتية التى رجع بها من الهند بعض الحجاج المتحمسين . وانتشر المذهب الجديد بعد ذلك من الصين الى اليابان حيث ظلت البوذية حتى اليوم فلسفة حية بين اليابانيين .

كانت الهند أولى المناطق التى ظهر فيها نشاط المبشرين ، ويلوح أنهم بدأوا عملهم كنتيجة مباشرة للفلسفات الهندوسية والبوذية الناشئة . ولم يحاول المؤمن بأن لكل شىء فى الطبيعة روحا ، أو من جاء بعده من عبدة الآلهـة المحلية أو القبلية ، لم يحاول أن يفرض على الآخرين أن يعتنقوا دينه . فقد كان يعتقد أن آلهته كانوا ذوى قوى محدودة ، وكان مدى اهتمامهم ونشاطهم محدودا أيضا ، ولهذا شعر بأن كل عابد جديد لأحد الآلهة ينقص من القوة التى فيه ويقلل من اهتمام الاله بهذا الشخص نفسه . ولم ينقض هذه الفـكرة الا ظهور الفكرة القائلة بأن للآلهة قوة غير محدودة وأنهم قادرون على مساعدة جميع الناس فى جميع الأماكن وبهذا اختفت الفكرة القديمة وحلت محلها الفكرة القائلة بأن الانسان يمكنه الحصول على الرضا الالهى اذا جلب الى ذلك مؤمنين جددا . وكانت البوذية فى أوائل أيامها تنكر مجرد وجود الآلهة وكانت تصر اصرارا كبيرا على الاحسان وعمل الخير كأحسن الطرق لخلاص الانسان ، ولهذا أصبح للنظم التبشيرية قوة جديدة . وفى أيام بوذا نفسه ، أرسل هو مئات من التلاميذ ليحملوا البشرى الجديدة الى جميع أنحاء الهند فاستحق التقدير .

واستقرت أساليب النسك والانسحاب من هذا العالم فى عهد بوذا نفسه ، وأضافت عنصرا هاما لنظام التبشير . فالكاهن المتسول يستطيع أن يواصـل سيره بين شعوب معادية وممالك يسودها الاضطراب والفوضى ، وهو متمتع بالحصانة ، لأنه أفقر من أن تمتد اليه يد بالسرقة ، كما كان يحمل معه أينما سار غموضا يحيط به لأنه نذر نفسه لخدمة قوى خارقة للطبيعة ، اذ لا يسهل

على انسان ايذاء شخص لا يحصل من وراء قتله أو سرقته على شيء ، فضلا عن أنه فى الوقت ذاته يعرض نفسه لغضب القوى العليا بمثل هذا العمل .
ولم يفقد الرهبان حصانتهم الا بعد أن مر على موت بوذا أكثر من ألف سنة عندما زاد انتشار الاسلام فى الهند . ولكن قبل ذلك الوقت كان فى استطاعة الراهب البوذى أن يتجول شرقا وغربا فوق دروب القوافل ، وعلى سفن البحر ، يحمل معه أينما ذهب أنباء الشريعة ، وكان يقابل بالترحيب من سكان القرى ، ومن الملوك على السواء .

وفى بداية العصر المسيحى وصل بعض أولئك المبشرين الى الاسكندرية ، وبالرغم من أن تعاليم البوذية لم تترك الا أثرا ضئيلا لأن فلسفتهم لم تستطع أن تتفوق على ما كان يوجد فيها من النظم والأساليب المتقنة للفلسفة اليونانية فربما كانوا السبب فى ظهور كثير من أنواع النسك ، وتنظيم رهبان الأديرة ، الذى امتازت به القرون المبكرة فى تاريخ المسيحية فى مصر .

الفصل الخامس والثلاثون

الهند فى العصر السابق للاستعمار

يرجع الفضل فى تطور الحضارة الهندية الحديثة الى التآليف بين عناصر مختلفة من مصادر متعددة . فمنذ آلاف من السنين كانت الحضارة الآرية تواصل امتزاجها بما كان فى الهند من حضارات أصلية ، ولهذا السبب انتشرت العناصر الآرية شرقا وغربا .

واذا بدأنا بالحديث عن الغزو الفارسى ، أو الغـزو اليونانى ، نجد أن شمالى غرب الهند شهد كثيرا من الغزوات التى زال أثرها ، ودارت الحوادث فيها كلها دورات تكاد تكون متشابهة . كان يتلو الانتصارات السريعة للغزاة امتصاص تدريجى لهم ، وأخيرا ينتهى الحكم الأجنبى على يد احدى الدول الوطنية المجاورة ، ولكن الغزاة المسلمين أدخلوا شيئا جديدا .

ففى عام ٧١٢ غزا العرب اقليم السند فى الوادى الأسفل لنهر السند ، ومنذ القرن الثامن حتى القرن الحادى عشر كان غربى الهند على صلة وثيقة بالعالم العربى عن طريق التجارة والعلاقات الثقافية والمبشرين الذين نشروا الديانة الاسلامية فى الهند التى اشتهرت بالتسامح .

فحوالى عام ١٠٠٠ م . جاء محمود الغزنى ، وهو تركى من الأفغانستان ، وغزا شمالى الهند ونهبها ، وضم اقليم البنجاب ، ومنذ هذا الوقت ، أصبح الاسلام مرادفا للقوة السياسية . وبعد موت محمود توقفت حملات الغزو حتى نهاية القرن الثانى عشر عندما غزا دلهى أفغانى آخر ، وفى هذه المرة أسس سلطنة اسـتمرت ١٥٠ عاما نشرت سلطانها نحو الجنوب فى أعقـاب الذين هاجروا الى هناك هربا مما تعرضوا له من ظلم .

وفى هذه المرة ، أخذ الغزاة ، وهم من أحد الشعوب الهندو — آرية القريبى الصلة بالهنود ، يتهندون بعض الشىء عن طريق المزج الحضارى . وقبيل نهاية القرن الرابع عشر تعرضت دلهى لهجوم عنيف لا رحمة فيه على يدى تيمور ، أضعف كل الهند الشمالية . وفى عام ١٥٢٦ استولى بابار ، وهو أحد أحفاد تيمور وكان شخصا مثقفا من أصل تركى مغولى ، على مدينة دلهى وأسس الامبراطورية المغولية فى الهند .

لم يكن المغول غزاة من الهمج المتوحشين ، وانما كانوا ممثلين لاحدى المدنيات القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، استمدوا الكثير من قوتهم مما أدخلته الحمية الاسلامية . لم تبهرهم الحضارة الهندية فى الشمال اذ كانت فى حالة تدهور وانحطاط فى ذلك الوقت ، وافتقدوا ما كان فى موطنهم فى أواسط آسيا من ترف ، (بابار مثلا هو الذى وضع الرسم التخطيطى لمدينة أجرا ، وابن ابنه شاه جيهان هو الذى شيد تاج محل) ، وفى الوقت عينه لم يعرفوا قدر الفلسفة المجردة التى ظهر فيها تفوق الهنود . وكانت الصلات المستمرة بالغرب ، وسفر الحجاج الى مكة ، سببا لجعل أولئك الغزاة على صلة مستمرة ، لا بذلك المركز الاسلامى فحسب ، وانما بدولة الصفويين فى ايران التى كانت تجتاز فترة من فترات نهضاتها ، واحياء المجد القديم لتلك البلاد .

وتختلف نظرة الهندوسية الى العالم عن نظرة الاسلام اختلافا كبيرا ، بل وتنفصل بينهما هوة لا جسر فوقها ، ومن الصعب جدا أن نجد مدنيتين أكثر تباينا واختلافا .

كان المسلمون الغزاة يعبدون الها واحدا لا شريك له ، ولا يمكن أن يقبلوا نقاشا أو جدلا فى ذلك . أما الهندوس فكانوا مشركين وعلى استعداد للاعتراف بوجود أى عدد من الآلهة لأنهم كانوا يرون فيهم أنهم ليسوا الا مظاهر من دنيا مبهمة للأرواح (العقيدة البراهمانية) . ويكره المسلم جميع أنواع عبادة التماثيل كرها شديدا ، ولكن الهندوس كانوا معتادين منذ

آلاف السنين على أن يتعبدوا لآلهتهم بوساطة أشياء مادية تمثلهم ، ويمكن رؤيتها . ويؤمن المسلمون بأن جميع المؤمنين اخوة ، وسمحوا فى حياتهم الشخصية بالكثير من التقدم الاجتماعى للفرد ووصوله الى أعلى المراتب مهما كان مولده . ونقرأ فى كتاب ألف ليلة وليلة عن ذلك النوع من التقدم الاجتماعى فى قصة المتسول الذى أصبح بين يوم وليلة صاحب ثروة كبيرة ، ويشغل وظيفة ذات نفوذ سياسى كبير . وعلى عكس ذلك ، فان النظام الاجتماعى الهندوسى بأكمله يقوم على عدم المساواة الاجتماعى ، وأن يبقى كل شخص بقاء أبديا فى الطبقة الاجتماعية التى ولد فيها وورثها . وأهم من هذا وذاك ، نجد أن القيم الاسلامية قيم ديناميكية متحركة ، فكلمة الاسلام تحمل معنى التسليم لارادة الله ، ولكن فى واقع الأمر ليس ذلك التسليم الا القبول المقرون بالاعتزاز بأمر لابد من وقوعه ، ولا يمكن ايجاد مخرج آخر ، ولكن الهندوس كانوا يعظمون من شأن الاستسلام السلبى ، والاهتمام بأمور الدنيا الأخرى .

وكان فقد الهندوس للسلطان السياسى بعد الغزو الاسلامى سببا لازدياد اتجاههم نحو السلبية وانكار حقيقة العالم الظاهر ، واحتموا فى رداء من الاقتصار والانزواء ، لعل ذلك يحميهم . فتبلور نظام الطبقات ، وعمت وانتشرت انتشارا سريعا عادة عزل النساء وحجبهن عن الأنظار (Purdah) كما حدث نفس الأمر مع المنبوذين . ولكن الانزواء والسلبية والاهتمام بأمور الدنيا الأخرى كانت كلها معروفة وسائدة قبل وصول المسلمين . ونظرا لأنها ، كما قلنا ، غريبة عن الديانة الفيدية القديمة فربما كانت من أصل درافيدى زاد أثرها عمقا بين الهنود خلال العصر الطويل الذى كان فيه نجم البوذية آخذا فى الصعود .

ومن المستطاع الوصول الى شىء من التفاهم وبعض التوفيق بين هاتين الناحيتين المتنافرتين كما حدث فى الموسيقى واللغة (الأوردو) ، ولكن لم

يحدث أى امتزاج حقيقى بينهما . وبعد الغزو الاسلامى حاول بعض الزعماء الروحيين ومن بينهم « الامبراطور آكبر » نفسه ، أن يحققوا التوحيد الدينى، ولكن أتباعهم — اللهم الا فى حالة واحدة وهى حالة السيخ — وجدوا أنفسهم فى النهاية فى أحد المعسكرين .

وبالرغم من أن الغزاة اقتبسوا كثيرا من عناصر التكنولوجية الهندية ، بل واقتبسوا مع مرور الزمن عناصر معينة فى نظام الطبقات ، فقد ظلوا فى معظم الجهات جماعة مستقلة كانت صاحبة النفوذ السياسى فى البلاد .

ولما كان المسلمون يعتزون بمكانتهم كفاتحين فقد كان يزعجهم دائما قواعد تجنب الآخرين التى تلتزمها طبقة الهندوس ، وقد ساعد على هذا الشعور أن الكثيرين من الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية من الهنود كانوا من الطبقات الدنيا . ولم يكن جميع الهندوس ممن يحبون السلم بالرغم مما تأمرهم به عقيدتهم فقد حافظ ال « راچپوت » الذين يقطنون فى اقليم « راچپوتانا » على استقلالهم قرونا عديدة ، ويرجع ذلك الى مقدرتهم الحربية من ناحية ، ومن ناحية أخرى الى أساليبهم التى جعلت غزو بلادهم أمرا غير مجد . فعندما يصبح سقوط احدى المدن على وشك الحدوث كان المدافعون يوقدون فيها النار ، وبذلك يقضون على كل ما يطمع المهاجمون فى أخذه . وكانت النساء والأطفال ينتحرون ، أما الرجـال فكانوا يرتدون ثياب الزفاف ويخرجون للحرب . وفى عصر الامبراطورية المغولية أصبحوا حلفاء أكثر من كونهم رعايا ، فقد كان الأباطرة المغول يتخذون من بنات البيوت النبيلة زوجات لهم ، وكان يرجع جانب كبير من قوتهم الحربية الى الفرق الحربية الراچپوتية التى كانت تنضم الى جيشهم .

وحتى فى الحالات التى كان فيها الغزو الاسلامى سريعا وكاملا ، ووصلت الأمور فى البلاد الى نوع من الاستقرار ، فان الفتن ظلت مستمرة بين أتباع الديانتين ، بل وكانت هناك دائما مغريات تقليدية على الفتنة . فالهندوس الذين

يريدون البدء بعمل اضطرابات كانوا يعزفون الموسيقى أمام أحد المساجد أثناء تأدية فريضة الصلاة ، أما المسلمون الذين كانوا يرغبون فى مثل ذلك فكانوا يلجأون الى ذبح بقرة فى الطريق ، وما يستتبع ذلك من التعليقات المناسبة .

وربما كان وجود حكام المسلمين ذا أثر مباشر فى تطور الحضارة الهندوسية وتقويتها حتى وصلت الى صورتها الحالية . فقد لاحظ عدد من الكتاب الذين كتبوا عن الهند ملاحظات مقرونة بالدهشة لأنه بالرغم من وجود الآثار البوذية والچينية الكثيرة ، التى يرجع تاريخ بعضها الى القرن الثالث قبل الميلاد ، لا توجد الا آثار هندوسية قليلة يرجع تاريخها الى ما قبل القرن الخامس الميلادى أى من عصر ال « چوپتا »(Jupta) المتأخر ، وهو العصر الذى يعرف عادة بأنه العصر الكلاسيكى للمدنية الهندية . فلدينا من هذا العصر كتابان كتبهما « كاليداسا » (Kalidasa) الشاعر القصصى ومؤلف ال « شاكنتالا » (Shakıntala) ولدينا صور وتماثيل المعابد المنحوتة فى الصخر فى « أچنتا » (Ajanta) فى شمالى الدكن . كما أن هيكل « ديوجاره » (Deogarh) وهو من أقدم الهياكل الهندية الباقية وأجملها ، يرجع تاريخه الى هذا العصر أيضا . ولدينا أدلة على أن هياكل « ڤيسناڤا » (Vaisnava) و « سايڤا » (Saiva) كانت موجودة قبل ظهور المسيحية ، بل ان عددا قليلا من العملة وبعض التماثيل المصنوعة من الحجر التى وصلت الى أيدينا يرجع تاريخها الى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد . كما أن الاعلاء من شأن « سيڤا » حتى على عملة الغزاة الأجانب (الكوشان) يدل على انتشار عبادة سيڤا فى ذلك العهد . ومع كل هذا ، فلا يوجد شىء يمكن أن نقارنه سواء من ناحية الفخامة أو العدد بتلك المبانى المشيدة من حجر واحد التى خلفها ال « موريا » (Muaryas) أو ما صنعوه بعد ذلك من الآثار المنحوتة فى الأحجار من أعمال البوذيين أو الچينيين .

وقد فسر بعض الباحثين ذلك على أنه من المصادفات التى تقضى على بعض

المنشآت وتحافظ على البعض الآخر ، ولكن هناك تفسيرات أخرى محتملة الوقوع . فالبراهمـانيون ، الذين لا يمكن أن نفصـل بين نشاطهم وبين الهندوسية ، كانوا على الأرجح شديدى المحافظة ، وكانوا يصرون على اقامة معابدهم وتماثيلهم من الخشب بعد أن رأوا أن الحجر قد أصبح المادة التى يستخدمها البوذيون والچينيون المارقون . ومن المحتمل أيضا ، أنه بعد أن أصبحت البوذية والچينية مسيطرتين على الحياة الدينية فى الهند استـمر البراهمانيون ، الذين أخذ نجمهم فى الأفول فى بلاط الملوك ، على عكوفهم على الدراسة وتمحيصهم للآداب المقدسة فى الأماكن التى التجأوا اليها داخل الغابات ، يقيمون طقوسهم الدينية للجماعات القروية المحافظة . ونجد شبيها لذلك فى استمرار بعض العادات الوثنية بين سكان القرى فى أوروبا الغربية مدى قرون عديدة بعد أن أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية لتلك البلاد .

ومن أهم المبادىء التى تحويها الديانة البـوذية مبـدأ احترام الآثار المقدسة . لقد اعتنق الامبراطور الماورى « أسوكا » هذه الديانة عند ندمه على تخريب اقليم كالينجا (أوريسا) الذى ضمه الى ملكه . وكان « أسوكا » حريصا على جعل شعبه يعتنق هذه الديانة ، ولهذا كان يهتم اهتماما شخصيا بتشييد مبان خالدة لهذه العقيدة الجديدة . ومن المرجح أنه استعان بالصناع المهرة المدربين على نحت الحجر على الطراز اليونانى الفارسى ، لأننا نجد التأثير الأخمينى واضحا جدا فى تلك الأعمدة المقطوعة من حجر واحد التى أقيمت فى عهده ، وقد كانت هذه الرعاية الملكية هى الباعث على بدء عصر ذهبى للفن الدينى ، استمر رغم ما طرأ من تغييرات على حظ كل من البوذية والبراهمانية منذ عصر « الجپتا » ، واستمر حتى تأسيس سلطنة دلهى وادخـال عنصر اسلامى جديد يختلف اختلافا تاما فى جماله ، سواء فى العمارة أو فى الزخارف. لقد غيرت القباب الكبيرة والصغيرة ومآذن المساجد والمقابر الاسلامية المنظر الخلوى فى الهنـد ، ومع ذلك فان الطراز الاسـلامى حدثت فيه كثير من

التعديلات ترجع فى معظم الحالات الى المعرفة التكنولوجية والمهـــارة التى أحرزها النحات الهندى خلال القرون الطويلة التى كان يقوم فيها بتشييد المعابد . وأصبحت تلك المهارة فى الفن ، التى قامت بعمل التماثيل والصور فى المعابد الهندوسية ، تستخدم الآن فى نحت الزخارف العربية والكتابات العربية، وفى استخدام الأحجار المنحوتة بدلا من الطوب المغطى بطبقة من الملاط الذى كان شائعا فى الشرق الأدنى .

وفى الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسلامى فى القرن الثامن كانت البوذية قد أخذت فى الأفول ، اللهم الا فى اقليمى بيهار والسند ، وقد قضى عليها نهائيا تخريب الأديار والمكتبات وقتل الرهبان الذى صاحب غزو محمود الغورى ، ففر كثير ممن بقى من الرهبان الى نيبال والى التبت . وفى تلك الأيام هـــدم كثير من المعابد الهندوسية ، وكثيرا ما حطم المسلمون بعض المعابد والتماثيل واستخدموا أحجارها فى تشييد أقدم مساجدهم وذلك لحرصهم على سرعة تشييد دور العبادة الخاصة بهم . ولكن حدث فيما بعد ، حتى فى الأزمنة التى كان الحكام المسلمون ذوى شعور دينى قوى ، أن تلك الحماسة لمحو الديانة الهندوسية كان يخففه علمهم بأن الشريعة الاسلامية كانت تعفى المسلمين من ضرائب متعـــددة تفرض على غير المسلمين ، ولهذا السبب نعلم أنه خـــلال الغزوات الاسلامية المبكرة فى الغرب كانوا يحذرون الولاة المسلمين حتى لا يشجعوا اعتناق الشعوب المقهورة بأكملها للدين الاسلامى حتى لا يؤثر ذلك على دخل الخلافة .

ومن المستحيل أن تتتبع الخطوات المتعاقبة التى بوساطتها وصلت الديانة الهندية والمجتمع الهندى الى ما كانا عليه فى الوقت الذى اتصلت فيه الهند بأوروبا . فقد كان الهنود ، كما سبق أن أوضحنا ، ينفردون بنوع غريب من عدم الاهتمام بالتاريخ والعلوم التطبيقية ، وكان البراهمانيون يقولون عن كل شىء يفضلونه بأنه قديم منذ عهد بعيد ، وانه ڤيدى الأصل . وعند بداية

عصر استعمار الهند كان كل من المجتمع الهندى والديانة الهندية قد وصلا بوجه عــام الى حالة من الجمــود ، الذى لا يمكن أن يذوب أو يتحلل ، وأصبحت الحياة اليومية والصلات الاجتماعية خاضعة الى حد كبير لطقوس خاصة أكثر مما يوجد فى أى مدنية أخرى من مدنيات العالم ، وكان كل أمر تفصيلى منها مدعما بعقوبات تأتى من القوى التى فوق قوى الطبيعة . حتى نظام الطبقات نفسه قد برروه بنظريات معقدة من التطور الروحانى ، وقد وصلت كل من الديانة الهندية والفلسفة الهندية بفضــل ما بذله كثير من الحكماء ، خلال القرون الكثيرة ، الى درجة جعلتها مقبولة فى مجموعها .

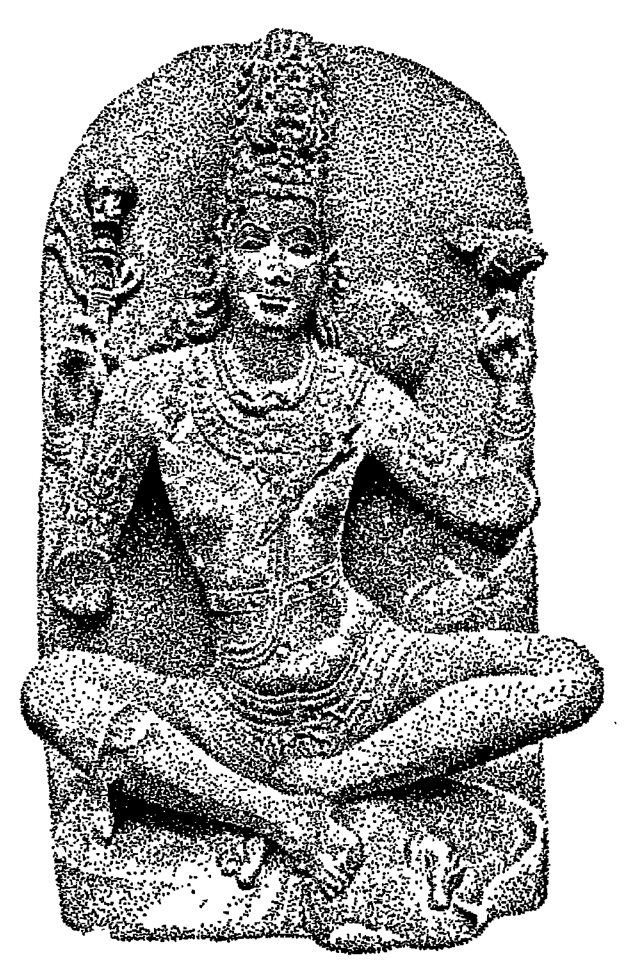
ويلوح أن الدراڤيديين كان لهم آلهة محليون لا يحصى عددهم ، على عكس الآلهة الكونيين الذين كان يؤمن بهم الآريون الڤيديون . وبفضل عقيدة وحدة الوجود التى كان يؤمن بها البراهمانيون وبفضل مذهبهم الخــاص بالتجسد وحلول الروح فى جسد آخر مرة بعد مرة ، أصبح ميسورا لهم أن يساووا بين الآلهة المحليين والأبطال ، وبين كائنات من آلهتهم المركزيين ، أى انهم لم يكتفوا بادخال الناس الى دينهم بل كانوا يدخلون معهم آلهتهم أيضا . وكان من السهل تفسير الاختلافات فى صفات أولئك الآلهة الجدد ، وما فى أساطيرهم من متناقضات ، بالفكرة القائلة بأن الآلهة مثل الأشخاص كانوا يولدون من جديد مرة بعد أخرى ، وأن القصص التى تختلف عن بعضها انما تشير الى « أڤاتار » مختلفين (اعادة التجسد مرة بعد مرة) . وأصبح لكثير من الآلهة ذوى النفوذ الشعبى المحلى فى الجنوب بين الدراڤيديين شعبية كبيرة بين الناس ، وانتشرت دياناتهم فى معظم بلاد الهند الهندوسية . وكانوا ينظرون الى كل من البوذية والچينية بأنها هرطقة من البراهمانية الصحيحة . وكانت البوذية ، وخصوصا فى مراحلها الأولى كما رأينا ، ديانة فلسفية فى أساسها وتقوم على الرهبنة ولهذا ربما كانت فى صراع مستمر مع الايمان الشعبى بالآلهة المحلية ، بالرغم من أن كثيرا من أولئك الآلهة قد أصبحوا من الآلهة

البوذية . فلما بدأت البوذية فى التدهور لعدم حماية الملوك لها ، عاد أولئك الآلهة الأصليون الى الظهور فى الديانة الهندوسية التى بعثت مرة أخرى ، وأخذت منذ حوالى القرن السادس الميلادى تضعف من سيطرة البوذية على الهند .

وكان المعبودان الرئيسيان فى هذه الديانة الهندوسية المتأخرة هما «سيڤا» (Siva) وڤيشنو (Vishnu). أما الالهان الرئيسيان فى العصور القديمة وهما « اندرا » (Indra) و « براهما » (Brahma) فقد آل أمرهما الى النسيان كان « ڤيشنو » فى الأصل أحد أشكال « سوريا » (Surya) (الشمس) ولكنه أصبح الآن الاله المسئول عن العالم ، ويثبت ما له من « أڤاتار » عديدين كيف يتجمع آلهة مختلفون فى شخص اله واحد . حتى « بوذا » قالوا عنه بأنه « أڤاتار » لڤيشنو أما « سيڤا » فيلوح انه كان من الآلهة الذين كانوا يعبدون قبل العصر الڤيدى وكان موطنه فى جبل « كيلاسا » (Kailasa) فى الهملايا ، وتعكس أشكال معظم المعابد الهندوسية هيئة مسكنه الجبلى .

وبالرغم من أن الديانة الهندوسية فى تطبيقها العام ديانة تبيح تعدد الآلهة فانه يمكن القول بأنها ديانة توحيدية ، لأن جميع الآلهة كان ينظر اليهم كمظاهر لقوة كونية واحدة .

وتحدد الفلسفة الهندوسية ثلاثة كائنات عظيمة أو مظاهر للقوة الأساسية فى العالم وهى : براهما الخالق وڤيشنو الحافظ وسيڤا المهلك ، ويتفق ذلك مع الأسلوب الهندو — أوروبى الذى نجد فيه أن الرقم ٣ هو أعظم الأرقام قداسة وأن عنصر المذكر له الأفضلية والأسبقية دائما على عنصر المؤنث . ولكن حسب ما ورد فى ال « سايڤا » فان الكائنات الثلاثة انما تتجلى فى « سيڤا » نفسه ، كما يقول الكثيرون بأن « سيڤا » « وڤيشنو » ليسا الا مظهرين من « الاله الواحد » . وقد أدى هذا الموقف الفلسفى الى التسامح التام بين الطوائف المختلفة ، بل ان بعض الأعمال التى تختلف اختلافا تاما عن



الاله سيفا ذو الاذرع الاربعة ٠ القرن العاشر، تانجور

بعضها البعض ، وبعض طرق التفكير المتباينة ، كانت تجد قبولا فى الدين الواحد . كان لعبادة القوى الحيوية المقام الأول فى ال « سايفية » (Saivism) بينما كانت هناك طوائف أخرى تخص بولائها وعباداتها ال « ساكتى » (Sakti) (عنصر المؤنث) . وفى خلال القرنين السابع والثامن أصبح مذهب ال « ڤاكتى » (Bhakti) (وهو الولاء لاله شخصى) هو المذهب الأكثر

شيوعا . وبعد ذلك بقليل أسس الفيلسوف المبشر « شانكار » (Shankar) أول نظم الرهبنة البراهمانية ، ودعا أثناء أسفاره التى تدعو الى الاعجاب فى جميع نواحى الهند ، الى توحيد العقائد . وتبين لنا آلاف المعابد الهندوسية التى شيدت أثناء حياة « شانكار » وبعد موته ، تلك الحماسة القوية لتلك النهضة الهندوسية .

والمصدر الأكبر للكثير مما نعرفه عن العقيدة الهندوسية هى ال « ڤاجاڤاد جيتا (جيتا) » (Bhagavadgite (Gita) ، وهى قصيدة تمثيلية خلابة يتحدث فيها شخصان ، أخلاقية فى تعاليمها . انها تذم الكسل والجمود وتحدد ثلاث طرق للخلاص (مكشا Moksha) : العمل « كرما »(Karma)والمعرفة « چنانا » (Jnanı) والولاء « ڤاكتى (Bhakti) لقد كتبت الجيتا فى وقت ما فى القرنين السابقين على ظهور المسيحية وهى قسم من « المهاباراتا » (Mahabarata) وهو عمل يمكن وصفه بأنه مستودع جامع للميتولوچيا الهندية والتاريخ الأسطورى والتأملات الفلسفية القديمة . أما القصيدة البطولية الأخرى وهى « الرامايانا » (Ramayana) فقد كانت مصدرا للالهام الكبير للهندوس ، وعلى الأخص فى صورتها الدارجة التى كتبت فى العصور الوسطى . وفى خلال قرون عدة كانت قصصها عن الآلهة والآلهات والأبطال والبطلات ذات أثر كبير على حياة الناس ، ومنها اختارت طوائف متعددة آلهتها سواء الآلهة الرئيسية أو الآلهة الصغرى .

وهناك كثير من طوائف ال « ڤايشناڤا » (Vaishnava) و ال « سايڤا » (Saiva) وفروع الطوائف ، اتجهت كل منها نحو عبادة « اڤاتار » خاص . زد على ذلك ، انه توجد عبادات متنوعة لآلهة صغار مثل ال « ناجا » (Naga) (الحية) وال « ياكشا » (Yaksha) (اله الشجر) التى لا تعتبر عادة « اڤاتار » للآلهة العظيمة فحسب ، ولكنها مرتبطة بها ميتولوچيا فى شكل من الأشكال . وكان لكل « اڤاتار » معابده الخاصة به ، يمثل فيها بتماثيل

أو رموز ، وفى هذه المعابد كانوا يقومون بطقوس دينية ترجع الى عصور موغلة فى القدم . وحتى فى أيامنا الحالية نجد أن المعبود يعامل فى معبده كما لو كان يسكن فيه ملك أو ملكة وتقدم الطقوس كتمثيل لما يحدث فى القصر الملكى خلال اليوم بأكمله . ويجب على كل هندوسى ولد مرتين ، أى أعضاء الطبقات العليا الثلاث ، أن يقوم بأداء طقوس يومية . وهذا هو الوصف الذى كتبه س . ڤتاشاريا (S. Bhattacharya)(1) « وبالرغم من أن المعابد قد أقيمت لعبادة آلهة كثيرة مختلفة فان ما يحدث يوميا فى المعابد يسير على أسلوب عام . انهم يبدأون باحتفال المصباح الذى يجلب الحظ الحسن فى الثمن الأخير من الليل ، عندما يوقظون الاله . وبعد ذلك يغسلون الاله ويتعبدون اليه ، وعند الظهيرة يقدمون اليه الطعام المطبوخ ، ويتبعون ذلك باحتفال المصباح . ثم يستريح الاله بعد ذلك حتى قبيل المساء اذ يقومون فى ذلك الوقت باحتفال تعطيره وتزيينه . وفى المساء يقومون أيضا بعمل احتفال المصباح على نطاق كبير وبعد ذلك يقدمون الطعام مرة ثانية الى الاله ، ثم يلى ذلك الاحتفال الأخير الذى يذهب بعده الاله لينام أثناء الليل . والى جانب هذه الاحتفالات اليومية توجد طقوس أخرى مطولة تستمر دائمة بضعة أيام وذلك أثناء الأعياد الهامة . ويجب أن نضع فى أذهاننا أنه فى الوقت الذى تعتبر فيه هذه الاحتفالات اليومية الخمسة فرضا واجبا على الهندوسى ، فليس هناك ما يضطره الى الاشتراك فى الاحتفالات التى تقام فى المعبد ، وقلما يذهب بعض الهندوسيين المتمسكين جدا بالولاء لدينهم الى المعبد بل ان كثيرين منهم لا يذهبون اليه على الاطلاق »(٢) .

(1) "Religious Practices of the Hindus" in Religion of the Hindus. Edited by K.W. Mawgan, New York: The Ronald Press co; 1953 pp 156-157.

(٢) يشبه هذا كل المشابهة ما كان يحدث فى المعابد المصرية القديمة فى الدولة الحديثة وما بعدها . فقد كان الاله يعيش فى معبده كما يعيش الملك ويقوم الكهنة بخدمته ، وكانوا يقومون عند الفجر على ضوء المصابيح بايقاظه وغسله وتغيير ملابسه ثم تقديم وجبة الافطار له ، ويكررون ذلك عند الظهر وعند حلول المساء . (المترجم)

وترك الفلاح الهندى التأملات الفلسفية للبراهمانيين ، وقام بأداء الطقوس المقررة لكى يجنى الفوائد العملية . فالى جانب الاله الخاص بطائفته كان الفلاح يعبد الأرواح المحلية ، والأبطال الأسطوريين الذين كانوا يرتبطون بطبقتـــه أو بمنطقته ، وفى بعض الأحوال كان يتعبد لأرواح أسلافه . وكان يحاول ، على الأقل مرة فى حياته ، أن يحج الى أحد المعابد الكبيرة المقامة لاله الذى يحرسه ويحميه . وكانت أعياد الآلهة المختلفة تقام فى أزمنة وأماكن مختلفة ، وكانت هذه الاجتماعات تساعد على اتصال أعداد كبيرة من المتعبدين بعضهم ببعض ، وكانت فى الوقت ذاته فرصة ممتعة ، فيها ترويح للنفس من حياة القرية التى تسير على وتيرة واحدة . وكان يصاحب مثل هـــذه السوق الدورية احتفالات دينية . وبين فترات الحج يستطيع الفلاح أن يعبد الهه الذى يفضله فى هيكل محلى ، ولكنه لا يهمل هيكل القرية المقام لعبادة أحد الآلهة المحلية . وكان أحد الكهنة المقيمين فيه يقوم بالسهر على مثل هذا الهيكل ، وكانوا يلجأون اليه لأداء بعض الطقوس الكبيرة اذا احتاجوا اليها ، ولم يكن ضروريا أن يكون هذا الكاهن من البراهمانيين . زد على ذلك ، أن الهندوسى يمكنه أن يلجأ الى أى اله يمكنه أن يساعده اذا كان فى حاجة الى معونته . فالتاجر يتعبد الى « جانش »(Ganesh) وهو الاله الذى له رأس فيل ليساعده فى أعمال تجارته ، وفى وقت انتشار وباء الجدرى تقدم القرابين الى « دُرجا » (Durga) الهة الجدرى ، وهى احدى زوجات سيفا غير المحبوبات . ولم يشك الهندوسى العادى ، سواء أكان من الفلاحين أم من البراهمانيين فى وجود عدد لا يحصى من الآلهة ، وكان يتسامح ازاء الطوائف الأخرى كتسامح أتباع أحد القديسين المسيحيين ازاء أتباع القديسين الآخرين .

وكان المعبد الهندوسى مركزا للثقافة الهندوسية . ففيه يتعبد النـــاس ويتعلمون ويحصلون على المعونة الطبية وعلى الصدقات ، وفيه يشجعون الفنون الجميلة مثل الموسيقى والشعر والنحت والرقص . أما الأموال اللازمة

لما يقوم به المعبد من نشاط فكان مصدرها من الهبات العامة والهبات الخاصة. وفى أثناء الحكم الاسلامى ، الذى قل فيه العطف على الحياة الهندوسية ، زادت الأعباء وقلت الموارد التى كانت تتلقاها تلك المعابد من القرى ، وكانت النتيجة أن الحياة الثقافية العامة للجماعات الهندوسية أصابتها نكسة أثرت عليها .

ويمكننا أن نقول بوجه عام ان الأسلوب الديموقراطى للقرية الهندية الذى كان يسود فيها منذ أيام الآريين لم يتغير الا قليلا . ففى أيام الحكم الاسلامى أبقوا على نظام الفصل بين الدولة والشئون السياسية ، وظل مجلس القرية يحكم فى الشئون المدنية ، وظل للبراهمانيين سلطانهم على جميع الأمور الدينية والاجتماعية . وظل الأساس الاقتصادى للحياة فى القرية فى العصر السابق للاستعمار هو اقامة توازن دقيق بين الزراعة والصناعة . كانت المدن قبل كل شىء مراكز ادارية ودينية ، وكانت فى العادة صغيرة ، اللهم الا المدن الواقعة على الشواطىء ، أو على ضفاف الأنهار اذ حل النقل على صفحة الماء مشاكل مدها بما يلزمها من مؤونة . ومن الظواهر التى تلفت النظر تشييد مدن محصنة ، وتقدم فن تخطيط المدن سواء بين الهندوس أو بين المسلمين . كان الحاكم الذى يريد أن يهرب من مسئوليات حكم من كان قبله يختار موقعا جديدا ، ويبنى مدينة ذات تخطيط خاص ، ثم ينقل اليها السكان سواء باستخدام القوة أو بالاغراء ، وكان يتوقف استمرار مثل هذه المدن الى حد كبير على حسن اختيار موقعها . بيد أنه فى معظم الحالات لم يطل عمر مثل هذه المدن الجديدة وقتا طويلا ، وفى كثير من المناطق نرى عددا من المدن القديمة والجديدة وقد تجمعت الى بعضها فى منطقة محدودة .

وسكن السواد الأعظم من الهنود فى قرى ريفية يبلغ متوسط عدد سكانها أربعمائة شخص . وكثيرا ما كانت تتحد مجموعات من تلك القرى وتكون لها مجلس مقاطعة له السلطة القضائية الأخيرة فى الأمور المدنية ، كما كان الكثير

من تلك المجموعات يعيش مستقلا لا تكاد تربطه صلة بغيره . وكان نظام تلك الأراضى يسير على الأسلوب السائد منذ أقدم العصور فى بلاد الشرق الأدنى، وهو وجود الحقول المزروعة أمام القرية والمراعى خلفهـا . وكانت الملكية المشتركة والتوريث المشترك ، اللذان يسيران أيضا على أساليب الشرق الأدنى مانعين لتجزىء الملكيات الى أجزاء صغيرة اذ كانت العائلة المشتركة تقـوم بسد حاجيات كل من يعمل ، أو لا يعمل ، من أعضائها ، كما استمر النظام الذى يحتم تخصيص جزء من محاصيل الحبوب فى كل قرية (چاچمـانى jajmani) ليكون مصدرا لتقديم كمية محددة من المحصول الى نجار القرية ، والى الحداد ، والى الفخار والكاهن والحلاق ، الى آخر ما هنالك مقابل خدماتهم التى يقومون بها طيلة العام . وظلت الأساليب الاقتصادية مستقرة على أوضاعها ، ولم يدخل على التقدم الميكانيكى فى الصـناعة الا الشىء القليل . كانت طرق العمل فى الحرف تنتقل بالوراثة فى جماعات خاصة من طبقة معينة يحتفظون بأسرار مهنتهم ، وربما كان التأخر المادى راجعا الى هذه الاحتكارات المهنية التى حدت من التنافس ، ولم تشجع على الاختراع .

وتمتاز الحضارة الهندية بأنها وصلت الى آخر حدود التمسك بالأوضاع القائمة مما جعلها أكثر الحضارات المعروفة سكونا وتوازنا ، وأشدها اكتفاء . ويقوم أساس المجتمع فيها على أركان ثلاثة : وهى حكم القرية لنفسها ، ونظام الطبقات ، والعائلة المشتركة . وكان يعزز نظام الطبقات سلسلة من العقوبات من كائنات لها قوى فوق القوى الطبيعية ومبررات مستمدة من نظام دينى وفلسفى وصل الى أكبر درجات التعقيد والتمسك بالشكليات . والطبقة ليست الا جماعة منظمة تنظيما دقيقا لها تقليد عام ، واعتزاز بنفسها . ولكل طبقة رئيس ومجلس يجتمع أعضاؤه عند المناسبات فى جمعية لها سلطة تكاد تكون مطلقة ، ويجتمع أعضاء المجلس عند احتفالهم ببعض الأعياد ، ولهم حق الحكم على أفراد الطبقة ، ولهم سلطة توقيع العقوبات ، وأشدها الطرد من الطبقة .

وبالاضافة الى قوانين الزواج التى ينص عليها نظام الطبقة فان القرية الهندية ، اللهم الا فى حالات استثنائية قليلة ، تعتبر وحدة يتزوج رجالها من خارجها . وكانت مجموعات القرى تتزاوج من بعضها ، وبهذا كانوا يرتبطون معا برابطة الدم . وازداد زواج الأطفال ، وهو غير عام بين الجميع ، ازديادا كبيرا فى هذا العصر وأصبح أمرا عاما ، ويرجع السبب فيه الى مجموعة من العوامل . كان محتما على الأب أن يحصل على زوج لابنته قبل أن تصل الى سن البلوغ ، وكانت السلطة التامة فى أى منزل هى سلطة الأب ولهذا كان من السهل على أى طفلة تنتقل لتعيش فى عائلة مشتركة فى مكان آخر أن تنسجم فى الحياة بينها ، أكثر مما لو كانت وصلت الى مرحلة البلوغ . وكان زواج الأطفال يعفى الأب من حمل مسئولية سلوك ابنته ، ويلقيه على عاتق عائلة زوجها . وفى معظم الطبقات التى انتشر فيها زواج الأطفال كان الزواج يتم وهما فى دور الطفولة ، ولا يباشران حقوق الزوجية الا بعد أن يكبرا ، أى بعد أن تكون الزوجة قضت بضع سنوات فى بيت عائلة زوجها ، وأصبحت على استعداد لتأخذ مكانها كأحد أفراد هذه العائلة .

والطبقة ، فى العادة ، احتكار وراثى لنشاط خاص أو لوظيفة أو حرفة . وفى أى منطقة من مناطق الهند ، نجد أن النشاط الخاص بالطبقات منظم بطريقة تجعل الطبقات المختلفة لا تدخل فى تنافس اقتصادى ، يضاف الى ذلك عامل الاكتفاء الذاتى الذى يتعارض تماما مع الاقتصاد القائم على الاعتماد على الغير . ويهيىء نظام الطبقات بوجه عام نوعا من الاحساس بالطمأنينة لأنه يحد من دائرة التنافس الاجتماعى والاقتصادى . وكان التمييز بين الطبقات قبل القرن الثانى عشر أقل صلابة مما هو عليه الآن ، ولم يصل الى ما وصل اليه بعد ذلك الا بعد أن بدأ الهندوس يحمون أنفسهم من اتصالهم بالمسلمين باتخاذ طرق مختلفة ليبقوا فى عزلة . ومنذ ذلك الوقت أصبح الزواج بين أفراد

من الطبقات المختلفة أمرا نادر الحدوث ، بالرغم من أن ذلك الأمر كان قبل ذلك العهد أمرا عاديا .

والشيء المحرم الآخر (الطابو) وهو المشاركة فى الطعام بين أفراد الطبقات المختلفة يحتمل أن يكون قد أصبح محرما تحريما تاما فى ذلك العهد أيضا . فقد سن البراهمانيون ، لكى يحتفظوا بطهارتهم الطقسية ، القوانين التى تتعلق بجميع أنواع الطعام سواء أكان مطهيا أم غير مطهى ، الذى يمكن لبعض الطبقات من البراهمانيين أن يقبلوه ، وقد أدى هذا الترتيب المنظم القاسى للطبقات ، وفروع الطبقات ، ووضع طبقة فوق طبقة الى وجود شعائر وطقوس عامة للصلات الاجتماعية .

ومهما كانت الاختلافات بين الأصول الحقيقية فان جميع الطبقات من الناحية النظرية مرتبة فى درجات متعاقبة من ناحية أهميتها الاجتماعية ، وهو ترتيب قائم على أساس افتراض تفرعها من جسد براهما . وتنقسم كل من الطبقات الأربع الرئيسية الى مئات من الطبقات الفرعية ، وكل منها فوقها طبقة فى الترتيب الاجتماعى . ولما كان سكان الهند أقواما لا يحبون التغيير ، اذا قيسوا بغيرهم ، فقد استطاع هذا النظام البقاء بينهم . وفى الوقت الذى يستحيل فيه على أى فرد أن يرتقى الى طبقة أعلى من طبقته فمن الجائز أن ترتفع طبقة بأكملها الى درجة أعلى ، ويمكن تحقيق ذلك باتباع التعاليم الدقيقة الخاصة بالصلوات والنظافة الطقسية وغيرها ، اتباعا شديدا حازما . ولا يستطيع شخص من « السودرا » أن يصبح من « الكشاتريا » ولا يمكن لأى فرد من أى طبقة من الطبقات أن يصبح براهمانيا ، ولكن من الممكن أن ترتقى طبقة فرعية درجة أو درجتين بهذه الوسيلة .

ويصلح نظام الطبقات صلاحية تامة لأى حضارة متقدمة ، ولكنها لاتريد ان تتغير أو يحدث فيها تعديل ، وذلك فى مساعدة هذه الحضارة على تأدية وظيفتها بنجاح . وأصبح نظام الطبقات نظاما أساسيا فى الحياة الهندية ، وفسر

الهنود أى عنصر اجتماعى جديد وحوروه ليصلح للعمل به فى داخل نظامهم . ولم يقتصر ذلك على الهندوس بل نرى أن الهنود المسيحيين والهنود المسلمين بالرغم من عدم قبولهم لسلطان الهندوس فانهم منقسمون الى طبقات فرعية . ومن ناحية أخرى ، فان كثيرا من المنبوذين قد اعتنقوا الاسلام كما اعتنقوا المسيحية بعد ذلك ليهربوا من حالتهم التعسة .

أما فى ناحية التنظيم الاجتماعى فان الفوارق بين الشمال والجنوب مازالت واضحة . فقد كان البراهمانيون وحدهم هم الذين استطاعوا أن ينفذوا الى الجنوب ، وحتى فى الوقت الحاضر لانجد هناك الا طبقتين اثنتين فقط على شيء من الأهمية وهما البراهمانيون والسودرا ، وكان المنتظـر أن بعض الجماعات مثل النيار (Nayars) الذين تؤهلهم وجوه نشاطهم كحكام ومحاربين محترفين أن يكونوا طبقة مساوية للكشاتريا ، ولكنهم معتبرون من السودرا . وفى الوقت ذاته ، نجد أن الجماعات التى لا حصر لها من المتخصصين المحليين ، الذين يكونون الأساس الفعال الحقيقى فى نظام الطبقات ، يتضاعف عددهم الى حد كبير فى الجنوب وفى الشرق أكثر من الشمال الغربى ، وان الطابوات التى تتحكم فى العلاقات التى بين بعضهم البعض أكثر عددا وأشد مضايقة . ونرى فى الجنوب بنوع خاص انهم قد أوجدوا طبقة أقل من طبقة السودرا ، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم اسم المذلولين أو الطبقات المرقومة ؛ لأن هذا الصنف مقسم أيضا بدوره ، ومنظم على غرار نظام الطبقات ، وقد سماهم غاندى « هاراچان » (Harajan) أى أطفال الله .

ان القوانين التى تسير على مقتضاها الصلات بين أعضاء الطبقات المختلفة فى الجنوب وفى الشرق أكثر احكاما منها فى الشمال الغربى ، والنظام كله أشد قسوة وصلابة . وفى جنوب الهند نجد أن أعضاء الطبقات الدنيا يمكن أن ينجسوا براهمانيا أو مكانا مقدسا اذا اقتربوا منه الى مسافة يختلف مقدارها باختلاف مكانتهم ودرجتهم فى ذلك النظام . فبعض الطبقات فى الجماعات

المرقومة تنجس الأرض بمجرد سيرهم فوقها ، ولهذا يتحتم عليهم أن يستخدموا طرقا خاصة وأن يتجنبوا السير فى الطرق الرئيسية التى يحتمل أن يسير فيها أفراد من الطبقات الأعلى ، بل وصل الأمر ببعض هؤلاء التعساء الذين فى أسفل القائمة ، أن مجرد وقوع نظر أى انسان عليهم كاف لتنجيسه .

ان القيود المفروضة على الطبقات الهندوسية تختلف فى الدرجة أكثر من اختلافها فى النوع ، ولكنها كثيرة ومتعددة فى جميع درجات تلك الطبقات . ويمكن القول بوجـه عام أنه كلما ارتفعت الطبقة زادت القيود على سـلوك أفرادها . وهناك استثناءات مختلفة لذلك ، مثل جميع التقسيمات الخاصة بالطبقات ، ولكنا نجد البراهمانيين فى جميع الحالات تقريبا يخضعون لقيود وقوانين كثيرة تحد من حرية تصرفاتهم أكثر من الطبقات والجماعات التى دونهم ، ولا يمكن أن يتصور الانسان أن مثل هذا النظام يمكن فرضه بالقوة أو أن تأمر به سلطة عليا . ومما يجدر ذكره أننا نلاحظ أن أقرب مثال للنظام الهندوسى الذى يفرض تجنب الآخرين نجده فى « پولينيزيا » فيما يتعلق بالطابوات (الأشياء المحرمة) المستمرة تمييزا لها من الطابوات التى تفرض من آن لآخر . فالقوانين الپولينيزية تهدف ، قبل كل شىء ، الى ما فيه خير الجماعة وسلامة الأفراد المنتمين الى طبقات دنيا ، وقد نشأت هذه القوانين من العقيدة الپولينيزية الخاصة بالمانا (Mana) . كان الزعيم ، بصفته رمزا للقبيلة يملك أعظم « مانا » بينما يملك أعضاء القبيلة الآخرون نفس المادة (المانا) ، ولكن بدرجات أقل . وكان الاتصال بين فرد يمتلك مانا كبيرة وبين فرد آخر يملك مانا قليلة ينتج عنه حدوث خسارة للأعلى ، وفى الوقت ذاته كان ضارا بالشخص الأدنى الذى يتعرض بسبب ذلك لاصابته باضرار مهلكة. وقد رأينا أن القبائل الدراڤيدية التى ما زالت باقية حتى الآن ، والتى لاتنتمى الى أصل هندوسى ما زالت تمارس بعض عادات التجنب ، ولديها طابوات مختلفة باقية من بعض قوانين نظام الطبقات كما قلنا أيضا انه من المحتمل أن

جنوبى وشرقى الهند يشتركان فى التقاليد المشتركة لجنوب شرقى آسيا التى تعتبر الحضارة البولينيزية فرعا منها . ومن الجائز جدا أن قوانين الطبقات وضعت فى الأصل لتكون حاميا للاقتدار والفعالية الروحيـة التى للأفراد والجماعات ، ولمنع الضرر عمن لا يملكون الا فعالية أقل ، وذلك لجعـل الجماعات الدنيا تدرك نقائصها الاجتماعية .

كان نظام الفئات الأربع ، كما رأينا ، مظهرا من مظاهر المجتمع الفارسى القديم وربما يكون قد وصل الى الهند مع الغـزاة الآريين الذين يتصلون اتصالا كبيرا بقدماء الفرس . كان نظام جماعات الحرف الوراثية الذى يميل الى اتباع نظام الزواج من داخل الجماعة مظهرا من المظاهر الدائمة الحدود فى مجتمعات العالم القديم ، ويلوح أنها كانت أكثر حـدوثا بين الجماعات المتقدمة حضاريا أكثر من حدوثها بين الجماعات المتأخرة وذلك لأن العوامل الاقتصادية المتصلة باحتكار الحرف كانت ذات تأثير فى هذه الناحية ، ومن حقنا أن نعتقد أن أمثال هـذه الجماعات كانت موجـودة فى الحضـارات الدراڤيدية المتقدمة فى الهند .

كانت القوانين الكثيرة الخاصة بالسلوك ، والتى تقوم على أساس الخوف اما من فقد المقدرة أو من الاعتقاد فى الخطر الذى ينجم عن الاتصال بقوة أعظم مما يمتلكها الشخص نفسه ، ظاهرة عامة فى التقاليد المشتركة فى جنوب شرقى آسيا . وان الجمع بين هذه العناصر الثلاثة كاف لايجاد نظام الطبقات الهندوسى اذ كانت الفئات أو الطبقات الآرية الاجتماعية تضع نفسها فى مركز أسمى من مركز الجماعات الدراڤيدية المحتلة ، وقد انتظم الجميع فى نظـام واحد وضعت فيه كل طبقة فى مركز خاص ، يحدد أسبقيتها أو تأخرها عن الطبقات الأخرى . وأخيرا ، كان التزامهم للزواج من داخل الجماعة ، ووضع قواعد يلتزمون بها فى السلوك ازاء معاملة الأفراد الذين ينتمون الى طبقات أخرى ، كافيا للابقاء على هذا النظام .

وجاء الحكم البريطانى للهند وكان من بين نتائجه تسديد ضربة شديدة الى استقلال القرية واكتفائها الذاتى ، وزاد على ذلك فأحدث صدعا فى نظام الطبقات ، واليوم ، وقد حصلت الهند على استقلالها نجد أن كثيرا من الأوضاع الخاصة بالصلات الاجتماعية قد أخذت تدخل فى دور اصلاح فعال، اذ نجد كثيرا من التغييرات أخذت تدخل على نظام العلاقات بين الطبقات بعد تطبيق القوانين الجديدة ، وبدأت التغييرات أيضا فى نظام ملكية الأرض ، وفى نظام العائلة المشتركة وما زلنا فى انتظار نتائج هذه الاصلاحات ، ولهذا لن نناقشها فى هذا الكتاب .

الفصل السادس والثلاثون

الصين فى عصر ما قبل التاريخ

عاش فى بلاد الصين شعب ذو ثقافة موحدة فترة متصلة طويلة أكثر من أى مدنية أخرى من مدنيات العالم ، بالرغم من أن المدنية الصينية ليست أقدم المدنيات بأى حال من الأحوال . لقد وصلت المدنية الصينية الى صورتها المعروفة ، وتبلورت وتحددت معالمها ، بعد المدنيات الأخرى مثل مدنية وادى السند ومدنية مصر وبعض مدنيات الشرق الأدنى ، ولكن حضارة الصين تكاملت فى عصر مبكر ، وعلى عكس الحضارات القديمة العظيمة الأخرى لم يصبها الانهيار فى يوم من الأيام ، ولكنها استمرت فى تقدمها تتناوب عليها فترات تختلف فى مدى نجاحها منذ وقت ظهورها . وكثيرا ما اتصلت الصين بالحضارات الأخرى ، فقد تعرض الصينيون لغزو بلادهم وحكمها بدول أجنبية ، ولكنهم نجحوا دائما فى فرض حضارتهم الصينية على قاهريهم الهمج غير المتحضرين ، وينتهى الأمر باستيعابهم لهم ثم يؤسسون بيتا حاكما جديدا من أنفسهم . كانت المدنية الصينية أول مدنية استطاعت الوصول الى تأسيس نظام حكومى متين وممكن التطبيق ، ويستطيع أن يواجه مشكلات عدد كبير من السكان يتكونون من سكان مدن وسكان مناطق ريفية ، ولم يصبه الانهيار أو الفشل التام فى أى يوم من الأيام .

والتاريخ الصينى ، حسبما قاله المؤرخ الصينى « منكيوس » (Mencius) يتحرك فى دورات تتكرر كل خمسمائة سنة ، والأسلوب الذى يسير عليه هذا التاريخ كما يأتى : غاز أجنبى يغزو البلاد ويحكمها ، ثم استيعاب هذا الغازى، وتلى ذلك فترة اضطراب وفوضى ، وأخيرا ، يعيد الصينيون تنظيم أمورهم

تحت حكم أسرة صينية ، ويلى ذلك عصر من عصور سياسة الاعتداء الدولى وغزو البلاد الأخرى . فاذا صح أن التاريخ يعيد نفسه فان الصينيينسيتمكنون من التخلص من النفوذ الروسى ويصبحون قوة عالمية بحق بعد مائتى عام . والرأى الذى يقول ان الصينيين شعب بسيط مسالم ولا يحب الحرب ، رأى بعيد عن الصواب . كانت الصين قوة عالمية بضع مرات أثناء تاريخها الطويل ، ومدت فتوحاتها الى مسافات بعيدة تدعو الى الدهشة .

وأقدم تاريخ صينى يمكننا ذكره كتاريخ محتمل الصحة هو عام ٢٢٥٠ ق . م . ويستند هذا التاريخ الى اشارة فلكية وردت فى الكتاب الصينى القديم المعروف باسم « كتاب التاريخ » . وعلى أى حال ، فان التقدم كان سريعا وما جاءت بداية عصر أسرة «شانج» (Shang Dynasty) حوالى عام ١٧٥٠ ق . م. حتى كانت المدنية الصينية على قدم المساواة مع المدنيات التى ظهرت فى بلاد غربى آسيا . ومنذ هذا الوقت احتفظت بمستوى حضارى تحسد عليه ، كما احتفظت أيضا باستمرار التقاليد استمرارا لا نظير له فى أى حضارة أخرى .

وهناك عوامل متعددة ساعدت على تحقيق ذلك . فالحاصلات الصينية وطرق الزراعة كانت على الأرجح أحسن شىء من نوعها فى العالم قبل ادخال الطرق العلمية الزراعية الحديثة . وبهذا تمكن الصينيون من انتاج ما يكفى لسد حاجات شعب تبلغ كثافة سكانه ما كان فى مصر ، وفى بلاد ما بين النهرين ولكن مساحة أراضيه مساحة كبيرة جدا أكثر من مساحة هذين البلدين . واهتم الصينيون اهتماما خاصا منذ أقدم العصور بنظريات الحكم والتطبيقات العلمية الخاصة ، وقبل ظهور المسيحية بوقت طويل توصلوا الى طرقوأساليب معينة لتجنيد العقول الممتازة لخدمة الحكومة . وكثيرا ما حكم الصين رجال أشرار ، ونساء شريرات ، ولكن لم يحكمها الا عدد قليل من الأغبياء ، ولم يمكثوا فى الحكم الا فترة قصيرة . وبفضل أساليبهم فى التدريب والاختيار استطاع النظام الادارى الصينى خلال ألفى سنة من أن يجمع مزايا الخدمة

الحكومية البريطانية مع التوسع فى الانتفاع بالمواهب الانسانية كما حققه النظام الديموقراطى الأمريكى . وأخيرا ، فان اختراعهم منذ عصر موغل فى القدم لطريقة للكتابة ، مستقلة عن اللغة التى تنطق بها ، مكنهم من أن يضموا فى دولة واحدة ، وفى تقليد حضارى متجانس ، جماعات تتكلم لهجات كثيرة مختلفة ، كما ساعدت الكتابة ، أيضا ، القائمين بادارة البلاد على الانتفاع بخبرة من سبقهم من الحكام بطريقة يستحيل حدوثها فى الغرب بسبب التغيير المستمر الذى حدث فى اللغات أثناء تاريخ كل دولة من الدول الأوروبية .

وترجع الصفات المميزة للحضارة الصينية ، ولو جزئيا على الأقل ، الى الظروف والعوامل الجغرافية . فالصين تطل على الشرق ويحدها فى الجنوب وفى الغرب جبال لا يكاد يمكن اجتيازها ، حتى المواصلات العادية فى تلك النواحى كانت دائما على قدر كبير من الصعوبة . وفى الشمال الغربى ينفرج ذلك الحاجز الجبلى ولكن يحل محله سهول قاحلة ، فى حين نجد فى الشمال أن الغابة القطبية الكبيرة تمتد فى منشوريا . ولم يوجد فى المناطق الواقعة على حدودها أى منطقة يمكنها أن تعول عددا كبيرا من السكان المستقرين أو منطقة على مستوى حضارى متقدم . والحد الوحيد الذى كان مصدر تهديد لهم هو الشمال الغربى الذى كان يمتد الى منطقة الاستپس الآسيوية التى تقطنها شعوب من البدو المحبين للحروب . وفى حقيقة الأمر ، فان جميع الغزاة الأجانب الذين نجحوا فى قهر الصين وغزوها جاءوا من هذه الناحية ، مع استثناء واحد فقط وهم « المنشو » . وقد سيطرت الدبلوماسية الصينية والحضارة الصينية على الاستپس الشرقية منذ العصور القديمة ، والغزاة من قبائل الهون (Huns) والترك ، والمغول ، كانوا على ادراك لعظمة التقاليد الصينية قبل غزوهم لها . ووجدت الأسرات المختلفة من الغزاة البدو الذين حكموا فى الصين عهودا طويلة أو قصيرة انهم ، ان عاجلا أو آجلا ، يتحتم عليهم أن يستعينوا بخدمات الموظفين الصينيين الذين كانوا فى الوظائف قبل

مجيئهم ، لأن أتباعهم لم يستطيعوا أن ينافسوا الصينيين عند حلول السلم . وبالرغم من محاولتهم الاحتفاظ بطريقة حياتهم غير المتحضرة فان مرور أجيال قليلة كان كافيا لتحضيرهم تحضيرا كاملا .

وساعدت البيئة الطبيعية على الاكتفاء الذاتى فى الحضارة الصينية . يختلف المناخ فى الأرجاء المختلفة فى الصين مثل اختلافه فى الولايات المتحدة الأمريكية. فدرجة الحرارة فى شمالى الصين تكاد تماثل درجة الحرارة فى السهول الشمالية فى أمريكا ، حين نجد أن الصين الجنوبية شبه استوائية فى مناخها ، ولا يوجد الا عدد قليل من الحاصلات التى لا يمكن زراعتها فى منطقة من مناطق هذه الامبراطورية المترامية الأطراف . وفى بلاد الصين مناطق جبلية كثيرة ، ولكن السهل الساحلى وثلاثة وديان أنهار عظيمة وهى « الهوانج هو » (Hwang Ho) فى الشمال و « اليانجتسى كيانج » (Yangtze Kiang) فى وسط الصين ونهر الـ « شوكيانج » (Chu Kiang) فى الجنوب تمد البلاد بمساحات شاسعة من الأراضى المزروعة . ويوصل بين نهرى « الهوانج هو » « واليانجتسى » القناة الكبرى التى يبلغ طولها ٨٥٠ ميلا ، والتى تمتد من مدينة « هانجشو » (Hangchow) الى مدينة « تينتسين » (Tientsin) وقد بدأ هذا المشروع « فوتشاى » (Fu Ch'ai) ملك دولة « يه »(Yüeh) فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكن أقدم الأجزاء التى توصل بين الهوانج هو واليانجتسى تم عملها فى حكم الامبراطور « يانج »(Yang) الذى حكم من عام ٦٠٥ الى ٦١٧ ميلادية ، أما الباقى بما فيه امتداد هذه القناة الى پيكين ، وهو مردوم الآن ، فقد تم عمله فى أيام أسرة « يبان »(Yüan) التى حكمت بين أعوام ١٢٧٩ ، ١٣٦٨ ميلادية .

وهكذا كان من الميسور فى بداية القرن السابع الميلادى الوصول الى معظم أجزاء الامبراطورية بوساطة السفن وتبادل حاصلات المناطق البعيدة بنفقات قليلة . وكانت كميات خامات المعادن كافية لسد حاجات حضارة كانت

ما زالت على مستوى الصناعة اليدوية . والموارد الصينية من الفحم والحديد قليلة اذا قسناها بالمقاييس الحديثة . ومن الأمور المشكوك فيها اذا كانت ستصبح هذه الموارد فى يوم من الأيام كافية لمد الصين بما تحتاج اليه الصناعة الثقيلة من النوع المعروف فى أوروبا . ومهما يكن من أمر ، فان الصينيين استثمروا هذه الموارد المعدنية بنجاح زهاء ألفى عام ، وعرفوا استخدام الفحم قبل أن يعرفه الأوروبيون .

ويلوح أن معظم جهات الصين كانت مغطاة بغابات عظيمة فى العصور القديمة ، وكانت تلك الغابات كثيفة جنوبى « اليانجتسى » اذ أن هذه المنطقة على درجة كافية من الحرارة تجعلها صالحة تماما لنمو الغاب الهندى ، وهو من أنفع وأفيد الحاصلات الطبيعية . وجميع مناطق الصين بأكملها أراض صالحة كل الصلاحية ليستقر فيها الانسان ، ويعيش فيها ، وهى من البلاد القليلة التى تستطيع أن تسد حاجة سكان كثيفى العدد ، وعلى درجة كبيرة من التقدم الحضارى دون الاعتماد على تجارة خارجية ، فقد كان فى استطاعة الصينيين انتاج جميع السلع الضرورية فى مناطق داخل حدود بلادهم . أما تجارتهم مع الغرب سواء أكان ذلك بطريق البحر أم عن طريق دروب القوافل التى يرجع تاريخها الى أقدم العصور مجتازة أواسط آسيا ، فكانت تجارة فى السلع الكمالية . كانوا يبعثون بالحرير غربا ويحصلون فى مقابله على سلع كمالية أخرى مثل الخرز والأوانى السورية المصنوعة من الزجاج ، وبعض الأشياء الجميلة الصنع من المعادن النفيسة ، وفى العصور المتأخرة كانوا يستوردون أيضا الفتيات الراقصات والخيل سريعة العدو .

وعلى عكس الهنود ، نجد أنه كانت للصينيين عقلية تاريخية ، وما خلفه الصينيون من كتابات تتعلق باحداث الماضى شىء كثير ، ولكن مما يدعو الى الأسف أن رغبتهم فى استخدام الحوادث الماضية لاستخراج العبرة وتعلقهم بالتنظيم المنسق كان سببا فى اعادة كتابة المؤلفات القديمة مرات كثيرة . ولهذا

السبب ، نجد أن كتب الغاب الهندى (البامبو Bamboo Books) التى تذكر حوادث قديمة فى نفس العصر الذى وصلت الينا منه بعض الكتب الكلاسيكية الصينية الهامة التى تصور لنا مجتمعا أقل مثاليـــة مما نجده فى تلك الكتب الأخرى . ولكن بالرغم من ذلك ، فان كثيرا من المعلومات الحضارية التى جاء ذكرها عرضا فى جميع تلك الكتب تقوم دون أى شك على أساس سليم صحيح، وهذا من حسن حظ المشتغل بأصول الحضارة الصينية لأنه لا توجد منطقة فى العالم لها اتساع الصين وأهميتها الحضارية ، ولا نكاد نعرف الا القليل عن نتائج الدراسات الأثرية فيها كما هو حادث فى الصين . ولهذا السبب فان المناطق القليلة والعصور التى أمكن دراستها لقيت من عناية الباحثين ما يحتمل أن يثبت فى المستقبل انه بولغ فيه ، وما زال فى حاجة الى التمحيص .

وعلى مقربة من مدينة پيكين حفر العلماء موقعا واحدا وعثروا فيه على أشياء هى من أقدم الآثار المادية والحضارية للانسان ، ويرجع تاريخها الى آخر الفترات بين العصور الجليدية . وبعد ذلك تمر فترة لا نعرف عنها شيئا لا يقل طولها عن ٢٠٠٫٠٠٠ سنة ، ولكن ابتداء من عام ٣٠٠٠ أو ٣٥٠٠ ق . م . على أكثر تقدير ، كان يعيش فى الصين عدد من الحضارات النيوليتية المختلفة التى عثر على مواقعها فى جهات عدة فى شمالى وشمال غربى الصين ، وكانت تلك الحضارات مقدمة لذلك الازدهار الحضارى الفجائى فى « أسرة شانج » (Shang Dynasty) حوالى عام ١٥٥٠ ق . م . ، وبداية مدنية يمكن التعرف عليها فى الحال بأنها مدنية صينية . ومنذ هذا الوقت يمكننا أن نتتبع التطور الحضارى فى شمالى الصين عن طريق النقوش والوثائق المكتوبة الأخرى التى كانت تزداد كثرة بتقدم الزمن .

ومن ناحية أخرى فانا لانعرف جنوبى الصين الا عند ظهوره فى ضوء التاريخ نتيجة لوصول حضارة الصين الشمالية اليه ، وغزو الأسرات الصينية الشمالية له مرة بعد أخرى .

ولم تقم حتى الآن أى بحوث أثرية هامة فى جنوبى الصين ولسنا نعرف عنه شيئا ، ولكن يتضح لنا مما يعثر عليه من آن لآخر فوق سطح الأرض أن هذه المنطقة كانت تشارك منطقة جنوب — شرقى آسيا فى تقاليدها المشتركة. فبعض الأدوات الحجرية تشبه الى حد كبير أدوات جنوب شرقى آسيا ، كما أنها تشبه تلك المنطقة أيضا فى عدم وجود الأدوات المشذبة ذات الأطراف المدببة ، أو السكاكين ، وربما كانت الملحوظة الأخيرة أمرا ظاهريا أكثر منه حقيقة واقعة ، لأن الأدوات الحجرية التى من هذا النوع قلما يمكن التعرف عليها والاحتفاظ بها ، مثل الأدوات الحجرية الأكبر حجما . وهناك أيضا تلك النتيجة المثيرة الهامة التى توصل اليها ڤاڤليوف (Vaviloff) ، وهى أن جبال الصين الجنوبية كانت مركزا هاما لتدجين النبات ، وأن عددا كبيرا من الحاصلات الجذرية والحاصلات الورقية بدأ تدجينها هناك . ولا يشك أحد فى أنه كانت توجد فوارق حضارية بين شمالى الصين وجنوبها منذ العصر النيوليتى على الأقل ، بل ان مثل هذه الفوارق ما زالت موجودة حتى الآن .

ولنعد مرة ثانية الى البحوث الأثرية . فمن الأمور الواضحة أن بدء حياة الانسان فى الصين يرجع الى أزمنة موغلة جدا فى القدم . فقد كان انسان الصين « سين — انثروپوس » (Sinanthropus) يعيش فى شمالى الصين خلال آخر الفترات التى تخللت العصور الجليدية ، وكان هذا النوع من الانسان المبكر يشبه فى أكثر النواحى انسان جاوة المسمى « بيثك — أنثروپوس » (Pithecanthropus) ، ولكنه كان أقرب الى الانسان الحديث من ناحية تطوره . واذا حكمنا عليه من ناحية مظهره الجثمانى فان أى كائن حى يشبهه يجوز أن يكون من نصيب احدى حدائق الحيوان .

ومهما يكن من أمر ، فان سلوك السين — انثروپوس كان أكثر شبها بالسلوك الانسانى منه بسلوك أشباه الانسان . فقد استخدم النار وصنع أدوات من الحجر تدل على الكثير من المهارة مثل صنع الشطفات التى نجد

أن بعضها كان حسن الصنع ، مما يرجح أنهم صنعوها عن قصد لتكون أدوات تؤدى أغراضا خاصة ، مثل السكاكين والمقاشط والقذائف المدببة . كما أن أولئك القوم مارسوا العادة الانسانية ألا وهى عادة أكل لحوم البشر ، التى ثبت وجودها فى ذلك الموقع الفريد الذى تم حفره من ذلك العهد . فانهم كانوا على الأرجح يأكلون من يموت منهم ، وذلك لأنه لم يعثر على مدافن أو على أى دليل يثبت أنه كانت لديهم أى طقوس لدفن الموتى . وعادة أكل لحم الموتى كانت عادة شائعة بين كثير من الشعوب فى العصر التاريخى ، ولم يكن الباعث عليها هو الجوع ولكن الرغبة ، التى يمكن ادراكها وفهمها ، للاحتفاظ بمزايا الموتى فى العائلة .

واذا حكمنا بما وصل الى أيدينا من الآثار التى عثر عليها بطريق الصدفة فان هذه الحضارة تلتها حضارة أخرى استخدمت من أدوات حجرية ذات شطفات أكبر حجما ، ومدقات تشبه فى نواح كثيرة ما أنتجه العصر الپاليوليتى فى جنوب شرقى آسيا . وفى عصر أحدث من العصر الذى عاش فيه انسان الصين القديم (سين — انثروپوس) ، وفى منطقة تقع الى الشمال الغربى من موطنه على مقربة من پيكين ، كانت هناك حضارة أخرى من العصر الپاليوليتى القديم استخدمت شطفات أكبر حجما وأدوات حجرية مدببة تذكرنا بمثيلاتها فى أوروبا ، وبفؤوس اليد الأفريقية . وعلى أى حال ، فهناك فجوة من الزمن لا تقل عن ١٠٠٠٠٠ سنة تفصل بين هذه الأدوات القليلة من العصر الپاليوليتى وبين أقدم القرى النيوليتية فى شمالى الصين . وبالرغم من العثور على بعض الأدوات التى يرجح أنها من العصر الپاليوليتى الأعلى فى الكهف العلوى فى الموقع الذى عاش فيه السين — انثروپوس فان هذه الفجوة ما زالت شاغرة . ويمكننا أن ندرك ما كانت عليه الناحية الحضارية فى شمال الصين خلال أواخر العصر الپاليوليتى الأعلى ، أو فى العصر الميسوليتى ، مما عثر عليه فى منغوليا . فقد عثر على سطح الأرض فى منغوليا

على عدد كبير من الزلط الذى شطفت منه بعض النصال الرقيقة كما عثر على بعض النصال نفسها ، ولا يكاد يوجد شك فى أنها كانت مثبتة فى أدوات من العظم أو الخشب لتكون حدها القاطع . ويمكننا أيضا أن نذكر ونحن واثقون أنهم استخدموا العظام وقرون الوعل بكثرة ، وبالرغم من أنه لم يعثر حتى الآن الا على أداة أو أداتين من هذه المواد ، فانه يجب ألا ننسى أن أمثالها يصعب بقاؤها وهى معرضة للعناصر الجوية ، ملقـاة فوق سطح الأرض . ويمكن القول بوجه عام ان اقتصاد القوم الذين عاشوا فى ذلك العهد ، وكانوا أصحاب تلك الحضارة ، كان قائما على أساس تجمعهم ، دون أن تكون لهم محلات سكنية دائمة ، وان حالة البيئة كانت أكثر ملاءمة لهم مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وعثر أيضا على قطع من الفخار وعلى قطع حجرية ذات شكل اسطوانى يرجح استخدامها كمدقات أو أحجار لطحن الحبوب ، وقد عثر عليها فى بعض المواقع الميسوليتية ولكن من المرجح انها من عصور أحدث .

وأقدم ما ظهر من العصر النيوليتى فى شمالى الصين ليس الا جزءا من حضارة المنطقة المحيطة بالقطب الشمالى . ففى المواقع النيوليتية نجد حفرا مستديرة يشار اليها عادة بأنها حفرات للسكنى ، ولكنها صغيرة وربما كانت صوامع غلال توضع تحت الأرض ، أو أنها مخازن ، واذا عاش فيها أحد على الاطلاق فربما كانت تستخدم فقط للنوم خلال الفصل الشـديد البرودة . واستخدموا أدوات مصنوعة من الحجر من الأنواع المعتادة ، كما عرفوا أيضا السكاكين المصنوعة من الحجر ، وقاذفات مدببة من الحجر ، وقاذفات مدببة من العظم ، والمخارز . ولكثير من تلك الأدوات المصنوعة من الحجر والعظم أشكال خاصة ، وهى بلا شك أصل بعض الأدوات الصينية التى صنعت من المعدن فيما بعد .

وعثر على كثير من الفخار وهو شبيه بفخار المنطقة التى حول القطب الشمالى وينتمى الى الحضارة نفسها ، وهو على شكل الأقداح ومصنوع من

الطين المخلوط بالرمل . وكثيرا ما كان يزخرف سطحه بلف حبل حوله قبل أن يجف ، وهو على أى حال خشن الصناعة . ومن بين الأوانى الفخارية عدد غير قليل من أوان للطبخ مثلثة الجسم صنعت على هيئة ثلاثة أقداح ضمت الى بعضها ولها فم واحد ، وهى تدل على أنها أصل الأوانى ذات القواعد الثلاث التى كانت كثيرة الانتشار فى العصور الصينية التالية .

ويرجح أن أقدم الحاصلات التى كانت لديهم نوع من الدخن (الذرة العويجة) الكبير الحجم ، وهو ذو ساق قوية وهو « الكوليانج » (Kaoiang) الذى ما زال يزرع فى المنطقة . وقد أراد بعض الباحثين أن يفسر بعض ما على سطح بعض الأوانى الفخـارية من زخرفة بأنها عملت بوساطة نبات الرز ، ولكن اذا صح ذلك فان وجود هذا النوع من الحبوب فى شمالى الصين حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير يخلق مشكلة تثير الحيرة . والى جانب معرفتهم للدخن والرز (؟) فى حضارتهم ، كان أولئك الناس يربون الكلاب والخنازير لأجل أكل لحومها . وقبل انتهاء تلك المرحلة النيوليتية ظهرت أيضا الماشية والأغنام ولكن ندرة وجود عظام الخيل فى المواقع التى بحثت حتى الآن يدل على أنهم كانوا يصطادون هذا الحيوان ولم يكونوا قد استأنسوه بعد .

وحوالى نهاية ذلك العصر ظهر نوع جديد من الفخار فى اقليم « كانسو » (Kansu) فى شمال غربى الصين وهو فخار أحمر وأســود وأبيض مزخرف بزخارف حلزونية ، وزخارف ذات خطوط متقوسة . والآنية التى تتميز بها هذه المنطقة هى جرار كبيرة الحجم مزخرفة بخط عريض حول كتف الجرة ، ولكن توجد أيضا صحاف وأوان أصغر حجما . أما أوانى الطبخ فظلت كالنوع القديم ، وهو القدحى الشكل المصنوع من الطين المخلوط بالرمل .

ويشبه هذا الفخار الملون الفخار النيوليتى الذى عثر عليه فى ايران ، بل وفى وادى الدانوب شبها كبيرا . ولا يكاد يوجد شك فى أنه قد أتى الى

« كانسو » من الغرب ، ولكن عدم العثور على أى عناصر حضارية جديدة أخرى تكون قد ظهرت معه فى الوقت نفسه يحتم علينا أن نرجح أنه وصل الى « كانسو » عن طريق الانتشار وليس عن طريق هجرات لقبائل وصلت من ناحية الغرب . ويطلق على هذه الحضارة كلها بما فيها الأوانى الملونة اسم حضارة « يانج شاو » (Yang Shao) وهى تؤرخ تاريخا تقريبيا بأنها كانت بين أعوام ٣٠٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

وفى شمال — شرقى الصين فى اقليم « شانتونج » (Shantung) توجد حضارة أخرى نيوليتية أهم من حضارة « يانج شاو » (Yang Shao) ، وقد التقت الحضارتان فى المنطقة التى حول منحنى النهر الأصفر (الهوانج هو) . وفى المواقع القليلة التى بحثت فى منطقة التقاء هاتين الحضارتين نجد مخلفات حضارة « لنج شان » (Lung Shan) فوق مخلفات حضارة اليانج شاو ، مما يدل على أنها أتت بعدها وربما تكون قد بدأت بين أعوام ٢٣٠٠ و ٢٠٠٠ قبل الميلاد . ولسنا نعرف شيئا واضحا عن أصل حضارة اللنج شان ولكنها تحتوى على عدد من العناصر الجديدة وتمثل أعلى مستوى وصلت اليه أى حضارة أوراسية (أوروبية — آسيوية) قبل معرفة المعادن .

بنى شعب « اللنج شان » مدنا كبيرة محصنة لها أسوار من الطين المدهوك ، وهى مادة ما زالت مستخدمة للبناء فى المنطقة نفسها . وظلت حفرات السكنى التى يرجع تاريخها الى العصر النيوليتى معروفة الاستخدام بينهم ، ولكنهم بنوا أيضا منازل واسعة مستطيلة عملوا أساساتها من الطين المدهوك فوق مرتفع من الأرض . ومن دراسة ترتيب جوانب المداخل نستطيع أن نقول ان تلك المنازل القديمة تشبه المنازل التى ما زالت تبنى حتى اليوم فى شمالى الصين . وتشبه الأدوات المصنوعة من العظم ، ومن الحجر ، مثيلاتها فى حضارة اليانج شاو ولكنهم استخدموا أيضا الأصداف على نطاق واسع فى صنع الأدوات والحلى على حد سواء . أما الفخار الذى تمتاز به حضارتهم

فقد كان رقيقا جدا ، وكان محروقا جيدا ، وذا لون أسود ومصنوعا على عجلة الفخار ، واذا صح أنهم عرفوا هذه الآلة فلا يكاد يوجد شك فى أن شعب اللنج شان عرفوا أيضا العربة والمركبة[1] . وكانوا يزرعون الدخن وربما الرز أيضا ، كما يرجح انهم زرعوا فول الصويا بالرغم من أنه لم يوجد له أثر فى أى موقع من المواقع التى حفرت حتى الآن ، أما الحيوانات المستأنسة فكانت الخنازير والكلاب والماشية والأغنام والخيل .

ويلوح أن حضارة اللنج شان وضعت الأسس التى قامت عليها أسرة « شانج » . فبالرغم من استخدام أسرة شانج للبرونز ، وبالرغم من المهارة الشديدة التى أظهروها فى صناعته ، فان الفلاحين من سكان البلاد ظلوا يعيشون كما عاش أجدادهم فى العصر النيوليتى لمدة بضعة قرون . ومما يستحق الذكر أننا نجد فى القسم المسمى « جزية ال يى » (Tribute of Yü) من « كتاب التاريخ » ، الذى يرجع تاريخه على الأرجح الى نهاية أسرة شانج (١٠٢٧ ق . م .) نجد فيه ذكرا للسهام المصنوعة من الحجر بين الأشياء التى كانت تأتى كجزية من اقليمين من أقاليم الامبراطورية ، ولكن الاشارة غامضة والعلامة التى استخدمت فى كتابتها ربما تعنى الظران أو أى حجر آخر يسهل عمل شطفات منه ، وكان يندر وجوده فى المنطقة المحيطة بعاصمة أسرة شانج[2] .

ولا توجد كتابات من أى عصر قبل عصر شانج وان كتاب التغييرات

---

(١) لا يكفى معرفة شعب من الشعوب لعجلة الفخار واستخدامها فى عمل الأوانى لتأكيد أو ترجيح معرفتهم للعربات، فقد عرفت مصر عجلة الفخار منذ عصور موغلة فى القدم ، ولكنها لم تكد تعرف العربات حتى أتت اليها من آسيا بعد عصر يقرب من ألف وستمائة سنة أو يزيد . (المترجم)

(٢) أن كلمة « يى » فى الصينية تعنى أيضا حجر اليشم أو الجمار (Jade) ، والمتفق عليه بين علماء الدراسات الصينية أن رؤوس السهام المشار اليها كانت من اليشم وقد عثر على كثير منها فى المواقع النيوليتية .

(المترجم)

(Eock of Changes) الذى يتحدث عن أصل الأشياء الصينية يذكر أنه قبل اختراع علامات الكتابة كانت الوثائق تدون ، والرسائل ترسل ، بوساطة حبال تعمل فيها عقد ، وان استخدام سكان پيرو القدماء لهذه الوسيلة (كويپوس Quipus) يثبت أنها تؤدى الغـرض تماما . ولكن كتاب التغييرات نفسه روجع وأعيد نشره مرات عدة ، ولهذا فان ما جاء فيه من معلومات يجب عدم قبوله الا باحتراس شديد . ومما يزيد فى تعقيد هذا الموضوع أن العلمـاء الفلاسفة الذين مر هذا الكتاب بأيديهم لم يفكروا الا فى كون منظم على أساس المنطق ، وأن نظام هذا الكون وضعه حكام العصور القديمة الذين اعتبروهم شبه آلهة ، وأن هؤلاء الحكام بدأوا أولا بوضع الأمور الضرورية لتقوية وحفظ نظام الكون ، وبعد أن أتموا ذلك اسـتخدموا مواهبهم فى اختراع الأجهزة النافعة للناس .

ومن أوائل الأشياء التى اخترعها أحد أنصاف الآلهة الأزليين تلك العلامات السداسية وعددها أربعة وستون ، وهى أشكال تتكون من خطوط متوازية بعضها متصل ، والبعض متقطع ، ومرتبة فى اتجاهات مختلفة . ولكل شكل من هذه الأشكال الأربعة والستين معنى مختلف عن الآخر ، ولكل واحد منها معنى سحرى . واستخدموا هذه الأشكال — وما زالوا يستخدمونها حتى الآن — فى الانباء بالغيب وذلك لمعرفة ما اذا كانت الظروف ملائمة للقيام بأى نشاط أم أنها غير ملائمة .

ويذكر « كتاب التغييرات » أن الأباطرة الأوائل توصـلوا الى اختراع الأشياء المفيدة عن طريق التأمل فى هـذه الأشكال ، وأن الحكام الثـلاثة « هـوانج تى » (Huang Ti) و « ياو » (Yao) و « شـن » (Shun) « استأنسوا الثيران (لجر العربات) واسرجوا الخيل (فى المركبات) وبهذا أمدوا العربات بما يساعدها فى جر الأشياء الثقيلة ولأجل الرحلات البعيدة ، وبهذا أفادوا كل من يعيش تحت السماء » ، وان فكرة ذلك أتتهم على الأرجح

من صورة الشكل « سوى » (Sui) ومعناه المتابعة أو السرور بالحركة .

وبالرغم مما دخل عليه من تعديلات واهتمامه الأصلى بالشعائر الدينية والقوى التى فوق الطبيعة فان كتاب التغييرات يمدنا بمعلومات ثمينة عن العصر السابق على حضارة شانج فى شمالى الصين فالاله « شن ننج » (Shen Nung) هو فى نفس الوقت مخترع الزراعة ورب النار ، وهذا يدل على أن الزراعة كانت تمارس فى البداية بطريقة القطع والحرق . ويحتوى الكتاب على اشارات متعددة للحروب التى كانت بين « الشيا »(Hsia) كما كان الصينيون يسمون أسلافهم ، وبين « المياو » (Miao) ، وهم جماعة من سكان البلاد الأصليين الذين كانوا يقطنون جزءا من شمال الصين على الأقل . وفى الكتابات القديمة نجدهم يربطون بين المياو وبين البحر ، وكانت حيواناتهم الطوطمية من الحيوانات البحرية والوحوش البحرية ، والمخلوقات المجنحة ، أما طواطم الشيا فكانت النمور والفهود ونوعين من الدببة .

ولم تساعد البحوث الأثرية فى شمالى الصين كثيرا على تفسير هذه الأساطير . وأهم نتائجها هو اثبات وجود حضارات مستقلة ومعاصرة جزئيا لبعضها البعض فى العصر النيوليتى ، وانها كانت فى المناطق الشرقية والغربية من شمالى الصين . ومن المحتمل جدا أن نفس الشعوب التى تفرعت من الحضارة المشتركة فى جنوب شرقى آسيا ، والتى حملتهم أسفارهم الى اليابان وكوريا نزلوا أيضا على شاطىء الصين ، بل وساروا الى داخل البلاد منحدرين مع النهر الأصفر ، ولكن ما زال ينقصنا الدليل على صحة هذا الرأى .

وكان مجتمع ال « شيا » مقسما الى « قبائل الحاكم التسع » و « المائة عشيرة » و « جم غفير من شعب ذوى الرؤوس السوداء » . والتسمية الأخيرة تدعو الى الدهشة لجماعة تعيش فى منطقة لا يعرف فيها أى لون آخر للشعر ، ولكن الشعر الأحمر والعيون الرمادية أو الخضراء ليست غريبة أبدا بين السكان القدماء فى المنطقة المتجمدة . كان « جنجيس خان » (Ghengis Khan)

ينتمى الى عشيرة مغولية تسمى « عشيرة ذوى العيـون الرمادية » وكان « سوباتاى » (Subatai) أعظم قواده شهيرا بشعره الشديد الحمرة . وفى العصور المتأخرة لم ينظر الصينيون الى تلك المميزات الجثمانية بحماسة ، أو رغبوا فيها ، بل نسبوها فى واقع الأمر الى شياطينهم . وعلى كل حال فمن المحتمل أنه كان بين شعب الشيا عدد من الأشخاص الذين تنطبق عليهم تلك الصفات . أما المياو فقد كانوا يوصفون دائما بأن لون جلدهم أدكن من لون جلد الشيا ، وكانوا على ما يظهر ذوى شعر أسود . وما زال يعيش حتى الآن فى المناطق البعيدة فى جنوبى الصين جماعات مختلفة من السكان الأصليين ، وما زالوا يسمون « مياو » ، ويقول العلماء الصينيون انهم من سلالة القبائل الشمالية الذين فروا هربا من الشيا . ولكن الأرجح هو ان اسم « مياو » كان يطلق على قبائل متعددة لم تكن من الشيا ، وكانت تعيش فى شـمالى الصين وأن معظم تلك القبائل تمدنت بالتدريج ، وتم استيعابها فى الشعب الصينى فى العصور التاريخية .

ومن دراسة ما احتواه كتاب التغييرات يلوح أن المياو كانوا شعبا فيه للأم السلطة الكاملة على المنزل ، بينما كان الشيا على عكس ذلك ، ولكن سلطة الأب بينهم لم تكن فى القوة التى أصبحت عليها بين الصينيين فيما بعد . وقد احتار كثير من العلماء الأوروبيين فى تفسيرهم لما ورد فى كتاب التغييرات خاصا بذلك الموضوع لأنهم كانوا يؤمنون بنظرية خاطئة فى التطور الحضارى وهى أن سلطة الأم تسبق دائما سلطة الأب فى كل مجتمع من المجتمعات ، ولكن الحقيقة هى أن عادة الانتساب الى الأب ، ووجود المجتمعات التى تؤمن بسلطة الأب المطلقة ، من مميزات جميع الشعوب الأوراسية التى يقوم اقتصادها على الصيد أو تربية الحيوان . وان وجود المرأة فى رسم العـلامة الصينية التى ترمز الى « العشيرة » ووجودها أيضا فى أسماء جميع العشائر التى ورد ذكرها ، لا يمكننا أن نفسره على أنه ذكرى لمرحلة ثورية بل يدل ،

على الأرجح ، على الأهمية التى كانت لعنصر المياو فى المجتمع الصينى قبل عصر شانج .

ومن الصعب محاولة معرفة التنظيم الاجتماعى والسياسى لمجتمع الشيا وذلك لقلة المصادر وتغييرها الكثير فى أيام أسرة « شو » . كان هناك فلاحون وأرستوقراطية حربية تحارب أعداءها وهى فوق العربات ، كما كان هناك زعيم لجميع شعب الشيا من الأرجح انه كان كاهنا أكثر منه ملكا . والعلاقة بين هذه التقسيمات وبين « قبائل الحاكم التسع » و « العشائر المـائة » و « شعب ذوى الشعر الأسود » غير واضحة ، والتفسير المرجح هو أنه كانت هناك قرى يسكنها « شعب ذوى الشعر الأسود » وأن تلك الجماعة كانت تستغلها عائلات من الجماعات الأخرى بصورة غير منظمة أو محدودة من نظم الاقطاع . ومما يلفت النظر أن الجماعة الحاكمة لم تتبع نظام العائلة الكبيرة الممتدة التى كانت تمتاز بها الأرستوقراطية الصينية فى العصور المتأخرة .

وأهم واجبات الكاهن — الملك هى التوسط بين الأمة وبين الكائنات السماوية . وهو يذكر من آن لآخر فى الآداب الصينية ، وهو يقود شعبه فى حرب ضد المياو أو ضد ثوار ، كانت جريمتهم الكبرى هى محاولتهم استخدام تقويم يتعارض مع التقويم الذى يؤمن به . ومع كل ، فمن الأشياء الواضحة أنه لم يكن له الا القليل من السلطة السياسية ، ويلوح أيضا أنه لم توجد عاصمة ثابتة للبلاد فى ذلك الوقت ، بل كان الملك يذهب حيث يكونون فى حاجة الى خدماته .

وكان هناك عدد لا حصر له من الكائنات ذات القوى التى فوق قوى الطبيعة ، تسكن فى أماكن كثيرة ولها وجوه نشاط متعددة ، ولكن يلوح أن عبادة الأسلاف كانت أقل شأنا مما أصبحت عليه فيما بعد . وتنقسم الكائنات ذات الأهمية الخاصة التى جعلتهم يطلقون عليها اسم الآلهـة الى قسمين : الالهة السماوية ، وآلهة العالم السفلى . والقسم الأول كان فى العادة آلهة

خيرة تسهر على فصول السنة ، وعلى النشاط الزراعى ، وعلى الجو . وقد اتخذ أحدها عرشا له فى النجم القطبى ، وكان أعظمها جميعا وله من الأهمية ما يجعله الكائن الأعلى . وكانت عبادة أولئك الآلهة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدراسات الفلكية ، وكان الكاهن — الملك يقوم بأداء الطقوس التى تقام تكريما لهم فى كل عام فى أيام خاصة ويقصد منها تأكيد عودة الفصول فى مواعيدها ، ونمو الحاصلات . وكانت تلك الطقوس تقام فى الهواء الطلق ، وكانت ذات طابع رسمى دقيق منذ أقدم العصور ، وكانت القرابين التى تقدم والأوانى التى تستخدم فى كل طقس من الطقوس يتحتم أن تكون من نوع خاص لا يسمح بتغييره أو عمل بديل له .

أما آلهة العالم السفلى فلم تظهر أسماؤها الا قليلا فى الوثائق ، لأنهم ربما كانوا يخافون منها . كان أولئك الآلهة يعيشون تحت الأرض ويقرنون بالظلام والموت والشر ، ولا نعرف الا شيئا قليلا عن عبادتها ولكنا نعلم أن طقوسهم كانت تعقد فى الليل أو فى الأماكن المظلمة . وفى عصر متأخر عن هذا العصر كانت الحيوانات التى تقدم قربانا لهم تحرق حية فى حفرات ، ولا يكاد يوجد شك بأنهم كانوا يتقبلون القرابين الآدمية أيضا . كان تقديم الضحايا ظاهرة هامة فى جميع الشعائر القديمة ، وهناك ما يسوغ الاعتقاد بأن أهم تلك الضحايا ، والتى كانت لاتقدم الا عند حلول المصائب الكبرى ، هى الكاهن — الملك نفسه . وكانت العادة حتى عصر شو (١٠٢٧—٢٢١ ق.م.)[١] انه فى وقت حدوث الجفاف كان الامبراطور يدعو السماء أن تنزل خطايا الشعب على رأسه ثم يقطع الجزء الأمامى من شعر رأسه ويربطه على جبهة ثور أسود يضحى به بدلا عنه .

---

(١) تتفق أحدث المؤلفات عن تاريخ الصين على أن أسرة شو تمتد من ١٠٥٠ الى ٢٤٧ ق . م .

(المترجم)

وهذه الثنائية الصينية فى العصور القديمة تذكرنا كثيرا بالشمانية التى كانت سائدة بين الشعوب السيبيرية ، بما فيها من آلهة للصيف وآلهة للشتاء ترتبط بالنــور والظلام ويقوم عــلى خدمتها جماعات مختلفة من الشمان (Shaman). ومن حين لآخر توجد اشارات الى بعض أعمال الوساطة الروحانية وهى تشبه فى ذلك سيبيريا الأصلية وأقصى شمال أمريكا ، كما أن الرقم السحرى الصينى فى ذلك العهد كان رقم أربعة كما هو الحال بين هنــود أمريكا الشمالية .

ويبتدىء العصر التاريخى بأسرة شانج (١٧٦٦ — ١١٢٢ ق . م .) [١] ، وبالرغم من ذكر هذه الأسرة كثيرا فى المؤلفات الصينية القديمة الرئيسية فقد كان الباحثون فى التاريخ الصينى ينظرون اليها كقصة أسطورية الى ما قبل سنوات قليلة عندما عثر على عظام عليها مخربشات بعلامات قديمة عند الانحناءة الكبيرة لنهر الهوانج هو . وعثر بعد ذلك على المقابر الملكية لهذه الأسرة وحفرت حفرا علميا ، وعثر فى النقوش المعاصرة على أســماء معظم أباطرة « شانج » الذين وردت أسماؤهم فى « كتاب التاريخ » . واذا ضممنا الأشياء المكتشفة الى النقوش المعاصرة ، والى الأخبار التى وردت فى المؤلفات القديمة، يمكننا أن نحصل على صورة أفضل لما كانت عليه الأحوال فى أيام تلك الأسرة أكثر من معرفتنا لبعض العصور التى بعدها . لقد تركت لنا أسرة شو التى خلفت أسرة شانج ثروة من الوثائق المكتوبة ، ولكن لم يحفر موقع هــام واحد من عهد أسرة شو حفرا علميا منظما حتى الآن . وساعد تهافت الراغبين فى الحصول على القطع الأثرية الصينية على شدة الطلب على الأوانى البرونزية الصينية ، وعلى الأحجار المنقوشة ، كما أن سرقة المقابر كانت شيئا عاديا ، ولو أنها حرفة ممقوتة منذ بداية العصر المسيحى على الأقل . لقد عثر على كثير

(١) المتفق عليه هو أن أسرة شانج حكمت من ١٤٥٠ الى ١٠٥٠ ق . م .
(المترجم)

من التحف الفنية ، ولكن مجرد الحصول على قطعة أثرية عن طريق الشراء لا يكفى لمدنا بما نريده من معلومات متعددة ، وحفر المقابر الملكية فى « أن — يانج » (An-Yang) ما زال حادثا فريدا فى تاريخ البحث العلمى فى آثار الصين ، ولم يعثر بعد تلك الحفائر على أى شىء ، له أهمية عظام التنبؤ من عهد أسرة شانج . فى القاء الضوء على الحياة اليومية للطبقات العليا من السكان .

ويتضح من دراسة كل اللقايا الأثرية والقسم المسمى « الفكرة العظمى » فى « كتاب التاريخ » ان حكام عصر شانج كانوا يهتمون اهتماما كثيرا بالتنجيم ، وانهم مارسوه بطرق متعددة . ومن بين تلك الطرق أنهم كانوا يعرضون قطعة من ذيل غطاء السلحفاة للحرارة ، ويجيبون على سؤال السائل من دراسة التشققات التى تظهر فيها . وفى طريقة أخرى كانوا يحفرون عددا من الحفرات البيضاوية الصغيرة فى أحد جوانب قطعة من العظم ، وكانت فى العادة من عظم كتف شاه ، ثم يحمون قضيبا معدنيا فى النار حتى يحمر ويضعونه فى تلك الحفرة ، ثم يجيبون على سؤال السائل من تفسيرهم للتشققات التى تظهر على الجانب الآخر لقطعة العظام . والتنجيم بوساطة عظام الكتف (Scarulimancy) كان ذائع الانتشار فى المناطق الشمالية من أوراسيا ، وفى أمريكا ، أما التنجيم بوساطة غطاء السلحفاة فيلوح أنه من أصل جنوبى ، وكان حكام شانج يستوردون ويربون السلحفاوات التى يأتون بها من الجنوب حتى تكون عظام غطاءاتها من النوع المطلوب . وفى طريقة التنجيم بوساطة عظام الكتف كان المنجمون فى عهد شانج يحفرون على العظمة نصوص الأسئلة المطلوب الاجابة عليها قبل تعريضها للنار وربما كان السبب فى ذلك هو الاعتقاد الذى كان سائدا ومعروفا فى الصين فى العصور المتأخرة بأن الآلهة صماء ، وانها لا تفهم المطالب التى ترفع اليها الا اذا كانت مدونة كتابة ، وهو اعتقاد لم يجد الكتاب انه من مصلحتهم تشكيك الناس فيه .

وكانت الأسئلة تتعلق قبل أى أمر آخر بشئون القصر الملكى ، يسألون عن الأوقات المناسبة لتأدية الشعائر ، والنتائج المحتملة للحروب التى يقومون بها ، وعما ينتظر المحاصيل . وكانت بعض عظام الكتف مسطحة تماما ، وكان بعضها مرقما مما يدل على أنها كانت تحفظ للرجوع اليها . وعلى احدى العظام نقرأ شيئا يدعو الى التسلية ويدلنا على تصرف المنجمين . فقد كان السؤال كما يأتى :

اذا خرج الملك للصيد فى التلال الشرقية (فى يوم كذا) فهل ستسقط الأمطار ، والى جانب التشققات التى دلت على الجواب بأنها ستمطر نجدهم أضافوا كتابة الجملة الآتية « وقد أمطرت حقا » .

كانت العلامات المستخدمة فى الكتابة فى عهد شانج رسوما لأشياء معروفة، وكان بعض تلك العلامات يرسم رسما قريبا جدا من الشكل الحقيقى ثم أصبح له بعد ذلك معنى تصويرى ، وهى الأصول المباشرة للكتابة الصينية الحديثة التى ترسم فى علامات ذات شكل مستطيل . وتختلف تلك العلامات عن مثيلاتها فى عهد أسرة شو ، وفى العصر المبكر من أسرة هان . وقد تطور شكل العلامات الحالية بسبب كتابتها بالفرشاة فوق الورق أما الكتابة فى عصر أسرة شانج فقد كانت ذات أسلوب اصطلاحى متقدم ، ولابد أنه مرت عليه أجيال كثيرة قبل أن تصل تلك العلامات الى الأشكال التى ظهرت فيها لأول مرة . وعلى أى حال فهى لا تشبه أى كتابة أخرى عرفت خارج الصين ، ومن المرجح جدا أنها نشأت فى هذه البلاد فى العصر النيوليتى .

كان الناس فى أيام أسرة شانج يعيشون فى قرى ، وكانت توجد على الأقل مدينة واحدة وهى العاصمة التى كانت المكان المعترف به كمقر للأسرة الحاكمة . وفى الآداب القديمة ، وعلى الأخص مؤلف شعرى وهو ال « شيه تشنج » (Shih Ching) اشارات كثيرة الى حياة عامة الشعب ، وكانوا على ما يظهر يشبهون من سبقهم فى حضارة « لنج — شان » فى العصر النيوليتى .

كان الرجال والنساء يغطون أجسامهم كلها بالملابس اذ كانوا يلبسون سروالا وفوقه معطف طويل ذو أكمام . وكانت المنازل مكونة من غرفة واحدة مشيدة بالطين ، ولها باب فى الناحية الشرقية ، ونافذة فى الحائط الغربى . وكان موقد النار فى وسط الحجرة وفوقه فتحة السقف لتصريف الدخان وتجديد الهواء .
وكانت العائلة تنام فى الركن الجنوبى الغربى من الحجرة ، وهو الركن المقدس فيها ، وكانوا يضعون فيه الحبوب التى يختزنونها ، وفيه كانت تقدم القرابين لكل من الاله « أو » (Ao) اله المنزل والاله « تساو » (Tsao) حارس الموقد .
وكان على النساء تصريف شئون المنزل والقيام بكل الأعمال داخله وعلى الرجال القيام بالزراعة والعناية بالحيوانات المستأنسة . وكانوا يقضون الشتاء فى الغزل والنسج اذ كانوا يستخدمون منذ أقدم العصور ألياف القنب ، والجوت ولكنهم استوردوا دود الحرير من الجنوب فى بداية عصر شانج ، وكانت العناية بها أحد الواجبات الملقاة على عاتق النساء .

وكانت جميع العائلات فى القرية متصلة بعضها ببعض بصلة القربى عن طريق الأب ، وكانت ادارة القرية قائمة على القرابة ، والواجبات المفروضة على جيل أمام جيل آخر ، ويحكم الناس الشيوخ من الرجال الذين كانوا رؤساء للعائلات .

ومن الأشياء الجديرة بالذكر أنه كان لكل قرية بيت عام يجتمع فيه مجلسها ، ويقيمون فيه بعض الاحتفالات العامة . وكان هذا البيت يستخدم من آن لآخر كناد يجتمع فيه الرجال ، ليشربوا الخمر معا أو للاستمتاع بالمسرات الأخرى . وفى خارج القرية كانت هناك غابة مقدسة وعلى مقربة منها ترعة جارية . وكانوا يحرصون كلما استطاعوا أن تكون كل من الغابة والترعة الى الجنوب من القرية حتى تكونا حائلا ضد التأثيرات الشريرة التى تأتى من تلك الناحية . وكانت تقام فى الغابة طقوس الربيع والخريف ، ويقصد من طقوس الربيع ازدياد الخصب ، وكان يحتفل بها الشبان والشابات ، وكان لها طابع التهتك ، أما احتفالات الخريف فكانت لتوديع فصل الشتاء ، وتقديم

الشكر على ما أتى اليهم من محصول ، وكانت تشمل رقصا يؤديه رجال يلبسون أقنعة تمثل رؤوس الحيوانات ويصحبها الاسراف فى الأكل وشرب الجعة ، ويشرف عليها رجال متقدمون فى السن ، وكان للموسيقى الوترية التى ينسبون اليها قوى سحرية دور كبير فى كل تلك الاحتفالات . أما الكائنات التى كانوا يستهدفون رضاها بالاحتفالات التى تقام فى القرية فكانت الأرواح الطبيعية المختصة بالمكان ، والحيوانات التى كان أهم ما فيها الحية والدب والثعلب الماهر الذى يستطيع تغيير شكله . وكان هناك أيضا نوع من عبادة الأسلاف من النوع الذى يتناسب مع حياة الفلاحين . والأرجح ، أن الطقوس كانت تقام لأجل أسلاف القرية كلها ، أما الطقوس التى كانت موجهة الى الكائنات العظيمة فكان يقوم بها الملوك والنبلاء .

وعاش الأرستوقراطيون فى عهد شانج حياة ترف ورفاهية ، كما نستدل على ذلك من القبور الملكية لتلك الأسرة ، لأنهم كانوا ينظرون الى تلك القبور كمنازل للموتى ، وكانت تؤثث بالأثاث اللائق بالقصور . كانت حجرة الدفن تبنى بناء متينا من الكتل الخشبية ، وتوضع فى أسفل بئر عمودية عمقها أربعون قدما أو أكثر ، وكان يوصل الى القبر ممر غير مسقوف . وبعد أن ينتهوا من عمل الجزء السفلى يملأون ذلك الممر والبئر بالتراب . ومن الأسف أن طريقة عمل القبور ساعدت على معرفة مكان المقابر ، وكانت المبالغ الكبيرة التى تدفع ثمنا للآثار التى يرجع تاريخها الى عهد شانج باعثا على نهبها وسرقتها على نطاق كبير . وكان الخدم الشخصيون والنساء المحببات الى الحاكم يقتلون ويدفنون معه ، وعندما يردمون الممر يرمون بالرؤوس المقطوعة حديثا فى التراب فتدفن وتترك شكلها مطبوعا فيه . وأكثر الرؤوس التى عثر عليها كانت تلبس خوذات برونزية مما يدل على أنها كانت لبعض حراس الحاكم ، ولم تكن رؤوسا للأرقاء أو الأسرى .

وكانت الجدران الداخلية للقبر مزخرفة برسوم تقليدية . وكان أثاث

القبر يحتوى على أوان برونزية لأجل استخدامها فى الطقوس ، كما يحتوى أيضا على أسلحة وأحجار منقوشة ، وكثير من الأدوات المصنوعة من حجر اليشـــم .

وقد عثر أيضا فى هذه القبور على تماثيل كبيرة من الرخام لها قيمة فنية عظيمة بالرغم من أن أسلوب صناعتها أسلوب مجنل ، ولهذه التماثيل أهمية خاصة لأنها لم يرد لها ذكر فى المؤلفات القديمة . وبالرغم من أن الكراسى والطاولات لم تستخدم فى ذلك العهد فقد كانوا دون شك يستخدمون أشياء أخرى مصنوعة من الخشب والمواد الأخرى التى تفنى بسهولة ، كقرابين الطعام والملابس ولفات الحرير . ومهروا فى نحت الأحجار ، ويلوح أنهم كانوا يصنعون الأشياء من اليشم ومن الرخام بطريقة النشر لا بطريقة التكسير والتسوية والصقل التى كانت الطريقة المألوفة فى العصور النيوليتية . وكانت طريقة عمل التماثيل بوساطة النشر مستخدمة أيضا فى بعض الحضارات القديمة فى جنوب شرقى آسيا ، وفى اليابان ، وبين الاسكيمو فى ألاسكا ، والهنود فى كولومبيا البريطانية ، عند صنعهم للأدوات من حجر اليشم . وهذا يصرف أذهاننا مرة أخرى الى تأثير ذلك الشعب الذى يخفى علينا أمره ، وهو شعب البحر الذى سبقت الاشارة اليه .

وكانت الأسلحة مصـــنوعة من البرونز ، وكان السلاح المفضـــل عند الالتحام هو السلاح المعروف باسم « كو » (Ko) وهو نوع من «التوماهوك» (Tomahawk)، فأس الحرب لدى الهنود الأمريكيين ، الذى استمد شكله من أحد أنواع المناجل البدائية التى كانت تستخدم فى الصين الشمالية فى العصور النيوليتية لحصاد الحبوب . ونعلم من المصادر الأدبية أن نبلاء شانج كانوا يركبون عربات يجرها جوادان ، وأن جيش « شانج » كان مكونا من راكبى العربات ، ومشاة لا يحملون الا أسلحة قليلة ، وأن سلاحهم المفضـــل هو القوس ، وكان على الأرجح من النوع المركب . وكانوا يلبسون خوذات من

البرونز ، وربما دروعا مصفحة فوق الجسم ، يصنعونها بطريقة خياطة قطع صغيرة من المعدن أو العظم فوق قماش أو أى مادة أخرى ذات مرونة .

وأهم ما عثر عليه فى المقابر هى الأوانى البرونزية التى كانت تستخدم للطقوس الدينية اذ نرى فيها قوة وبراعة فى التصميم ومهارة فى صب المعدن لم تستطع أى حضارة من الحضارات فى أى زمن ، وفى أى مكان فى العالم ، أن تتفوق عليها . كان الاناء كله على شكل طير أو حيوان ، وكانوا فى أغلب الحالات يزينون سطح الاناء برسوم صغيرة لبعض أنواع الحيـوان التى استفدنا كثيرا من دراسة موضوع اختيارهم لها . فبالرغم من أن المنطقة التى عاش فيها الشانج كانت فى شمالى الصين ، وبالرغم من الاعتقاد السائد بأن مؤسسى أسرة شانج أتوا من الغرب عن طريق الاستپس فاننا لا نرى الا عددا قليلا من حيوانات الشمال . كما أن الدور الكبير الهام الذى يلعبه الدب فى الطقوس الدينية فى جميع بلاد شمالى أوراسيا ، وأن طوطم أسرة شيا كان لنوعين من أنواع الدببة ، فان غياب هذا الحيوان بالذات من بين الحيوانات التى وردت فى زخارف الأوانى أمر يثير الدهشة اذ كانت الحيوانات المحببة اليهم فى الزخرفة هى النمر والجاموس والكباش والثيران . وكانوا يرسمون أجزاء منهـا فى زخارف تقليدية تعرف باسم « تاو — تيه » (.ào-t'ieh) ولهذا فان ذلك الاختيار يحملنا على الاعتقاد بأن فن شانج لم يتطور من فن رسم الحيوان فى الاستپس ، وانما جاء أصـلا من الجنوب ، ولم يأت من الغرب . وفى الوقت ذاته فان أشكال الأوانى البرونزية ، اللهم الا القليل منها ، يرجح انها مستمدة من أصول صنعت من الخشب والفخار وقرون الحيوانات . فالأوانى التى على صورة الحيوانات ذات سطوح مزخرفة بزخارف غائرة جدا يجعلنا نرجح أن الأصول التى نقلت عنها كانت من الخشب المنحوت . ومن المستحيل أن نجزم اذا كانت الزخارف التقليدية التى تغطى سـطوح تلك الأوانى زخارف للزينة فقط أو أنها ذات معان رمزية ، وذلك بالرغم من أن

الاهتمام الشديد الذى أظهرته شانج نحو الشعائر والطقوس يجعلنا نرجح الغرض الثانى . ولا يوجد فى أى حضارة أخرى خارج الصين أى شبيه لهذه الرسوم الزخرفية ، ولكنى أحس شخصيا بأن لها بعض الصلة بزخارف حضارة « دنج سون (Dong Son) » ولها علاقة أيضا بالفن فى خلال العصور التاريخية فى بعض المناطق التى اتصفت بشدة التمسك والمحافظة على حضارتها فى اندونيسيا وميلانيزيا ، ولها علاقة أيضا بفنون جزر الماركساس بپولينيزيا والماورى . وبالرغم من أن هذا الافتراض لا يمكن اثباته فلن يدهشنى اذا كانت البحوث الأثرية فى المستقبل ستثبت وجود أسلوب فنى فى منطقة جنوب شرقى آسيا فى العصور القديمة ، تفرعت منه جميع تلك الرسوم الزخرفية بما فى ذلك زخارف شانج نفسها .

والكمال الفنى للأوانى الطقسية البرونزية يدعو الى الدهشة والاعجاب وان الانسان ليجد نفسه عاجزا عن تصديق ما يراه ، لأن أعظم وأمهر المشتغلين بصب المعادن معرضون لأن يصادفهم سوء الحظ فى عملهم بين حين وآخر . ولكن يجب أن نضع فى أذهاننا أن الأوانى التى فى متناول أيدينا للدراسة انما هى أوان اختيرت بعناية وتدقيق ، لأن أحسن الأوانى البرونزية التى وصلت الى السوق التجارية عن طريق لصوص المقابر نسبها الدارسون الى عصر شانج ، ومن الجائز جدا أنه عندما تصل الى أيدينا البيانات الكاملة عن جميع ما عرف من تلك الأوانى البرونزية فسيظهر من بينها بعض الأوانى غير المتقنة الصنع ، لأن كمال الصناعة الفنية لا يمكن أن نعزوه فقط الى مهارة الصانع ولكن يجب أن نعزوه أيضا الى الغرض الذى من أجله صنعت تلك الأوانى ، وذلك لأن الأوانى القربانية غير الكاملة ربما كانت تسبب غضب الآلهة تماما كالاهمال فى أداء الشعائر . وفى أيام أسرة شانج كان البرونز نادرا جدا ، ولابد أنه كان يحتل المكانة التى يحتلها الذهب فى حضارتنا الحالية ، وان أى قطعة تظهر فيها تشققات أو عيوب فى صناعتها كانوا يعيدون صهرها

ويصبونها مرة بعد مرة حتى يحصلوا على اناء كامل الصنع . وعرفوا صب المعدن بطريقة الشمع المفقود ، وبطريقة قوالب من الفخار ، وقد عثر على قطع منها فى موقع العاصمة القديمة لشانج . ولسنا نعرف حتى الآن مصدر البرونز الذى استخدموه . ففى منطقتين من المناطق التى ذكرت فى كتاب « جزية اليى » (انظر الفصل ٣٦) يشيرون الى أنها كانت تنتج ثلاثة أنواع من المعادن مما يرجح أن النحاس والقصدير من أصل صينى . وعلى أى حال ، فان الأهالى كانوا يستغلون مناجم القصدير الغنية فى شبه جزيرة الملايو فى وقت كان فيه أهل الملايو أنفسهم ما زالوا يستخدمون الأدوات النيوليتية ، وهذا يدل على التجارة فى المعادن فى ذلك العهد . وعلى أى حال ، فان التحليل الكيموى لبرونز شانج سيظهر دون ريب اذا كانوا جلبوا أى قصدير من ذلك المصدر .

ويلوح أن تكون امبراطورية شانج كانت وسطا بين دولة تسعى لاخضاع ما جاورها ، وبين نظام الدولة الاتحادية . فالمقاطعات المختلفة التى تكونت فيها الامبراطورية كان لها استقلالها السياسى الداخلى ولم يكن هناك ما يشبه المجلس الامبراطورى أو جمعية عمومية للنبلاء . فكل مقاطعة من المقاطعات كانت تحكمها عائلتها النبيلة الوراثية التى كانت تخضع للامبراطور ، وتشترك فى الاستفادة من الطقوس الدينية التى يقوم بها . وكانت قوة السلطة المركزية تعتمد أكبر الاعتماد على شخصية الامبراطور ، فاذا كان الامبراطور ضعيفا حارب النبلاء بعضهم البعض . وفى جميع الأزمان كانت الامبراطورية تحارب جارا من جيرانها غير الصينيين . وفى عظام التنبؤات تتكرر الاشارة الى قبيلة وصفوا أهلها بأنهم « رعاة » كانوا يعيشون الى الغرب من بلاد شانج ، وكانوا يغيرون عليهم دائما لأجل الخطو على الرقيق ، وخصوصا لتقديمهم كضحايا آدمية ، وفى الاثبات التى ترد فيها ذكر القرابين والأضاحى يجد الانسان « الرعاة » على قدم المساواة مع الحيوانات المستأنسة الأخرى التى كانوا يقدمونها .

ولسنا نملك الا معلومات قليلة عن التنظيم الداخلى للمقاطعات ، ولكن من الأمور الواضحة انه كان يوجد فارق كبير بين النبلاء والعامة . ولا نعرف شيئا عن التنظيمات المالية ، ولكن من المحتمل أنها كانت فى أيام شانج مماثلة لما كان فى أيام تشو فيما بعد ، اذ كان الفلاحون يعملون لسادتهم ، بزرع حقول معينة تخصص لهم ، وكان القرويون يمدون سـيدهم بمشاة قليلى التسلح كلما ذهب الى الحرب . ويجب ألا ننسى أن النبلاء أنفسهم فى أيام شانج كانوا قليلى التسلح اذا قيسوا بالمقاييس الأوروبية فى عصر الاقطاع ، وكان الفلاحون مدربين على استخدام القوس المركبة التى كان فى استطاعتها أن ترمى بالسهم فيخترق أى درع كانوا يستخدمونها فى ذلك العهد . وقد استمرت هذه الحالة فترة طويلة من الزمن بعد زوال أسرة شانج ، وقد قيل على سبيل التهكم ان ذلك الاهتمام الشـديد برفاهية الفلاحين التى كان ينادى بها فلاسفة الصين ، وكانوا هم أنفسهم من الطبقة العليا ، ربما كان راجعا الى هذه الحقيقة .

وكان لحضارة شانج اتجاه قوى غير عادى نحو الدين والسحر ، ولكنه كان فى الوقت ذاته خاليا من الغموض والتصوف . كانت كل قرية تقوم بعمل احتفالاتها الخاصة المتصلة بنشاطها على مدار السنة ، وكانت تعبد أسلافها ، أما نبلاء المقاطعة فكانوا يؤدون طقوسا أخرى لصالح المقاطعة . ويلوح أنه كان لكل مقاطعة عدد من الآلهة الثانوية ، كما كان لها أيضا أرواح للجبال والقنوات المحلية . وأخيرا ، كان الامبراطور نفسه يؤدى طقوسا معينة لتكريم أعظم مجموعة من الآلهة ، وعلى الأخص الكائنات السماوية ، وبذلك تستفيد الدولة كلها من عمله هذا . وكانت الطقوس التى يؤديها الملك والنبلاء طقوسا ذات طابع رسمى شديد التمسك باشتراطات معينة اذ كانت هنـاك قوانين صارمة يجب اتباعها فيما يختص بنوع أوانى القرابين التى تستخدم فى كل مناسبة ، والقرابين التى تلائم هذه المناسبة ، كما لا يوجد شك فى أن كيفية

أداء تلك الطقوس كان يسير أيضا على تقاليد دقيقة لا تقل فى ضرورة اتباعها عن اختيار الأوانى والقرابين .

وكانوا يقدمون الحيوانات دائما كقرابين فى احتفالاتهم ، كما كان تقديم الضحايا الآدمية فى عهد شانج أكثر منه فى أى وقت آخر فى التاريخ الصينى . ولم تقتصر عبادة الأسلاف على أرواح الأسلاف كمجموعة ، ولكن كانت هذه الظاهرة ظاهرة عامة فى الطقوس التى يقوم بها النبلاء أو الملك . وتدل الصرامة فى الطقوس على أنها طقوس سحرية فى أهدافها ، كما كانت طقوسا دينية . وقد سلفت الاشارة الى أهمية التنجيم ، على حين كان المنجمون فئة خاصة على ما يظهر ، فقد كان يتحتم على الحكام أن يقوموا بتلك الطقوس بأنفسهم وأن يجمعوا فى شخصهم جميع الوظائف التى كانت مقســـمة فى المجتمعات الأخرى بين الحكام المدنيين والكهنة .

ولكى يقوم النبلاء بأداء ما عليهم من واجبات كان يتحتم عليهم أن يتلقوا التعليم الكافى ، وكان أكثرهم يعرفون القراءة والكتابة ، وهم يختلفون فى هذه الناحية اختلافا كبيرا عن النبلاء الاقطاعيين فى البلاد الغربية . كانت هناك مراسلات رســمية كثيرة ، وكانوا يفخرون بالمهــارة فى تحرير الخطــابات والمذكرات . وكان الاحساس بالخوف من نقد الآخرين وضرورة عمل كل شىء على الوجه الأكمل من الظواهر الهامة فى الحضارة الصينية فى عهد أسرة شانج وظل مستمرا فيما بعد مصحوبا برغبة قوية فى أن تبقى تلك الأعمال الأدبية ليراها من يأتى بعدهم . وبالرغم من أن النبلاء كانوا يقولون انهم هم الذين يكتبون مراسلاتهم الرسمية ، فمن المحتمل جدا أنه كانت توجد فى ذلك العهد فئة من الكتاب المحترفين الذين كانوا يعملون كمستشارين وناصحين للحكام ، وكانوا يلعبون دورا هاما فى ادارة الحكومة .

وما زالت أصول نشأة الشانج من الأمور الغامضة . فقد أتى أسلافهم الى الصين ، على ما يظهر ، من الشمال الغربى من الطريق الذى أتى منه الغزاة

فى جميع عصور التاريخ الصينى . زد على ذلك ، ان بداية الأسرة ، وهى حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . تتفق الى حد كبير مع غزو الآريين للهند وغزو بلاد الشرق الأدنى بجماعات مختلفة من شعوب الاستپس الذين كانوا يربون الخيل ويستخدمون العربات ، والنظرية المقبولة من جميع الباحثين بوجه عام هو أن الشانج هم الذين أدخلوا الى الصين عددا من العناصر الحضارية التى ترجع الى أصل غربى أى من غربى آسيا ، وبخاصة زراعة القمح والشعير واستخدام الخيل وحرب العربات وصب البرونز والكتابة . فالقمح والشعير يظهران لأول مرة فى هذا العهد ، وهما بدون شك يرجعان فى أصلهما الى الغرب ، ولكن الخيل والماشية والأغنام كانت معروفة فى حضارة شعوب اللنج شان . وليس هناك أى دليل على أن تأسيس أسرة شانج كان سببا فى زيادة تربية الحيوانات. زد على ذلك ، أنهم لم يستخدموا اللبن ، وهى ظاهرة لا يمكن تفسيرها اذا كانت حضارة شانج مستمدة من احدى الحضارتين اللتين كانتا معروفتين فى منطقة الاستپس .

ووجود الفخار المصنوع بوساطة عجلة الفخار فى حضارة اللنج شان دليل على معرفة العجلة قبل عهد شانج ، كما أن « كتاب التغييرات » يذكر أن المركبة وعربة الحرب كانتا معروفتين فى أيام الشيا . وصناعة أمثال هذه الأشياء بأدوات مصنوعة من الحجر عمل مضن صعب ولكنه ليس مستحيلا كما نعرف من دراستنا لحضارات شعوب أخرى مثل الشعب الپولينيزى وشعب المايا . أما صب البرونز والطرق التى استخدموها فى صب المعدن فهى دون شك من أصل غربى ، ولكن أشكال معظم أسلحة شانج وأوانيهم لاتشبه شيئا عثر عليه فى حضارات غربى آسيا حتى الآن . وكذلك شأن الزخارف التى عليها فهى فريدة فى نوعها ، أما فيما يختص بكتابة شانج فلا يوجد ما يشبهها فى أى مكان خارج الصين ، كما تجدر الاشارة الى أن غزاة الاستپس الذين كانوا يثيرون الفزع بين المدنيات التى تقع فى المناطق الواقعة

الى الغرب من الصين كانوا يجهلون تماما القراءة والكتابة . ثم ان ذلك الاهتمام الشديد بالطقوس الدينية والتنجيم ، وذلك الاحساس القوى بالاعتماد على قوى عليا ، وهى الظواهر التى تمتاز بها حضارة شانج ، تختلف اختلافا تاما عن الحضارتين اللتين كانتا سائدتين فى منطقة الاستپس .

وربما كان أكثر التفاسير احتمالا هو أن مؤسسى أسرة شانج كانوا جماعة قليلة العدد نسبيا وكانوا يمارسون الزراعة وتربية الحيوان كما كانت تفعل شعوب الاستپس قبل أن تصبح من البدو والرحل . وعرف هؤلاء المؤسسون الأوائل البرونز من صلتهم بالغرب ، اذ كان هذا المعدن معروفا وشائع الاستعمال فى تلك البلاد حوالى عام ١٥٠٠ ق . م . ، كما تعلموا الاعتماد الكبير على عربات الحرب التى ساعدهم على صنعها معرفتهم لهذا المعدن الجديد . وساعدهم المامهم بهذه الأشياء ، وجعلهم يتفوقون على غيرهم ، وكان هذا التفوق مع الاحتمال الكبير لوجود تنظيمات عسكرية لديهم باعثا على نجاحهم فى قهر السكان النيوليتيين فى شمالى الصين . وعلى أى حال ، فانهم ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه كل من غزا الصين . فقد أضافوا الى الحضارة المحلية بعض عناصر غربية قليلة فساعد ذلك على ايجاد تطورات جديدة فى التقاليد الصينية ولكنهم لم يكونوا سببا فى خلق أى ثورة حضارية .

وبصرف النظر عن أصل شانج فان منطقة شمالى الصين عند ظهور هذه الأسرة كانت منطقة تسكنها قبائل مستقلة ذات حضارات نيوليتية مختلفة ، وعند انتهاء أيامها كانت هذه المنطقة بالذات يسكنها شعب له حضارة واحدة ، لها طابعها الصينى الذى يميزها . وكان عصر شانج ، فى نواح متعددة ، صورة لمجرى التاريخ الصينى فيما تلا من عصور . لقد بدأ بغزو أجنبى تلاه تحضير الغزاة . وشهد عصر شانج رفع شأن الكتابة الى المكانة التى ظلت تتمتع بها فى الحضارة الصينية فيما بعد ، كما شهد نشأة احترام العلم ، وشهد أيضا وضع الأشكال والصيغات النهائية للطقوس الدينية ، وانتصار الأسلوب الفنى على

الانفعال العاطفى فى الصلة بين الانسان وبين القوى التى فوق الطبيعة. وتبلورت طرق تحديد معظم الواجبات المدنية والدينية لكل فرد. وقد سبب وجـود ارستوقراطية متعلمة من الكهنة والمحاربين والحكام امتزاجا كاملا لا ينفصم بين السلطة الدينية والدولة.

وفضلا عن ذلك، فان النتيجة لم تكن خلق حكومة لرجال الدين بأى صورة من الصور. فسلوك الصينيين كان دائما سلوكا عمليا جـدا، فجعلوا الدين أداة مكملة للحكم. وقد ظلت هذه الأساليب متبعة فى جميع عصور التاريخ الصينى وأنقذت البلاد من الصراع بين الكهنة والحكام، ذلك الصراع الذى مزق كثيرا من المدنيات الأخرى. حتى سقوط أسرة « شانج » ذاته نراه يضع أسلوبا للدعاية التى اتبعها فيما بعد كل من جاء بعدهم. فقد صور الغزاة من أسرة « شو » الذين قضوا على آخر أباطرة « شانج »، صوروا هـذا الامبراطور بأنه مثال للرذيلة والقسوة، وأنهم لم يأتوا الا كمحررين أرسلهم كائن علوى رحيم ليعاقب أسرة « شانج » على جرائمها، وليعيد الأمن الى النـاس.

الفصل السابع والثلاثون

الصين فى عصرها التاريخى المبكر

تدخل الصين عصرها التاريخى الصحيح بابتداء أسرة شـــو ، وتستكمل الحضارة الصينية معظم طابعها الذى تمتاز به . وكان جزء كبير من هذا الطابع موجودا بالفعل فى أيام شانج ، ولكن أثناء عهد أسرة شو تكامل ذلك الطابع . وفى الحقيقة يمكننا القول بأن شو كانت عهدا من العهود أكثر منها أسرة حاكمة، وبالرغم من أن اثبات أسماء ملوك الأسرات تقول بأن أيام شو استمرت من حوالى ١٠٠٠ ق . م . حتى عام ٢٢١ ق . م . فان الحكم الحقيقى لأباطرة هذه الأسرة انتهى حوالى عام ٧٧٠ ق . م عندما انتقلت العاصمة نحو الشرق الى مدينة « لو — يانج » (Lo-Yang) . ولكن حتى قبل ذلك الحادث بدأت القوى المخربة التى لا يمكن تجنبها فى أى نظام اقطاعى فى اضعاف السلطة المركزية . وأهم عمل قامت به أسرة شو هو وضع نظم اجتماعية متكاملة ونظم سياسية ودينية استطاعوا فى داخل حدودها أن يتمموا وينظموا الأساليب التى كانت موجودة فعلا فى الصين ، وما استعارت من الحضارات غير المتمدنة التى كانت الى الغرب منها . ومن الصعب أن نذكر الى أى مـــدى كان مؤسسو الأسرة مسئولين شخصيا عن ذلك ، ولكنهم كانوا أو كان مستشاروهم مسئولين دون شك عن تحويل الأساليب الحضارية التى كانت موجودة قبلهم الى نظام متكامل . وكان الملوك الأول من أسرة شو فى مركز ملائم يسمـــح لهم بعمل ذلك ، لأنهم كانت لديهم الخبرة فى مزج عناصر من حضارة شيا مع عناصر من حضارة شعوب الاستپس غير المتحضرة .

ومع أن العلماء الصينيين فى العصور المتأخرة اصطنعوا نسبا من ملوك شيا القدماء يربطهم بأسرة شو ، فمن الجائز أن يكون مؤسس هذا البيت كان نبيلا من سلالة شيا ، وكان يسمى « ليو » (Liu) الذى كان يعيش على الحد الشمالى الغربى لمنطقة شيا فى القرن الثامن عشر ق . م . ، وربما كان القوم غير المتحضرين الذين صادفهم هناك وأخضعهم لسلطانه ، كانوا على الأرجح من الشعب الذى كان يسميه الصينيون « الرعاة » الذين كانوا معرضين دائما لهجمات الشانج واستغلالهم لهم . وربما كان أولئك المقهورون على أمرهم ينظرون الى حكامهم من أسرة شيا نظرتهم الى الحامى لهم لأن شعار البيت المالك فى شو كان : « الاحسان هو أفضل سياسة » . وفى القرن الرابع عشر ق . م . كان ضغط القبائل الزاحفة من الغرب سببا فى اضطرار الشو ومن كانوا يوالونهم الى الاتجاه نحو الصين فاحتلوا المنطقة التى تعرف الآن باسم « فنج سيانج » (Feng Siang) ، وأصبحوا من موالى أباطرة شانج . وكانت حضارتهم عند وصولهم الى تلك المنطقة حضارة فيها أثر كبير من حضارة الاستپس . كانت السلطة المطلقة فى العائلة للأب كما كانوا ينتسبون أيضا اليه . وكان للخيل على ما يظهر أهمية كبرى فى اقتصادهم ، وكانوا فى البداية يركبونها قبل أن يستخدموها فى جر العربات ، وان ميل الشو الى استخدام العربات الحربية بمجرد حصولهم على المعلومات الضرورية يدل على أنهم لم يكونوا قد أتموا بعد معرفتهم لأساليب استخدام الخيل فى الحرب أو للأدوات اللازمة لذلك .

وتاريخ حكام شو ، كما هو مسطر فى كتب الغاب الهندى (البامبو) ، يدل على أنهم جمعوا بين عزيمة لا تكل للحصول على القوة ، وبين الحب الشديد للنظام ، وبين الاحترام العميق لعمل ما يعملونه حسب الأصول الواجب اتباعها . والى آخر وقت من أوقات تبعيتهم لأباطرة شانج كانوا يعاملون أولئك الأباطرة بجميع مظاهر الاحترام فى الوقت الذى كانوا يضمون اليهم بعض

الولايات الصغيرة واحدة بعد الأخرى حتى أصبحت الامبراطورية كلها تحت سيادتهم . وعندما تمكن الملك « ون » (Wen) من خلع آخر أباطرة شانج وأسس أسرة شو ، فعل ذلك مع جميع مظاهر الأسف المتسم بالأدب ، وبدأ فى الحال فى تنظيم المجتمع والدولة على أساس ما كان مسطرا فى الورق ، أو على الأصح مسطرا على البامبو كنظام دقيق. وكما ذكر المؤرخون الصينيون الذين كانوا دائما من المخلصين لنظرية « الرجل العظيم » ، كان من أثر تغيير العائلة الحاكمة تغيير فى نظام العائلة . كما يرجح أنها غيرت أيضا فى قواعد النسب بين النبلاء . وعلى أى حال فان تغيير كيان العائلة فى أى مجتمع عمل من أعظم الأعمال ، ومن المحتمل أن الذى حدث بالفعل أن العائلات النبيلة التى بقيت من أسرة شانج لقيت تشجيعا لتغيير القليل من عاداتهم ليجعلوا نظامهم العائلى متلائما مع النظام الذى كان متبعا بين نبلاء شو . أما عن الفلاحين فمن المرجح جدا أن الأسرة لم تحاول تعديل عاداتهم التى كانوا يمارسونها لأن أهم وظيفة لهم هى دفع الضرائب .

كان نبلاء شو منتظمين فى عائلات متحدة تشبه الى حد كبير الأرستوقراطية الصينية فى جميع العصور التالية . وكانت النواة لتلك العائلات جماعة من الذكور الذين ينتسبون الى سلف يجمعهم ، يعيشون معا فى منزل واحد يخصهم جميعا ، ويعملون متعاونين تحت سلطة أكبرهم سنا . وكانت هذه العائلات المتحدة والجماعات الأكبر منها التى تضم جميع الذين يحملون اسما واحدا ، والتى كانت العائلات تنتمى اليها ، تسير كلها على نظام الزواج من خارج العائلة . وكانت السلطة المطلقة للأب ، وكانت النساء اللاتى يولدن فى العائلة المتحدة لا يعدوهن تابعات لها . انهم لا يقدموهن لأرواح الأسلاف ، ولكن عند زواجهن كن يقدمن الى أرواح أسلاف أزواجهن ، ويصبحن بذلك أفرادا فى جماعة عائلته . وكان الزواج من الناحية النظرية مقصورا على زوجة واحدة ولكن عندما كانت تذهب عروس من النبلاء الى بيت زوجها كانت تصحبها

أخت أصغر منها ، وبعض الخادمات ويصبحن كلهن بصورة آلية محظيات للزوج . كانت المرأة تتبوأ مركزا عاليا وبالرغم من أن النساء النبيلات كن يعشن فى عزلة عن الرجال فانهن لم يحيين حياة الحريم المعروفة ، وكانت النساء فى ذلك الوقت البعيد يتعلمن القراءة والكتابة ، وهناك أدلة كثيرة على أن الأزواج كثيرا ما كانوا يستشيرون زوجاتهم حتى فى شئون الدولة .

وفى تنظيم امبراطورية شو ، ساروا على نسق العلاقات الوطيدة التى توجد بين الأفراد الذكور فى العائلة ، وكان أهم تلك العلاقات هى العلاقة بين الأب والابن . وكان المفروض أن هذه العلاقة يجب أن تكون الأصل للعلاقة بين الامبراطور والكائن الأعلى من ناحية وبين الامبراطور وشعبه من ناحية أخرى . وفى هذا العصر نشأ اللقب الامبراطورى « ابن السماء » فقد كان الامبراطور فى مركز الابن للكائن الأعلى ، ولكنه فى الوقت ذاته كان فى مركز الأب بالنسبة الى شعبه ، وكان المفروض أنه يقوم ازاءهم بواجب الأبوة المزدوج وهو تربيتهم واعالتهم فى رحمة ورفق ، واجبارهم على التحلى بالخلق الحسن . وكانوا يصرون أيضا على وجود علاقة عائلية ثابتة اصرارا قويا ، وهى العلاقة التى تخلقها فوارق السن بين الأجيال المختلفة وبين الأخ الأكبر والأخ الأصغر ، فعلى الصغار أن يحترموا ويطيعوا من هم أكبر منهم ، ونرى انعكاس ذلك فى سلوك وواجبات المراتب المختلفة من النبلاء تجاه بعضهم البعض . وأخيرا ، كانت هناك صلة أخرى وهى صلة لا شأن لها بالعائلة وهى صلة المعونة المتبادلة والثقة التى تفرضها الصداقة التى يمكن اتخاذها كأساس للولاء بين الحاكم الاقطاعى وأتباعه من النبلاء .

وزاد عدد المدن فى عهد أسرة شانج وكانت تنشأ واحدة بعد أخرى وقد استمر ذلك الاتجاه فى عهد أسرة شو . كان نبلاء شو يسكنون المدن ، وكانت المدن محصنة ، ومركزا للادارة ومكانا لتخزين الضرائب العينية التى يدفعها الفلاحون . وأصبحت المدن أيضا مراكز للتجارة ولصناعة الأدوات التى تحتاج

اليها حياة البلاط . وكان البلاط الاقطاعى مكونا من عائلة السيد ومن أتباعه الأرستوقراطيين ، ومن مستشاريه وموظفيه ، ولم يكونوا كلهم من أصل نبيل . وأصبحت تلك المدن مراكز للعلم والترف ، وكانت عونا وباعثا جديدا على تقدم المدنية .

ولم تتغير نظم حياة الفلاحين حتى تحت حكم أسرة شـــو على الأرجح الا قليلا عما كانت عليه فى أيام شانج . ولكن التنظيم النظرى لدولة شو شمل أيضا قرى الفلاحين ، ووضع لها تنظيمات وتحديدات معينة . وليس فى استطاعتنا أن نقول أكان نظام العائلات الثمانى الذى ورد وصفه فى المؤلفات قد نفذ بالفعل أو لم ينفذ ، ولكنه كان بكل تأكيد مثلا أعلى لهم . ويقضى هذا النظام بأن ثمانى عائلات من الأقارب تشيد مساكنها حـــول بئر يتوسطها ، وكانوا يقسمون الأراضى الزراعية التى حول القرية الى ثمان حصص متســـاوية فى مساحتها وقيمتها ، تعطى كل حصة منها الى عائلة ، وكانوا يتناوبون امتلاك هذه الحصص بين حين وآخر لتكون هناك مساواة تامة فى الفرص . والى جانب هذه الحقول الثمانية كان هناك حقل تاسع أصغر مساحة من الحقول الأخرى يزرعه أهل القرية مجتمعين ويعطى محصوله للسيد الاقطاعى . ومن الواجبات الملقاة على عاتق الفلاحين العمل فى اصلاح الطرق دون أجر ، وكذلك العمل فى التحصينات وفى الأشغال العامة الأخرى ، ومن بينها تشييد القصور للسادة الاقطاعيين . وفى وادى النهر الأصفر ، الذى كان وما زال قلب الامبراطورية ، شملت الأشغال العمومية المشروعات العظيمة الخاصة بالرى وحماية البلاد من خطر الفيضان ، وكانت الحاجة الى التنظيم والتعاون فى هذه المشروعات من الأمور التى قوت سلطة الحكام .

وقضى الشو على آخر ما بقى بين الصينيين من نظم سلطة الأم ، وأسسوا نظاما يقضى بأن يرث الابن الأكبر أباه . ففى خلال عهـــد شانج كان الميراث يؤول الى الأخ من أخيه قبل أن يتحول الى الابن ، وطالما كانت نتيجة ذلك هى

الاغراء بقتل الاخوة ، والمنازعات العائلية . وكان مجتمع شو مقسما الى طبقات ، وكان النبلاء مقسمين الى خمس مراتب حسب أهمية المناطق التى يحكمونها ، وكان النبــلاء من جميع المراتب الخمس يحصـــلون على اقطاعياتهم من الملك مباشرة لا من النبلاء الآخرين الذين كانوا أسمى منهم كما كان الحال فى النظام الاقطاعى الأوروبى . وفى التنظيم الأول للامبراطورية حرص أباطرة شو على تسهيل الانتقال من النظام القديم ، وذلك بتثبيتهم معظم العائلات الحاكمة فى حكم اقطاعياتهم الوراثية ، ولكنهم كانوا يعزلون أى شخص منهم يثبت عدم كفايته أو أن يكون غير أهل للثقة ، ويعطون اقطاعيته الى شخص آخر كان فى أغلب الحالات من أقارب الامبراطور .

ويلى النبلاء جماعة من موظفى البلاط والاداريين الذين كانوا يعتمدون اعتمادا مباشرا على الملك لأنهم كانوا يحصلون على دخلهم كمرتبات ، أو من الضياع التى كان يمنحها لهم . ويلى أولئك الموظفين بورجوازية قليلة العدد من التجار والصناع المحترفين المهرة ، فى حين يأتى فى آخر الصف الفلاحون بجموعهم الكبيرة .

وكان هناك فاصل واضح المعالم بين النبلاء والعامة . فكان النبلاء وحدهم هم الذين يلتحقون بالمدارس العليا ويتلقون تعليما كاملا فى الفنون العقليـــة الستة التى كانت ذات قيمة خاصة فى ذلك العهد ، وهى : الشعائر الدينية ، الموسيقى ، الرماية ، قيادة العربات ، الرياضيات ، والكتابة . وبالرغم من أن أباطرة شو افتخروا بفتحهم المدارس للعامة فان التعليم فى تلك المدارس كان مقصورا على التعليم الضرورى لحياتهم اليومية . ولكن مع هذا التحديد فى اتاحة الفرصة ، فهناك براهين كثيرة على أن كثيرا من الموظفين والقائمين على ادارة البلاد كانوا من العامة ، وقد زاد هذا الاتجاه كلما اتضحت عيوب انتقال الوظيفة عن طريق الوراثة . وأهم ميزة تمتع بها النبلاء كانت الحصانة من قانون العقوبات . ويقول أحد الأمثال التى ترجع الى ذلك العهـــد : « ان الشعائر

الدينية لا تنزل الى مستوى الشعب كما أن قانون العقـوبات لا يرتفع الى مستوى النبلاء » . فالنبيل لا يمكن أن يقتل اذا اقترف أى جريمة ، ولكن اذا ثبتت ادانته فى جريمة كبيرة كانوا يضطرونه لينتحر بيده . أما عامة الشعب فكانوا معرضين لأن يوقع عليهم قانون عقوبات صارم ، ويوقع العقاب عليهم سواء فى أشخاصهم أو فى ممتلكاتهم .

وفى مقابل ما كان يقدمه عامة الشعب من أعمال السخرة ودفع الضرائب كان النبلاء يتعهدون بالدفاع عن رعاياهم وفى القيام بأداء ما يلزم من العلاقات الودية المنظمة مع تلك القوى التى هى فوق قوى الطبيعة التى يعتمد عليها رخاء ورفاهية الولاية . وكما كان الحال فى عهد أسرة شانج كان النبيل من أى فئة من الفئات يقدم القرابين للكائنات التى فى منطقته ولبعض أسلافه هو ، وكان عددهم يتوقف على مركزه . كان الامبراطور يقدم القرابين لسبعة من أسلافه والنبيل الذى ينتمى الى أرفع الفئات يقدم الى خمسة فقط وهكذا . أما القرابين التى تقدم الى السماء ، وهى أعظم أنواع القرابين جميعا ، والتى كانت تتوقف عليها رفاهية الامبراطورية كلها ، فكان الامبراطور وحده هو الذى يمكنه القيام بتقديمها ويتحتم عليه أن يسـتخدم أدوات طقسية خاصـة ؛ وهى الأوانى الامبراطورية ذات الأرجل الثلاث .

وفى القرون الأخيرة من عهد شو عندما تضاءلت السلطة الزمنية للامبراطور حتى كادت تتلاشى ، فان امتلاكه لهذه الأوانى كان يعطيه الحق فى استخدام اللقب الامبراطورى وأن يقوم بأداء وظيفة تقديم القرابين الامبراطورية .

واتضح بعد ذلك أنه لا يمكن السير على النظـام السياسى المركز الذى وضعه مؤسسو أسرة شو ، ويرجع السبب فى انهياره الى عوامل متعددة . فقد وضع النظام الأصلى مسئوليات أكثر من اللازم على عاتق الامبراطور ، بينما كانت القواعد الصارمة التى تحدد من يخلفه فى الملك قد جعلت أمر شخصية

الامبراطور الجديد شيئا فى يد القدر ، وكثيرا ما كان هذا النظام سببا فى أن يتولى العرش أباطرة ضعفاء أو شريرون .

وكانت الامبراطورية معرضة لهجمات تشنها القبائل غير المتمدنة التى كانت فى الشمال الغربى وفى الجنوب . ومع مضى الزمن أصبح نبلاء شو نبلاء عسكريين ينحصر اهتمامهم فى الحرب دون شيء آخر . وكانوا شديدى الرغبة دائما فى توسيع رقعة ممتلكاتهم على حساب جيرانهم الأضعف منهم ، كما كانوا شديدى الرغبة فى حماية الامبراطورية من أى اعتداء أجنبى . وحتى عام ٧٠٠ ق . م . كانت جيوش شو ما زالت تسير على التنظيم القديم وهو أن يسير النبلاء الى الحرب وهم يقودون عرباتهم ويحيط بهم المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة . ولكن جماعات الفلاحين الاقطاعيين التى كانت تساق الى القتال حلت محلها مع مرور الزمن جيوش ثابتة من الجنود المحترفين . وزاد ذلك من الأعباء التى على عاتق الفلاحين الذين أصبحوا فى هذه الحالة مكلفين بدفع نفقات المنظمات العسكرية لسادتهم الاقطاعيين ، كما كانوا مكلفين أيضا بدفع نفقات بلاطهم ، وكان هناك عدد كبير من البلاطات فى المدن المختلفة وكان كل منها يتنافس مع الآخر فى الفخامة ومظاهر الفخفخة . واستخدم السادة الذين كانت اقطاعياتهم قريبة من الحدود كثيرا من الجنود المرتزقة ، فأضاف ما كان يقوم به أولئك الهمج غير المتحضرين ، والذين لا يخضعون تماما للنظام ويميلون دائما الى القيام بأعمال النهب ، شيئا كثيرا الى متاعب عامة الشعب . وتكررت ثورات الفلاحين ، وكان من أسبابها التى ورد ذكرها كثيرا ، ما تحدثه حفلات صيد النبلاء من تخريب للحاصلات وغيرها من الممتلكات ، وفى هذا دلالة على أن نبلاء شو كانوا يمتلكون مناطق شاسعة لأجل الصيد ومطاردة الحيوانات ، مثل أمثالها التى كانت للمغول فيما بعد .

وتحت ضغط الحروب المستمرة مال النبلاء الى ترك التعليم وتركوا الادارة المدنية فى أيدى جماعة ناشئة من « العلماء — الموظفين » المحترفين .

وهكذا أصبح التعليم الذى كان احتكارا لطبقة النبلاء من الأمور المباحة للعامة وافتتحوا فى مدن كثيرة مدارس تعلم جميع العلوم الرفيعة ما عدا الرماية وفن قيادة العربات . وكانت وظيفة المستشار السياسى للحكام الاقطاعيين من الوظائف المربحة ، وكان العامة الذين درسوا التاريخ وتعلموا المهارة السياسية يبحثون عن رعاية أحد الحكام لهم ، وكان مما يتفق تمام الاتفاق مع فكرتهم عن الشرف أن يتركوا ولاياتهم التى ولدوا ونشأوا فيها ، ويقبلوا خدمة أى نبيل يدفع لهم بسخاء . كان فلاسفة القرنين السادس والخامس قبل الميلاد مثل «كونفوشيوس» و « منكيوس » وغيرهما من تلك الجماعة ، جماعة العلماء — الموظفين ، ويمكننا أن نفهم بسهولة ما كان يشغل أذهانهم فى نظمهم الفلسفية ازاء المشاكل الاجتماعية والسياسية اذا وضعنا فى أذهاننا نشأتهم وحياتهم الأولى .

ويلوح أن حالة الحرب المستمرة وعدم الاطمئنان وقبول الكثيرين من غير المتمدنين فى المجتمع الصينى أضعفت العقيدة فى مفعول الطقوس القربانية القديمة . ولما كان أداء تلك الطقوس ، من الناحية النظرية على الأقل ، هو العمل الأساسى للامبراطور فقد كان ذلك أيضا من أسباب ضعف السلطة المركزية .

وما وافى عام ٧٠٠ ق . م . حتى انقسمت الامبراطورية الى أربع عشرة ولاية تتنازع فيما بينها ، وأصبح مركز امبراطور شو شبيها بمركز الامبراطور الرومانى المقدس فى أوروبا فى العصور الوسطى . كان له صيت ذائع كبير ولكن ليس لديه الا سلطة فعلية ضئيلة ودخل ضئيل ، وانحصرت السلطة السياسية للامبراطور فى ولاية واحدة ، وكانت ولاية صغيرة نسبيا ، وهى التى كان حاكما لها بحكم التقاليد ، وانحصر دخله فيما يدفعه فلاحو تلك الولاية من ضرائب .

وليس هناك ما يدعونا الى شغل أنفسنا بأسماء تلك الولايات الأربع عشرة ، أو تلك التغييرات السريعة فى مصائر بيوتها الحاكمة . وفى عام ٤٦٨ ق . م .

وهو بداية العصر الذى يعرف عادة باسم عصر « الولايات المتحاربة »[1] ، لم يبق من الاقطاعيات الأصلية لامبراطورية شو الا ثلاث فقط ، أهمها ولاية « تشى » (Ch'i)فى شمال ووسط الصين . استمتعت هذه الولاية بعهد من القوة والرخاء تحت حكم ولاة عقلاء أنشأوا نوعا من رأسمالية الدولة وذلك بامتلاك الحكومة لمناجم الفحم والحديد وفرض الرقابة على التجارة . وفى الشمال الغربى كانت توجد ولاية « تشين » (Ch'in) وكانت ولاية جديدة أكثر سكانها من الهمج من غير المتحضرين وهى أقوى الولايات ، أما فى الجنوب فقد كانت هناك الولاية التى نشأت حديثا وهى ولاية «تشو» (Ch'u) التى كانت تشغل الجزء الأوسط من النهر الأصفر والتى كانت تمد سلطانها شمالا وتحاول أن تجعل الصين كلها تحت حكمها . وكان فى ولاية « تشو » — شأنها شأن ولاية « تشين » — عناصر أجنبية قوية أتت اليها من القبائل الجبلية الجنوبية .

وفى القرن الرابع ق . م . على وجه التقريب بدأت ظاهرة جديدة . كانت قوة جيوش الصين قبل ذلك الوقت راجعة الى العربات المسلحة ، ولكن الولايات الشمالية الغربية بدأت فى استخدام الخيل ، ومن المحتمل أن هذا العصر شهد فى منطقة الاستپس على الأرجح ، تطور الأساليب الفعالة فى استخدام الخيل فى الحرب . فان الجمع بين السرج الخشبى ، والركاب ، والقوس المركبة ، والفرسان المدربين الذين كان فى قدرتهم الهجوم فى صف واحد وفى الوقت ذاته يحسنون المناورة ، كان الجمع بين كل هذه الأشياء تجديدا فى فن الحرب ، وكان له أثر ثورى مثل اختراع السيارة المصفحة أو الطائرة فى العصور الحديثة ، فغير توازن القوى على طول حدود الصين التى تواجه مناطق الاستپس .

---

(١) التاريخ الأصح لبداية عصر الولايات المتحاربة هو عام ٤٨١ ق . م . واستمر حتى عام ٢٥٦ ق . م . (المترجم)

كانت العربة الحربية أداة باهظة التكاليف ، وكانت صعبة فى صناعتها كما كان الاحتفاظ بزوج من الجياد اللازمين للعربة مشكلة كبيرة فى المناطق التى يقوم اقتصادها على الزراعة فقط . كان للولايات الصينية المنظمة جيدا فائض اقتصادى يساعدها على انشاء قوات كبيرة من سلاح العربات والانفاق عليها ، أما البدو فكانت تنقصهم المهارة والموارد المادية لانشاء مثل هذا السلاح .

كانت العربات المسلحة سلاحا لا يمكن أن يقاومه أو يقف أمامه جنود المشاة أو خيالة غير مدربين ، ولم ينجح الهمج غير المتحضرين فى غزواتهم الا فى أوقات الاضطرابات السياسية . ويمكن للبدو الذين يعيشون على رعى الحيوان أن يقوموا بقليل من المال بصنع الأدوات اللازمة لركوب الجياد ، كما أن حياة الرعاة تتيح لهم فترات راحة طويلة ، ولا تحتاج صناعة الأقواس المركبة والسروج الخشبية الى أى معدات لا يمكن نقلها عند انتقال المعسكر كله من مكان الى مكان . وبعد ظهور معدات ركوب الخيل أخذت شعوب الاستپس تغزو جيرانها المستقرين وقتما شاءوا ، وكانت الصين أول من تلقى الصدمة الناشئة من تلك الهجمات ولكن لم تمض الا قرون قليلة حتى ركعت أوروبا ، حتى فرنسا فى الغرب ، على ركبتيها أمام فرسان الهون .

وعندما أخذ الجنود المرتزقة من الشعوب غير المتحضرة يجدون طريقهم الى الجيوش الصينية ، اتخذت الحروب الصينية طابعا جديدا خطيرا وزاد سفك الدماء . كان السكان الذين يقيمون فى المدن المحصنة ، وهم الذين كانوا مركز القوة فى الدفاع الاقطاعى ، يخشون من المقاومة الشديدة خوفا من المذبحة المنظمة التى كانوا يعاقبون بها المدن التى تشتد فى المقاومة ، وذلك بعد استيلائهم عليها . وكذلك كان الشأن مع الجنود المأسورين . كان الأسرى فى العصور السابقة يتركون أحرارا فى العادة عند نهاية المعركة ولا يصيبهم شىء أكثر من علامة تحقير مثل صلم احدى الأذنين ، ولكنهم الآن كانوا يقتلون جميعا لاضعاف قوة الرجال المدربين الذين كانوا تحت تصرف العدو . وقد

احتفظت الوثائق الصينية ببيانات دقيقة عن عدد الرؤوس التى قطعت ، ويقال انه بعد الاستيلاء على مدينـــة « تشا نجپنج » (Ch'angping) قطعت رؤوس ٤٠٠ر٤٠٠ شخص . وربما كان فى هذه الأرقام شيء من المبالغة ، ولكن لاشك فى أن الاستمرار فى ازهاق الأرواح يحتم القضاء على الكثير من السكان ويفتح الباب أمام تدفق المهاجرين من الجــيران غير المتحضرين . ولما كان الاقتصاد الصينى يعتمد اعتمادا كبيرا على وجود عدد كبير من الفلاحين الذين يدفعون الضرائب فمن الجائز جدا أن الحكام الاقطاعيين كانوا يشجعون هذه الهجرات ، وسرعان ما كان يتحضر أولئك المهاجرون الجدد ولهذا لم يكن لذلك أى تأثير ذى قيمة على المدنية الصينية .

وبالرغم من جميع المصائب التى حلت بالبلاد ، أو ربما بسببها ، فان الوقت السابق مباشرة لعصر الولايات المتحاربة كان وقت ازدهار ثقافى منقطع النظير . فزادوا من انشاء المدارس الخاصة التى كانت تعمل جنبا الى جنب مع المدارس التى كانت ترعاها الدولة ، وفى أحيان كثيرة أخذت كل اختصاصاتها ، وسمحوا للعامة بالالتحاق بتلك المدارس فأثمرت مجموعة من المتعلمين المثقفين التى تعتبر بحق أعظم ما ظهر من نوعها فى أى مكان فى العالم القديم . كان جميع أولئك الجهابذة معنيين بالمشكلة العملية ؛ وهى ايجاد وسيلة للتخلص من الآلام التى جلبها سوء الادارة الحكومية ، تلك الآلام التى جعلت الحياة غير محتملة . ووجد كثير من الفلاسفة كثيرا من الحلول ، وأهمها النظم التى وضعها « كونج فوتسو » (K'ung Fu Tzu — كونفوشيوس) و « لاوتسو » (L'au Tz) و « موتسو » (Mo Tzu) . واستطاع الأولان منهما أن يتركا أثرا عميقا فى الحضارة الصينية وخصوصا مدرسة كونفوشيوس التى كانت مسئولة مسئولية مباشرة عن تغيير كثير من النظم الحكومية بفضل تعضــيد الحكام لها . ويصعب على العالم الأوروبى الذى لا يستطيع قراءة العــلامات الصينية أن يرى صورة واضحة لهذه الفلسفات ، فان اختصار الجمل اختصارا

شديدا يكاد يجعله شبيها بالمراسلات التلغرافية التى تبدو غير واضحة المعنى فى بعض الأحيان ، وكثيرا ما يجد الانسان تفسيرات مختلفة فيما كتبه العلماء الصينيون أنفسهم لتلك النصوص القديمة .

نشأ « كونفوشيوس » فى شمالى الصين ، وكان مقر مدرسته التى أنشأها فى ولاية « لو » (Lu) التى كان يحكمها فى ذلك الوقت حكام من أسرة شو . كان « كونفوشيوس » أعظم علماء عصره ، وكان يهتم اهتماما كبيرا بدراسة أحداث التاريخ ويعتقد اعتقادا جازما بأن الدولة المنظمة تنظيما صارما التى أسسها أول أباطرة شو كانت العصر الذهبى للبلاد ، فأعاد النظر فى وثائق ذلك العهد وجعلها وثائق مثالية ، وكتبها فى الصورة التى ما زالت حتى الآن بين أيدينا . كانت تعاليمه تستهدف ناحية خلقية ، ولكنها خلت خلوا تاما من تأثرها بالقوى التى فوق قوى الطبيعة . ومن الصعب ترجمة آرائه ترجمة دقيقة الى لغات أخرى ، ولكنا نعرف تماما أنه كان يؤمن بأنه توجد جاذبية طبيعية بين الأشخاص ، نجدها واضحة جدا بين أفراد العائلة ، ومن الممكن أنها تمتد حتى تشمل الجنس الانسانى بأكمله . ولكى نضع هذه الجاذبية موضع التنفيذ كان من الضرورى وضع تعريف دقيق صحيح لما سماه « الأسماء » اذ أن هذا التعريف يعنى فى الفلسفة الكونفوشية ما يذكرنا بالأشياء الكاملة فى الفلسفة الأفلاطونية . كانوا ينظرون الى « الأسماء » بأنها حقائق موجودة فى عالم الآراء .

وتقابل هذه « الأسماء » من وجهة نظر عالم الاجتماع الحديث الجمع بين المركز الثابت ودوره المقترن به ، أى ان « الاسم » يتكون من فهم المركز الصحيح لأى جماعة معينة من الأشخاص فى الكيان الاجتماعى ، ومن معرفة ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات تسير جنبا الى جنب مع ذلك المركز . وفسروا الجزء الثانى بأنه قواعد السلوك وبذلك سهلوا تعلمها تعلما موضوعيا وبطريقة آلية . فاذا أحسن شخص من الأشخاص فى أداء دوره فان ذلك يقوى

من مركزه الثابت . فرئيس الوزراء الذى يؤدى واجبات وظيفته كما يجب ، هو وحده الذى يمكن أن يسمى رئيس وزراء . وكذلك الامبراطور ، فهو كفرد من الأفراد كان له الحق فى أن يعتبر ابنا للشمس ، ولكن طالما كان قائما بتأدية دوره الامبراطورى على الوجه الصحيح ، فاذا قصر فى ذلك أصبح ، لا من حق الرعية فحسب ، بل من واجبها أن تنحيه من عمله ، وأن تبحث عن شخص آخر ليجلس على العرش الامبراطورى . ولما كانت رفاهية الامبراطورية تعتمد على رضا السماء فان فشل الامبراطور فى أداء واجباته تتسبب عنه سلسلة من المصائب التى تلحق بالناس ، وعلى العكس من ذلك فان حق خلفه فى تولى الوظيفة يظهر فى نجاحه فى اعادة النظام والرخاء . والكونفوشية فلسفة فريدة بين الفلسفات التى ظهرت قبل القرن الثامن عشر ، وهو ذلك العصر المستنير الذى حفظ للرعية حقها فى الثورة .

وكان « كونفوشيوس » ، من الناحية العملية شخصا محبا للتدقيق وصرف معظم جهوده فى ايضاح الأدوار الاجتماعية المختلفة . وكان محبا للتجوال ، كغيره من العلماء المشتغلين بالادارة فى ذلك العهد ، ويذهب من بلاط الى آخر بحثا عن حاكم يرغب فى وضع نظرياته موضع التنفيذ . وأخيرا عين « كونفوشيوس » فى وظيفة حكومية صغيرة فى ولاية « لو » ، ويقال عنه انه فى أواخر أيامه فى بلاط « لو » صحب حاكمه فى احدى الأسفار وأبدى ملاحظة بأن سير الركب يمثل حالة الشئون الدنيوية : فالمباهاة والرذيلة (ويقصد بذلك الحاكم ومحظيته المفضلة) فى المقدمة ، والحكمة والفضيلة (أى كونفوشيوس) تسير بعيدا فى الخلف .

ودخلت بعض التعديلات فى تعاليم مدرسة « كونفوشيوس » على يدى اثنين من تلاميذه وهما « منكيوس » (Mencius) — و « شين تسو » (Hsün Tzu) اللذان اتفقا على الرأى الأصلى فيما يختص بـ « الأسماء » ولكنهما اختلفا اختلافا تاما فى موضوع الأخلاق ، أهى مطابقة للطبيعة أم لا .

ومن هنا اختلفا على فعالية « الجاذبية » بأنها القوة الدافعة فى السلوك الطيب . كان « منكيوس » يؤمن بالخير الغريزى فى الطبيعة الانسانية ، وكان الفرد ، حسب رأيه ، اذا تركوه وشأنه يتجه نحو الخير بطريقة آلية كما تسيل المياه منحدرة على جوانب التل . ولهذا عارض أتباعه بشدة جميع أنواع الاجبار الاجتماعى . أما « شين تسو » (Hsün Tzu) فكان يعتقد أن الطبيعة الانسانية فى جوهرها ليست حسنة وليست سيئة ، وكان يعتقد أيضا أن الاستقامة ليست الا عادة يمكن الحصول عليها فقط من تكرير السلوك الحسن، وبذلك يكون هذا الفيلسوف هو أول شخص تادى بما تقول به مدرسة علم النفس الخاصة بالشخصية عن « نظرية التعليم » . وتمشيا مع هذه النظرية فقد شك « شين تسو » أيضا فى أفضلية العصور الماضية . وكان من رأيه أن تقدم المجتمع لم يكن الا عملية تقدمية يستطيع الحكماء المعاصرون أن يفهموها جيدا وأن يقودوها خيرا من غيرهم .

وفى العصر المتأخر من أسرة هان قبلوا الفلسفة الكونفوشية بعد تقلبات مختلفة قبولا ظاهريا كمرشد فى تنظيم الامبراطورية . وهناك قصة ، ربما تكون قصة لا أصل لها ، وهى أن أحد أباطرة أسرة هان ، وكان قد أحس أن قوة النبلاء الاقطاعيين قد أخذت تتزايد ، وأنها أخذت تسبب له المصاعب أثناء حكمه ، بعث فى طلب أحد العلماء الكونفوشيين وسأله كيف يتحاشى ضرر هذه الجماعة . ويقال ان العالم أجابه :

« اسمح لهم بأن يقسموا ممتلكاتهم بالتساوى بين أبنائهم » . وأعجب الامبراطور اعجابا كبيرا بما فى هذه النصيحة من حكمة الى درجة جعلته يقرر الكونفوشية فلسفة رسمية للدولة .

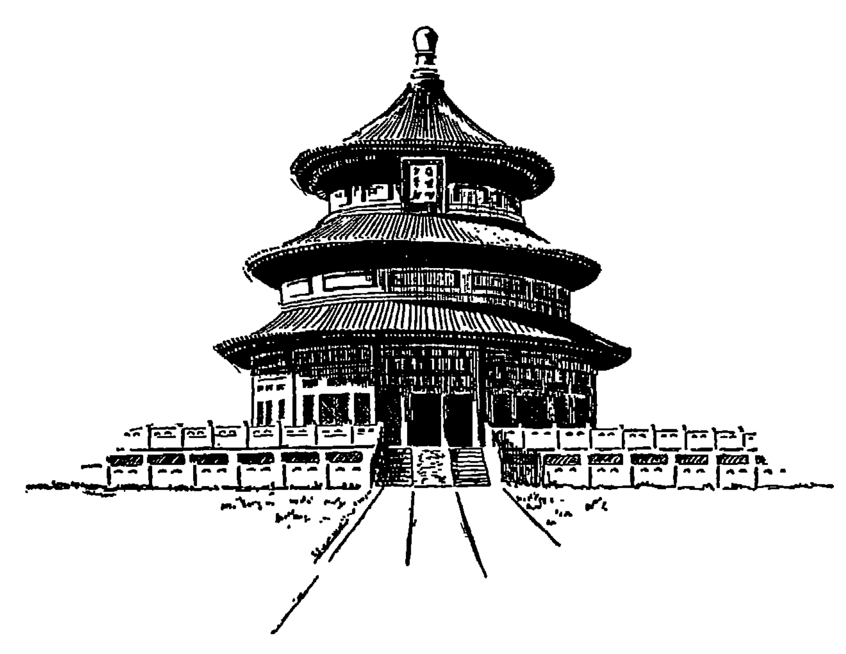
وحتى لو صحت هذه القصة ، فليس فى مقدور حادث واحد أو عطف رسمى أن يفسر لنا الطريقة التى جعلت الفلسفة الكونفوشية قادرة على السيطرة على التفكير الصينى قرابة ألفى سنة ، وربما كان مفتاح حل تلك المعضلة

هى تلك الميزة فى الخلق الصينى التى سماها «فرانسيس شو » (Erancis Hsu) « حالة موجهة » . فطبقا لهذا التحليل العميق نجد أن الشخص الصينى العادى حريص على فهم معظم الحالات أو المواقف التى يجد فيها نفسه وأن يلائم سلوكه معها ، ورغبته فى أن ينجح فى تلك الملاءمة تجعله يضعها فوق أى قيمة مجردة . والفلسفة الكونفوشية ، بما فيها من تعريف صريح للحالات الثابتة والأدوار التى تتعلق بها توضح المواقف الاجتماعية التى تلعب دورا هاما فى حياة أى فرد ، وتمده بأساليب خلقية جاهزة ليستخدمها فى تلك الحالات .

أما فلسفة «لاوتسو» (Lao Tzu) فهى تتعارض مع فلسفة «كونفوشيوس» فى كل نقطة تقريبا . ففى الوقت الذى نجد فيه مدرسة « كونفوشيوس » تركز جهودها على العلاقات الانسانية ولا تمتدح القوى التى فوق قوى الطبيعة الا بمناسبة اصرارها على وجوب أداء الطقوس على الطريقة الصحيحة ، نجد أن مدرسة « لاوتسو » تتجاهل العلاقات الانسانية وتركز جهودها بدلا من ذلك فى فهم الكون ، ويشمل ذلك فهم مظاهره التى يمكننا اعتبارها قوى فوق القوى الطبيعية . وحيثما تبحث المدرسة الكونفوشية بصفة دائمة عن تعريفات أوضح وأسهل لما فيها من آراء ، وكان مثل هذا البحث يحتم الاشادة بالعلم وبخاصة دراسة التاريخ ، نجد أن مدرسة « لاوتسو » تجنح الى التأمل وفحص النفس وتقنع بترك أفكارها الأساسية فى صورة غامضة وتبحث عن الرد على المشاكل بطريقة الالهام أكثر من بحثها عنها فى دراسة السوابق .

ومن الحقائق الهامة أن هذه المدرسة ، وتعرف عادة باسم « الطاوية » ، نشأت فى جنوبى الصين وكانت على ما يظهر محاولة لتنظيم الآراء والعقائد التى كانت سائدة قبل ذلك فى تلك المنطقة . ومن المرجح أن الطاوية تطورت عن عبادة الطبيعة التى كانت منتشرة هناك وعن الاعتقاد غير المنظم فى القوى التى فوق قوى الطبيعة ، وذلك فى الوقت الذى سبق ظهور الصين كبلد له وحدة سياسية . ودخلت فى هـــذه الديانة عناصر شعبية كثيرة كثرة تجعلنا

لا نعرف على وجه التأكيد أكان « لاوتسو » نفسه شخصية حقيقية أو لم يكن . فهناك عدد كبير من الآلهة الطاوية وبعضها كائنات ذوات قوى فوق قوى الطبيعة مثل ملك السماء والهة الرحمة . وقد ساووا بين الهة الرحمة — وكانت تسمى « شى وانج مو » (Hsi Wang Mu) — وبين احدى القديسات البوذيات ، كما ساووا بينها فى بعض الجهات التى انتشرت فيها المسيحية ، وبين السيدة العذراء . والآلهة الطاوية الأخرى ليسوا الا أبطالا أسطوريين قدماء . فاله الحرب الطاوى هو أحد القادة المشهورين الذى عاش ومات فى القرن الثالث الميلادى . ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أن يفكر الانسان فيما اذا كانت الصوفية الطاوية والصوفية الهندية لا ترجعان الى أصل ما فى الحضـارة المشتركة فى جنوب شرقى آسيا ، لأن تلك الحضارة كانت ذات أثر على كل من الديانتين .



معبد السماء ، فى بيكين

والفكرة الأساسية فى فلسفة « لاوتسو » أن الكون فى حالة مستمرة من التغيير والتعديل فى داخل ميدان القوة التى كونها عنصران متعارضان وهما الـ « ين » (Yin) (الأنثى) والـ «يانج» (Yang) (الذكر) ، ولم ير الحكيم الصينى أن هذين العنصرين كانا فى صراع بل كانا متوازيين كقطبين متعادلين فى مغناطيس واحد . كان كل منهما مبهما غير شخصى ، ولا يعنى بالمبادىء الخلقية .

وكانت الفكرة التى تنص على أن الكون ليس الا ميـدان حرب بين « هرمز » (Ormuz) و « وأهرمان » (Ahriman) أو بين الاله والشيطان لدى المسيحيين ، والمطلوب من كل انسان أن يختار أحد الجانبين ويأخذ مكانه بين الصفوف لمحاربة عدوه ، فكرة غريبة وبعيدة تماما عن الفلسفة الطاوية . كانوا يرون فى الين واليانج أنهما كانا عادة فى حالة توازن يمكن اقلاقه لفترة مؤقتة ، والرجل العاقل هو الذى يتخذ الطريق الوسط أو « الطاو » ، الذى يمكن أن تتضح معالمه أمام الانسان نتيجة للتأمل ، وعلى الأخص بين أحضان الطبيعة غير متأثر بالنشاط الانسانى . والرسوم الصينية النموذجية للمناظر الطبيعية ، بما فيها من جبال ومسقط للمياه وأشجار كبيرة ، وفى مكان منزو منها نجد رجلا مرسوما فى حجم صغير وهو جالس يتأمل انما تعبر خير تعبير عن تلك الفكرة الطاوية . فأمام الطبيعة وقواها العظيمة يحس الانسان بأنه صغير حقا ، واذا أراد أن يتخذ طريقا رشيدا فعليه أن يفهم تلك القوى حتى يتجنب الاصطدام بها .

وأدارت الطاوية ظهرها الى النشاط السياسى كنتيجة منطقية لنظرياتها ، ونصحت الفرد بأن يبحث عن سلامته واطمئنانه فى عودة تأملية الى أحضان الطبيعة وأن يمتنع عن العمل لئلا يزعج توازن الين — يانج . ولم يهتم المذهب الطاوى الأصلى بالعلاقات الاجتماعية ، ولكن فى بلد كالصين حيث كان التفكير الفلسفى يتحول فى النهاية الى مشاكل الحكومة وجد الطاويون أنفسـهم

مضطرين لتغيير نظرياتهم فى هذا الميدان . كانت نظرة الطاوى الى الطبيعة هى الأساس الذى قامت عليه فكرة الرجل الطبيعى ، وبعبارة أخرى الرجل السعيد . كان هذا الشخص رجلا ذا عظام كبيرة وعضلات قوية ورأس فارغ ، وهى صفات مطلوبة فى رعايا أى دولة أوتوقراطية . وكان واجب الحاكم يحتم عليه أن يتأكد من أن رعاياه يطعمون على خير وجه ، ويقومون بالعمل بصفة مستمرة ، وأنهم دائما فى حالة بلادة فائقة . ويجب على الحاكم ألا يعلمهم أو ينبههم من غفلتهم ، وذلك لمصلحته ومصلحة الفلاحين أنفسهم . ويجب ، قبل أى اعتبار آخر ، أن يحرم على ذلك الشخص أن يعمل فى الحكومة أو يفهم كيف تسير دفة أمورها ، وقد لقيت هذه المبادىء بطبيعة الحال معارضة شديدة من المدرسة الكونفوشية .

كانت الطاوية القديمة لا تهتم الا بالعالم الذى تعيش فيه ، وكالكونفوشية لم يكن لها قانون واضح عن موضوع الحياة بعد الموت ، ولكن شيئا غير واضح المعالم من عقيدة وحدة الوجود فى تلك الديانة سمح بوجود كائنات ذات قوى خارقة وفوق قوى الطبيعة دون تحديد لصفاتها . ومع كل ، فان غموض التعاليم الطاوية تركت الباب مفتوحا لتدخلها وتصبح جزءا منها جميع أنواع الخرافات الشعبية ، فدخلتها قوى الطبيعة كما دخلتها بسهولة الأرواح المحلية التى كانت معروفة منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان من نتيجة ذلك وجود اعتقاد قوى فى الأشباح والشياطين ، وكانت دائما من الأرواح الشريرة، واعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت على نظام حياتنا الحالية . ولعب مبدأ « الحالة الموجهة » فى الخلق الصينى دوره فى الطاوية فى عصورها المتأخرة . فاذا قبل الشخص الصينى عقيدة الين — يانج فقد كان يرغب رغبة شديدة فى معرفة الحالة التى يكونان عليها فى أى وقت معين وفى أى مكان معين حتى يلائم سلوكه معهما . وكانت النتيجة هى أن الطاوية المتأخرة أصبحت ملاذا للسحرة والعرافين من جميع الأنواع ، وتحت تأثير البوذية دخلت عليها أيضا

المظاهر الضرورية لديانة منظمة باقامة التماثيل ، والمعابد ، والطقوس الرسمية والكهنة بل والرهبان والراهبات .

ويرجع تاريخ مدرسة « موتسو » (Mo Tzu) الى نفس الوقت الذى نشأت فيه مدرسة « كونفوشيوس » ، ومبدؤها الأساسى هو مبدأ الجاذبية ، ولكنها أنكرت التدرج فى الجاذبية الذى يقوم على درجات القرابة التى نصت عليها الكونفوشية نصا قويا ، وأعلنت أن حب الشخص يجب أن يعم سواء بسواء جميع الجنس البشرى . وعلى نقيض المدرستين الأخريين ، كانت هذه المدرسة تؤمن بوجود الله بل تكاد تكون فى حقيقة الأمر مدرسة تقول بوجود اله واحد .

لم يكن القدر هو الذى يحكم الدنيا بل كانت تحكمه ارادة مدركة واعية لكائن أعلى . وفى تلك الديانة وجود لبعض الكائنات ذات القوى التى فوق الطبيعة ولكنها لم تكن ذات أهمية . وكان الموضوع الذى وجهوا اليه اهتماما خاصا هو حقيقة بعث الانسان بعد الموت وحياته مرة ثانية ، ولم يكن حب الانسانية الذى نادت به تلك المدرسة حبا غريزيا أو مكتسبا ولكنه كان واجبا دينيا . أما أتباع المدرسة فكانوا يؤمنون بالتقشف . وكان ينتظر منهم أن يضحوا بكل أنواع الراحة وأن تكون لذتهم هى خدمتهم للانسانية ، وفى الوقت ذاته مزجوا مع تقشفهم سلوكا عمليا وكانوا يقدرون قيمة الأشياء على أساس فائدتها ، ولهذا السبب حرموا تعليم الفنون وبخاصة الموسيقى . وعرف فلاسفة هذه المدرسة بأنهم كانوا شجعانا ومستشارين للأمراء يتفانون فى أداء واجبهم . وكانوا دائما ، حسب ما يقضى به مذهبهم ، على استعداد لتضحية أنفسهم من أجل خير الجماعة . وكان حبهم للسلام مظهرا من مظاهر عقيدتهم ولكنهم كانوا واقعيين وكانوا يفرقون بين حرب من أجل التوسع والاعتداء على الغير ، وحرب من أجل الدفاع عن النفس .

ويمكن عمل بعض المقارنات بين تعاليم هذه المدرسة وبين « الكويكر »

(Quakers) بالرغم من أن أتبـاع « موتسـو » كانوا يعتمـدون على المنطق الصريح ولم يعرفوا حالة النوبات التشنجية التى امتاز بها الكويكريون فى مبدأ حركتهم ، ولكن الطائفتين تتفقان فى موضـوع العلاقات المباشرة بين الانسان وبين الله ، وفى الواجب المفروض على الشخص فى أن يهب كل نشاطه لخير الانسانية مع احتفاظه بموقفه الواقعى . ويمكننا أن نرى فى موقف كل من الطائفتين تجاه حب السلام بأنه رد فعل طبيعى لما يتعرض له الناس من مصائب وآلام تصيب الأجيال بسبب قيام الحروب . ومما يثير الدهشة أن نتائج تعاليم « موتسو » بعد الغائها رسميا ظلت متبعة فى عقائد جماعات بعيدة كل البعد عن حب السلام وهى جماعات الطوائف السرية التى كانت تشتهر من آن لآخر فى الصين فى أيام الاضطرابات ، وأحدث ما ظهر من هذا النوع كان فى ثورة « التايينج » (T'ap'ing) وفى ثورة « البوكسر » (Boxer) ، وربما كانت وجوه الشبه بين مذهب « موتسو » وبعض العناصر فى الديانة المسيحية عاملا من العوامل التى سببت شك الحكومة الامبراطورية الصينية فى المبشرين المسيحيين .

وعاشت الفلسفات الثلاث التى تحدثنا عنها جنبا الى جنب قرونا عديدة ، وكان لها تأثير كبير لا على النظم الصينية فحسب ، ولكن فيما بين بعض هذه الفلسفات وبعضها الآخر أيضا . وولد من اتصالها ببعضها عدد من الفلسفات الأقل شأنا لم يكن لأى واحدة منها أى تأثير ذى أهمية على تطور الحضارة فى الصين ، اللهم الا واحدة فقط وهى مدرسة المتقيدين بالقانون التى كان هدفها الأساسى تغيير الوسائل الفعالة لادارة الدولة . وجربت مبادئها تجربة تامة فى تنظيم دولة « تشن » (Ch'in) التى اتخذت بعد مرور قرون قليلة خطوة ناجحة فى توحيد الصين التى أضعفتها حروب لا نهاية لها بين الحكام الاقطاعيين المتواهنين . كانت الفكرة الرئيسية التى يستهدفها المتقيدون بالقانون هى خلق حكومة بحكم القانون مع استبعاد جميـع التدخلات والأغراض

الشخصية استبعادا تاما . ووجهوا اهتمامهم الى سن القوانين وتحديد معانيها بدقة حتى لا يجد الرأى الفردى سبيلا الى التدخل فى تطبيقها . وربما كانت هذه الفئة أقدم جماعة ظهرت فى أى مكان فى العالم تصر على مساواة جميع سكان الدولة أمام القانون ، وكان ذلك بدون شك تغييرا ثوريا اذا قارناه بالحصانة التى كان يتمتع بها النبلاء فى عهد أسرة شو حسبما جاء فى القانون الامبراطورى . ونجح ذلك الحياد المطلق فى رأب ما كان فى ولاية « تشن » من تصدع ، وربط أجزائها بعضها ببعض ، وجعل منها قوة متماسكة فى وقت توسعها . ولكن عندما تم كل شيء وتأسست الأسرة الجديدة اختفت هـذه الفئة بصفتها مدرسة بالرغم من أن مبادئها ظلت حية تحت قشرة سطحية من الفلسفة الكونفوشية . ومن الجدير بالذكر أن هذه الفلسفة استمتعت بفترة قصيرة من الاحياء فى عهد الجمهورية الصينية فى أوائل القرن الحالى وذلك راجع الى حد كبير الى مشابهتها للمبادىء الأوروبية فى نظام القضاء .

ولم تستطع كل تأملات الفلاسفة أن توقف الفوضى التى أخذت تزداد يوما بعد يوم فى القرون الأخيرة فى عصر شو الاقطاعى . لقد استنفدت الحروب الدامية التى حدثت بعد استخدام الخيل فى القتال الكثير من عدد سكان البلاد ، كما أن عادة قتل الأسرى كانت سببا فى الاطاحة بعدد كبير من النبلاء . ولكن ، ولاية « تشن » التى كانت تقع فى الشمال من الجزء الأوسط من النهر الأصفر ، نجت من تلك الشرور . لقد حمتها سلسلة من الجبال من معظم ما تعرضت له من هجوم حربى ، كما كان يتولى شئونها عـدد من الحكام والمستشارين امتازوا بأنهم سياسيون ذوو مقدرة عظيمة . فبالرغم من أن اخضاع الصين كلها لحكمهم فقد تجنبوا الحروب التى شـكوا فى نتائجها واتبعوا سياسة ثابتة تستهدف تقوية الدولة باستغلال مواردها الطبيعية الغنية بما فى ذلك سكان البلاد . وكان معظم مستشارى الحاكم من المتقيدين بالقانون فغيرت ولاية تشن بفضل توجيهاتهم من ولاية اقطاعية من النـوع الصينى

العادى الى دولة تحب التوسع وذات مذهب جماعى فى الحكم من نوع عصرى يدعو الى الدهشة .

وكان أكثر سكان « تشن » من الهون غير المتحضرين الذين انحدروا الى هذه المنطقة من الاستپس ، وقد ساعد ذلك على تنفيذ مشروعات الحكام لاعادة التنظيم الاجتماعى . لقد ألغى ذلك التنظيم العائلة الكبيرة وتظام القرية ذات العائلات الثمان ، ولكن من المشكوك فيه أن تكون هاتان العادتان كانتا راسختين رسوخا كبيرا فى تلك الجهة . ومحوا تماما التمييز القديم بين فئات الناس الذى كان سائدا فى أيام الاقطاع مع تركيز كل السلطة فى الحاكم ومستشاريه . وكانت كل عائلة تعيش فوق حصة أرض معينة وكان عـدد الحقول والمنازل والخدم ، حتى عدد الملابس المسموح بها لكل عائلة ، محددا تحديدا دقيقا . وكل عائلة فيها أكثر من اثنين من الذكور البالغين يتحتم عليها أن تنقسم الى عائلتين أو تدفع ضرائب مضاعفة ، وكانت الولاية كلها مقسمة الى مناطق يتولى كلا منها أحد الموظفين . وكانت العائلات فى كل منطقة منظمة فى جماعات اما من خمسة أفراد أو من عشرة أفراد ، فاذا اقترف عضو من الجماعة ذنبا عوقبت كل الجماعة من أجل هذا الذنب ، ولهذا كان كل منهم يراقب الآخر ويبلغ السلطات فى الحال عن أى تقصير أو خطأ .

وتمتع الجيش بمكانة ممتازة ، وكان كل رجل عرضة للخدمة الحربية طول حياته ، وكان جميع الموظفين ضباطا فى الجيش وكانوا يكافئون بسخاء قواد المعارك الناجحة والجنود الذين أظهروا شجاعة فائقة ، وفى الوقت ذاته يعاقبون من يفشل أو يجبن بالحكم عليه بالموت . وحرص المتقيدون بالقانون على أن تنفذ هذه القوانين بكل صرامة ، وكانت نقطة الضعف فى هذا النظام هى أنه لم يكن يكافىء الفلاحين ، بل كان يوقع عليهم العقوبات فقط . وفى استطاعة مثل هذا النظام أن يفرض الطاعة ولكنه لا يفرض الوفاء ، ولا يمكن أن يجلب الولاء . ولهذا فعندما تم لولاية « تشن » فى نهاية الأمر اخضاع

كل بلاد الصين فى عهد أعظم حكامها ، وهو المعروف للتاريخ تحت اسم « شيه هوانج تى » (Shih Huang Ti) لم تطل مدة سيطرتها .

جمع « شيه هوانج تى » ما كان لأوغسطس قيصر من حسن ادارة ومقدرة فى التنظيم وما كان لهتلر من حب العظمة . ومع مضى الزمن كان ما حققه من تقوية للصين وما وضعه من نماذج للحكم الامبراطورى فى العصور التالية مكسبا حقيقيا ، ولكن اسمه ما زال يلعنه الصينيون بسبب افراطه فى الملذات ، ولسبب آخر أهم من ذلك ، وهو محاولة تحطيم كل النظام العلمى التقليدى وادارة البلاد بوساطة العلماء . ورث ذلك الحاكم حكم ولاية « تشن » واستمر فى التوسع الذى بدأه من سبقه من الحكام ، وكلما أتم اخضاع منطقة اقطاعية كان ينحى نبلاءها الاقطاعيين ويلحق المنطقة بأحد أقاليم الامبراطورية التى كانت تتسع رقعتها من عام الى عام . وعند انتهاء غزواته كانت الامبراطورية مكونة من ستة وثلاثين اقليما ، أضيف اليها أربعة أقاليم فيما بعد . وكان كل من هذه الأقاليم مقسما الى عدة مناطق لأسباب ادارية ، وقد ظل هذا النموذج العام فى التنظيم مستخدما فى جميع عصور التاريخ الصينى فيما بعد .

وامتاز تنظيم الصين الجديدة المتحدة بالتفريق الكبير بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية . كان شخص الامبراطور يجمع بين السلطتين ولكنهما ظلتا مفترقتين عن بعضهما فى كل المراحل التى دون ذلك . كان رئيس الوزراء ، على رأس الادارة المدنية وكان اختصاصه ينحصر فى الأمور الداخلية وادارة الحكومة ، وعلى رأس الجيش قائد لا سلطة له خارج الشئون العسكرية ، وكان لكل اقليم ولكل منطقة عدد من الموظفين من كل من المدنيين والعسكريين وأخيرا ، كانت هناك هيئة ثالثة من الرقباء مستقلة تماما ، كان واجبها الوحيد مراقبة أعمال الموظفين المدنيين والعسكريين . وكانوا ينقلون الموظفين دائما من منطقة الى أخرى حتى يضمنوا اخلاصهم للحكومة المركزية اذ لم يسمحوا لأى موظف أن يبقى فى أى مكان مدة طويلة حتى لا تربطه روابط خاصة

بالسكان المحليين ، وكانت السلطة المركزية حريصة بنوع خاص على أن يكون تعيين كل موظف فى منطقة تبعد بقدر الامكان عن المنطقة التى تعيش فيها عائلة ذلك الموظف .

وفى عهد النظام الاقطاعى كانت توجد نظم محلية مختلفة ، كما كان الحال فى أوروبا فى العصور الوسطى ، اذ اختلفت من مكان لآخر وحدة مقاييس الأراضى ، والموازين والمكاييل ومقاييس العربات ، وكان للأخيرة منها تأثير كبير على النقل الى مسافات بعيدة فى بلاد يتحتم نقل سلعها على طرق غير ممهدة ولهذا ترك فيها أثر العجلات حفرا عميقة على الجانبين . وبدأ « شيه هوانج تى » فى عمل نظام موحد لجميع تلك الأشياء ، ووضع قانونا امبراطوريا واحدا ليحل محل جميع القوانين المحلية . وفى خلال العهد الاقطاعى تم وضع كثير من طرق الكتابة المحلية ، فاختار « لى سو » (Li Ssu) وزير « شيه هوانج تى » ثمانية منها وأضاف اليها من عنده طريقة تاسعة وأمر بأن تكون كل واحدة منها هى الطريقة التى تستخدم فى كتابة جميع المؤلفات فى أحد أنواع العلوم التسعة ، ولكن اختلاف اللهجة فى أجزاء الصين المختلفة ، الذى يجعل التفاهم بينها مستحيلا فى كثير من الحالات ، كان أكبر من أن تتغلب عليه قدرة « شيه هوانج تى » بل وما زال هذا الاختلاف باقيا حتى الآن .

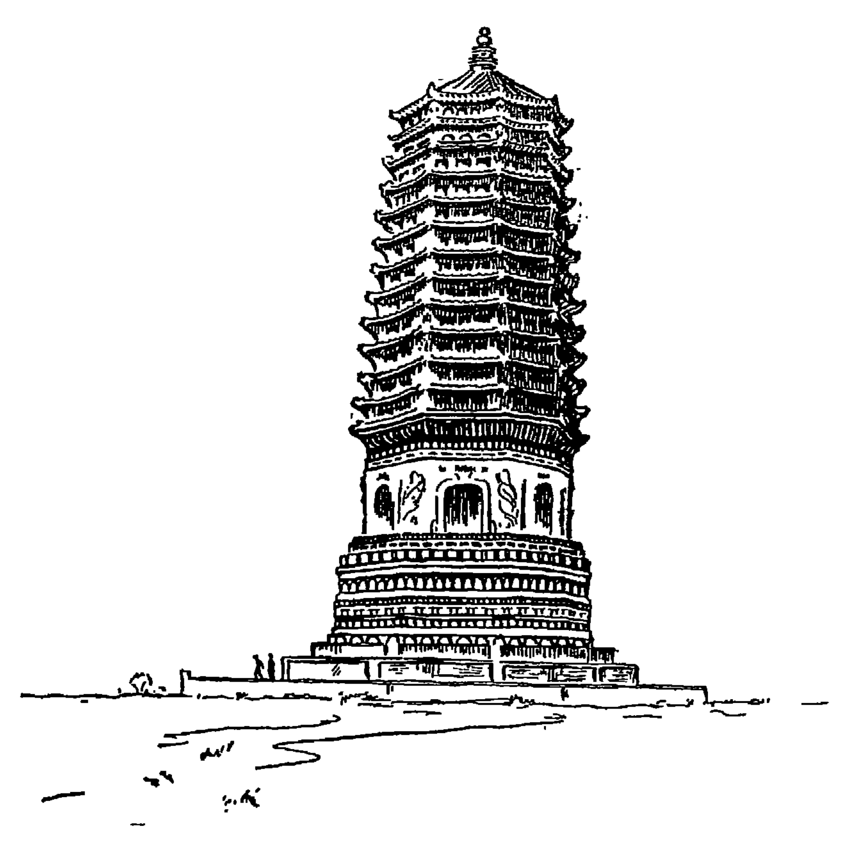
وكانت محاولة « شيه هوانج تى » فى توحيد الفكر أقل نجاحا من محاولته توحيد الكتابة . كانت المدارس الفلسفية المختلفة متغلغلة فى كل من التعليم والحكومة ، وكانت المدارس التى تدرس فيها تلك الفلسفات هى المراكز التى انتظمت حولها المقاومة . وتنفيذا لاشارة الوزير « لى سو » اتخذ الامبراطور فى النهاية تلك الخطوة الخطيرة وهى اصدار الأمر بحرق الكتب . وسمحوا بأن تظل الكتب المؤلفة فى الزراعة والفلك والطب متداولة بين الناس ، ولكن الكتب الخاصة بالعلوم التى نسميها الآن العلوم الاجتماعية ، وكتب التاريخ ماعدا تاريخ ولاية « تشن » أمروا باعدامها . واحتفظوا بنسخة من كل كتاب

أمروا باحراقه فى مكتبة الامبراطور ليتمكن الأشخاص الحائزون على الصفات التى تؤهلهم لقراءتها من عمل ذلك بعد الحصول على اذن من الحكومة ، ولكنهم منعوا منعا باتا أن تكون ملكا لأحد الأفراد . ولا شك أن الغرض الذى كان يرمى اليه الامبراطور هو السيطرة على الفكر وليس الغاء التعليم ، ويؤيد ذلك أن الامبراطور أنشأ مكتبة عظيمة فى العاصمة جمعوا فيها كثيرا من المخطوطات القديمة من كل العلوم ، وقد سبب القضاء على هذه المكتبة ، عندما هوجمت العاصمة وأحرقها المهاجمون ، أضرارا بالغة بالقضاء على الوثائق القديمة أكثر مما اتخذه الامبراطور من خطوات لمنع امتلاك وتداول تلك الوثائق.

ومن الأمور التى لاحظها الكثيرون أن أضمن وسيلة للمحافظة على أى عمل أدبى وايصاله للأجيال الصاعدة أن تحاربه السلطات وتأمر بأن كل مالك لنسخة يتحتم عليه أن يقدمها لاعدامها ، ففى هذه الظروف ترتفع قيمة هذا المؤلف ارتفاعا غير عادى ويخبىء الناس نسخا منه . وقد حدث بعد انهيار دولة « شيه هوانج تى » أن عادت الكتب المحرمة سريعا الى الظهور .

وعلى أى حال فان هذا المنع تسبب فى وجود ثغرة فى اعداد العلماء ، لأنه نتج عن التوحيد الجديد للكتابة ، أن الكتب الرئيسية الهامة أعيدت كتابتها ولا شك أنه حدثت فيها تعديلات كثيرة أثناء ذلك العمل .

أما عن مذبحة العلماء التى تنسب عادة الى « شيه هوانج تى » فالأرجح أن أكثر ما قيل عنها محض خيال . فقد حدث أن بعض العلماء الذين رفضوا تسليم مكتباتهم حكم عليهم بالموت ، ولكن معظم الضحايا كانوا من جماعة سحرة البلاط الذين أصبحوا غير محبوبين من الناس . كان « شيه هوانج تى » مثل بعض أمثاله من الحكام الجماعيين (أى الذين يحصرون الأمر كله فى أيديهم) يؤمن بالخرافات الى أبعد الحدود فأحاط نفسه بمنجمين وسحرة من جميع الأنواع ، فمن فشل منهم فى عمل المعجزات أو تنبأ بأشياء غير سارة كان يطرد من البلاط ، وكان يوجد دائما آخرون على استعداد ليحلوا محلهم .



الباجودا ، فى بيكين

وظهر حب الامبراطور للعظمة فى تشييده للمبانى ذات الحجم الهائل ، فقصره وقبره كانا أعظم مبنيين أقيما فى الصين حتى ذلك العهد . كان أمام القصر عدد من التماثيل البرونزية الكبيرة الحجم التى صبت من الأوانى الطقسية التى كانت للولايات الاقطاعية المغلوبة ، كما قيل أيضا ان أرضية قبره كانت على هيئة خريطة للصين ، وفيها أنهار تجرى تمثل الأنهار العظيمة ، وقد اختفت تلك المبانى اختفاء تاما دون أن تترك وراءها أثرا . أما عمله الخالد فهو سور الصين العظيم .

أثبتت البحوث الأثرية أن الصينيين فى أواخر عهد أسرة شو ، مثل الرومان فى العصر الامبراطورى المتأخر ، اهتموا اهتماما كبيرا بتشييد الأسوار على حدودهم . وبالرغم من أن هذه الأسوار لا يمكن أن تكون عائقا جديا لمهاجمين متمدنين يستخدمون الأدوات الميكانيكية الخاصة بالحصار فانها كانت تنجح الى حد كبير فى صد غارات غير المتحضرين ، وقللت من فائدة استخدام الخيل التى كانت أهم سلاح لديهم . وقبل أن يصل « شيه هوانج تى » الى الحكم كانت ولاية « تشاو Chao » قد بنت وحصنت سورا على الحدود الشمالية الغربية فكان هذا السور نواة للسور الكبير فيما بعد ، وفى الوقت ذاته كانت ولاية « ين Yen » أقامت سورا مماثلا فى الشرق وفى كل من هاتين الحالتين نجد أن كلا من الولايتين قد بنت سورها خلف الحدود الأصلية للولاية لتضم الأراضى التى استقر فيها فلاحو تلك الولاية .

وعندما وصل « شيه هوانج تى » الى الملك كانت أهمية الـ « شيونج — نو »(Hsiung - nu) الهمج قد أخذت فى الازدياد وأصبحت هجماتهم على الحدود أكثر خطورة . وربما كان أولئك الشيونج — نو ، هم نفس الشعب الذى خرج منه الهون الذين أثاروا الرعب فى أوروبا فيما بعد ، أو على الأقل من قوم متصلين بهم بصلة القربى ، وكانت لهم نفس الأساليب الحربية والقدرة فى القتال . وفى عام ٢١٥ ق . م . سير عليهم « شيه هوانج تى » جيشا قوامه ٣٠٠٫٠٠٠ رجل تحت امرة القائد الأكبر للقوات الحربية وهو أحد اثنين من الموظفين اللذين كانا أعظم موظفى الدولة . ونجح هذا القائد فى صدهم ، وضم جزءا كبيرا من بلادهم ، ولكن ما جناه من فوائد ، كما فى جميع الحروب مع البدو ، كان أمرا مؤقتا . ولكى يدافع عن المنطقة الجديدة التى حصل عليها أوصل ما بين الأسوار التى كانت قائمة بالفعل ، وكذلك حصون الحدود وجعل منها كلها « السور العظيم » .

وقال البعض ان الغرض من انشاء ذلك السور كان لتحقيق غرضين ، وذلك لمنع الفلاحين من الهرب وبقائهم داخله ومنع الهمج غير المتحضرين من دخول الصين وبقائهم خارجه . فاقتصاد الصين فى ذلك العهد ، كما كان فى العصور التالية ، يعتمد اعتمادا تاما على السكان الزراعيين الذين تعتمد الدولة فى سد مطالبها على الفائض الاقتصادى منهم ، وهو شىء قليل من كل فرد . وهناك أدلة كبيرة على أنه فى العصر القريب من أواخر أيام أسرة هان انضم فلاحون صينيون كثيرون الى الهمج . فقد كان الكثيرون من الصينيين الذين يعيشون على الحدود من نسل الهمج الذين هاجروا الى تلك الجهات واستقروا فيها واندمجوا فى الحياة الصينية فى العهد الاقطاعى ، ولكن الظلم الذى وقع على الفلاحين فى أيام حكم « شيه هوانج تى » كان سببا قويا لحملهم على الهرب ممن كان يرسلهم لجمع الضرائب وأخذهم للعمل بالقوة .

ومهما كان السبب فى تشييد السور ، وبصرف النظر عن الأجزاء التى كانت قد شيدت قبل ذلك فان سور الصين العظيم أثر خالد للهمة التى تفوق همة البشر ، وللمقدرة العظيمة فى التنظيم ، اللتين امتاز بهما أول امبراطور حقيقى فى تاريخ الصين .

وكانت أنانية « شيه هوانج تى » كبيرة جدا فلم يفكر فى تأسيس أسرة لأن الرجال الذين من هذا النوع لا يطيقون رؤية أبناء يشبهونهم فى جهدهم وقدرتهم . فلما حانت منيته ترك بلادا يعمها التذمر ، ولم يستطع ابنه الضعيف الذى خلفه فى الملك أن يبقى فيه أكثر من بضعة أشهر . وحل النزاع بين الحكام محل الأمن الامبراطورى وأخذت جموع من الفلاحين الجائعين تتجول من مكان الى مكان تاركة الخراب يسير فى ركابها . ومن هذا العماء والفوضى ظهر أخيرا حاكم قوى أثبت بقدرته فى اعادة السلام والنظام أنه هو الذى اختارته السماء . وسار هذا الرجل « ليوپانج » (Liu Pang) على الأسلوب الذى

سار عليه « سادة الحرب » فيما بعد ، اذ لم يكن هو الذى خلق هــذا النظام . كان ليوپانج فلاحا أميا بدأ حياته كقاطع طريق ثم أصبح حاكما لولاية « پى » (Pei) ، وفى النهاية صار امبراطورا ، وكان جلوسه على العرش بداية أسرة هان التى أصبحت فيها الصين ، لأول مرة فى تاريخها ، قوة فى الشئون الدولية .

الفصل الثامن والثلاثون

عصر الأسرات المتأخر فى الصين

كان الصينيون ، وما زالوا ، طيلة ألفى سنة أكبر شعب فى العالم له وحدته السياسية والحضارية . ويذكر التعداد الذى عمل فى عام ١٠٠ ميلادية فى عصر « هان » المتأخر أن عدد سكان الصين ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ولكن يجب ألا ننسى أن الأعداد التى ترد فى تعداد الصين هى دائما أقل من الواقع ؛ لأن الفلاح يستنتج عادة عندما يوجه اليه موظف أى أسئلة أنه يريد الحصـــول على معلومات من أجل فرض الضرائب ، ولهذا يقلل عدد عائلته بقدر الامكان . وظل عدد السكان ثابتا ما يقرب من ألف سنة مما يدل على أنه وصل الى الحد الذى فرضته موارد وتكنولوجية ذلك العهد . ومنذ عام ١١٠٠ م حتى تعداد عام ١٧٣٦ لم يزد عدد السكان الا قليلا ، اذ كان فى عام ١٧٣٦ مائة وخمسة وعشرين مليونا ولكن بين أعــوام ١٧٣٦ و ١٨٨١ زاد فجأة الى ٣٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وهو يزيد بصفة مستمرة منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

وفى هذا الوقت بالذات حدثت زيادة فجائية فى عدد السكان فى جميع بلاد العالم القديم . والسبب غير واضح . فقد عزوا زيادة عدد السكان فى أوروبا الى ظهور التصنيع وفتح أسواق المستعمرات ، ولكن الظاهرة نفسها حدثت فى الصين وفى الهند اللتين لم تكن مستهما الثورة الصناعية فى ذلك الوقت . وعلى أى حال ، فقد كان يقطن الصين منذ عهد طويل جدا عدد هائل من السكان تجمعهم وحدة ثقافية أكثر من أى شعب آخر فى العالم . وحتى فى الأوقات التى كانت تنهار فيها السلطة المركزية ، وتحدث الفوضى والحرب

الأهلية ، احتفظ الصينيون بتقاليدهم فى الوحدة ، ونظروا الى مثل هـذه الأوقات بأنها أشبه شيء بالفترات التى تأتى بين فصول المسرحية الواحدة .

وكانت هذه الكثرة الهائلة لعدد السكان ذات فائدة كبرى للصين لأنها جعلت البلاد منيعة مناعة حقيقية ، فان أى غاز يقهر هذا الشعب المتمدن الكثير العدد الموحد الثقافة يجد نفسه وقد اكتسحه التيار ولا يلبث حتى يتحضر بحضارتهم ، وينتهى به الأمر بأن يستوعب نهائيا فيه . ومع ذلك فان مثـل هذا العدد الهائل من السكان يكون سببا فى وجود مشاكل اجتماعية وادارية هامة ، وهى مشاكل واجهتها أمم الغرب وما زالت فى بداية الطريق نحو ايجاد حلول لها . ووجود أعداد كبيرة من السكان شيء جديد ، حديث العهد فى تاريخ العالم . فأكثر أمم القارة الأوروبية حتىالقرن الثامن عشر لم تصلواحدة منها الى ٢٥ مليونا ولم يزد سكان بريطانيا العظمى عن عشرة ملايين ، وتخلق ضرورة حكم مئات الملايين من السكان بحكومة مركزية موحـدة مشاكل جديدة لم يتم وضع وسائل عملية ناجحة لحلها حتى الآن .

ولفهم العوامل التى أثرت فى تطور التنظيم السياسى للصين يجب علينا أن نلقى نظرة على النظم الاجتماعية العامة فى البلاد . فباستثناء القسم الشمالى الشرقى من البلاد حيث تعيش العائلات فى مزارع كبيرة بعيدة بعضها عن بعض ، مثل نظام المزارع الأمريكية ، فان نظام اقامة عائلات مستقلة وحدها بعيدة عن الآخرين أمر نادر الحدوث فى الصين . فالوحدة الحقيقية هى القرية ، وهى مجموعة من العائلات التى تقيم معا فى بيوت قريبة من بعضها ، يحيط بها فى الغالب سور من الطين ليحميها من العصابات التى تتجول فى البلاد . وعدا القرى يوجد عدد من المدن التى تقوم بمهمة المراكز الادارية وفيها مساكن الأغنياء من السكان ، (وكان أغلبهم فى الصين القديمة من طبقة الموظفين) وكانت مركزا للمصانع البسيطة التى تقوم بعمل المصنوعات اللازمة لهم لصناعة أدوات الترف .

واختلفت النظم الاقتصادية فى كثير من النواحى عن مثيلاتها فى الهند وفى بلاد الغرب ، فليس هناك أثر لنظام الطبقات الهندى بما فيه من توارث الحرف التقليدى ، كما اختلفت أيضا عن النظم الغربية وما فيها من تركيز الصناعة فى المدن اللهم الا فى حالات قليلة . واستعاضوا عن ذلك بالتركيز المحلى لبعض الصناعات ، اذ كانت تقوم قرى معينة فى احدى المناطق بعمل احدى الصناعات المعينة وتتبادلها مع منتجات القرى الأخرى ، ويتم هذا التبادل فى بلاد تقام فيها الأسواق ، وكان مثل هذا البلد فى حجمه وسطا بين القرية والمدينة . كان الفلاحون يذهبون الى هذا البلد ليبيعوا أو يبادلوا على سلعهم بالمواد الخام التى يكونون فى حاجة اليها ، أو ليشتروا منتجات مصنوعة . وقضى هذا التنظيم فى التخصص المحلى بأن منطقة صغيرة معينة تقوم مثلا بعمل جميع السلال التى من نوع معين وكانت تستخدم فى جميع أرجاء الصين ، وتقوم منطقة أخرى بعمل نوع معين من الأدوات المصنوعة من الحديد ... وهذا يعكس لنا صورة لبلد موحد ، لحكومته سلطة مركزية قوية ، مكنت الناس من الاطمئنان على سلامة التجارة . وحتى فى أيام الاضطرابات والفوضى التى استحال فيها اتباع تلك الطريقة ظل ذلك النظام فى ذهن الشعب لأنهم يعتبرونه المثل الأعلى .

وكان معظم السكان مالكين أحرارا للأراضى ويعيشون فى القرى ، ولكن كان هناك خطان فاصلان فى المجتمع الصينى : أحدهما الخط الذى يفصل بين رجل يملك أرضا ، حتى ولو كان حقلا صغيرا ، والرجل الذى لا يملك شيئا على الاطلاق . فمالك الأرض مثل قبطان السفينة سواء أكانت احدى المدرعات الحربية أو سفينة نقل صغيرة فهو قبطان على أى حال ، ويمتاز عن البحار العادى . وكذلك كان الفلاح الصينى الذى يمتلك حقلا صغيرا فانه كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه أرفع من رجل لا يملك أرضا . أما الخط الفاصل الثانى فهو بين جماعة الفلاحين والصناع الذين يعملون بأيديهم ، وبين جماعة العلماء والموظفين .

ولما كان الفلاحون الصينيون لا يسيرون على نظام توريث الثروة كلها للابن الأكبر (البكر) بل كانوا يقسمون ممتلكاتهم بالتساوى بين أبنائهم فقد ترتب على ذلك تجزىء مستمر للأراضى ، ومعنى ذلك أن قسما من السكان الفلاحين يصبحون فى النهاية بدون أرض ويضطرون الى الهجرة الى المدينة فيصبحون من الدهماء أو يصبحون ، وذلك فى العصور الحديثة ، من المشتغلين بجر العربات الصغيرة التى يستأجرها الناس فى تنقلاتهم (الركشو) .

وتقوم المجاعات والحروب بدور الحد من تكاثر عدد السكان فاذا حدث فى أى وقت من الأوقات أن المجاعات والحروب لم تنتشر فى الصين ، فان النتيجة هى وجود عدد هائل من السكان أكثر مما تستطيع أن تستوعبه البلاد فى صناعاتها اليدوية ، فتستخدم أولئك الدهماء فى أشق الأعمال ، وفى الأعمال التى لا تحتاج الى خبرة على الاطلاق . ولهذا السبب ، أى وجود عدد كبير من الناس لأداء جميع ما يلزم من أعمال ويقبلون أى أجر يكفى لقوتهم ، فان الرق لم يثبت أقدامه أبدا فى الصين . ففى منازل الأثرياء من القوم عاشت خادمات اشترتهن العائلة وهن فى سن الطفولة ، ويمكن اعتبارهن من الرقيق ولكنهن فى الحقيقة ينشأن كأفراد فى العائلة ، وعلى سيدهن واجب صريح بأن يجد لهن أزواجا عندما يبلغن سن الزواج . وكان هناك رقيق فى القصر الامبراطورى ، ولكن لم يوجد شىء كنظام الرق الذى كان سائدا فى الغرب ، ولم يقدر لهذا النظام أن ينجح لأن استخدام الدهماء كان أقل نفقة . وفقط عند انتشار استخدام الآلات الميكانيكية بدأت ضمائرنا تتحرك ازاء الرقيق ، وذلك لأن الماكينة كانت أرخص من استئجار الانسان ، الذى أصبح عمله أمرا كماليا ويمكن طرد مثل هذا الرجل عندما يتقدم به العمر أو يحدث له ما يجعله عاجزا ، وهذا أرخص جدا من امتلاك رقيق يضطر المالك للعناية به .

وتتكون القرية الصينية عادة من أشخاص ينتمون الى نفس الجماعة الخاصة باسمهم . ففى الصين عدد محدود من أسماء العائلات أكثرهم ينتسبون

أصلا الى أمكنة معينة فى الصين ، وربما وصل عدد أفراد بعض هذه الجماعات التى تحمل نفس الاسم ٤٠٠٠ شخص ، ومع ذلك فان عائلات كثيرة داخل مثل هذه الجماعة لا يمكنها أن تثبت صلة قرابتها بها ، وهو نظام فريد فى الصين فقط ، ولا يوجد نظير له فى أى مدنية من المدنيات الغربية . وتضم كل جماعة من تلك الجماعات أشخاصا من جميع المستويات الاجتماعية ، فمنهم العلماء الذين يحتلون مراكز كبيرة فى الحكومة ، ومنهم الفلاحون ومنهم الدهماء ، الذين تجردوا مما كانوا يملكونه من أرض . وعلى أى حال فان هذه الجماعات تحرص حرصا تاما على أن تتزوج من خارج جماعتها . ويحتم على الفلاح أن يحصل على زوجة له من قرية أخرى وهى عادة توفر على الانسان الكثير من المتاعب التى يسببها له والدا زوجته ، لأنهم يعيشون فى قرية أخرى بعيدة فلا يسهل عليهم التدخل فى شئون الرجل وزوجه . وكانوا ينظمون أمور الزواج عن طريق وسطاء ، وهم فى الواقع نوع من السماسرة يهمهم جدا فى كثير من الحالات أن يعرفوا السوق جيدا ويتأكدوا من نجاح الزواج . ويسبب الزواج كثيرا من الهم والقلق للعائلتين ، فالوالدان يحرصان على أن يتزوج ابنهما ، حتى يستمر اسم العائلة ، ونظرا لأنه لم يكن هناك محل أو مكانة للبنت فى المنزل الصينى فان والديها يحرصان على أن تتزوج فى عائلة أخرى حتى يكون لها أسلاف ، ولها ذرية ، ولا تصبح شبحا لا منزل له عندما تموت . ولا تعرف الصين دفع مبلغ من المال نظير زواج البنت ، ولكن هناك تقليد خاص بتبادل الهدايا بين العائلتين .

وسكان القرية الصينية يشبهون سكان القرية الأمريكية فى كونهم جماعة متصلين فيما بينهم ، يعرف كل منهم ما يعمله الآخر ، ويراعون الأخلاق وقواعد عدم الاتصال بين الجنسين مراعاة دقيقة ، وبنفس الشدة التى يمكن أن تكون فى احدى القرى الصغيرة فى ولاية ڤرمونت الأمريكية بل ونفس الأسلوب .

وكان يسمح للطبقات العليا بالطبع باتخاذ المحظيات ، ولكن لم يكن هناك

بين الفلاحين من تسمح له موارده المالية بأخذ محظية ، وعلى أى حال فلو أنه حاول ذلك لحدث ضغط اجتماعى شديد ضد ما فعله .

وكانت الزوجة تخضع خضوعا تاما لأم زوجها ، ولم يكن لها فى بدء الأمر أى مكانة فى العائلة ، ولكن الزوجة التى تلد أولادا من الذكور ، وتصل الى منتصف العمر تصبح لها مكانة كبيرة ، وذلك عندما يكبر أبناؤها ويصبح لها زوجات أبناء تسيطر عليهن بدورها ، وتصبح الرئيسة الحقيقية للمنزل . وتنقسم عائلة الفلاح عادة بعد زواج أبنائه ، وربما كان فى استطاعة الاخوة أن يظلوا متفاهمين ويفضلوا البقاء مع باقى العائلة تحت سلطان الأكبر سنا ، ولكن الزوجات اللائى أتين من قرى مختلفة يغرن من بعضهن خصوصا عندما يولد لهن أولاد ويثرن الكثير من المتاعب ، ولهذا تسير العائلات الى التفكك فى الجيل الثانى .

ومع هذا ، فهناك نوع آخر من الحياة العائلية يختلف تمام الاختلاف عن النوع السابق وهى حياة طبقة العلماء والموظفين . ففى هذه الطبقة نجد أن المثل الأعلى هو العائلة الكبيرة . ومثل هذه العائلة تستمر أجيالا تحت زعامة أكبر الذكور سنا فى كل جيل . وعندما يتمكن أى شخص من جمع ثروة بأى وسيلة من الوسائل ، فان ما يطمح اليه هو تكوين عائلة من هــذا النوع . فبيت العائلة بيت مجمع يسكن كل ابن وزوجته وأطفاله جزءا منه ، وتمتلك المجموعة ثروة العائلة سواء أكانت الثروة من الأرض أم العمل التجارى أو أى شىء آخر مشترك بينهم ، يعملون فيه متعاونين فيقسم الدخل بين أفراد العائلة المختلفين حسب ما يستحقون . فاذا لم يستطع أحد الأبناء أن يظل على وفاق مع الآخرين أو رغب فى أن يجرب حظه فى مكان آخر يدفعون له ما يخصه ويسمحون له بالذهاب . ويمكن أن تسير العائلات على هذا النظام مدى قرون ، ولكن فى الواقع نجد أنه بالرغم من أن المثل الأعلى هو أن تبقى العائلة مستمرة فى تماسكها مدة غير محددة فان قليلا من العائلات الكبيرة استطاعت أن تبقى

معا أكثر من أربعة أو خمسة أجيال . وعلى أى حال فبعد مضى تلك الأجيـال القليلة يصبح مجموع أفراد هذه الجماعة أكثر من مائة بما فيهم عدد من الأقارب الفقراء ، والمتطفلين الذين يحتلون مركزا وسطا بين أفراد العائلة والخدم . ورئيس العائلة لا يعرف تماما مركز أولئك الأشخاص بالنسبة الى العائلة ، ولكن من مصلحته أن يكون لديه عدد كبير من الأشخاص فى هذه الجماعة العائلية الكثيرة العدد .

وتوجد فى الصين وحدة عائلية أخرى تتكون من أشـخاص يعترفون بانتسابهم الى شخص معين ، وتجمعهم شجرة نسب معروفة . فهم يعرفون أنهم مرتبطون معا برابطة القرابة بينما أن جماعة الاسم لا تفعل ذلك ، وأفراد هذه الجماعة لهم جبانة مشتركة ولهم معبد . ويصبح هذا المعبد أشبه بمؤسسة يغدق عليها الأغنياء من أفراد التسو (Tsu) — (وهو الاسم الذى يطلق على مثل هذه الجماعة) أموالا أو أرضا يستغلون ريعها فى مساعدة المعدمين من أفرادها أو فى تعليم صبى ذكى ليصبح عالما أو يصل به الأمر ليكون فردا من طبقة الموظفين ، والواقع أن التسو جمعية مشتركة للمساعدة والاغاثة ولها فى جنوبى الصين أهمية تفوق مالها من أهمية فى الشمال .

ومن أهم الأشياء فى المجتمع الثانى وجود فرص كثيرة حقيقية ليرتقى الفرد وترتفع مكانته ، لا من الناحية النظرية بل من الناحية الواقعية . وهذا يشبه ما فى انجلترا مثلا ، فانه بالرغم من وجود الفوارق القوية بين الطبقات ففى استطاعة شخص من العامة أن يجمع ثروة ويشترى لقب « سير » . ويكثر وجود التغيير فى المراكز الأدبية للأفراد والعائلات فى بلاد الصين ، وكثيرا ما ترتفع بعض العائلات التى كان أسلافها من الفلاحين ارتفاعا تدريجيا حتى تصل الى طبقة العلماء والموظفين ثم تسقط ثانية من مكانها ، والى ما قبل وقت قريب كان ذلك يحدث على الوجه الآتى :

كان الطريق الموصل الى الوظائف فى الصين هو طريق التعليم والمقدرة

على اجتياز عدد من امتحانات المسابقة . ولما كانت طريقة الكتابة الصينية طريقة معقدة فقد كان يتحتم على كل من يريد أن يصبح عالما أن تكون عائلته ذات دخل يزيد عن حاجتها لكى تصرف عليه مدة ست سنوات على الأقل ، لأن ذلك هو الوقت اللازم للالمام بالكتب الأساسية (لدى الكونفوشيين ، أربعة كتب خاصة والخمسة كتب المعروفة باسم الكتب الكلاسيكية الخمسة) ، وأن يعرف كتابة النثر والشعر وأن يكون ملما بقواعد الحساب ، هذه هى الأشياء التى كان يتحتم على الشخص أن يكون قادرا على عملها لكى ينجح فى الامتحان الأول .

كان للعالم مكانة رفيعة فى الصين ، فقد كان أفقر عالم ، وهو الذى يعمل مدرسا فى احدى مدارس القرى مثلا ، يتقدم اجتماعيا على تاجر غنى لا يعرف القراءة والكتابة . ولهذا السبب كانت كل عائلة تستطيع أن تعلم أبناءها ، كانت تفعل ذلك آملة أن يستطيعوا يوما ما أن ينجحوا فى الامتحانات الرسمية . وكانت تلك الامتحانات أحد الأشياء القليلة فى بلاد الصين القديمة التى ظلت بعيدة عن ابتزاز المال بطريقة غير مشروعة ، لأنهم كانوا ينظرون اليها بأنها هى لب النظام القائم كله . حقيقة ، كان من الميسور فى أواخر أيام أسرة « منشو » وفى بعض الأسرات الأخرى شراء بعض الشهادات العسكرية الصغيرة التى تعادل الشهادات الأكاديمية ، ولكن الصينيين أنفسهم كانوا يسمون تلك الشهادة « شهادة عن طريق الباب الخلفى » . وعلى أى حال فلم يحدث أبدا أن شخصا حاصلا على شهادة عن طريق الباب الخلفى تولى وظيفة رسمية فى ادارة الحكومة .

ظهر نظام الامتحان وعمل به فى أيام أسرة هان حوالى ٢٠٠ ق . م . — ٢٠٠ ميلادية على وجه التقريب [١] ، ففى ذلك الوقت حدثت احتكاكات بين

(١) على وجه الدقة بين عامى ٢٠٦ ق . م . و ٢٢٠ ميلادية .
(المترجم)

الامبراطور وجماعة العلماء،ويقال ان الامبراطور الذى أمر بعقد الامتحانات أعلن قائلا : « الآن قد أوقعت العلماء فى شبكتى » . ولكن الذى حدث هو أن العلماء هم الذين أمسكوا بالامبراطور لأن طبقة العلماء هى التى سيطرت على الحكومة الصينية منذ ذلك العهد حتى وقت قريب . وأخذت الامتحانات طابعها النهائى تحت حكم أسرة « تانج » (T'ang) بين عامى ٧٠٠ ، ٩٠٠ ميلادية [1] . وكانت تتكون من موضوعين فى الانشاء وأن يكتب الممتحن قصيدة تتألف من اثنى عشر سطرا ، وفى كل سطر خمس علامات ، وكان موضوع القصيدة يعلن للطلبة فى آخر دقيقة ، وظل هذا النظام ساريا بلا تغيير تقريبا سواء فى الشكل أو فى الموضوع حتى عام ١٩١٢ عندما أعلنت الجمهورية الثورية فى الصين .

وكان يتحتم على أى شخص يتقدم الى وظيفة من الوظائف التى تحتاج الى تعيين أن يكون قد نجح على الأقل فى الامتحان الأول وحصل على شهادته ، ولكنهم كانوا يحتاجون عادة الى شهادتين . وكانت هناك أربعة امتحانات ولكن لم يكن يستطيع الوصول الى النهاية ويجتاز الامتحان الرابع الا عدد قليل ، وكانت الحكومة تعنى بأمر الذين يتمكنون من ذلك حتى ولو لم يحصلوا على وظيفة فى الحال ، وكانوا يربطون لهم مرتبا حتى تخلو لهم وظيفة .

كان جميع الموظفين الاداريين الذين يتولون وظائف ذات مستوى أكبر من مستوى وظائف القرية لا يتولون وظائفهم الا بطريقة التعيين ، وكان المعينون يؤخذون من جداول (اثبات) أسماء الناجحين فى الامتحان . وكانت القرية تحكم بطريقة ديموقراطية ، يشرف على شئونها مجلس قرية ، تنفذ أحكامه بدقة لأن المجلس كان مكونا من أعضاء هم رؤساء العائلات الذين كان

---

(١) حكمت أسرة « تانج » من عام ٦١٨ حتى عام ٩٠٦ ميلادية .
(المترجم)

لآرائهم نفوذ كبير فى القرية ، ولكن كل الوظائف التى كانت أعلى من مستوى مجلس القرية ، كانت وظائف حكومية لا يتولاها أصحابها الا بعد تعيينهم من الحكومة .

وكان يصعب على أول جيل من العلماء ، الذين ينتسبون الى جماعات من عائلات الفلاحين أو التجار أن يتولوا منصبا حكوميا حتى ولو اجتازوا امتحان المسابقة ، وكانت العادة أن ينزوى مثل هذا العالم قانعا بما أحرزه من تكريم بحصوله على شهادته ، وتعمل جماعة عائلته وتكد حتى تجمع ثروة تكفى لأن يتعلم أبناؤه لكى يصبحوا من العلماء . فاذا نجح أولئك الأبناء فى الامتحانات فمن حقهم التطلع الى الوظائف الحكومية التى ينشدونها . وكانت المنافسة حادة لأنه كان يوجد دائما عدد من الحائزين على الشهادات الأكاديمية أكثر من عدد الوظائف . ولما كان المتقدمون لتلك الوظائف غير مرتبين فى أى كشف من كشوف الأسبقية حسب الدرجات التى حصلوا عليها فى الامتحانات فان الحصول على احدى الوظائف الحكومية كان يحتاج الى مساع تبذل مع الموظفين القائمين بالأمر ، ولهذا كان المرشحون ينجذبون الى پيكين حيث ينتظرون هناك باذلين كل المساعى التى تتيسر لهم .

وكانوا يعينون المرشحين الناجحين فى وظائف فى أمكنة فى الصين تبعد ما أمكن عن مواطنهم الأصلية ، وكانوا يفعلون ذلك لأنه بمجرد أن يعرف أن واحدا من « التسو » تولى منصبا حكوميا فان كل فرد ممن ينتمون اليه بصلة القربى يأتى اليه طالبا المساعدة أو طالبا التعيين فى أحد الأعمـــال الصغيرة ، وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب هذا الجيش من الأقارب الجائعين أن يذهب الموظف الى مكان بعيد عنهم . وفى العصور الماضية عندما كان السفر صعبا كان الموظف الذى ينتقل الى اقليم بعيد يترك أقاربه بعيدا عنه ، ولكن بعد أن ظهرت وسيلة الانتقال بالأوتوبيس والوسائل الأخرى فى المواصلات ، ففى الوقت الذى يصل فيه حاكم أحد الأقاليم الى مركز عمله يجد جيشا من أقاربه

الفقراء جالسين على عتبة داره آملين أن يجد لهم عملا وأن يستفيدوا من الولاء للعائلة وما يحس به الشخص من التزامات نحو أهله .

وكانت كل وظيفة فى الدولة — ما عدا وظيفة الامبراطور — مفتوحة من الناحية النظرية ، أمام كل رجل له مواهب كافية . كانت هناك بعض الجماعات مثل الشرطة ، وبحارة الزوارق والأرقاء مثلا ، التى لم يكن لها حق التقدم للامتحانات ، ولكن تلك الجماعات كانت قليلة العدد اذا قورنت بمجموع السكان الذين كانوا يعيشون فى الصين . فالطالب الذى ينتهى من منهج التعليم العالى الذى يتكون أساسا من دراسة الفلسفة الأخلاقية والتاريخ والآداب يتقدم الى امتحانه الأول . وكانت تلك الامتحانات تعقد فى المبنى الحكومى فى المدن فى كل اقليم مرتين فى كل ثلاثة أعوام ، وكان المتحنون هم حكام المناطق ومستشارين علميين تعينهم الحكومة . وعلى المتحن عند تقدمه للامتحان أن يقدم بيانا بعمره والمكان الذى ولد فيه ، وأن يوضح أنه ليس عضوا فى جماعة من الجماعات المحرم عليها دخول الامتحان . وكانوا يفحصون ملابسه ليتأكدوا أنه لا يحمل معه أوراقا تساعده على الغش فى الامتحان ، ثم يتركونه بعد ذلك فى حجرة صغيرة يختمون بابها الخارجى بوضع قطعة من الورق مختومة بالختم الرسمى .

وكانوا يؤدون الامتحانات فى موضوعات مختلفة متشعبة النواحى ، ويقصد منها اظهار ذكاء العالم ومقدرته ، وكان المفروض أن الرجل الذى يصل به ذكاؤه الى النجاح فى الامتحان يكون على قدر كاف من المهارة تؤهله للنجاح فى أى عمل يتولاه ، وهذا يتعارض تماما مع الاعتقاد الأمريكى بأنه اذا كان الرجل حاصلا على المهارة اللازمة للعمل الذى يؤديه فلا أهمية لأى شىء آخر بعد ذلك ، ويتعارض أيضا مع الفكرة الأمريكية عن الرجل السياسى بأنه هو الشخص القريب جدا من الرجل العادى ، ليس فيما يهتم به فحسب ، بل وفى مقدرته العامة . أما رأى الصينيين فكان يخالف ذلك ، اذ يحتاج العثور

على رجل متفوق حقيقة لأجل العمل فى الوظائف التشريعية والادارية الى قدر كبير من الحذق . ويعنون بالرجل المتفوق أنه الرجل الأمين الذى لا ينحاز الى ناحية معينة فى أحكامه ، والذى يخلص الاخلاص كله للصالح العام . وكان مثل هذا الرجل يلقى التقـدير وحسن المكافأة ، وذلك على عكس النظام الأمريكى حيث يستطيع الرجل المدرب أن يحصل على قدر أكبر من المـال لو عمل فى وظيفة خارج الحكومة مما لو عمل فى وظيفة حكومية ، اللهم الا اذا سار على خطة ابتزاز أموال الناس بدون وجه حق لمساعدتهم فى الحصول على ما يريدون .

كان النظام الصينى أشبه بنظام الخدمة البريطانية الاستعمارية الذى كان الى ما قبل وقت قريب من أنجح نظم الادارة فى العالم . ففى النظام البريطانى كانت امتحانات الخدمة المدنية تهدف الى اكتشاف الرجال المثقفين الذين على قدر عظيم من الذكاء ، وكانت أسئلة الامتحان تجمع بين أسئلة عن كتاب بوكاشيو فى أذواق الذين يجمعون الكتب ، وبين أسئلة يطلبون فيها منهم قراءة احدى الخرائط البيانية الخاصة بتقلب الطقس . وكذلك كان الموظف الصينى . فقد كان رجلا يحسنون اختياره ، رجلا ممتاز الذكاء ، وكان كل موظف أوروبى يضطره علمه الى الاتصال بالحكومة الصينية عندما كانت أسرة منشو فى أيام قوتها كان يدرك فى الحال ما كان لأولئك الموظفين من القيمة العظيمة والمقدرة الفائقة . وفى بعض الأحيان كان ذلك النظام يقود الى عكس ما قصد منه ولنضرب لذلك مثلا بأحد الموظفين الصينيين الكبار ، الذى كان من الطبقة الرابعة ، وهى أعلى الطبقات ، الذى تولى قيادة الأسطول الصينى فى الحرب الأولى بين الصين واليابان بالرغم من أنه لم يركب البحر فى حياته . وبطبيعة الحال انتهى الأمر بالقضاء على الأسطول الصينى . ولكن هذا الموظف الكبير اتبع خير تقاليد العلماء ، فكتب قطعة أدبية ممتازة يشرح فيها كل ما حدث ،

ورفعها الى الامبراطور ، ثم انتحر . ولكن بصرف النظر عن مثل هذه الحوادث النادرة فان النظام الأصلى نجح نجاحا كبيرا فى تطبيقه .

وكان يتقدم للامتحان الأول ستة آلاف أو سبعة آلاف طالب لا ينجح منهم عادة الا أقل من عشرة فى المائة . ويسمح لأولئك الناجحين بدخول امتحان مسابقة آخر ، وهكذا فلا يحصل على الشهادة الأولى الا أقل من واحد فى المائة أى نحو ستين من كل ستة آلاف ، ويذهب أولئك الناجحون الى عواصم الولايات ويدخلون الجامعات ويحضرون للامتحان الثانى . وكان الرجل الذى يحصل على الشهادة الأولى لا يحمل هما لشىء . فهو مطمئن كل الاطمئنان من الناحية المالية ، وذلك لأنه اذا لم تستطع عائلته أن تساعده على الاستمرار فى الدراسة ، فان الجماعة التى ينتسب اليها تدفع نفقاته على أمل نجاحه وحصوله على الدرجة الثانية وتعيينه فى منصب حكومى . والصينيون محبون دائما للمقامرة ، وهم يقامرون بما يدفعونه مقابل أن يكون لهم صديق فى الحكومة فى استطاعته مساعدة الجماعة بأكملها .

كان النجاح فى امتحان الدرجة الأولى حادثا عظيما ، وكان اسم المرشح يكتب على لوحات أسلاف عائلته ، وقبل أن يدخل التلغراف الى الصين تخصص بعض الناس فى أن يكونوا رسلا لابلاغ مثل هذه الأخبار ، وجعلوا ذلك مهنة لهم . كانوا ينتظرون خارج حجرات الامتحان حتى تعلق أسماء المرشحين الناجحين ثم يجرون ليبلغوا الأخبار السارة الى العائلات فى القرى البعيدة ، وفى مثل تلك الحالة كانت الغبطة تملأ نفوس العائلات فيكافئون أولئك الرسل بسخاء .

وكان الامتحان الثانى يعقد فى عاصمة الاقليم تمتحنهم لجنة يعينها الامبراطور . وتشبه اجراءات الامتحان الثانى اجراءات الامتحان الأول ، وكانوا يطوقون أعناق الناجحين من بينهم بقلادة ، وزهرة ذهبية . وكان الحاصلون على الدرجة الثانية فى الأيام السالفة يذهبون الى العاصمة فى

پيكين لأجل الامتحان الثالث فمن يحصل منهم على الدرجة الثالثة يبقى فى العاصـــمة حتى يدخل الامتحان الرابع ، ويصحح أوراق هـــذا الامتحان الامبراطور نفسه ، ويستخدم الحبر الأحمر فى هذا الغرض . وكان الناجحون فى أعلى درجة ، وهى الدرجة الرابعة ، يقسمون الى أربع فئـــات : احداها يرتب لصاحبها مرتب ويبقى تحت الطلب ليملأ ما يخلو من وظائف هامة ، وفئة ثانية تصبح أعضاء فى المجلس الخاص بالامبراطور ، وفئة ثالثة تعين فى وظائف فى مكاتب الحكومة ، أما الفئة الرابعـــة فكانت ترسل الى الأقاليم ليكونوا حكاما لهـــا .

ولا داعى للقول بأن مناصب الفئة الأخيرة كانت هى المناصب التى ينشدها الجميع ، لأن حاكم الاقليم كان فى مركز يساعده على ابتزاز الأموال من الناس لأن ذلك كان جزءا متمما لنظام الحكومة فى الصين . ونظرا لقلة عدد الوظائف فان الحصول على وظيفة حتى بعد اجتياز الامتحان النهائى كان يتطلب مزيجا من المهارة والنفوذ . والموظف الصينى الذى يجتاز كل تلك المراحل يكون دون أى شك شخصا شديد الذكاء ، وطالما كانت حكومة الصين متروكة بين أيدى أولئك العلماء ، الذين عرفوا كيف يعدونهم ، فقد سار كل شىء على خير وجه . ولكن النقطة الضعيفة فى النظام الصينى هى أنهم لم يكن لديهم مثل هذا النظام الدقيق للحصول على الأباطرة .

ولم يتبع الصينيون عادة توريث الابن الأكبر بالرغم من أنه كان يوجد اتجاه واضح نحو هذا التقليد فى البيت الامبراطورى . كان الامبراطور يختار فى العادة أحد أبنائه ليخلفه على العرش . ونظرا لأن الامبراطور كان يتزوج من عدة نساء ، يختارهن من العائلات الصينية الكبيرة ، فمن السهل أن يتصور الانسان مدى الألاعيب والدسائس التى تسببها هذه الطريقة فى اختيار الوريث. فاذا تم اعلان اسم الشخص الذى سيتولى العرش تبدأ أمه فى التأثير عليه ليجد وظائف لجميع أفراد العائلة ، وكانت العلامة التى تنبىء بقرب انهيار أى أسرة

مالكة هى بدء خروج ادارة البلاد من يد العلماء الحقيقيين الذين وصلوا الى مناصبهم عن طريق الامتحانات ، ووضعها فى يد المقربين من القصر .

ولعب خصيان القصر دورا كبيرا فى القضاء على الأسرات الصينية ، ويختلف أولئك الخصيان اختلافا تاما عن خصيان البلاد الاسلامية الذين كانوا فى العادة من الأرقاء ، أما فى الصين فانهم كانوا متطوعين ، وفى كثير من الحالات كانوا رجالا فى متوسط العمر أدوا واجبهم نحو العشيرة بالزواج وانجاب الأبناء ، ثم يتطوعون بعد ذلك لتجرى لهم تلك العملية ويدخلون فى خدمة القصر حيث يتيسر لهم تولى منصب رفيع . ولكن الخصيان ، رغم حالتهم التى لا يستطيعون معها انجاب الأطفال ، كان لهم عائلات فى خارج القصر ولهذا السبب كانوا ينتهجون النهج الصينى القديم فى الادارة الحكومية وهو الصراع بين مطالب العائلة وبين ما تتطلبه المصلحة الوطنية . ومن الجلى الواضح أن الأشخاص الذين تركوا عائلاتهم ليدخلوا خدمة القصر بهذه الشروط كانوا اما رجالا لم يتجاوبوا مع من حولهم ، أو لم ينجحوا فى الحياة العادية ، أو أولئك الذين تتملكهم رغبة جامحة نحو السيطرة الى الحد الذى يجعلهم يضحون بأى شىء للحصول عليها . وعلى أى حال ، فقد كانوا جماعة خطرين ، وعندما كان يقوى نفوذ الخصيان فى ادارة القصر ويتولون المناصب الادارية ويعينون أقاربهم فى الوظائف ، فان ذلك كان ايذانا بأن تلك الأسرة فى طريقها الى الزوال .

كانت نقطة الضعف فى النظام الصينى تكمن فى الهيئة العليا فى الادارة . وطالما كان الحكام حكاما صالحين ، كان النظام كله يسير بنجاح ، وتستطيع الصين أن تتقدم وتحصل بصفة مستمرة على طبقة من الموظفين فى درجة عالية من الذكاء ، تلقوا نوعا واحدا من التعليم وتجمعهم أسس ثقافية واحدة ، وكان خير نظام للابقاء على تلك الأرستوقراطية التى نجحت حتى ذلك الوقت فى أداء مهمتها . ومشكلة الحصول على موظفين صالحين هى فى الواقع من

المشاكل التى لا مندوحة عنها ، والتى تواجه الأمم الحديثة ،وهى من المشاكل التى لم نحسن حتى الآن معالجتها .

أما العيوب الأخرى فى حكومة الصين فهى فى انتشار الرشوة وابتزاز الأموال دون حق ، ثم فى طريقتهم فى معالجة الجريمة . كان المرتب الذى يدفع للحاكم الصينى مرتبا قليلا ، وكانوا يتوقعون منه أن يحصل على المال عن طريق الابتزاز أو الرشوة وكان المبلغ الذى يتقاضاه بهذه الوسيلة قد حددته العادات السائدة تحديدا دقيقا وأصبح شيئا متوقعا من جميع الذين يتعاملون معه . كان هذا النوع من ابتزاز المال ما سماه بعض الأمريكيين « رشوة شريفة » فاذا بالغ أحد الحكام فى مطالبه وأخذ من الناس أموالا أكثر جدا مما جرى به العرف فان التجار والصناع يرسلون احتجاجا الى الحكومة المركزية ، وعند ذلك يرسلون لجنة للتحقيق دون سابق اخطار فتختم جميع السجلات وتعتقل الموظفين ثم تبدأ التحقيق . فاذا ثبت أن الموظفين كانوا يحصلون على تلك الرشاوى دون حق فانهم كانوا يتخذون اجراء سريعا . وبدلا من جعل القضية تستمر عشر سنوات وينتهى الأمر بتغريم المرتشى ثلاثة فى المائة مما عرف أنه أخذه — حسب الطريقة الأمريكية — فانهم كانوا يحكمون عليه بالاعدام ، وكان هذا العمل رادعا قويا ضد الافراط فى الظلم .

وكانت الطريقة الصينية فى معالجة الجريمة ، بالرغم من أننا لا يمكن أن نرضى عنها اذا حكمنا عليها بمقاييسنا ، أقسى على المجرمين منها على الجمهور، وهذا مالا يمكن أن نقوله دائما عن طرقنا التى نتبعها فى هذا الموضوع . كان العقاب ينفذ سريعا ، وكان لديهم أنواع كثيرة مبتكرة فى تنفيذ الحكم بالاعدام . ولم يكن للمجرم الا حق ضئيل للاستئناف ، أما الشهود الذين لم يكن لهم ضلع كبير فى الجريمة فانهم كانوا يعذبون وذلك جريا على مبدأ كانوا يؤمنون به وهو انهم بهذه الطريقة يحصلون على معرفة الكثير من تفصيلات الوقائع . ولكن هذه الطريقة كانت فى الواقع سببا فى هرب أى شاهد

يرى الجريمة ، وكان هذا بدوره يزيد من صعوبة الحصول على البراهين الضرورية فى اثبات الجرائم . واذا كان المتهم موظفا ولم تكن جريمته من الجرائم الكبيرة التى يستحق عليها الاعدام فانهم كانوا يرسلونه الى العاصمة لينتظر المحاكمة ، وهناك كان ينتظر شهورا أو أعواما ، ويبتز منه كل من حوله رشاوى ، حتى يعصروا ماليته عصرا ، ولا يبقى لديه شىء . وكانت هذه الوسيلة أسلوبا واعيا لتكديس الثروة لفائدة الهيئة الحاكمة . ويتلخص هذا الأسلوب فى أنهم كانوا يتركون الموظفين الصغار يبتزون من المال ما يشاؤون ثم يتلقفونهم بعد ثرائهم كما يقطف الانسان الثمرة بعد نضجها . وكانت هذه الطريقة قد بدأت تستخدم فى ألمانيا خلال حكم النازى وينتظر أن تظهر فى أى مكان فيه حكم دكتاتورى .

وتنفرد الصين بين جميع المدنيات الكبيرة بأنها خلال تاريخها الطويل لم تظهر فيها طائفة قوية من رجال الدين فى أى وقت من الأوقات . وبالرغم من أن الامبراطور نفسه فى العصور القديمة فى عهد شانج وشووهان ، كان فى الوقت ذاته كاهنا يقدم القرابين الى السماء نيابة عن المملكة بأسرها ، فان الواجبات الدينية الملقاة على عاتق أولئك الحكام كانت دائما فى المرتبة الثانية وتأتى بعد مشاغل الحكم ، أو على الأقل سن القوانين الحكومية الرادعة ، وترك تنفيذها بين يدى أناس مدربين وهم طبقة الموظفين . ولم يكن فى الصين فى أى مرحلة من مراحل تاريخها شىء يماثل منشآت المعابد الكبيرة التى سيطرت على الحياة الفكرية والحياة الاقتصادية فى بعض المدنيات الأخرى مثل مصر وبلاد ما بين النهرين والى حد ما ، فى الهند أيضا .

وأهم عنصر فى الديانة الصينية هو عبادة الأسلاف ، فان كل ديانة من الديانات ترفع من شأن القيم الأخلاقية والميول التى يرى فيها المجتمع أنها بالغة الأهمية ، وكان أهم شيئين فى الحياة اليومية فى الصين أسلوب التنظيم

العائلى ونظام استمرار العائلة . ويلى ذلك فى الأهمية أساليب الأدب والكياسة التى ذكرت قواعدها بالتفصيل فى الكتب الصينية الكلاسيكية .

ونرى فى الديانة الصينية انعكاسا قويا لهذين الأمرين الهامين ، فمهما كانت العقيدة التى يؤمن بها الشخص الصينى من الناحية الرسمية فانه كان يؤمن قبل أى شىء آخر ايمانا أساسيا بعبادة الأسلاف .

وترجع نشأة هذه العادة وأصلها الى نظام الحياة العائلية ، فالعائلة ، فى رأى الصينى أهم من الفرد ، وهى شىء يمكن أن يستمر ، ويمكن أن يقال عن العائلة انها تحتوى فريقين أحدهما حى والآخر ميت . وهم يعتقدون أن الأسلاف الذين ماتوا يستمرون على اهتمامهم بمقادير وسلوك الذين من نسلهم ولهذا كانوا يخطرون أولئك الأسلاف بكل الأحداث الهامة فى العائلة ، ويقدمون لهم القرابين . ومهما كان ، فان ذلك لم يكن عادة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، فالقرابين كانت تقدم كعلامة من علامات الاحترام وكاعتراف مؤدب من الأحفاد بأنهم مدينون بوجودهم وبحظهم الحسن ، لأولئك الذين أصبحوا فى عالم الروح .

وللشعائر والطقوس أهميتها فى أكثر نواحى الديانة الصينية . فأقدم الكتابات الصينية التى وصلت الينا هى الكتابات التى تصف الطقوس الصحيحة التى يجب القيام بها عند تقديم مختلف أنواع القرابين ، وهى تصف وصفا دقيقا مفصلا كيف تصنع أوانى القرابين ، وما هى الطرق التى يجب اتباعها فى ذلك العمل ، وما شابه ذلك ، وكان ذلك كله نوعا من التقرب الى القوى التى هى فوق قوى الطبيعة ، ولكنه تقرب خال من العاطفة ويشبه كثيرا تقرب أحد المشرفين على ادارة القصر أو أحد كبار الموظفين الى الامبراطور . فاذا اتبعت القواعد الصحيحة الخاصة باللياقة فى معاملاتك مع القوى التى فوق الطبيعة فمن المفروض انك ستحصل على الفائدة . وليس المتوقع منك أن تحب

الله أو تخافه ولكن يجب أن تعرف كيف تتصل به حسب الأصول وكيف تؤثر عليه ، وهى كلها أشياء خصصت لها الآداب الصينية فصولا كثيرة .

لم يكن الصينيون فى عصورهم القديمة يقتصرون على تقديم القرابين لأسلافهم بل كانوا يضعون مع الموتى عند الدفن جميع الأدوات والأوانى والأشياء الأخرى التى يحتاجون اليها فى الحياة الأخرى . ففى مقابر « شانج » التى ترجع الى حوالى عام ١٥٠٠ ق . م كانوا يضعون قرابين كثيرة جدا مع الميت . والسبب فى العثور على تلك الأوانى الفخمة المصنوعة من البرونز بين أوانى عصر شانج هو أن الملك المتوفى يجب أن يدفن ومعه العدد الكامل من أوانى القرابين التى عساه يحتاج اليها عند تقديم القرابين الواجب تقديمها باعتباره ملكا فى العالم الآخر ، اذ أن ذلك العالم ليس الا امتدادا للحياة على الأرض . وأعطوا الملك أيضا ما يلزمه من الخدم ، وفى أغلب الحالات واحدة أو اثنتين من محظياته اللاتى يحبهن ، وكانوا يخنقون أولئك الذين سيقومون على خدمته ويضعونهم معه فى القبر ، وفى بعض الحالات كان أحد النبلاء المخلصين ينتحر ويتبع صديقه الى العالم الآخر حتى يبدأ ذلك الحاكم الميت حياته الجديدة وحوله جماعة يعرفها من قبل .

واستمرت عادة القرابين الامبراطورية أكثر من ألف سنة . بيد أنه فى آخر أيام أسرة « شو » زاد الشعور بالاعتراض على تقديم الضحايا الانسانية وبدأوا يضعون فى المقابر بديلا لها . وفى احدى الأساطير أن الضحايا الآدمية ألغيت فى خلال أسرة « هان » ، وذلك لأنه بعد موت أحد الأباطرة أصر قيم القصر على أن الامبراطورة يجب أن تقتل لكى تكون مع زوجها ، ولكن السيدة اعترضت على ذلك بأن قيم القصر هو المشرف على كل شىء فى ادارته ويعرف ما يحتاج اليه سيده أكثر منها ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يلبى رغبات الامبراطور خيرا منها . فصرفوا النظر فى الحال عن الموضوع ، وأبطلوا عادة تقديم الضحايا الآدمية فى جنازات الأباطرة ، وهذه التماثيل الصغيرة الفخمة

للراقصات والجنود والخيل ... الخ التى يطلق عليها اسم تماثيل القبر والتى كانت توضع فى المقابر فى أواخر أيام « شو » وفى أيام أسرة « هان » وأيام أسرة « تانج » لم توضع فى المقابر الا لتكون بديلا عن أشخاص حقيقيين وأشياء حقيقية .

وفى العصـــور الحديثة استمر الصينيون المتمسكون برأيهم فى تقديم الأشياء التى يحتاج اليها المتوفى فى العالم الآخر ، ولكنها تصنع من مواد رخيصة مستهلكة ، فى أغلب الحالات من الورق ، وتحرق فى نهاية الجنازة ويرسلونها الى العالم الآخر وذلك باحراقها فى النار . وكثيرا ما يرى الانسان فى موكب الجنازات بين الأشياء التى يحملونها سيارة مصنوعة من الورق ويجلس فيها سائقها ، وفى أيام حكم « شيانج كاى — شك Chiang Kai-Sheck) للصين ، سارت جنازة أحـد القواد الصينيين وكان فيها طائرة من الورق أحرقت فى نهاية الجنازة . كان الصينيون يؤمنون ايمانا تاما بصدق فكرة وضع الأمتعة فى القبر أو حرقها بعد الانتهاء من الجنازة من أجل فائدة المتوفى ، والى عام ١٩١٠ كان بعض الناس يعقدون قروضا فى بعض الأحيان ، وهم متفاهمون على أن رد قيمة تلك السلفيات سيكون فى العالم الآخر .

وكانت هناك عقيدة أخرى فى الصين بأن الجسم يكون فى العالم الآخر على الحالة التى كان عليها يوم الوفاة . ولهذا السبب كان الصينيون ، بل وما زالوا حتى اليوم ، ينفرون كل النفور من فكرة بتر أحد الأعضاء ، حتى ولو كان فى ذلك انقاذ لحياتهم . فاذا تم بتر أحد الأعضاء فانهم يحتفظون به حتى يدفن مع صاحبه . حتى رؤوس المجرمين التى يطيحون بها عقابا عـلى ما اقترفوه من جرائم كانوا يسلمونها عادة لأهلهم ليضعوها فى مكانها مع الجثة عند دفنها . واذا لم يتيسر الحصول على عضو يفقد كانوا يعملون بديلا له من الفخار ويوضع فى مكانه من الجسم عند دفنه . وفى العصور القديمة كان خصيان القصر يحتفظون بأعضائهم التى فصلت من الجسم وذلك بوضعها

فى الكؤول ، فاذا ما وصل أحد هؤلاء الموظفين الى سن التقاعد كان يأخذ معه تلك الأعضاء . فاذا حانت منيته كانوا يخيطونها فى مكانها الذى فصلت منه حتى يبدأ حياته فى العالم الآخر وهو كامل الرجولة . ويعتز « برتولد لوفر Berthold Laufer » ، الذى ذكر لى هذه العادة ، بامتلاك بديل عن هذه الأعضاء وهى مصنوعة من حجر اليشم ، وتزيد كثيرا عن الحجم الطبيعى ، وقد عثر عليها فى مقبرة من عهد أسرة « تانج » .

والى عصر قريب كان الصينيون يعتقدون (ومن الصعب أن نعرف ماذا يعتقدون الآن) أن الأثاث الجنازى وكل ما يضعونه مع الميت كان ينتقل الى العالم الآخر . وكانت الصورة الصينية لهذه المملكة ، على الأقل بين العامة من الشعب الذين لا يتجهون اتجاهات فلسفية فى تفكيرهم ، صورة عملية ومادية وهى حياة فى عالم أسفل ، موجود تحت أرض بلاد الصين الحالية مباشرة ، وتماثلها تماما فى جميع التفاصيل ، ويسرى عليها حكم امبراطورى كما يسرى على الصين التى فوق الأرض . وكانت العادة فى أيام الامبراطورية أنه اذا كوفىء شخص من أجل خدماته الممتازة ، فان هذا التشريف كان يشمل أيضا أجيالا من أسلافه ، وكانوا يرسلون براءات التشريف الى العالم الآخر حتى تستفيد الأرواح فى الحال من الألقاب التى منحت لأحفادهم . وكان يوجد أيضا عدد من الأنواع المختلفة من الجحيم لأجل الأشرار ، وفيها أنواع تعذيب متعددة يقوم بها الكثير من الشياطين . ومن أقسى وأشد أنواع العقاب ، نوع لم يكن فيه آلام جثمانية ، بل كانوا يجبرون الشخص المحكوم عليه بالوقوف أمام مرآة سحرية وينظر الى نتائج أعماله الشريرة وما يترتب عليها فى عالم الأحياء فوق الأرض . كان يرى عائلته وقد انهارت ، وأطفاله وأصدقاءه وهم يتعذبون بسبب ما اقترفه من أعمال السوء ، حتى يرى نسله كله وقد تحطم وزال من الوجود وهو واقف ينظر اليهم لا يستطيع أن يتدخل أو أن يحول بصره بعيدا عنهم .

وموقف الصينيين تجاه الدين خليط من الخـرافة والتفكير العملى . فالفولكلور الصينى ملىء بقصص الشياطين والأشباح ، والشيطان الصينى ليس الا روحا ارتبطت بالأرض ولم تستطع أن تنتقل الى الناحية الأخرى كما يقول الروحانيون . وأولئك الذين يلاقون حتفهم باعتداء الآخرين عليهم ، أو أن يموتوا غرقى أو منتحرين ، لا يمكن أن يسيروا فى الطريق المعتاد ليبعثوا مرة أخرى حتى يجدوا بديلا عنهم ، ومن المحتم عليهم أن يظلوا يحومون حول المكان الذى وقعت فيه المأساة . ولا يميل الصينيون الى الاقدام على انقاذ شخص يغرق لأنهم يعتقدون أن روح غريق آخر سبق أن لاقى حتفه فى نفس المكان تجذبه لأنها تريد غريقا بديلا عنها لتتحرر من قيدها . فاذا لقيت تلك الروح من يعوق عملها فانها لن تنسى ذلك ، وتجلب المتاعب على من أنقذ منها فريستها .

وبالرغم من أنه كان يوجد بعض المتصوفة فى العصور الأولى من تطور الفلسفة الصينية فان الاتجاه الصينى اتجاه عملى بالمعنى الصحيح . وكان الصينيون دائما متسامحين ازاء الديانات المختلفة ، وعلى استعداد لأن يعبدوا فى أى مكان ما يكون فيه فائدة لهم . ولم يضطهدوا أبدا قوما أو فردا لأسباب دينية ، ولا يوجد الا عدد قليل جدا من الصينيين الذين استشهدوا بسبب معتقداتهم ، واذا كانت هناك أى اضطهادات فانها تنحصر فى الاضطهادات التى تعرض لها البوذيون ، وهى لم تنشأ لأسباب دينية ولكنها نشأت من الخوف من استمرار البوذية فى استنفاد ثروة البلاد . والصينيون على استعداد تام للتحول من اله الى اله آخر اذا كانت لهم منفعة من وراء ذلك . ويرجع السبب الأكبر فى أن المسيحية لم تستطع أبدا تثبيت أقدامها فى الصين الى معارضة المبشرين المسيحيين لعبادة الأسلاف ، وذلك بصرف النظر عن أن المسيحية هى ديانة الدول الأجنبية التى كانوا يشعرون بأنها تهدد سلامتهم ووحدة بلادهم .

ومع كل فان الكنيسة الكاثوليكية صرحت أخيرا للصينيين الكاثوليك بأن يحرقوا البخور للوحات الأسلاف .

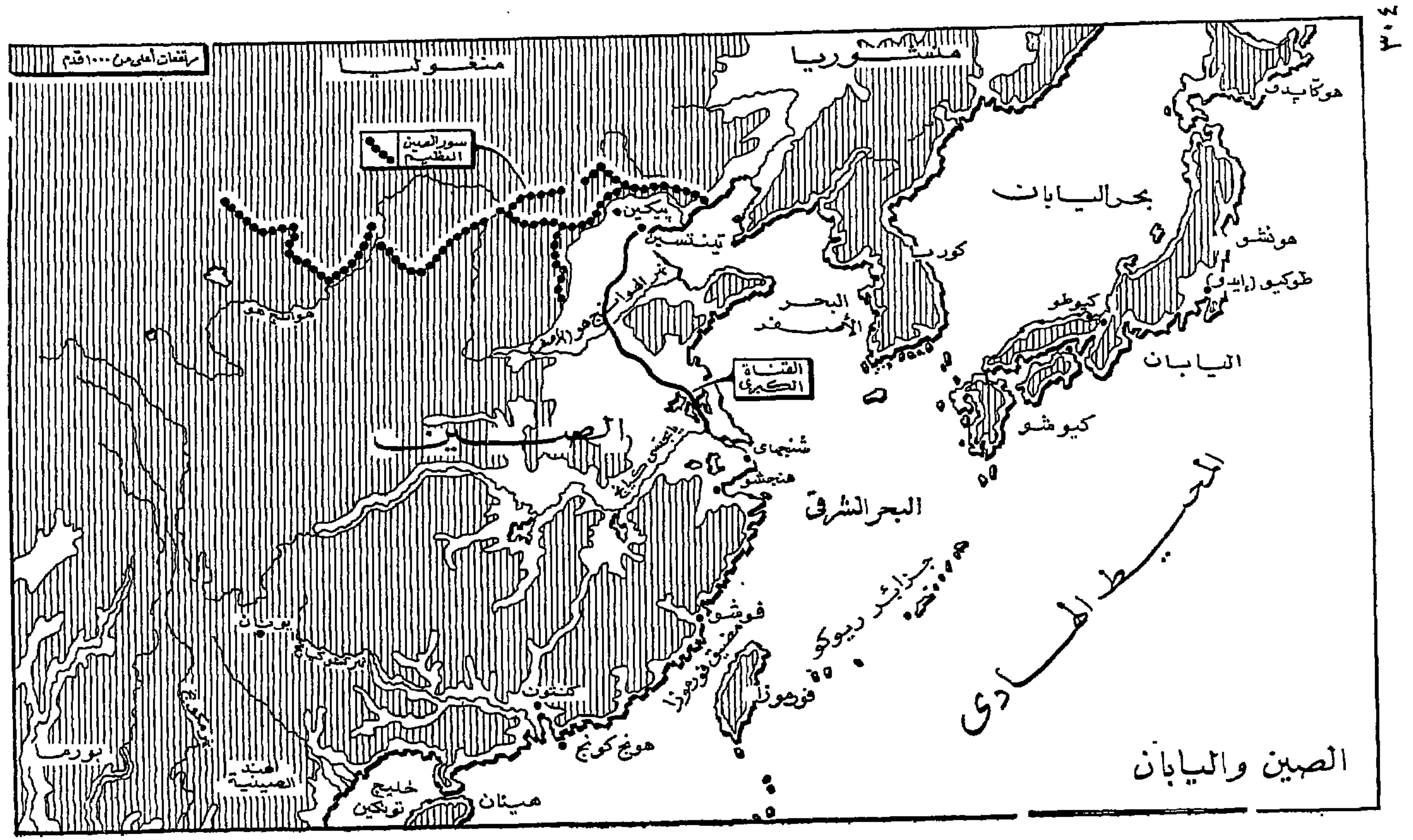
وكثيرا ما نرى فى موكب جنازة أحد الأثرياء الصينيين جماعة من الرهبان البوذيين يسيرون فى جانب يرتلون الأناشيد من الكتب البوذية ، وفى الجانب الآخر من موكب الجنازة يسير كهنة طاويون يتلون التعاويذ المناسبة لاخافة الشياطين ، ويحرقون النقود الورقية ليعطوا متسولى الأرواح ؛ اذ أنهم يعتقدون أن تلك الأرواح تسير فى الجنازة وربما تسبب بعض المتاعب فى عالم الأرواح اذا لم يشتروا تهدئتها .

وأعظم ما قدمته الصين لحضارة العالم هو أهميتها كمركز لتطور وتوزيع المدنية . فقد كانت فيها مدن كبيرة آهلة بسكانها عندما كان يعيش معظم سكان الدنيا فى قرى صغيرة ، وحلت معظم مشاكل الحكم التى تواجه الدول الحديثة ووجدت حلولا يمكن اتباعها ازاء تلك المشاكل ، وذلك فيما يمكن اتخاذه ازاء أقلية تحكم البلاد . ولم تؤثر الصين على مدنيات الشرق الأقصى فحسب ، لأنها كانت مركزا تغترف منه بصفة مستمرة الحضارات المجاورة ، بل أثرت أيضا على أوروبا . ويشبه تأثير الصين على ما جاورها من حضارات ما كان للامبراطورية الرومانية ونظمها من تأثير على الهمج البرابرة الذين كانوا على مقربة منها ولكن بدلا من الخمسمائة السنة التى استمر فيها تأثير الرومان على من جاورهم فان الحضارة الصينية ظلت ثلاثة آلاف سنة ، وكانت النبع الذى استقت منه كل حضارات هذا الجزء من العالم .

وكانت الصين فى مرات متعددة خلال تاريخها بلدا من أغنى وأقوى بلاد الدنيا ، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أى وقت الازدهار الأوروبى ، كانت الصين أغنى جدا من بلاد أوروبا وأكثر منها تمدنا فى معظم النواحى . وتاجرت أوروبا مع الصين على نطاق واسع ، وكانوا يجلبون منها الأقمشة الحريرية الجميلة والخزف ، ومنه جاءت كلمة « الصينى » التى تطلق

على جميع الأوانى الخزفية المستخدمة فى المائدة . وفى السنوات المبكرة من القرن الثامن عشر أدخلت الأشياء التى من أصل صينى طرازا جديدا فى أوروبا ، وانتشرت انتشارا واسعا . فالأوراق التى تلصق على الجدران ، والقماطر ، والأثاث والرسوم الملونة التى رسمت تقليدا للأسلوب الصينى ، كانوا يطلقون عليها اسم الصينيات كما بنى الكثيرون من نبلاء فرنسا منازل صينية صيفية فى حدائقهم .

وذهب كثيرون من رهبان الچزويت الفرنسيين الى الصين أملا فى حمل الامبراطور « تشين لنج » (Ch'ien Lung) على اعتناق المسيحية ، فاستقبلهم استقبالا حسنا فى القصر ، ولكن الامبراطور أظهر اهتمامه بالنواحى العلمية والرياضية والحربية التى كان فى استطاعة العلماء الچزويت أن يقدموها له أكثر مما عرضوه عليه فى الناحية الدينية . ومهما يكن من أمر ، فان الچزويت الفرنسيين درسوا الفلسفة الصينية والكتب الكلاسيكية الصينية ، وهناك ما يكفى للاعتقاد بأن كثيرا من الآراء التى انتشرت فى عصر الاستنارة الذى كان سببا فى ظهور الثورة الفرنسية ، قد دخلت الى التفكير الفرنسى من مصادر صينية . فالفكرة القائلة بأنه فى الوقت الذى كان يتحتم على المحكومين أن يطيعوا حاكمهم ، يجب على الامبراطور فى مقابل ذلك أن يحمى رفاهية ومصالح رعيته ، وانه كان للرعية الحق فى الثورة اذا فشل فى القيام بالتزاماته فكرة كونفوشية محضة . ومن الصعب أن نثبت فى أى مرحلة من المراحل دخلت هذه الفكرة فى تيار الفكر الأوروبى ، ولكننا نعلم تماما انها ظهرت للمرة الأولى فى الوقت الذى زاد فيه الاهتمام زيادة طاغية بالفن الصينى والفلسفة الصينية . ومن دراستنا لأساليب انتشار الحضارات يمكننا ، على أقل تقدير ، أن نظن أن الصين كانت مصدر تلك الفكرة .



الصين واليابان
مرتفعات أعلى من ١٠٠٠ قدم
منغوليا
منشوريا
سور الصين العظيم
بيكين
تينتسين
القناة الكبرى
الصين
البحر الأصفر
كوريا
بحر اليابان
هوكايدو
هونشو
طوكيو (إيدو)
كيوطو
اليابان
كيوشو
شنغهاى
هنجشو
البحر الشرقى
جزائر ريوكيو
فوشو
فورموزا
كنتون
هونج كونج
هينان
خليج تونكين
الهند الصينية
بورما
يونان
المحيط الهادى

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أننا نرى فى كتابات « روسو Rousseau » الذى رباه الجزويت فى الوقت الذى كانت فيه تلك الطائفة مشغولة بالتفكير الصينى ، أن فكرة الرجل الطبيعى تذكرنا كثيرا بالمثل الأعلى للفلسفة الطاوية. بيد أن الرجل الطبيعى لدى الطاويين ، الذى استمد شخصيته من المشاهدات الواقعية لحياة الريف فى البلاد الشرقية ، يختلف عن الرجل الطبيعى فى فلسفة روســـو الذى أغدق على رجـــله الأسطورى غرائز معصومة وفهما ممتازا للقيم الخلقية.

وتجتاز الصين فى الوقت الحاضر فترة من فترات البلبلة والسيطرة ، وربما احتاجوا الى قرن من الزمان ليتخلصوا من نير الروس ويعيدوا توجيه جهودهم كما نجحوا دائما فى الماضى فى امتصاص أو طرد أباطرتهم. فمن غير المحتمل أن يتحول الصينيون تحولا تاما الى الماركسية لأنهم كانوا شعبا ذا مدنية عظيمة لفترة طويلة ، اذ أن ذلك يحول دون اعتناقهم أى ايديولوجية سياسية بنفس الحماسة الدينية الذى أبداها الروس فى اعتناق الشيوعية. ان نفسية الصينى هى نفسية السيد الحكيم المتقدم فى السن الذى مرت عليه أحداث كثيرة وتغيرات كثيرة وأصبح من الصعب أن يثيره أى شىء اثارة حقيقية.

وهناك ميزة يمتاز بها الصينيون على الغرب وهى أنهم مرت عليهم فترة طويلة وهم شعب متمدن أكثر من الغربيين. فنحن معشر الغربيين لسنا الا جنسا من سكان القرى الذين لم يعرفوا حياة المدينة الا منذ وقت قريب. وما زلنا نحاول ملاءمة أنفسنا من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، للحياة بين جموع حاشدة. أما الصينيون فقد كانوا معرضين مدى ثلاثة آلاف سنة لأعظم عمليات الاختيار الطبيعى وذلك بسبب المجاعات والأمراض ، وجميع أنواع الاختبارات. والحقيقة التى يجب التسليم بها هى أنهم قادرون على أن يعيشوا فى مستوى أقل منا ، وهو أمر يجب أن يحسب حسابه فى المستقبل ، وعلى

الأخص عندما تظهر مشكلة ما يجب عمله ازاء عدد من القارات يعيش فيها عدد قليل من السكان البيض بينما توجد قارة كبيرة مترامية الأطراف مكتظة بعدد ضخم من السكان الذين من أصل مغولى ، والذين يزداد عددهم بسرعة كبيرة . وما من شك فى أنه لن تمضى مائتا سنة أخرى حتى تظهر أسرة قوية فى الصين ، وما من شك فى أن الصينيين ، كما حدث لهم فى الماضى ، سيصبحون قوة عالمية هامة لها خطرها.

الفصل التاسع والثلاثون

اليابان

تحتل اليابان موقعا يبعد عن شاطىء أوراسيا الشرقى ، وهى فى ذلك شبيهة بموقع الجزر البريطانية من شاطىء أوروبا الغربى . فكل منهما مجموعة من الجزر تقع على مسافة بعيدة الى الشمال من المنطقة التى يستطيع سكانها أن يحيوا حياة مريحة فوق أرض القارة ، وأصبحت تلك الجزر صالحة للسكنى بفضل تيارات المحيط الدافئة ، وهى تيار الخليج فى بريطانيا والتيار الأسود أو « كوروشيوو Kuroshiw » فى اليابان .

ومجموعة الجزر اليابانية من أصل بركانى ، وهذا يفسر طبيعتها الجبلية الوعرة ، ومع هذا فان جميع أراضيها الصالحة للزراعة خصبة جدا لأن التربة البركانية التى تكونت من الرماد واللاقا المتحللة أغنى تربة يمكن أن توجد فى العالم . وقد زرع اليابانيون جميع الأراضى التى أمكنهم تمهيدها ، وكل ما أمكنهم استخلاصه ، بطريقة عمل المدرجات وقد أضافت هذه الطريقة مساحات كبيرة من الأراضى ، تعتبرها أكثر البلاد أنه لا يمكن استخدامها . وبهذه الطريقة ، وهى زرع أكبر مساحات ممكنة من تربتها ، استطاعت اليابان أن تقدم القوت لشعبها المزدحم الكثير العدد . ونظرا لأنهم استغلوا الأرض الى أبعد حد ممكن فان ادخال الوسائل الميكانيكية الى المزارع لن يزيد الا الشىء القليل من كميات الطعام ، والامكانية الزراعية الوحيدة التى لم يهتم بها ، بل وأهملها ، اليابانيون هى امكانية الرعى لأن المنحدرات العليا للجبال يجب الانتفاع بها فى تربية قطعان من الماعز والغنم ، ولكن أساليب الرعى كانت دائما غريبة على الحضارة اليابانية .

ويجلب التيار الدافىء الذى يمر حول اليابان ويمدها بجو معتدل ، يجلب معه عند مجيئه من الجنوب كمية كبيرة من الطعام المستخرج من البحر . فأهم مصدر غذائى لليابان هو مصايد الأسماك البعيدة عن الشاطىء . ومنذ منتصف القرن السادس عشر حتى زيارة « پرى » (Perry) لليابان فى عام ١٨٥٢ ، باستثناء عهد الشوجن (Shogan) ، كان اليابانيون شعبا بحريا استطاع أن يبنى سفنا جيدة الصنع يخرج بها فى رحلات بحرية طويلة ، وكان القرصان اليابانيون يهاجمون الشواطىء الكورية فى بداية العصر المسيحى .

ولا يوجد فى اليابان رواسب معدنية كثيرة . فهناك بعض الحديد فى الشمال ولكن لا يوجد فيها أى مقدار ذى أهمية من زيت البترول أو الحديد ، ولا يوجد من النحاس أو الذهب الا كميات ضئيلة . وفى العصور القديمة كان تصدير الذهب من اليابان محرما تحريما قاطعا ، وكان العقاب الذى يوقعونه على من يجترىء على مخالفة ذلك هو القتل ، لأنه كان نادرا جدا وذا أهمية كبيرة ، مما جعل السلطات تحرص على ألا يتسرب شىء منه الى خارج البلاد . ولهذا فليس لدى اليابان موارد معدنية كافية لمد صناعة حديثة بما تحتاج اليه ، ووصولها الى القوة فى القرن العشرين يرجع الى التنظيم السياسى الذى استطاع أن يدخل اليها المدنية الحديثة فى سرعة كبيرة مصحوبة بالتفكير السليم ، واستخدامها لطرق وأساليب تم تطورها فى الغرب مع استخدام كل وسيلة ممكنة للاستفادة منها . ومثل هذا البرنامج لا يمكن أن يستمر وقتا طويلا دون أن تحصل اليابان على أراض جديدة تمدها بالمواد الخام ، فاذا لم تستطع أن تحصل على كل ما تريده من تلك المواد التى توجد فى القارة فلا مندوحة لها من أن تظل دولة من دول الدرجة الثالثة .

وما زال أصل سكان اليابان موضع جدل بين العلماء . فنحن لا نعرف الوقت الذى وفد فيه الى تلك الجزر أقدم السكان الذين وصلوا الى المرحلة الانسانية ، ولم يعثر فى اليابان على أى بقايا من « ما قبل الانسان » ، بل

لم توجد أى حفريات انسانية مبكرة بالرغم من أن اليابان كانت متصلة بقارة آسيا فى عصر البليستوسين . وقد عثر على حفريات لبقايا من الفيل الهندى وغيره من الحيوانات الاستوائية ، فاذا كانت هذه الحيوانات استطاعت أن تصل الى اليابان فقد استطاع الناس دون أى شك أن يفعلوا ذلك أيضا .

ولا يرتفع الستار من الناحية الأثرية حتى العصر النيوليتى . فحوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد كان ثلثا بلاد اليابان فى الشمال مسكونا بشعب غريب يسمى الـ « أينو » (Ainu) ، وكان أولئك الأينو يعتبرون منذ عهد بعيد من بقايا جنس قوقازى ، كانوا يعيشون فى تلك المنطقة البعيـدة ، ولكن الدراسات الأحدث أثبتت أنهم متصلون بالأوستراليين الأصليين . وربما كانوا نوعا انسانيا قديما لا يختلف عمن كانوا فى شرقى آسيا ، ولكن اقامتهم فى بيئة شمالية تكثر فيها السحب جعل لونهم أفتح من أسلافهم الذين كانوا يعيشون فى الجنوب . وهم ذوو لون فاتح ، ورؤوس مستطيلة ، ووجـوه عريضة ، وأنوف قصيرة غليظة . أما عيونهم فيمكن أن يقال انها مستديرة أكثر منها لوزية الشكل ، وكان شعر الوجه ينمو بغزارة على الجانبين . وفى جسدهم شعر كثيف ، أما اليابانيون فى العصر المتأخر فكانوا ذوى جسد أملس نسبيا ولا لحية لهم ، وعندما كانوا يشيرون الى الأينو يقولون عنهم الأينو ذوو الشعر الكثير . ونستطيع أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه حياة الأينو من الدراسات الأثرية من ناحية ، ومن حياة الأينو الذين ما زالوا يعيشون فى شمالى اليابان من ناحية أخرى .

كانت حضارة الأينـو فرعا من الحضارة المشتركة للمنطقة التى تحيط بالقطب الشمالى ، وكان الأينو قوما من الصيادين وجامعى القوت ، عاشوا فى مساكن محفورة فى الأرض واستخدموا أدوات نيوليتية ، وكانوا يستخدمون قطعا من الحجر لتهشيم الأشياء ، وكانت لديهم قاذفات مدببة من العظم وغيرها ، وصنعوا فخارا من الطين المدهوك الذى زخرفوا سطحه بتمرير حبل حوله قبل

أن يجف ، ولا يستطيع أحد أن يميزه من الفخار الذى كان يصنعه الهنود الأمريكيون الذين كانوا يعيشون فى الغابات الشرقية فى أمريكا ، وبعبارة أخرى كانت أوانيهم صورة تامة من أوانى الطبخ فى حضارة المنطقة القطبية .

والتنظيم الاجتماعى للأينو لا يعدو حياتهم فى قرى صغيرة يقطعها جماعة طوطميون يتزوجون من الأباعد (الذين من غير عائلتهم أو قريتهم) ، وكان لكل جماعة حيوان مقدس يطلق اسمه عليهم ويظهرون نحوه احتراما خاصا . وكانت دياتنهم هى عبادة أرواح الطبيعة ولم يقتصروا على العناصر كالشمس والمطر ولكنهم عبدوا مساقط المياه ، والصخور ، والأشجار وغيرها من عناصر الطبيعة ، ولكن أهم العقائد تركزت حول الدب الذى كان أخطر الحيوانات فى تلك البيئة ، كما كان فى الوقت ذاته أكثر الحيوانات لحما . وكانوا ينظرون الى الدببة نظرتهم الى قوم من قبيلة مختلفة ، وكانوا يعتقدون أن تلك الدببة عندما تكون وحدها ولا يوجد غريب بينها تخلع الفراء وتسلك سلوك الآدميين الآخرين . وكانوا يقومون بطقوس خاصة عندما يقتلون دبا حتى يرضوا روحه ، وتخبر الدببة الأخرى بأنها اذا جعلت الأينو يقتلونها بسهولة فانهم يحسنون معاملتها . وفى الوقت الحاضر يسعى الأينو لقنص دب صغير يحضرونه الى قريتهم ويربونه كحيوان القرية المدلل ، ويعاملونه باحترام ورعاية ، حتى يحين موعد قتله .

وكان السكان الأوائل الذين سكنوا الجزء الجنوبى من اليابان قوما زراعيين منذ أبعد العصور ، على عكس الاينو . فقد أحضروا معهم نبات التارو ، وربما الرز ، ولكنهم اعتمدوا اعتمادا كبيرا على صيد السمك وبنوا محلاتهم السكنية فى المناطق القريبة من الشاطىء . ولا تكاد توجد أى أدلة أثرية باقية من حضارتهم لأنهم استخدموا الغاب الهندى (البامبو) والخشب فى تشييد مساكنهم ، وفى صنع أدواتهم ، ولم يصنعوا فخارا ، ولم يستخدموا الحجر الا قليلا . وكان أولئك الجنوبيون من الناحية الجثمانية أشبه بمن

يســمون « البروتو — مالايو » على الأرجح ، أى كانوا ممتلئى الجسم وذوى لون أسمر ، وفى جسمهم قليل من الشعر ، ولهم وجوه عريضة وأنوف صغيرة ، وشفاهم رفيعة وعيونهم مستقيمة غير منحرفة .

ولم يكن هناك خط حدود ثابت بين المنطقتين اللتين يسكنهما الأينو وجيرانهم الجنوبيون الذين كانوا على مستوى حضارى مماثل لهم ، بل ان هذا الخط كان يختلف من آن لآخر . كان كل منهما محاربين أشداء ولكن الجنوبيين كانوا يمارسون الزراعة ولهذا كان فى استطاعتهم اعالة أعداد أكبر من السكان فأخذوا تدريجيا يدفعون بخط الحدود نحو الشمال . وحوالى القرن الثالث أو القرن الرابع قبل الميلاد قام شعب من كوريا بغزو لليابان . جاءوا ومعهم أسلحة من البرونز ، والفخار ، وأساليب متقدمة فى الزراعة . وبالرغم من قلة عددهم فقد استطاعوا ، بفضل حضارتهم المتقدمة ، أن ينتشروا كفاتحين فى المناطق الجنوبية التى يحتلها جماعة الأندوسيين النيوليتيين الذين استوعبوهم وامتصوهم . أما أسلاف الأينو فقد اتجهوا بعيدا نحو الشمال حيث بقوا هناك ، ولم يفعلوا شيئا كثيرا فى ميدان الحضارة أكثر من فرضهم على جيرانهم فى الجنوب أن يبقوا دائما على نشاطهم الحربى . ومنذ بداية الحضارة اليابانية نرى بينهم طبقة حربية ، وفى جميع عصور تاريخهم كانت فئة الجنود هى الفئة التى بيدها السلطة فى حين نرى فى الصين أن الجنود كانوا ذوى أهمية قليلة ، وكان الصينيون ينظرون الى الجندية بأنها ضرورة يؤسف لوجودها ، وهى لأجل حماية العلماء والمزارعين والتجار .

وكون أحفاد الغزاة تنظيما قبليا أصبح أساسا للمجتمع اليابانى فيما بعد . كانت قبائلهم أو عشائرهم تتبع نظام الزواج من الأقارب ، وكانت تخضع لحكم زعيم للعشيرة كان له مركز كبير بينهم لأنه ممثل العشيرة وحامل «مانا» الجماعة . وانحصر نشاط رجال العشيرة فى الزراعة ، والصيد ، والقتال . أما الصناعة فكانت من نصيب جماعات من الصناع الذين كانوا يتوارثون

حرفتهم ولم يعتبروهم أعضاء حقيقيين فى العشيرة ، بالرغم من أنهم كانوا مرتبطين بها ، وكان يسمح لهم باتخاذ زوجات منهم ، وبمرور الزمن اختلطت عائلات الصناع بالعشيرة وأصبحوا يحملون اسمها ويشاركونهم فى نسبها . وكان للصناع حرف يتخصصون فيها وهى النسيج الدقيق والبناء وصنع الأدوات والأسلحة . وكانت هناك أيضا طبقة قليلة العدد من الأرقاء الذكور والاناث ، الذين كانوا عادة من أسرى الحرب ومن نسلهم ، وكانت هذه الطبقة فى مركز أقل من مركز الصناع ورجال العشيرة .

وكان لكل عشيرة مجموعة آلهتها ، ومن بينها الاله الحارس للعشيرة ، ولكن قوة تلك الآلهة لم تكن معروفة على وجه التحديد ، وكذلك كان الحال فيما يختص بمكانها وطريقة حياتها . وكانت آلهة العشائر المختلفة متشابهة الى حد كبير ، فلما حان وقت الاتحاد السياسى بينها تيسر توحيدها وأصبحت آلهة للجميع . وزعمت كل قبيلة أنها من نسل الهى ، ومن فرع الابن أو البنت الكبرى لذلك الاله . فاذا كان الطفل الأكبر فى عائلة الزعيم بنتا أصبحت هى الزعيمة للقبيلة ، وهذا يفسر لنا وجود عدد كبير من الأباطرة النساء فى التاريخ اليابانى القديم .

ومن الصعب علينا أن نكون فكرة صادقة عن تاريخ اليابان القديم لأن البحوث الأثرية الدقيقة التى تمت حتى الآن قليلة جدا فضلا عن أن اليابانيين لم يتعلموا الكتابة ولم يدونوا الوثائق الا فى عصر متأخر جدا . كانوا يتناقلون الأساطير والتقاليد عن طريق الرواية الشفهية ، ولم يبدأ التاريخ المدون الا بعد عام ٥٥٢ بعد الميلاد عندما أتى عدد من الكتاب الكوريين والمبشرين البوذيين الى اليابان . زد على ذلك ، أن التاريخ اليابانى كان منذ بدايته متأثرا بالاتجاه نحو الدعاية ، وتسيطر عليه الحماسة الدينية والاعتزاز بالوطنية ، وهذا كله لا يساعد على كتابة وثائق دقيقة صحيحة . وعندما اتصل اليابانيون بالصينيين ذوى العقلية التاريخية فى القرن السادس الميلادى أحسوا بحاجتهم الى كتابة

تاريخ لبلادهم ، وحاولوا أن يصنعوا لهم تاريخا من الأساطير المختلفة التى كانت لديهم . وكانت اليابان مقسمة فى ذلك الوقت الى عدد كبير من العشائر التى تقطن فى أماكن مختلفة . وحاول كل كاتب أن يقوم بواجبه فى كتابة تاريخ لليابان يثبت فيه أن عشيرته كانت تحكم اليابان طيلة أيام تاريخها فلما تمت السيطرة للعشيرة التى أسست العائلة الامبراطورية الحالية كان من مصلحتها أن تزور الوثائق وتدعى أنها كانت دائما صاحبة السلطة فى البلاد . وعلى هذا الأساس عظموا من شأن الالهة الرئيسية لهذه العشيرة وهى الالهة «أماتراسو» (Amaterasu) الهة الشمس والتى يدعى الامبراطور الحالى أنه من نسلها ، ورفعوا من مكانتها بين آلهة اليابان بالرغم من أنه لا يكاد يوجد شك فى أنها كانت فى الأصل الهة قليلة الشأن .

تأسست الامبراطورية اليابانية عندما استطاعت احدى العشائر أن تخضع العشائر الأخرى لسلطانها واتخذ زعيمها لقب الامبراطور . وكان المجتمع الجديد يسير على الأسلوب الاقطاعى ، وظلت فيه بقايا من العشائر المختلفة . والنبلاء اليابانيون منحدرون من زعماء العشائر ، ولكن عندما استقرت الامبراطورية تفككت وانهارت تنظيمات العشائر وحلت محلها تنظيمات العائلات الكبيرة الممتدة التى تجمع الأقارب الذين يجمعهم نسب الأب ، والتى كانت تتكون من عدد كبير من الأشخاص ولكنه أقل بكثير من عدد أفراد العشائر الأصلية ، وقد حافظت تلك العائلات على ما كان فيها من نظام طبقى .

وانتظم المجتمع فى أربع طبقات ، كان فى أسفله الـ « ايتا » (Eta) أو المنبوذون . ولا يعلم أحد أصل هذه الجماعة ، وربما كان الأرقاء من أسرى الحرب فى عصر ما قبل الامبراطورية هم نواتها الأولى ، ولكنها اتسعت تدريجيا حتى شملت منبوذين من جميع الأنواع مثل المجرمين بل وفى بعض الأحيان أعضاء من فئة النبلاء لم تكن لديهم الشجاعة لعمل الهاراكيرى عندما كان يحتم ذلك حسن السلوك . ولا يختلف الـ « ايتا » فى الوقت الحاضر عن غيرهم

من اليابانيين فى مظهرهم الجثمانى بالرغم من انهم موضع الاحتقار منذ قرون. كان مجرد لمسهم ينجس من يفعله وكان عملهم محصورا فى الحرف « غير النظيفة » مثل جامعى القمامة ، والذين ينفذون أحكام الاعدام ، والمشتغلين بالدباغة والجزارين . والحرفتان الأخيرتان تعتبران فى درجة وضيعة جدا فى كل بلد بوذى لأن البوذية لا تقر قتل الحيوانات ، ومن يفعل ذلك يضعونه فى أقل وأحقر منزلة .

ويضعون العامة فوق طبقة الايتا ، ويقسمون العامة الى زارعين للأرض وصناع وتجار . فالزارعون بالرغم من أنهم تعساء اقتصاديا لأنهم معرضون لدفع الضرائب لكل شخص ، كان لهم مع ذلك مكانة اجتماعية لأن زرع الأرض فى حد ذاته حرفة شريفة ، فالساموراى نفسه يستطيع أن يكون مزارعا دون أن يقلل ذلك من قدره أو يفقده الانتماء الى طبقته . وكان الصناع دون المزارعين فى مكانتهم وربما كان ذلك راجعا الى أن الصناع المهرة كانوا على صلة بالعائلات الحاكمة بصفتهم زبائن لهم ، وذلك فى أيام الاقطاع . وكان عددهم قليلا لأنهم كانوا من الأجانب الذين أتوا بهم من خارج البلاد ، اذ كانوا يحضرون مثلا الى اليابان صانع خزف صينى ليعمل فى تجارته ، ويعطونه زوجة يابانية ، ولكن أطفاله ، وفقا لعادة الانتساب الى الأب ، لا يمكن أن يصيروا أعضاء حقيقيين فى العشيرة ، وكانت العائلات النبيلة تعنى بهم ولكنهم يظلون غرباء دائما .

وكان التجار فى الأصل يحتلون مكانة وضيعة فى اليابان ، ولكن خلال العصر الذى أقفلت فيه اليابان أبوابها فى وجه الأجانب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذت أهميتهم تزداد شيئا فشيئا . وخلال هذا العصر توطدت سلطة الحكومة المركزية ، وأصرت العشيرة الحاكمة ، لكى تسيطر على النبلاء ، على أنه يتحتم على كل نبيل أن يعيش فى العاصمة أو يرسل شخصا مسئولا من عائلته ليعيش فيها . وكان يسمح للأعضاء المختلفين من أى

عائلة من العائلات النبيلة أن يتناوبوا الخدمة فى البلاط ، ولكن « الشوجن » كان يصر على وجود عضو من كل عائلة نبيلة على مقربة منه ليكون رهينة عن عائلته . وتطور الاقتصاد الاقطاعى القديم ، الذى كان اقتصادا يعتمد على الانتاج ، فأصبح فخفخة وانفاق مال ؛ لأنه كان يتحتم على النبلاء وعائلاتهم الذين أقاموا فى العاصمة أن يدفعوا نقدا ليشتروا الملابس الفخمة التى تتطلبها عادات البلاط ، وأن ينفقوا على منازلهم الانفاق الذى تتطلبه مكانتهم .

وعند ذلك بدأ التجار يتحركون . فخلال التاريخ اليابانى كله كانت توجد النقابات والاتحادات التى كانت تعمل فى المراكز المهمة التى توجد فيها صناعات أدوات الترف . ولم يكن عمال المدن اليابانيون الذين كونوا تلك النقابات طبقة وادعة مسالمة ، وكثيرا ما كانت تلك النقابات المنظمة ترد ما يقع عليها من اعتداء اذا أحسوا بأن النبلاء أساءوا معاملتهم . وكلما ازداد عدد السكان فى المدن تمكن التجار من جمع الثروة ، فى حين ظل النبلاء محتفظين بمكانتهم ولكن التجار بدورهم بدأوا تدريجيا فى ايجاد مكانة لهم ، وفى المائة السنة الأخيرة قبل فتح أبواب اليابان للأجانب ، كان النبيل الذى افتقر ويريد أن يحسن مركزه المالى يسعى الى الزواج من ابنة أحد التجار الأغنياء ، ويصبح فى مثل هذه الحالة الزوج المتبنى فى عائلة ذلك التاجر . فقد كانت العادة أنه عندما لا يوجد ابن فى احدى العائلات اليابانية أن يزوجوا بنتا لأحد الشبان الذى يتبنونه ويصبح ابنا ويحمل اسم العائلة ، وفى المائة العام الأخيرة تكونت بهذه الطريقة أعظم بيوت التجار اليابانيين .

وكون النبلاء طبقة وراثية من المحاربين وهم « الساموراى » . ولما كان أبناء النبيل من محظياته من طبقة الفلاحين يعتبرون من النبلاء فقد ازداد أفراد هذه الطبقة باطراد . وكان أعظم النبلاء شأنا هو الـ « شوجن » ومعناه « القائد الظافر » الذى كان فى الأصل اللقب الذى يمنحه الامبراطور للنبيل الموكل اليه ادارة منطقة الحدود الشمالية حيث كان اليابانيون فى حرب

لا نهاية لها مع الأينو . وفى العصور التالية أصبح لقبا للحاكم المدنى الذى كان من حقه أن يتشفع أمام الامبراطور . ويأتى بعد الشوجن فى المرتبة كبار السادة الحربيين ، « الديميو Daimyo » ويلحق بهم فى المرتبة الزعماء الأقل منهم والفرسان .

ويختلف النظام الاقطاعى فى اليابان عن النظام الاقطاعى الأوروبى فى أنه كان يحتوى على تركيز كبير للقوة فى يد أولئك الذين فى أعلى درجة . ففى أوروبا كان الفارس يعيش مباشرة من استغلال رقيق الأرض الذين فى أملاكه ، أما فى اليابان فان الضرائب كانت تجمع بوساطة السيد الأكبر ثم يصرف منها للنبلاء الذين فى مراتب أقل . وكان الابن يرث أباه فى الحصول على هــذه المعونة فاذا لم يوجد ابن له كانت العائلة تفقد حقها فى الحصول على تلك المعونة . وكون الساموراى الذين فقدوا أراضيهم جماعة خاصة اســمها « رونــــين Ronin » ومعناها « رجال الأمواج » وكانوا يعملون كجند مأجورين فى خدمة السادة المختلفين ، وكانوا دائما على استعداد للاشتراك فى أى هجوم على القارة ، وكان كثيرون منهم يخدمون فى خارج اليابان ، ولهذا السبب كان الحرس الملكى لملوك سيام مدة قرون عــدة من الرونين اليابانيين .

وسن الساموراى قانونهم الخاص بالأخلاق وهو المسمى « بوشــيدو Bushido » ، وكان لهم لباســهم الخاص وعاداتهم الاجتماعيــة الخاصــة . وكانت دروعهم المصنوعة من قطع معدنية مثبتة مع بعضها بخيوط من الحرير كافية لحمايتهم من ضربة أى سيف يابانى ، وكان هذا السيف يستخدم أساسا فى شق البطون . أما السيوف نفسها فكانت صناعتها من خير ما عرفته صناعة المعادن فى أى مكان فى العالم . كانت تصنع من طبقات متعاقبة من الصلب ذى الكربون العالى والصلب ذى الكربون المنخفض يكررون دقها ويطبقونها

ويحمونها فى النار ويطرقونها ، ويصل الأمر فى صنع بعض السيوف الفائقة الصنع أنهم يصفحونها ما يقرب من ألفى مرة .

وبالرغم من أن أدوات القتال الفردى وأساليبه كانت متقدمة جدا فان فن الحرب لديهم كان بدائيا بسيطا . لم يفهم يابانيو العصر الاقطاعى الا الشىء القليل عن التكتيك أو المناورات الحربية . وبالرغم من أنهم كانوا يمتلكون الخيـــل وأنهم استخدموا الجنـــود الذين كانوا يمتطون ظهـــورها ، فانهم لم يستخدموا فى أى يوم من الأيام الفرسان الخيالة كسلاح مستقل . كانت الحرب مجرد قوة حيوانية ودهاء ، وكانت المعارك تبدأ عادة بالأبطال الذين يخرجون فرادى من بين الصفوف ثم يتنازل اثنان منها . وكان من حق كل بطل أن يقدم نفسه ويذكر نسبه ، فاذا استطاع خصمه أن يجد ثغرة فيما ذكره فان ذلك يساعده مساعدة قوية فى القتال الذى ينشب بينهما بعد ذلك . وبالرغم من مثل هذا السلوك المتسم بالنبل والفروسية فان المعارك الحربية فى اليابان كانت تكلفهم الكثير من الدم المراق لأن قانون الساموراى كان لا يعترف أبدا بالتسليم أو بحسن معاملة الأسرى . ومن المفروض ان الذين لا يتمكنون من الهرب بعد المعركة أن يقوموا بعمل الهاراكيرى . وربما كان هذا التقليد هو السبب الذى ترجع اليه عادة عدم التسليم فى الحروب الحديثة وعدم اتباعهم لما اتفقت عليه الشعوب المتمدنة من حسن معاملة أسرى الحرب .

وكان لقواعد الطاعة واتباع الفرد للنظام التى حتمتها نظم الاقطاع فائدة كبرى عندما اتصلت اليابان بالغرب . فقد ظهر فى الأمة عدد كبير من القـــادة الوطنيين الذين اعتادت الجماهير على طاعتهم . وساعدت سنوات الاقطاع الطويلة على تجنيد اليابانيين لتجميع القوى الوطنية لاستيعاب عناصر الحضارة الغربية التى رأوا فيها فائدة لهم ، ولا حاجة الى القول بأن التكتيك الحربى الغربى كان من بين الأشياء التى أقبلوا على اقتباسها بحماسة شديدة .

كانت العائلة الامبراطورية ، التى كانت طبقة قائمة بذاتها ، على رأس جميع الطبقات فى المجتمع . وكانت هذه العائلة فى الأصل زعماء احدى العشائر النبيلة القوية ، ولكن عندما أخذوا يعتبرونها من أصل الهى وصارت لها قداستها فصلوها عن النبلاء الآخرين . وبالرغم من أن الزواج فى العائلة الامبراطورية محصور فقط فى داخل العائلة فان أى أمير من تلك العائلة كان يسمح له باتخاذ المحظيات من بنات النبلاء . وطبقا للقوانين اليابانية التى تحتم الانتساب الى الأب ، كان الأطفال الذين يولدون من أولئك المحظيات ينظر اليهم على أنهم من أصل الهى أيضا ، ولهم جميع الحقوق التى لأفراد العائلة الامبراطورية ، ولهذا زاد عدد أفراد تلك العائلة زيادة كبيرة . واذا حدث أنه كان هناك خلاف بين الشوجن والامبراطور فقد كان يوجد دائما عدد كبير من الأمراء الذين يمكن أن يختار واحدا منهم ليكون بدلا من الحاكم المشاكس وكانت الطريقة المعتادة فى مثل هذه الحالة أن يطلبوا من الامبراطور التنازل لأحد الأمراء الصغار الوادعين .

وكان الأسلوب المتبع فى النظام العائلى أسلوبا واحدا فى جميع الطبقات . كانوا جميعا يتبعون نظام العائلة الممتدة ، كان جميع سكان القرية عادة متصلين ببعضهم البعض بصلة القربى ؛ وفى بعض القرى البعيدة فى الريف كانوا يعيشون كلهم فى بيت واحد كبير . ويرأس العائلة أكبر أفرادها الذكور سنا ، ولكن أفراد العائلة لم يقدموا له الاحترام الكافى أو السلطة التى كان يتمتع بها رئيس العائلة فى الصين . واعتاد اليابانيون على تفضيل عمل لجان للبت فى أمورهم سواء أكانت المشكلة اجتماعية أم سياسية ، ولهذا كان رئيس العائلة فى اليابان يتحدث طويلا مع أفراد العائلة الآخرين قبل اتخاذ أى قرار هام .

وكان اليابانيون يقبلون على ارتياد منازل العاهرات التى كانت ملأى بفتيات باعتهن عائلاتهن أو بعن أنفسهن حتى يدفعن ما على عائلاتهن من

ديون ، وكان اليابانيون يعتبرون أن مثل هذا العمل شيء شريف ويدل على الطاعة البنوية فاذا تمكنت الفتاة من تسديد ما عليها من دين للمنزل كان فى استطاعتها أن تتركه وتعود الى قريتها وتتزوج . ولكن صاحبات المنـازل كمثيلاتهن فى هذه المهنة فى كل مكان ، كن يحرصن على أن تبقى الفتـاة مدينة دائما .



مدخل أحد المسارح ، من القرن الثامن عشر

وتختلف فتاة « الجيشا Geisha » اختلافا تاما عن الفتاة العاهرة . ففتاة الجيشا مدربة خير تدريب على حسن استقبال الضيوف وفى استطاعتها العزف على آلات موسيقية مختلفة ، وتحسن الغناء والرقص وأن تكون لبقة فى حديثها ، وربما قبلت فتاة الجيشا أن تقضى الليل مع صديق اذا أرادت ، ولكن مثل هذا العمل ليس جزءا من مهنتها .

وأقدم تاريخ مؤكد فى تاريخ اليابان هو عام ٢٠٠ ميلادية عندما غزا اليابانيون كوريا فى أيام الامبراطورة « چنجو Jingo » ، ونحن لا نعرف هذا التاريخ من الوثائق اليابانية لأنه لم يوجد كتبة يابانيون فى ذلك الوقت ، وانما نعرفه مما كتبه المؤرخون الكوريون والصينيون . ويلوح أن تلك الامبراطورة كانت حاكمة قوية فى وسط اليابان ونجحت فى توحيد عدد من العشائر ، كان كافيا للقيام بغزوات على نطاق واسع على أرض القارة . وقد كانت هذه السيدة الامبراطورة چنجو ، أول من جعل اليابان الموحدة تتصل بالقارة الآسيوية ومهدت الطريق لدخول الحضارة الكورية والحضارة الصينية الى اليابان .

وفى عام ٢٨٤ ميلادية كان الامبراطور « أوچين Ojin » قد دعا حكيما كوريا ليعمل مستشارا له ، فأدخل هذا الرجل الكتابة للمرة الأولى الى اليابان ومع ذلك فان الكتابة لم تثبت أقدامها فى اليابان الا بعد مرور قرنين أو ثلاثة ، واستمدت اليابان الحضارة والعلم من بر القارة وأصبحت بلدا متمدنا فى القرن السابع فقط .

وبنيت أول المعابد البوذية فى اليابان قبل عام ٦٠٠ ميلادية بوقت قصير وذلك باشارة من « شوتوكوتايشى Shotoku Taishi » الذى كان وليا للعهد ونائبا للامبراطور ، وهو الشخص المعروف بأنه مؤسس البوذية فى اليابان . وفى عام ٦٤٥ ميلادية بدأ المصلح العظيم الامبراطور « كوتوكو Kotoku »

حملة لتعليم واصلاح شعبه . ونجد لهذا الامبراطور المصلح عدة أسماء ، فمن عادة اليابانيين أنهم يعطون للطفل اسما عند ولادته ويعطونه اسما آخر عندما يكبر ويتولى وظيفة ، ويعطونه اسما ثالثا ، ويسمونه بالاسم المقدس بعد موته . ومهما كان الاسم الذى يطلق عليه فقد عرف هذا الامبراطور أن شعبه أقل مدنية من الشعوب التى تعيش فى القارة فعزم عزما أكيدا على القيام بعمل شيء لاصلاح تلك الحالة ، فلم يدخر وسعا فى ذلك . ويعطينا ذلك صورة من السيكولوجية اليابانية التى ما زالت باقية حتى يومنا هذا . فاليابانيون على استعداد دائم لأن يستعيروا ويستفيدوا من آراء واختراعات الشعوب الأخرى ولكنهم يظلون دائما يابانيين فى أعماق نفوسهم وفى اتجاهاتهم وولائهم .

ولم يقتصر « كوتوكو » على محاولته تمدين وتعليم الشعب ، ولكنه عمل أيضا على اعادة تنظيم الحكومة القبلية المتفككة بتقوية السلطة المركزية وهى سلطة عشيرته هو بالطبع ، وحاول أيضا أن يقدم لعامة الشعب قدرا أكبر من الحرية والاعتراف بهم . كانت كوريا هى المصدر الرئيسى لما استعارته اليابان وما أدخلته من نظم . وفى القرن التالى عندما زادت أسفار اليابانيين الى مسافات أبعد عن جزائرهم استكشفوا أن المركز الحقيقى للمدنية لم يكن كوريا وانما هو الصين ، وان الحضارة الكورية التى أقبلوا على تقليدها لم تكن الا نسخة منقولة عن الحضارة الصينية . وعندئذ أرسل الامبراطور لجانا الى الصين لتدرس نظمها وتقدم تقارير عنها . وهذا أمر فريد فى التاريخ الانسانى والحالة الوحيدة المعروفة التى نجد فيها أمة تبدأ عامدة فى اعادة تكوينها على أسلوب تأخذه من أمة أخرى ، ولا توجد أى حالة مماثلة لها الا ما فعله اليابانيون أنفسهم بعد ذلك بقرون كثيرة . وبقيت اللجنة اليابانية فى الصين نحو عشرين عاما اختارت خلالها أفضل من قابلوهم من الصناع الماهرين فى جميع الحرف ، وشجعوهم على أن ينقلوا عبر البحر الى اليابان مهارتهم فى

صـناعة اللاكيه (Lacquer) والخزف والمينا وغيرها . كما أرسلوا أيضا الى اليابان بعض العلماء الصينيين ، بل ونجحوا فى اجتذاب بعض العلماء والصناع من الهند ومن الهند الصينية للسفر الى اليابان .

وخلال القرنين السابع والثامن عمـد اليابانيون الى تجـديد حياتهم تجديدا يشبه ما فعلوه بعد ذلك فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد امتاز ذلك التجديد واعادة التنظيم بالناحية السيكولوجية نفسها وهى الاحساس بأنهم أقل من غيرهم كثيرا ، ورغبتهم فى ألا يلحقوا بغيرهم من شعوب العالم وحسب ، بل ويجب أن يتفوقوا عليهم .

وفشلت محاولة تجديد الحضارة اليابانية على نمط الحضارة الصينية فى بعض النواحى . كان نظام امتحانات المسابقة وتكوين طبقة محترفة من الموظفين قد وصل الى المرحلة التى ظلت مستمرة بعد ذلك فى الألف سـنة القادمة . وبالرغم من أن اليابانيين حاولوا ادخال هذا النظام الى بلادهم فانهم فشلوا لأن أكثرية الأرستوقراطيين اليابانيين كانوا ما زالوا أميين . وكان هناك عدد قليل من العلماء اليابانيين ، ولكن لم يكن لليابان أى آداب أو فلسفة يابانية يمكن أن يجعلوها أساسا لمثل ذلك النظام الصينى . وكانت الأرستوقراطية الاقطاعية فى الصين قد حطمت ودمرت نفسها خـلال الحروب التى سبقت تأسيس أسرة هان ، أما فى اليابان فان الأرستوقراطية اليابانية لم تتحطم ، ونجحت الحكومة المركزية فى وضعها تحت سلطتها ولكن لفترات قليلة . وكانت النتيجة التى ترتبت عـلى ذلك هى أن الموظفين اليابانيين كانوا يعينون فى وظائفهم اذا كانوا موضع الرضا والعطف دون أى اختبار تمهيدى . وفى ظل النظام اليابانى ، وما فيه من عائلات قوية وولاء شديد للعشيرة ، ظهر اتجاه قوى الى جعل الوظائف الحكومية وظائف وراثية دون أى اعتبـار للأمانة أو للمقدرة .

وانهارت أيضا محاولة تركيز السلطة فى الامبراطور بعد هذا العهد الاصلاحى ، ولكن بعد أن حكم عدد من الأباطرة القادرين بدأ البيت المالك يسير فى طريق الفناء . وقد عالج اليابانيون هذا الموقف بأسلوبهم الخاص بهم فقد احتفظوا بالامبراطور كمركز فقط ، فزادوا من قداسته ووضعوا السلطة المركزية فى يد احدى العشائر اليابانية القوية ثم نقلوها الى غيرها . وابتداء من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر كان الامبراطور فى حالة ركود وسكون بفضل ما كان له من قداسة ، وما أحاط به من قوانين التحريم . فمثلا عندما كان الامبراطور يجلس فى أى حفلة رسمية فقد كان يتحتم عليه أن يجلس ثابتا لا يتحرك لأنه اذا حرك رأسه الى أى ناحية فان زلزالا يحدث فى الاتجاه الذى نظر اليه ، ووصلت قداسة شخصه الى أنه كان يتحتم قص شعره وأظافره وهو نائم فقط ، وكانت كل أمتعته الشخصية ، بل وأى شىء تلمسه يداه ، أشياء محرمة (طابو) . وكان يتحتم أيضا أن يتناول الامبراطور طعامه فى كل وجبة فى أطباق جديدة يكسرونها بعد استخدامها مباشرة ، وكان هذا مدعاة لاستخدام أدوات رخيصة ومن نوع ردىء فى القصر الامبراطورى .

وعامل الحكام المدنيون امبراطورهم باحترام شديد فى أول الأمر ، ولكن هذا الاحترام أخذ يتضاءل تدريجيا مع مرور الزمن حتى أصبحوا لا ينظرون اليه الا كرمز لا أكثر . وتبلورت هذه الصلة بين الامبراطور وبين الحكام المدنيين فى عهد « يوريموتو Yorimoto » الذى حكم بين عامى ١١٨٥ و ١١٩٩ . فقد حدثت فى ذلك الوقت حرب طاحنة بين عشيرتين من العشائر القوية وانضمت معظم العشائر الصغيرة الى أحد الجانبين . وبدأ يوريموتو الذى كان على رأس الجانب الذى خرج منتصرا فى تلك الحرب فى اعادة تنظيم الامبراطورية حتى يستطيع السيطرة عليها .

ولم تكن اليابان حتى ذلك الوقت أمة تميل ميلا خاصا الى الحرب . لقد كانت توجد فيها المنازعات العادية بين العشائر ولكن بعد هذا التنظيم الجديد

الذى قام به « يوريموتو » والذى شمل تغييرا فى نظم وراثة الوظائف والدخل ظهرت طبقة حربية خاصة ظلت محتفظة بسلطتها فى البلاد حتى دخل الاصلاح الى السياسة اليابانية فى منتصف القرن التاسع عشر بعد زيارة الكومودور « پرى Perry » لليابان .

وفى عام ١١٩٢ اتخذ « يوريموتو » لنفسه لقب « شوجن » ولم يكن هذا اللقب جديدا فى اليابان ولكن منذ ذلك الوقت أصبح له مدلول جديد وأصبح يعنى دكتاتورا حربيا . واحتفظ « يوريموتو » بالامبراطور والبلاط فى « كيوطو » ، ودون أن يهدم نظام الوظائف المدنية الذى كان قائما من قبل خلق ادارة حربية تحت سلطانه ، وظل على وئام مع الرهبان البوذيين الأقوياء وعين مشرفين عسكريين وجامعى ضرائب عسكريين فى جميع الأقاليم . كان يوريموتو سياسيا نابغة وبقى نظامه المزدوج فى ادارة الحكومة مدى ٦٥٠ عاما أى حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وفى القرن التاسع عشر أصبح الشوجن أنفسهم مجرد ألعوبة فقد آلت السلطة الى بيت حاكم آخر ونشأت وظيفة جديدة أصبحت هى صاحبة السيطرة. ففى المائتى السنة التى سبقت الاصلاح على النمط الأوروبى كانت الحكومة مكونة من امبراطور مقدس يقف بعيدا عن التدخل ولا يحرك ساكنا على الاطلاق ، ويليه « شوجن » مقدس ، وسلطانه محدود جدا ثم يأتى بعد ذلك الحكام الحقيقيون وهم خلفاء هيديوشى (Hideyoshi) الذى استطاع أن يتخلص من الشوجن وأسس ما يمكن أن يسمى بحق دولة جماعية ، وقد نجحت هذه الحكومة فى حسن تدريب اليابانيين واعدادهم لما سيأتى بعد ذلك .

كان البرتغاليون هم أول الأوروبيين الذين وصلوا الى اليابان اذ وصلوا اليها فى عام ١٥٤٢ ووصل بعد فترة قصيرة الاسبان والهولنديون والبريطانيون وبدأت بعض المعاملات التجارية بين اليابان وأوروبا ، وأتى الأوروبيون ومعهم

شيئان كان لهما أثر عميق على الحضـــارة اليابانية وهما الأسلحة النارية والمسيحية . فقد أمدت الأسلحة النارية السادة الاقطاعيين بقوة جـديدة وساعدتهم على أن يصبحوا أكثر استقلالا عن السلطة المركزية . واستبدلوا منازلهم البسيطة المشيدة من الخشب بقصور مشيدة من الحجر تشبه الى حد ما مثيلاتها الأوروبية لأنهم كانوا فى حاجة الى حصون تستطيع أن تصد اطلاق المدافع عليها .

وأول مبشر دينى وصـــل الى اليابان هو الأب الجزويتى « كساڤييه Francis Xavier » الذى وصل الى اليابان عام ١٥٤٩ يصحبه أفراد من جمعية يسوع ، ووجد أولئك المبشرون استجابة سريعة بين اليابانيين ، اذ أن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها تشبه الديانة البوذية ، وكان الكهنة البوذيون فى ذلك الوقت قد أخذوا يفقدون سلطانهم على الشعب بعد أن كانوا ذوى نفوذ كبير فى الماضى ، وكان الشعب اليابانى اذ ذاك على استعداد لأن يتجه نحو زعامة روحانية جديدة . ووجدت العقيدة الجديدة مساندة من الحـكومة المركزية لأنها ساعدت على الاتجار مع الغرب . ولم يمض قرن واحد بعــد وصول كساڤييه الى اليابان حتى كان فيها مائتا كنيسة مسيحية ومائة وخمسون ألف مسيحى ، وأرسل السادة الاقطاعيون رسلا الى روما ، وبدا الأمر كما لو أن اليابان كانت فى طريقها لتصبح أمة مسيحية .

وفى هــذا العصر ظهــر فى اليابان ثلاثة زعماء أقوياء وهم « نوبوناجا Nobunaga » و « هيديوشى Hideyoshi » و « ايياسو Iyeyasu » كان « نوبوناجا » أحد ســادة الحرب الاقطاعيين الذى تغلب على جيرانه وأصبح سيد العاصمة ، وتلاه « هيديوشى » ، وكان من طبقة وضيعة ، بل ولم يكن من طبقة الساموراى . وهذه هى المرة الوحيدة فى تاريخ اليابان التى يرتفع فيها شخص من العامة الى أعلى مركز مباح لشخص لا يكون من النسل الالهى .

وبعد أن نجح « هيديوشى » فى توحيد اليابان تحت دكتاتوريته العسكرية رمى بناظريه الى التوسع خارج اليابان أيضا . فغزا معظم كوريا التى كان يعتبرها الباب الموصل الى الصين وهو الذى قال بأنه سيطوى الصين كما يطوى الانسان الحصير ، ولكن اليابانيين لم ينجحوا فى ذلك الوقت أكثر من محاولتهم الحديثة لغزو الصين ، فان الصين بلد لا يمكن أن يطويه أحد بسهولة . فقد وصل الجنود اليابانيون الى بلاد الصين فى الوقت الذى كانت فيه أسرة « منج » فى حالة فوضى واضطراب ولم تكن فى البلاد سلطة مركزية قوية ولكن بالرغم من ذلك فقد نظمت الصين صفوفها عندما تعرضت للمهاجمة .

وكذلك فعل الكوريون . فبالرغم من أنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام شعبا متوقد الذكاء أو ميالا الى الحرب فقد أظهروا قوة ونبوغا فى صد الاعتداء اليابانى . فقد اخترعوا أول سفن مصفحة بالحديد ، وبنوا أسطولا من تلك السفن التى أسموها « السلاحف » أغرقت الأسطول اليابانى وقطعت خطوط تموينهم . واخترع الكوريون فى ذلك الوقت أيضا أول مدفع يرمى بقنبلة متفجرة ، وهو اختراع لم تكن أوروبا قد توصلت اليه فى ذلك الوقت ، ولكنه ظهر فيها بعد ذلك بزمن قليل . فتوقف غزو « هيديوشى » وتمكن الكوريون بعد موته من تخليص أنفسهم من النير اليابانى .

كان غزو كوريا فى الواقع اتجاها ترتب عليه اختفاء السلطة العسكرية من اليابان ، وساعد الحكومة الجديدة على تثبيت نفسها فى حكم البلاد أكثر من ذى قبل . ومن الأمور المشاهدة منذ زمن بعيد أن أى حرب تثير الوطنية فى الناس هى خير وسيلة لاتحاد الشعب . فبالرغم من أنه لم يكتب النجاح فى النهاية لذلك الغزو فانه أوصل اليابانيين الى أرض القارة . ولهذا اتجه الكثيرون من أفراد الـ « رونين » نحو الجنوب وانتشروا فى اندونيسيا ، وفى

جنوب شرقى آسيا ، حيث عملوا جنودا مرتزقة . كان أكثر أولئك المهاجرين رجالا من طبقة النبلاء الذين أصبحوا فقراء ، أو أصابهم التحقير بسبب ما اقترفوه ، أو من بين الأفراد الذين يملك التفانى فى حب المغامرة عليهم كل مشاعرهم ، ولهذا قطعوا صلتهم بعائلاتهم النبيلة وأصبحوا مستقلين بأنفسهم. وان الغزو اليابانى الحديث لأندونيسيا ليس الا استمرارا لذلك الأسلوب القديم وهو تدفق الفائض العسكرى من بين السكان اليابانيين الى مناطق خارج جزرهـم .

وتولى الأمر بعد « هيديوشى » الزعيم الثالث « ايبياسو » الذى كان فى الأصل خصما له ثم أصبح مساعده الأول . وجه « ايبياسو » اهتمامه نحو الشئون الداخلية أكثر من اهتمامه بالغزو فى الخارج ، وتم تثبيت دعائم البلاد بصفة نهائية تحت زعامته . فعين نفسه فى منصب « شوجن » فى عام ١٦٠٣ وبذلك أصبح مشرفا على نظام العسكرية الاقطاعية التى أنشأها يوريموتو قبل ذلك بأربعمائة سنة . وأنشأ عاصمة عسكرية فى « ايدو Edo » وهى طوكيو الحالية بعيدا عن البلاط الامبراطورى . وخلفه فى الحكم ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتمتعت اليابان بعصر سلام أكثر من مائتى سنة .

لم يمتنع اليابانيون أثناء تلك الفترة عن الغزو فى الخارج فحسب ، بل قطعوا الصلة بينهم وبين العالم الخارجى قطعا تاما . ولم يرغب الحكام اليابانيون فى أن يعرف شعبهم ما يحدث خارج بلادهم ، وكانوا يحرصون بصفة خاصة على ألا يسافر واحد منهم الى خارج البلاد ، ولهذا كانوا يحكمون بالاعدام على كل يابانى يترك الجزيرة ثم يعود اليها ثانية . وتحولت المركزية الى دولة تحكمها قوى البوليس مع وضع كثير من العراقيل فى الطريق . كان يتحتم على كل من ينتقل من اقليم الى آخر أن يكون معـه جواز سفر وكانوا يحصلون ضرائب محلية كما كان الأمر فى فرنسا . كانت اليابان تعيش اذ ذاك فى حدود نظام بيروقراطى يذكرنا كثيرا بالستار الحديدى الروسى .

وقبل ذلك الوقت كان اليابانيون شعبا بحريا ، ولم يمض جيل واحد بعد اتصالهم بالأوروبيين حتى كانوا يبنون سفنا قادرة على عبور المحيط الهادى ، وكانوا يتاجرون مع سكان الشاطىء الغربى لأمريكا . فلما أغلقت اليابان أبوابها صدر قانون يقضى باعدام أى شخص يبنى سفينة تزيد حمولتها عن حد معين . وكانت هناك أيضا قوانين أخرى تحدد انشاء السفن حتى لا يستطيع أحد أن يبنى سفينة تستطيع أن تمخر عباب المحيط . وكانوا يعفون الأجانب من هذه القيود ، وبخاصة عددا من التجار الهولنديين الذين سمحوا لهم باحتلال جزيرة صغيرة فى أحد الموانىء . وكان الطب هو الشىء الأجنبى الوحيد الذى اعترف اليابانيون بحاجتهم اليه ، ولهذا سمحوا لطلبة الطب بتعلم اللغة الهولندية حتى يستطيعوا قراءة كتب الطب الهولندية .

ومهما يكن من أمر ففى خلال الوقت الذى كانت فيه أبواب اليابان مفتوحة اتجه اليابانيون اتجاها قويا يدعو الى الدهشة نحو استعارة الآراء والأساليب الفنية الصناعية من أوروبا . وبعد أن أقفل اليابانيون على أنفسهم الباب استمروا فى ادخال التحسينات على ما أخذوه عن أوروبا . فمثلا تقدموا كثيرا فى صناعة الأسلحة النارية التى أخذوا نماذجها الأصلية من أوروبا ، ولكنهم أدخلوا عليها تعديلات تلائم الصناعات اليدوية اليابانية . فقد صنعوا عدة الحرب التى يلبسها المحاربون ، ولكنهم أدخلوا تعديلات على عدة الحرب الأوروبية المصنوعة من الصلب فجعلوها من قطع من المعدن مغطاة باللاكيه ومن الجلد الخام يثبتونها معا بأربطة من الحرير . وارتقوا كثيرا فى صناعة المعدن وكان لسيوفهم حد كحد الموسى ولكنه يتحمل كل أنواع الاستخدام القاسية . وكان للسيد من طبقة الساموراى أغمدة متعددة لسيفه ، بعضها بسيط وقور المظهر لأجل الاحتفالات الدينية ، وبعضها مطعم بالذهب لأجل احتفالات البلاط .

وكان اليابانيون فى جميع العصور شعبا محبا لكل ما هو حسن مع الرغبة فى الكمال الجمالى . كان فنهم يعتمد اعتمادا تاما على ما كانوا يجلبونه من الخارج ، وخاصة من الصين ، ولكنهم يغيرونه تدريجيا حتى يرضى احساسهم الطبيعى للنسب المتطابقة والأسلوب الزخرفى ، وما يتفق مع مزاجهم . ولهذا السبب ، نجد انه فى الفترة التى مرت فى القرنين السابع والثامن ، وفى فترة أخرى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر عندما أتت موجة جديدة من التأثير الصينى ومعها التصوير بالكتابة الجميلة ، كاد الفن فى اليابان يصبح فنا صينيا خالصا .

وحوالى عام ١٦٠٠ ، أى فى عصر « هيديوشى » حدث تقليد وتوليف لهذا الأسلوب فى ناحية التصوير ، وأنتج اليابانيون فى هذه المرة تلك الحواجز (البارافانات) المزخرفة الزاهية الألوان التى كانت تزين القصور الامبراطورية والمعابد .

وبظهور طبقة بورجوازية من التجار ظهر نوع جديد من الفن ، وذلك باستخدام طريقة لا تكلف كثيرا ، وطبع الألوان بوساطة الحفر على الخشب التى استخدمت قبل أى شىء آخر لرسم التفاهات من الحياة اليومية . وكانت هذه الرسوم هى أول نوع من أنواع الفنون اليابانية استرعى انتباه العالم الغربى . وفى عصر أحدث تأثر الغرب بتلك البساطة المزيفة فى الأدوات المستخدمة فى طقس تقديم الشاى المأخوذ فى الأصل عن احدى الشعائر فى ديانة الزن البوذية Zen Bnddhism ، كما كان للفن اليابانى فى عمارة المساكن أثر عميق على الفن الحديث .

واليابانيون ، مثل الصينيين فى تسامحهم ازاء جميع أنواع المعتقدات . كانت البوذية أولى الديانات العالمية التى دخلت الى اليابان ، وحلت مكان عبادة الطبيعة التى كانت الديانة الأصلية فى اليابان ، ولكن الديانة البوذية لم تصبح فى مركز قوى الا فى القرن السابع فقط عندما أخذت تتفرع منها فرق

محلية مختلفة . وكان للمسيحية أثر كبير فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكن الشوجن منعوها وقضوا عليها قضاء يكاد يكون تاما . وكانت الديانة الوطنية اليابانية ، وهى ديانة « الشنتو Shinto » التى تفرعت أصـــــلا من عبادة الطبيعة تعيش جنبا الى جنب مع البوذية والمسيحية . وفى معظم مراحل التاريخ اليابانى كانت البوذية ديانة المثقفين والأرستوقراطيين . وكان للبوذية الزنية ، بما فيها من ضرورة الرفع من شأن شخصية الفرد ، انتشار كبير بين طبقة الساموراى بصفة خاصة . وقد تسرب سلوك هذه الفرقة الدينية الى جميع مظاهر الاحساس بالجمال، والى الأخلاق ، فى جميع أنحاء اليابان . وكانت الشنتو فى الأصل ديانة يمارسها أتباعها كعقيدة غير منظمة فى المناطق الريفية ، ولكن بعد أن فتحت اليابان أبوابها وأخذها بأساليب الحياة الحديثة أصبحت الشنتو هى الديانة الرسمية للدولة .

وفى خلال العصر الذى كانت فيه البلاد خاضعة لنفوذ الحكام من الشوجن كانت الأمور مستتبة ، ويرجع جانب من ذلك الى نبوغهم فى معالجة الموضوعات الجنسية ، وأساليب منع الحمل والى طريقة ، لا يحب اليابانيون الاعتراف بها ، وهى الطريقة المسماة « التخفيف من العائلة » . لم يتبع اليابانيون العادة الشائعة فى قتل الأطفال فى صغرهم وهى طريقة التخلص من الطفل الزائد عن الحاجة بقتله بعد ولادته بفترة قصيرة . ولكن كبير العائلة اليابانى الذى كان لديه من الأطفال عدد أكبر من العدد الذى يستطيع اعالته كان ينتظر حتى يصبح عمر الطفل عامين أو ثلاثة ، وتظهر معالم صحته وذكائه ، فيتخلصون منه اذا كان ممن لا تتضح فيهم تلك المعالم . وهـــذا « التخفيف » يشبه تماما ما يفعله الانسان بالمحاصيل المزروعة ، فهو يخلع النباتات الضعيفة حتى تزيد فرصة التحسين أمام النباتات الأخرى . وعلى أى حال فعندما أدخلت اليابان نظم التصنيع واحتاجت تنمية الموارد التجارية الى أيد عاملة رخيصة ، واحتاج

الامبراطور الى عدد أكبر من الجنود ، فقد شجعوا الناس على انجاب عدد أكبر من الأطفال ، وفى وقت قصير . ولما كان اليابانيون شعبا يحب وطنه ويؤمن بالنظام فقد لبوا النداء وزاد عدد السكان زيادة كبيرة .

أقفلت اليابان أبوابها فى عام ١٦٣٦ ، وظلت كذلك حتى عام ١٨٥٣ عندما فتحتها ضد ارادتها . فقد حدث اذ ذاك أن أمريكا أرسلت الى اليابان أسطولا من السفن الحربية أقوى بكثير جدا مما كان لدى اليابان اذ ذاك ، واقترحت عليها بشكل مؤدب أن الأمريكان يطلبون عقد معاهدات تبيح لهم التجارة مع اليابان فاذا لم توافق على ذلك اضطرت أمريكا ... الخ وكان هذا العمل شبيها جدا باقتراح عقد المعاهدة الهجومية الدفاعية الذى تقدمت به الروسيا الى فنلندة ، ولم يرحب به اليابانيون الا كما رحبت به فنلندة . فقد كان اليابانيون يفضلون أن يظلوا هانئين فى عزلتهم عن العالم .

وبعد وصول الكومودور « پرى » الى اليابان ببضع سنوات فتحت بعض بطاريات الشاطىء اليابانية نيرانها على بعض السفن الأوروبية المسلحة التى ردت عليها فى الحال بنيران سريعة وبدقة أدهشت اليابانيين . فأيقنوا تماما أنهم لا حول لهم ولا قوة أمام الأسلحة الأوروبية الحديثة ، وأدركوا أنهم اذا أرادوا أن يتصلوا بالعالم مرة ثانية فلا مندوحة لهم من أن يأخذوا بأسباب المدنية بأسرع ما يمكن . كان اليابانيون معتادين تقليد الأمم الأخرى عن قصد ، ولكن الصين التى سبق أن قلدوها واتخذوها نموذجا لهم كانت فى ذلك العهد فى حالة فوضى وضعف ، وفى طريقها الى الوقوع تحت السيطرة الأوروبية . ولهذا اتجه اليابانيون نحو الغرب وأرسلوا وفودا الى مختلف بلاد أوروبا ليجلبوا منها الأشياء النافعة التى جعلت تلك البلاد متفوقة على غيرها . عرف اليابانيون أن البلاد المختلفة كانت تتفوق فى نواح مختلفة ولهذا نظموا جيشهم على غرار الجيش الألمانى ، وبحريتهم على نسق البحرية البريطانية ، وماليتهم ومصانعهم على مثال ما كان فى فرنسا وانجلترا . أما الولايات المتحدة فقد تجاهلوها فى

ذلك الوقت لأنها كانت غير متقدمة التقدم الكافى الذى يستحق الدراسة أو التقليد .

كانت زيارة پرى فى عام ١٨٥٣ ، وما وافى عام ١٨٦٧ حتى كانت الثورة على النظم الداخلية قد تمت فقضوا نهائيا على الامتيازات الاقطاعية وأعادوا للامبراطور حقه كحاكم سياسى ، وألا يظل رمزا مقدسا ولا شىء غير ذلك . ومن حسن حظ اليابان أن امبراطور ذلك العصر المسمى عصر « ميجى Meiji » كان رجلا قديرا . وأقام اليابانيون حكومة جديدة كان لها من الكيان الديموقراطى والدستورى المظهر الكافى لنيل احترام الأوروبيين ، ولو أنها كانت قائمة فى حقيقة الأمر على نظام يابانى فى جوهره ، وهو النظام الذى يقوم على أساس سيطرة العائلات . ومن الأمور التى تلفت النظر أنهم فى ذلك التنظيم الجديد جعلوا الاشراف على الجيش من نصيب احدى العشائر والاشراف على البحرية من نصيب عشيرة أخرى كما اتجهت عشائر أخرى الى النواحى المختلفة فى التجارة وغيرها . ومرت فترة من الزمن قل فيها تقدير اليابانيين لتقاليدهم القديمة فى الحياة لأن التفوق الأوروبى أذهلهم ، فلم يعيروا حضارتهم القديمة أى أهمية ، وكثيرا ما كانوا يبيعون الكثير من أعظم ما أخرجه الفن اليابانى لقاء شىء تافه بسيط يقدمه أحد الأوروبيين الذين يعرفون قيمتها، واتجه اليابانيون الى محاولة الالمام بنواحى الابداع فى التصوير فى العصر الڤيكتورى الذى كان يطلق عليه اذ ذاك اسم ما قبل رافاييل .

وكان لاعتياد اليابانيين منذ وقت طويل على اتباع النظام أثر مباشر على اقبالهم على العمل معا بارادة متحدة فى تنفيذ ما يتلقونه من أوامر . ووضعوا تخطيطا دقيقا لادخال عناصر التمدن الى بلادهم ، وللسيطرة على أسواق العالم ، كما وضعوا أيضا تخطيطا طويل المدى للسيطرة على العالم ليتيحوا الفرصة لجميع الأجناس لتعيش فى ظل الامبراطور الرحيم . ونفذوا تلك الخطط خلال الحرب العالمية الأولى ، ولكنها أخفقت وانهارت بسبب سوء تقدير اليابانيين فى الحرب العالمية الثانية .

القسم العاشر

الدنيا الجديدة

الفصل الأربعون

السكان الأصليون فى أمريكا الشمالية

ان قارتى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية دنيا جديدة بحق ؛ فقد فصل بينها وبين مراكز التمدن فى الدنيا القديمة محيطان واسعان ولهذا تأخرت جدا عن ركب المدنية . وعندما وصل الكاشفون الاسپان الى شواطىء أمريكا كان سكانها قد بلغوا من مراحل الحضارة ما كان قد بلغه جنوب غربى آسيا فى عام ٣٥٠٠ ق . م . وما كان قد بلغه غربى أوروبا فى عام ١٥٠٠ ق . م .

ومما يدل على أن أولئك القدماء كانوا شعبا موهوبا ، أنهم رغم عزلتهم توصلوا ، وهم مستقلون عن غيرهم ، الى معظم الكشوف والاختراعات التى كانت أساسا للحياة المتمدنة . ولو أن أولئك الناس أعطيت لهم الفرصة ليخطوا الى الأمام بحضارتهم ، ويحددوا مصيرهم بأنفسهم ، فربما كان فى وسعهم أن يقدموا مساعدات قيمة للمدنية العالمية .

وهناك كثير من التخمينات والنظريات البراقة التى اخترعها أصحابها عن أصل الهنود الأمريكيين ، بل ان اسمهم نفسه ليس الا نتيجة خطأ وقع فيه خريستوف كولمب . وقد حاول بعض محترفى التخمين ، فى أكثر من مرة ، أن يثبتوا أن أولئك الهنود من قبائل اسرائيل العشر المفقودة ، وقال آخرون انهم نسل الذين ظلوا أحياء من رجال أسطول الاسكندر الأكبر ، أو من المهاجرين من قارة أطلاتنيس الأسطورية ، ومن الجزيرة الأسطورية المسماة جزيرة مو(Mu) فى المحيط الهادى . ولما كانت آثار حضارة المايا (Maya) فى أمريكا الوسطى تشبه فى كثير من النواحى آثار قدماء المصريين فقد ظهرت

أيضا بعض المحاولات لاثبات أن أولئك الهنــود أتوا من الدنيا القديمة ، متجاهلين حقيقة هامة وهى أنه فى الوقت الذى كان فيه المايا يبنون معابدهم كانت المعابد المصرية قد هجرها المصريون منذ آلاف السنين .

وما من شك فى أن أول من جاء واستقر فى أمريكا جاء من آسيا عن طريق ألاسكا . وأن النوع الانسانى لم يتطور تطورا مستقلا فى تلك القارة ولم توجد فيها أى حفريات من أى نوع انسانى اللهم الا من الانسان العاقل . لقد أتى الانسان الى هذه القارة بعد أن وصل فى تطوره الى المرحـــلة التى نسميها الانسان الحديث ، وكان يعرف عند قدومه اليها استخدام الأدوات والنار ، ويعرف نوعا من اللغة . ونظرا لأنهم كانوا مضطرين لاختراق بعض المناطق القطبية ، فمن المعقول أن نفرض أنه كان يعرف أيضا كيف يعد لنفسه نوعا من الملابس والمأوى الذى يأوى اليه . وفى عصر الجليد كان ما نسميه الآن برزخ برنج (Bering Strait) جسرا أرضــيا ؛ لأن المثالج الكبيرة خزنت كثيرا من كميات المياه ، وكانت تلك الكمية كافية لانزال مستوى المياه . ونظرا لأن مياه المنطقة القطبية كانت محجوزة من ناحية الشمال فان تيار المحيط الهادىء الدافئة كانت تمر بشواطىء الاسكا وشمال شرقى سيبيريا . هذه هى الحالة التى ربما كانت عليها المنطقة عند حدوث الهجرات الأولى ، وكانت أكثر منطقة الاسكا غير مغطاة بالجليد فى ذلك الوقت ولكن مثالج منطقة الشاطىء كانت تحول دون الهجرة نحو الجنوب .

ومن الجائز أن أولى موجات الهجرة سارت قريبة من السهل الشاطىء نحو الشمال ونحو الشرق من وادى ماكنزى . وكان هناك ممر خال من الثلوج على طول الجهة الشرقية من جبال الروكى (Rockies) ، وكانت تتوافر هناك حيوانات الصيد .

وسبقت الحيوانات الآسيوية هجرة الانسان الى هذه القارة ، وقد عثر على حفريات انسانية ومعها أدوات قديمة ، وعثر على مقربة منها ، أو مدفونة

معها ، عظام من حيوانات قد انقرضت الآن ، ومنها الجمل وذلك الحيوان الضخم الذى كان يعيش على الأرض ويسمى الرسيف (Sloth) وثور البيسون التيلورى (Bison Taylori) والحصان الأمريكى الأصل . واعتقد بعض الباحثين فى وقت من الأوقات أن هذا يدل على قدم الانسان فى هذه القارة لأن تلك الحيوانات قد انقرضت من الدنيا القديمة منذ أزمان بعيدة جدا ، ولكن البحث بطريقة « كربون ١٤ » الجديدة قد أثبت أن الحيوانات عاشت فى أمريكا فترات أطول ، ولم يكن الانسان هو الذى أتى فى عصر أقدم . ان أقدم تاريخ وصل اليه فحص ما عثر عليه فى أمريكا لم يزد عن ١٠٫٠٠٠ سنة ، فاذا فرضنا أن وصول المهاجرين الى المناطق الجنوبية فى أمريكا الشمالية قد استغرق بضعة آلاف من السنين فان ١٢٫٠٠٠ أو ١٥٫٠٠٠ سنة هو الحد الأقصى لوجود الانسان فى أمريكا .

وقد ساعد على توضيح تلك الصورة طريقتان للتاريخ اخترعهما العلماء الأمريكيون . أولاهما طريقة اكتشفها الدكتور أ . ا . دوجلاس (A.E.Douglass) وهو فلكى كان عاكفا على دراسة وضوح البقع الشمسية وتذبذب الجو ، فعرف وهو يدرس المقاطع العرضية لأشجار الصنوبر فى جنوب غربى أمريكا أن مواسم المطر والجفاف مدونة واضحة فى علامات الحلقات التى تدل على النمو السنوى لتلك الأشجار . وبمقارنة حلقات بعض الأشجار القديمة ، وذلك فى كتل الأخشاب التى استخدمت فى تشييد بعض المبانى فى السنوات الأولى من استعمار أمريكا ، وبعض أخشاب من مواقع يرجع تاريخها الى عصر ما قبل التاريخ ، استطاع دوجلاس أن يضع تقويما للتاريخ بوساطة حلقات الأشجار يمتد تاريخها من سنة ١١ ميلادية حتى العصر الحاضر ، وقد ثبتت صحة تطبيق هذه النظرية فى المواد التى توجد فى جنوب غربى أمريكا الشمالية فقط .

أما الطريقة الثانية للتأريخ فهى متفرعة من البحوث الذرية الحديثة . فان أحد الايزوتوبات المشعة — وهى كربون ١٤ — موجود دائما على سطح

الأرض ، اذ أنه ينتج من الاصطدام بين الأشعة الكونية وذرات النيتروچين ، وتمتص الأشياء العضوية الحية ، سواء من النبات أو الحيوان ، كميات من الكربون الموجود فى الجو ، ولكن هذا الامتزاج يتوقف عند موت هذه العناصر . ولما كان كربون ١٤ له نصف حياة مقدارها ٥٥٦٨ + ٣٠ سنة ، فمن الممكن تقدير النسبة المئوية لهذا الايزوتوب (isotope) فى الكربون الذى تحتويه العينة ، يؤرخ العينات التى يرجع تاريخها الى ٢٥٠٠٠ سنة . وهناك عوامل متعددة يمكن أن تؤثر على النتيجة ومع ذلك فان طريقة كربون ١٤ أثبتت أنها أفضل الطرق فى تأريخ المواد القديمة .

وجميع الحفريات الانسانية التى كشفت تساعدنا على الالمام بالاختلافات الجثمانية للهنود فى العصر التاريخى . والفارق كبير ، لأنه بينما كان المهاجرون الأوائل بوجه عام من النوع المغولى على الأرجح ، فقد انتشروا فى كثير من الأنحاء واستقروا فى جماعات قليلة متصلة بصلة القربى ، فى أماكن ذات مناخات مختلفة ، وسرعان ما أصبح لكل منها مظهر جثمانى خاص بها . ولجميع الهنود عيون سوداء وشعر أسود ولون جلودهم متوسط الاسمرار ، ولكن مثل هذه المميزات لا يمكن أن تظهر فى الحفريات . فمن دراسة العظام نعرف أن بعضهم كان طويل القامة والبعض الآخر قصيرها . وكان بعضهم ذوى رؤوس مستطيلة ، على حين كانت رؤوس البعض الآخر مستديرة . وكان لبعضهم أنوف طويلة دقيقة وللبعض الآخر أنوف فطساء عريضة . وفى أعمق الطبقات عثر الباحثون على أدوات من الشطفات الكبيرة ، وهى أدوات غير متقنة الصنع تذكرنا بمثيلاتها من العصر الپاليوليتى فى شرقى آسيا ، وفى طبقة أخرى أحدث عهدا من الطبقة السابقة عثر على بقايا كثيرة تمكن المكتشفون من جمعها الى بعضها فأصبحت صورة تكاد تكون كاملة لحياة الانسان البدائى الذى كان يعيش فى نفس الوقت الذى عاش فيه الماموث والرسيف .

كان جميع المهاجرين الأوائل من الصيادين الرحل ومن صائدى الأسماك ؛

لأن هذه هى الحياة الوحيدة التى يمكن أن يعيشها الانسان فى المناطق القطبية التى كان يتحتم عليهم اجتيازها . وعندما اتجهوا جنوبا فى وادى ماكنزى الى مناطق السهول وجدوا أرضا ملأى بحيوانات الصيد وخالية من الأعـداء الانسانيين ، وفى هذه البيئة زاد عددهم زيادة كبيرة فى وقت قصير . وعندما تراجع الجليد نحو الشمال وجدوا طريقا آخر بين جبال روكى وسهل الشاطىء يؤدى الى الحوض الكبير (Creat Basin) . ولم يتم استيطان أمريكا بموجة واحدة من أمواج المهاجرين ، ولكن تم بطريق التسلل المستمر الذى استمر آلافا من السنين . وكان جميع المهاجرين الأوائل يتجهون نحو الجنوب بحثا عن بلاد أفضل حتى جاء الاسكيمو ، وكانوا آخر من وفد من تلك الهجرات ، جاءوا ومعهم المعدات الكاملة للحياة القطبية والطرق الفنية لصيد الثدييات البحرية الكبيرة فاستقروا فى المنطقة ومنعوا غيرهم من المهاجرين من اجتيازها .

وانقسم سكان القارة منذ وقت مبكر جدا الى نوعين متباينين من أنواع الحضارة : وهما جامعو البذور ، وصائدو الحيوانات الكبيرة . فالذين استقروا فى هضبة جبال روكى الى الغرب من كاليفورنيا وشرقا فى تكساس ، كانوا من جامعى البذور ، اذ لم يوجد فى تلك المنطقة الا القليل من حيوانات الصيد ، ولكنها ملأى بالأطعمة النباتية البرية والبذور والثمار العنبية وثمار الجوز والجذور والأبصال . ولما كان أولئك الناس غير صيادين فان قاذفاتهم المدببة ومنها رؤوس السهام كانت قليلة وفجة الصنع ، ولكنهم صنعوا أدوات من الشطفات الكبيرة والمهاشم وعرفوا كيف يحمصون الحبوب ويطحنونها على حجر مقعر لتصـير دقيقا ، كما عرفوا كيف يجففون ما يتبقى مما يجمعونه ويخزنونه فى سلال محبوكة الصناعة من الحبال المجدولة ، ولهذا السبب كانت سلالتهم تعرف باسم « صانعى السلال » .

وتجمع صائدو الحيوانات فى السهول العليا فى غربى الولايات المتحدة ، وذهب القليلون منهم الى الغابات الشرقية والى حدود تكساس . ومن المعروف

أن الجماعات التى تعتمد فى الحصول على قوتها من الصيد تصبح خاضعة لبيئة المنطقة التى تعيش فيها خضوع أى نوع من أنواع الثدييات ، وتبتعد عن الجهات التى تحتم عليهم اختراع أو استعارة طرق جديدة لحياتهم . فالصياد الذى كان يعيش فى منطقة السهول كان يرى فى وجود منطقة ملأى بغابات كثيفة حاجزا شبيها بسلسلة الجبال . ولهذا ظل الصيادون فى السهول حيث توافرت حيوانات الصيد ، وكانوا يستكملون وجبات طعامهم من البذور البرية والجـذور .

وتمتاز هذه الحضارة بصناعة عدد كبير من الأدوات الدقيقة الصنع من القاذفات المدببة المصنوعة من الحجر ، والسكاكين ، والمقاشط . ويمكن التعرف على نوعين من القاذفات المدببة (رؤوس السهام ورؤوس الحراب) فى هذه الحضارة يسمى أحدهما « فلسم Folsom » والثانى يسمى « يومان Yuman » وهما اسما المكانين اللذين عثر فى كل منهما على ذلك النوع الخاص فى ولاية نيومكسيكو . فالنهاية المدببة لدى الفلسم ليست الا قطعة مدببة من الحجر ، فيها على كل من الجانبين حفـر طولى أعمق من السطح ، أما الأداة التى استخدمها اليومان فهى طويلة وغير عريضة ومشطوفة فى كلتا الناحيتين بصورة واحدة ولا يوجد فى سطحها خط عميق ، وهاتان الجماعتان ، جماعة الفلسم وجماعة اليومان هما أسلاف قبائل الصيد الأمريكية الذين نعرف أنهم كانوا يصطادون الماموث وغيره من الحيوانات المنقرضة . ومهما يكن من أمر فان الطرق التى كانوا يتبعونها فى الصيد هى نفس الطرق التى استخدمها الهنود فى عصرهم التاريخى . كانوا على الأرجح يحيطون بالحيوانات ويحاولون جمعها الى بعضها ثم ينقضون عليها بالحراب . وقد عثر على النهايات المدببة التى كان يستخدمها الفلسم مغروسة فى عظام ثيران البيسون . ومن المشاهدات التى تثير الدهشة أن عظام الذيل وجدت ناقصة فى جميع الهياكل العظمية التى عثر عليها للبيسون مما يثبت أن سكان فلسم كانوا يسلخون الحيوانات

ويبقون الذيل مع الجلد . ولما كانت جميع الهياكل العظمية قد عثر عليها كاملة فان ذلك يدل على أنهم اتبعوا على ما يظهر الطريقة التى كان يتبعها الصيادون فى العصر التاريخى فيما بعد ، وهو أنهم كانوا يفصلون اللحم من الثــور ويحملونه فى قطع كبيرة الى مساكنهم .

واذا نظرنا الى الموضوع نظرة عامة يمكننا القول ان أقدم ما عثر عليه يدل على أن أولى موجات الهجرة الى أمريكا كانت لقوم يعرفون نوعا فجا من حضارة الشطفة الحجرية ، وكانت لهم المميزات العامة للشعوب الأسترالية — المنغولية . ويرجح أنهم وصلوا الى أمريكا خلال آخر عصر لتقهقر الجليد عندما كانت الجهة الشرقية من الولايات المتحدة ما زالت مغطاة بالجليد وهذا هو السبب فى أنه لم توجد حتى الآن أى بقايا حضارية من ذلك العهد فى تلك المنطقة . وانتشر أولئك المهاجرون فى معظم أمريكا الشمالية وكانوا أول من وصل الى أمريكا الجنوبية . ويحتمل أن تكون الهجرات قد توقفت لفترة طويلة لأن احدى الفترات التى اشتدت فيها البرودة جعلت اجتياز برزخ پرنج أمرا مستحيلا . وعندما تحسن المناخ عادت الهجرات من آسيا مرة أخرى ، وجاء فى هذه المرة قوم كانوا فى المرحلة الپاليوليتية العليا من حضارتهم وكانوا يعرفون معرفة جيدة حياة الصيادين الرحل . كان أولئك القادمون من النوع المسمى « الآسيويون القدماء » Paleoasiatic ، ولهم مميزات تجعلهم وسطا بين الجنس القوقازى والجنس المغولى ، ويشبهون شـبها كبيرا والهنود الحمر التاريخيين . واختلط أولئك الذين جلبوا معهم حضارة الصيادين مع السكان الذين كانوا هناك قبلهم واقتبسوا منهم جميع البذور فى المناطق التى كان الصيد فيها أقل من أن يغنيهم عن الحصول على طعامهم من الأرض .

ومنذ هذه الهجرة الثانية تعددت الهجرات عن طريق بوغاز پرنج ، ربما بالقوارب ، لأن عبور هذا البوغاز كان يتوقف بسبب سده بالجليد من آن لآخر نظرا لتغير الحالات الجوية . واستمر أولئك المهاجرون يتقاطرون نحو


الأراضي الجرداء
الأراضي الجرداء
هضبة
جبال روكي
الجنوب الغربي
الغابات الجنوبية الشرقية
الأزتك
المايا
خط الإستواء
ARCTIC CIRCLE
الدنيا الجديدة
TRM

الجنوب ونحو الشرق يبحثون عن بقاع أفضل . ثم جاء بعد ذلك جماعة يمارسون حضارة المناطق المحيطة بالقطب ، يعرفون الصيد فى الثلج ويعرفون الأدوات المصنوعة من العظم ويعرفون استخدام قلف الأشجار فى صنع الزوارق والأوعية ، وانتشرت هذه الجماعة من المهاجرين من بوغاز برنج متجهين جنوبا فى كندا سائرين على حدود البحيرات التى تحيط بها الغابات .

كان أولئك الآسيويون القدماء ، هم أجداد الهنود الذين عاشوا فى شمال شرقى أمريكا فى العصر التاريخى ، وهم المعروفون باسم الهنود «الالجونكيين» (Algonkians) ، أما المهاجرون الذين أتوا بعدهم فكانوا من نوع يزيد فى مميزاته المغولية .

وحوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وصل الاسكيمو الى بوغاز برنج ، وكانوا على دراية بنوع من الحضارة القطبية القديمة ، ولما كانوا معتادين تماما على الحياة فى المناطق القطبية لم يكن هناك ما يدعو الى البحث عن مناخ أفضل فاستقروا فى المنطقة وسدوا الطريق على أى هجرات أخرى .

وتدل البقايا الأثرية على أن الزراعة نشأت فى أماكن مختلفة متعددة فى أمريكا وكل منها مستقل عن الآخر ، ثم تلا ذلك استعارتهم للحاصلات بعضهم من بعض . وجميع النباتات الهامة الصالحة للطعام التى استخدمها سكان عصر ما قبل التاريخ فى أمريكا من أصل محلى ، وأهمها جميعا نبات الذرة الذى تم تدجينه تدجينا تاما حتى أصبح لا ينمو من تلقاء نفسه أو يبقى بدون عناية الانسان به . واعتقد الناس منذ وقت طويل أن الموطن الأصلى لهذا النبات كان فى مرتفعات المكسيك حيث توجد بعض المحلات الزراعية التى يرجع تاريخها الى عام ١٥٠٠ ق . م . ولكن البحوث الحديثة تميل الى القول بأن هذا النبات أو النبات الأصلى الذى تفرع منه تم تدجينه فى أمريكا الجنوبية ، وربما فى باراجواى (Paraguay) ، وذلك بالرغم من أن أحد الأنواع البدائية من

نبات الذرة ، والذى يرجع تاريخه الى حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . عثر عليه فى بات كيف (Bat Cave) فى نيومكسيكو .

ووجدت الذرة بيئة صالة لها فى وسط أمريكا وهناك ضموها الى محصولين محليين استطاعوا تدجينهما وهما الفول والقرع العسلى ، وقد زرعت معا هذه الأنواع الثلاثة وهى الذرة والفول والقرع العسلى فى معظم مناطق أمريكا الوسطى والمناطق الأخرى التى تقع فى الشمال منها . زرعوا الذرة فى التلال وكانت أعوادها تصلح لتتسلق عليها أعواد نبات الفول . أما القرع العسلى فكان يزرع بين التلال المزروعة بالذرة ، وقد سمى الهنود الذين استقروا فى شرقى الولايات المتحدة هذه المحاصيل الثلاثة باسم « الأخوات المقدسات » .

وانتشرت الذرة منذ عصر مبكر نحو الشمال ولكن عندما دخلت زراعة الفول والقرع توافرت للسكان وجبات فيها مقادير متوازنة من النشاء والبروتين والفيتامينات . ويسرت هذه المحصولات سكنى المناطق التى كانت تقل فيها حيوانات الصيد فيعجز سكانها عن الحصول على كمية كافية من البروتين فى طعامهم ، وقد ترتب على ادخال هذه المحصولات الثلاثة الى أى منطقة كانت ازدياد عدد السكان وسرعة تقدم الحضارة .

ولم تكن تربية الحيوان فى أمريكا ذات أهمية فى أى يوم من الأيام لأنه لم يوجد فيها الا القليل من الحيوانات التى تستحق الاستئناس ، ولم يستأنس منها الا الكلب والديك الرومى فى شمالى المكسيك . وقد تم استئناس « الديك الرومى » أولا فى الجنوب الغربى ، ويلوح أنهم استأنسوه للحصول على ريشه أكثر من استئناسهم له للحصول على لحمه . أما الكلب فقد كان موجودا فى كل مكان فى أمريكا وربما جاء فى صحبة أول المهاجرين من آسيا ، وكان رفيق الانسان فى جميع تجولاته فى هذه القارة . وقد استخدموا الكلاب فى المنطقة القطبية وفى منطقة السهول كحيوانات للجر ، وفى بعض الأماكن كانوا يأكلون الكلاب ، وبين جماعة الساليش (Salish) الذين كانوا يعيشون على

الشاطىء استخدموا شعر الكلاب كمادة لعمل أغطيتهم ، وكانوا يربطون الكلاب من رقابها فيتساقط شعرها . وقد ذكر أوائل الرحالة أن كلاب الساليش كانت حيوانات شرسة جدا ، وهذا أمر غير مستغرب . وفى منطقة الاندس استأنسوا اللاما وغنم الالپاكا والكابياء (الخنزير الهندى) واستخدموا الأول والثانى لأجل الانتقال والحصول على الصوف ، أما الثالث وهو الكابياء (الخنزير الهندى) فقد ربوه لاستخدامه كطعام لهم .

وعندما وصل البيض الى أمريكا كان السكان الهنود قد بدأوا يغيرون حياتهم نظرا لما تتطلبه الزراعة . فقد انتشرت القرى شبه الثابتة التى تعتمد فى حياتها على الزراعة ووصلت فى الشمال الى كل مكان تصلح البيئة فيه لنمو الحاصلات ، ولهذا ظهرت أنواع من الأساليب الحضارية مرتبطة بالمؤثرات المناخية والبيئية . ويمكن تقسيم السكان الذين كانوا يقطنون شمالى المكسيك فى عصر ما قبل التاريخ الى تسع مناطق رئيسية : (١) الاسكيمو (٢) الأرض القاحلة (٣) الغابات الواقعة فى الشمال الشرقى (٤) الغابات التى فى الجنوب الشرقى (٥) السهول (٦) هضبة جبال روكى (٧) الجنوب الغربى (٨) كاليفورنيا (٩) الشاطىء الشمالى الغربى .

فالمناطق ١ و ٢ و ٣ و ٥ و ٩ كان سكانها ذوى حضارة تعتمد كثيرا على صيد الحيوانات أو صيد الأسماك ، وهى حضارات تتصل اتصالا وثيقا بحضارة المنطقة القطبية فى الدنيا القديمة . أما فى مناطق ٤ و ٦ و ٧ و ٨ فان طعام الخضراوات كان هاما جدا لديهم مع اعتمادهم بين حين وآخر على صيد الحيوان أو صيد الأسماك .

ويستحيل علينا أن نعطى وصفا مسهبا لتلك المناطق فى هذا الكتاب وسنعطى وصفا مختصرا لتوضيح النقط الرئيسية فى التنظيم وفى المميزات التى جعلت كلا منها منطقة مختلفة عن جارتها .

١ — عاش الاسكيمو على شاطىء المنطقة القطبية من مدخل سانت لورنس حتى جنوبى الاسكا ، وكانت حضارتهم خاضعة لظروف مناخية قاسية وغير عادية ، طغت فيها الحاجة الى الطعام والى المأوى على كل شىء آخر ، فان انعدام المأوى فى هذه المنطقة لا يؤدى الى عدم الراحة وحسب ، بل يؤدى الى الفناء . ولهذا كان نضالهم لأجل البقاء هو الأمر الذى استوعب كل جهودهم فظل تنظيمهم الاجتماعى والدينى على درجة قليلة من التقدم . لم يعرفوا نظام العشائر ، ولم يعرفوا شيئا عن أى نظام حكومى ، بل لم يعرفوا أى تنظيم قبلى محدد المعالم . كانت المحلة السكنية للاسكيمو مكونة من مجموعة من العائلات يرأسها ، ولا يحكمها ، أقوى رجل فيهم توافرت فيه الشخصية القوية والقوة البدنية . وكانوا متساهلين الى أبعد الحدود فى موضوع العلاقات الجنسية ، وذلك بسبب قسوة الحياة فى المناطق القطبية ، وكان تبادل الزوجات أمرا عاديا بينهم ، فمثلا اذا ذهب أحدهم الى المرتفعات لصيد الكاريبو (الوعل الأمريكى) بينما يبقى آخر على الشاطىء لصيد السمك وكانت زوجة صائد السمك ماهرة فى تجهيز جلد الكاريبو بينما أن زوجة الصائد غير ماهرة فى ذلك فان كلا من الرجلين يأخذ زوجة الآخر لتعيش معه طيلة الموسم .

والمسكن الشتوى للاسكيمو فى الشرق وفى المنطقة الوسطى هو البيت الجليـــدى ويسمى الايجلو (igloo) ، ويشيد من كتل من الجليد يضعونها معا لتكوّن قبة . أما الاسكيمو الغربيون فكانوا يشيدون لهم مساكن ، الجزء الأكبر منها تحت الأرض . وهم يدفئون تلك المساكن باستخدام قناديل يحرقون فيها زيت عجل البحر ، وكانوا يستخدمون هذا الزيت أيضا فى طهى طعامهم . وكانت هذه القناديل تدفىء المساكن الجليدية تدفئة تامة تجبر ساكنيها فى العادة على خلع كل ملابسهم عندما يكونون فى داخل تلك المساكن . أما فى الصيف فان الاسكيمو يعيشون فى خيام من جلود الأيائل أو جلود عجول البحر . وفى بعض الأحيان كانوا ينصبون تلك الخيام داخل المساكن الجليدية (الايجلو)

لتكون لديهم ما يشبه الحجرة بين تلك الخيمة والحائط الجليدى الخارجى ليمنعوا تأثير الحرارة فى الداخل من اذابة الجليد .

وتركزت دياناتهم حول الصيد وكان لديهم كثير من أنواع الطابو المتصلة به . فاذا لم ينجحوا فى الصيد فانهم كانوا يرجعون ذلك الى انتهاك حرمة أحد الطابوات . وفى مثل هذه الحالة يدعون الرجال المطببين الذين يسمونهم « انجكوك » (angekoks) ليكتشفوا المذنب ويجبروه على الاعتراف العلنى . وكان أولئك المطببون يعقدون جلسات روحانية فى خلال فصل الشتاء الطويل يحضرون فيها الأرواح (انظر موضوع الديانة القديمة فى المناطق القطبية فى الفصل الثانى عشر من هذا المؤلف) .

والمعبود الرئيسى لهم هو الالهة « سدنا Sedna » التى تعيش فى أعماق البحر وكانت صاحبة السلطان على ثدييات البحر ، وعلى حيوانات الصيد ، فاذا أغضبها أحد منعت الحيوانات فيقل محصول الصيد . وكان الانجكوك يدعونها مرة فى كل عام وذلك بعمل رقصة طقسية خاصة تعود بعدها الى البحر ثانية وهى فى حالة نفسية طيبة بعد أن يكونوا قد أرضوها . ويخاف الاسكيمو من الموت ومن الأشباح . فاذا مات أحدهم فانهم يحطمون أو يرمون كل شىء قد مسه الشخص عند موته والا تعرضوا للموت . وغالبا ما يتركون المكان كله وينقلون مخيمهم الى جهة أخرى .

وبالرغم من هذا المستوى المنخفض نسبيا فى كثير من المظاهر الحضارية فان الاسكيمو قوم ذوو ذكاء خارق ، يعتمدون كثيرا على أنفسهم ، وهم غير مسالمين ، ولكنهم يستخدمون كل نبوغهم فى النواحى العملية . فهم يحبون الأجهزة والآلات دائما ، وأينما اتصلوا بالأوروبيين فانهم استطاعوا استخدام الآلات الميكانيكية بسهولة ومهارة . وبين عامى ١٨٧٠ ، ١٨٨٠ كان بعض الاسكيمو من أهل الاسكا يعملون دائما فى سفن صيد الحيتان كمساعدين ميكانيكيين . وقد أخبرنى أحد وكلاء الشركات المشتغلة بصيد الحوت فى

برزخ پرنج انه أعطى فى مرة من المرات ساعة مكسورة الى أحد أصدقائه من الاسكيمو الذى لم يكن قد رأى ساعة فى حياته من قبل . ففك أجزاءها ودرسها وأخذ فى تصليحها ، وبعد بضعة أسابيع أعادها اليه وهى تدور . وذكر دنكان ستر نج (Duncan Strong) عن أحد الاسكيمو فى لبرادور (Labrador) الذى استطاع أن يركب أجزاء موقد بالكيروسين وصل الى المعسكر وهو مفكك الأجزاء وعجز علماء الانثروبولوجيا عن تركيبه ، ولكن الاسكيمو الذى لم يكن قد رأى موقدا فى حياته من قبل عكف على دراسة الرسم ، وركب أجزاءه الى بعضها البعض فى أقصر وقت ممكن .

وأظهر الاسكيمو نبوغا خارقا فى صنع جميع نظارات الثلج كما اخترعوا لمبات الزيت . والزلاقات التى يصنعها الاسكيمو أفضل من أى شىء من مثيلاتها استطاع الأوروبيون صنعه . كانت تلك الزلاقات مصنوعة من عدة أجزاء من الخشب ، وتربط تلك الأجزاء بعضها الى بعض بسيور من الجلد الخام ، ولكنهم لا « يعشقونها » مع بعضها حتى تبقى على مرونة كافية للسير فوق جليد خشن أو أرض غير مستوية دون أن تتحطم من كثرة الرجرجة . وكانوا يضعون فى باطن المزلقين قطعا من العاج ، ومن الأشياء التى تدعو الى الدهشة أن الاسكيمو لم يصنعوا أبدا أحذية للسير بها على الجليد أو اسكيات . وكانت الكلاب تجر الزلاقات ، وابتكروا عدة خاصة لتلك الفرق من الكلاب . وكانوا يحولون دون تعقد الاسارين اللذين يمتدان من الرقابية بعمل وصلات يصنعونها من قطع العاج ، كما أن الوتد الذى يثبت فيه الاسار كان فى داخل حلقة مثبتة فى الخلف ، وبذلك تستطيع أن تدور دون عائق .

واستخدم الاسكيمو الـ « كاياك » (Kayak) فى الصيد أثناء الصيف ، وهو قارب مصنوع من جلد الحيوان البحرى الذى يسمى الفظ يكسون به هياكل من خشب مربوط الى بعضه ، وذلك بالاضافة الى بعض قطع من العظام تستخدم كأضلاع لهذا القارب . ويدل صنع هذه القوارب دون شك على نبوغ

يدعو الى الدهشة وكانت صالحة جدا للسفر فى البحر ، اللهم الا اذا بقيت فى الماء أكثر من ٤٨ ساعة فان الماء يرشح اليها ويصبح الجلد طريا وينفصل عن الضلوع . واذا حدث أن عاصفة من العواصف هبت وكان أحد الاسكيمو فى « كاياك » وقذفت به العاصفة الى البحر ، فان هذا الكاياك يتفكك به .

وفى الشتاء يلبسون ملابس من الجلد يفصلونها ويتركون الفراء عادة فيها ، ويلبسون فى أرجلهم حذاء فيه تحسين على الـ « موكاسين » ويسمونه « المكلوك » (mukluk) ويتكون نعله وجوانبه من قطعة واحدة . وباستثناء الأحذية الطويلة المصنوعة من المطاط فان المكلوك هو الحذاء الوحيد الذى يحفظ الأرجل من أن تبتل بمياه الثلج .

وصنعوا نوعا من الفخار كافيا لطبخ طعامهم ، بالرغم من أنهم لم يحرقوه نظرا لعدم توافر الخشب . وصنعوا بعض السلال غير المتقنة ، ولكنهم ركزوا مهارتهم فى الأشياء المصنوعة من العظم والحجر . ففى ليالى الشتاء الطويلة ينحتون تماثيل صغيرة لطيفة للانسان والحيوان يصنعونها من العاج . وليس لديهم معادن ولكن يحدث بين آن وآخر فى العصر الأخير أن المياه تقذف بأشياء بها أجـزاء من الحديد وعنـد ذلك يستفيدون منها ويصنعون منها السكاكين والفؤوس .

ولما كانت المنطقة التى يعيش فيها الاسكيمو من المناطق التى لم يطمع فيها البيض فقد ظلت بعيدة عن المؤثرات التى تحدث من جراء استقرارهم فى أى مكان على السكان الأصليين . ولهذا احتفظوا بطابعهم الأصلى أكثر من أى سكان أصليين فى أى منطقة أخرى فى القارة ويكادون يعيشون اليوم نفس المعيشة التى كانوا عليها عندما رسا خرستوف كولومب على شاطىء هـذه البـلاد .

٢ — والمناخ فى الأرض القاحلة (Barran Ground) والتى تشمل المنطقة الداخلية فى كندا من هدسون باى (Hudson Bay) . حتى جبال الروكى تقرب

فى صعوبة العيش فيها من منطقة الاسكيمو ، بل ان مشكلة الطعام فيها أكثر قلقلة وخطورة . وكان سكانها يعتمدون كثيرا على صيد الأسماك من المياه العذبة وصيد الأرانب الثلجية ووعل الكاريبو الذى يعيش فى قطعان هائلة فى تلك الفيافى القطبية ، تهاجر من مكان الى آخر حسب فصول السنة . فاذا نجح الصيادون فى العثور على واحد من تلك القطعان فانهم يستطيعون أن يحصلوا على قدر كبير من اللحم يكفيهم عدة شهور ، أما اذا أخفقوا فى ذلك فلا مندوحة لهم من أن يعيشوا على مقادير ضئيلة من الطعام .

وحضارة أمثال هؤلاء الناس هى حضارة البدو الرحل . ففى الصيف ينتقلون من مكان الى آخر بزوارق مصنوعة من قلف الشجر أو من الجلد . أما فى الشتاء فانهم يستخدمون أحذية الجلود ، أو زلاقة مصنوعة من قطعة من قلف الشجر يحنون الجزء الأمامى منها الى أعلى ، أما مساكنهم فهى اما خيام من الجلد مخروطية الشكل واما من الأكواخ البسيطة .

وبالرغم من قسوة المناخ وقلة ما لديهم من التقدم الحضارى فان تنظيمهم الاجتماعى أكثر نضوجا من تنظيم الاسكيمو . فقد كان لديهم تنظيم مبتكر لمجموعات من السكان . كانت كل مجموعة منها تعيش معا وتصطاد معا ويحكمها زعيم ، وكثيرا ما تصبح هذه الزعامة وراثية فى عائلة معينة . وبالرغم من أنهم لم يمارسوا احتفالات دينية خاصة بمجموعتهم ، فقد كان لديهم « شامان » يقومون بالطقوس السحرية والشعائر التى تجلب الشفاء . وكانت لعقيدة الحارس الخاص أهمية لديهم ، وهذا الحارس الخاص كائن له قوة فوق القوى الطبيعية يستطيع الفرد أن يتصل به عن طريق الرؤيا فى المنام . كما يستطيع هذا الفرد أن يحصل من حارسه على ما يحتاج اليه من معونة فى صيد الحيوان وصيد الأسماك اذا راعى بعض الطابوات ، وقدم له بعض القرابين .

٣ — أما الغابات التى فى الشمال الشرقى فتشمل شرقى كندا وتمتد

شمالا حتى مناطق الطندرة (tundra) وشرقى الولايات المتحدة من المحيط الأطلسى حتى السهول العظمى (Great plains) وتمتد جنوبا حتى فرچينيا .

ولهنود هـذه المنطقة صلة طويلة وثيقة بالبيض أكثر من جميع الهنود الآخرين . فربما كان مصير جميع المستعمرين الأوائل هو الموت جوعا اذا لم تعلمهم قبائل المنطقة الساحلية الشرقية طريقة زرع الحاصلات المحلية . ومن الأمور التى ساعدت البيض أيضـا أن الأمراض التى جلبها المستكشفون الأوائل معهم قضت على عدد كبير من القرى الواقعة على الشاطىء فأصبحت القرى ذاتها خالية ، وحقولها الصالحة للزراعة مهجورة ، فاستولى عليها أولئك المستعمرون ، ولو كانت القبائل فى كامل قوتها لكان استقرارهم أكثر صعوبة .

وفى الوقت الذى تم فيه كشف أمريكا كانت هذه المنطقة آهلة بقبائل مختلفة كان يسير أكثرها على نظام مفكك من نظم العشيرة ، ولكل قبيلة منها زعيم يرأسها . وفى معظم أرجائها كانت المنطقة ملأى بالغابات وفيها حيوانات صيد كثيرة لا تغادرها ولهذا كان الحصول على لحومها ميسورا فى جميع أيام السنة . وكان معظم أفراد القبائل مزارعين وصيادين فى وقت واحد ، ولكنهم لم يهتموا بحقولهم الا عند الزرع وعند الحصاد ، وكانوا يذهبون للصيد فى الأوقات الأخرى . ومن بين الأشياء الغريبة فى تلك المنطقة وجود نظام غريب لتملك الأفراد للأراضى ، وهو من الأنظمة النادرة بين سكان أمريكا الأصليين . كان هـذا النظام سـائدا بين القبائل الالجونكية (Algonkian) التى كانت تعيش فى المنطقة الواقعة بين لبرادور وفرچينيا ، ويقضى بأن تخصص لكل جماعة مساحة محددة لصيد الحيوان وأماكن محددة لصيد الأسماك . فاذا أرادت جماعة أخرى أن تصطاد الحيوانات أو الأسماك فى منطقة غيرهم فعليهم أن يدفعوا أجرا مقابل الصيد فى الغابة أو للحصول على حق صيد السمك ، وذلك لمدة مؤقتة . وكانت الأرض لا تباع بأى حالة من الحالات ، ولهـذا فعندما عرض البيض على الهنود من السكان الأصليين أن يدفعوا لهم ثمن

أراضيهم ظن السكان الأصليون أنهم يدفعون حق السماح لهم بالصيد ، وثارت ثائرتهم عندما حاول البيض الاستيلاء على الأرض وطرد الهنود منها .

وكانت منطقة الغابات الشمالية الشرقية آهلة بعـدد كبير من القبائل المختلفة التى يستحيل علينا وصفها كلها ، ولكن القبيلة التى كان لها أكبر الأثر عـلى المستعمرين كانت قبيلة الايروكوى (Iroquois) . كان الاتحاد المكون من عشائر الايروكوى قوة يجب أن يعمل لها حساب فى الأيام الماضية ، وربما كان النظام الذى سار عليه اتحاد عشائرها ذا أثر على تكوين التحالف والاتحاد بين المستعمرين .

كان الايروكوى يعيشون فى المنطقة التى حول نيويورك ، وفى المنطقة الشرقية من البحيرات الكبرى ، وكانوا متقدمين فى حضارتهم أكثر من جيرانهم المحيطين بهم من قبائل الألجونكى . والواقع ، أنهم كانوا يشاركونهم فى بعض مظاهر حضارتهم ولكن الايروكوى انفردوا على الأقل فى ناحيتين هامتين وهما اتساع نطاق الزراعة بينهم وسفسطتهم السياسية . ويهمنا أمرهم بنوع خاص بسبب الدور الذى لعبوه كقوة سياسية فى كل من التاريخ الاستعمارى والتاريخ الثورى فى أمريكا .

والقبائل الرئيسية التى نعرفها باسم الايروكوى هى الاتحاد الذى كان يتكون من خمس منها وكانوا يسمونه « عصبة الأمم الخمس » . وكانت هذه القبائل من الشرق الى الغرب هى الموهوك (Mohawk) والأونيدا (Oneida) والأوناندا جا (Onandaga) والكايوجا (Cayuga) والسنكا (Senca) ، وكانت كلها تعيش فى ولاية نيويورك الحالية . وكانت هناك قبائل أخرى تتكلم لهجات من لغة الايروكوى وهى قبيلة هورون (Huron) التى كانت تعيش فى الشمال من بحيرة هورون وقبيلة المحايدين وكانت تعيش فى شمال بحيرة ارى (Erie) وقبيلة ارى وقبيلة كونستوجا (Conestoga) وغيرها فى ولايات أوهيو (Ohio) وپنسـيلفانيا (Pennsylvania) . وكان الهورون هم الأعـداء التقليديين للأمم

الخمس ، وزادت عداوتهم عندما أصبحوا تحت النفوذ الفرنسى منذ وقت مبكر ، بينما وقعت قبائل الأمم الخمس تحت النفوذ البريطانى .

وسمى المحايدون بهذا الاسم لأنه بالرغم من أن منطقتهم تقع بين منطقة عصبة الايروكوى البارزة ومنطقة أعدائهم الهورون فان كلا الفريقين المتحاربين لم يحارب هذه القبيلة الصغيرة . وكان السبب فى احتفاظ المحايدين بحيادهم أنهم كانوا يملكون المحاجر الوحيدة التى يمكن استخراج الظران الجيد منها فى كل المنطقة ، وكانت تتاجر فى هذه المادة الصالحة لعمل رؤوس السهام وغيرها وتبيعها للفريقين ، فلم يجرؤ أى فريق على مهاجمتهم لأنه كان يعلم أن الفريق الآخر سيهب للدفاع عن هذه القبيلة الصغيرة والمحاجر ، أى ان المحايدين كانوا فى موقف شبيه بموقف السويد فى الحرب العالمية الثانية حتى بدأ الايروكوى يحصلون على الأسلحة النارية والسيوف من الهولانديين والانجليز ، ولم يعودوا فى حاجة الى الظران ، وعند ذلك هاجموا المحايدين وأخضعوهم .

كان الايروكوى يختلفون اختلافا واضحا عن جيرانهم من قبائل الالجونكى فى تنظيمهم العائلى والاجتماعى لأنهم كانوا ينتسبون الى الأم ، وكان جيرانهم يميلون الى نظام الانتساب الى الأب . كانت العائلة التى تتكون من جماعة من الأخوات أو بنات العم والعمة والخال والخالة اللاتى تربطهن ببعضهن البعض صلة الانتماء الى النساء يعشن معا فيما كان يسمى « البيوت الكبيرة » وكانت هذه البيوت مصنوعة من الخشب وتحتوى على عدد من المساكن تقطن فى كل منها احدى العائلات . وكانت السلطة على كل تلك العائلات لاحدى النساء ، وكانت أكبرهن سنا ، وكانت فى الغالب أما أو جدة للنساء اللائى كن زعيمات للعائلات . وكان أحد هذه البيوت الكبيرة أو اثنان أو ثلاثة منها تكون فرعا ، وكان فرعان أو ثلاثة منها تكون العشيرة . واختلف عدد العشائر فى كل قبيلة من قبائل الايروكوى ، وفى جميع الحالات كانت هذه العشائر

لها صلة قرابة فى عدة قبائل . كانت العشائر عادة تتبع عادة الزواج من خارجها أى أنه لم يكن يسمح لأى فرد من أفراد العشيرة أن يتزوج من عشيرته ولكنه يستطيع أن يتزوج سواء من قبيلته هو أو من قبيلة أخرى . وكانوا ينظرون الى أعضاء العشيرة الواحدة كأقارب يرتبطون برابطة الدم مهما كانت قرابتهم لبعضهم أو حتى اذا لم تكن بينهم قرابة . وكانت صلات القرابة الخارجة عن القرابة عن طريق الأم أقل أهمية ، وبعد مرور أجيال قليلة ينظرون اليها كأنها لم يعد لها وجود .

وبهذه الطريقة كانت القبائل والعشائر التى تنتسب الى الأم أساسا متشابكا للتنظيم الاجتماعى للايروكوى اذ كانت القبائل وحدات يربط بينها العيش فى مكان واحد ويتكلمون فيما بينهم لغة واحدة ، وكانت تلك القبائل تعيش فى منطقة الايروكوى ويتكلمون عدة لغات أو لهجات على حين كانت العشائر تتغلغل داخل تلك القبائل وتكوّن وحدات من القرابة الممتدة ذات التماسك الاجتماعى .

وكانت النساء يقمن بأكثر الأعمال الزراعية بارشاد السيدة الأكبر سنا فى كل فرع أو فى كل عشيرة . وكانت جماعات العمل من بينهن منظمة كتنظيم النحل ، وكانت التعليمات تصدرها مقدما الأم الكبيرة الى جميع نساء الفرع أو العشيرة . وكانت العاملات يشتغلن متعاونات فى أرض مشتركة الملكية ، وكانت المحصولات تقسم بين أفراد العائلات المشتركة معا . وكانت هذه الجماعات الشبيهة بجماعات النحل تحيى معا المناسبات اللطيفة لقضاء وقت ملىء بالسرور كما يشتركن معا فى العمل ، وقد اقتبس هذه الطريقة أول المهاجرين الى الولايات المتحدة .

وكان العمل الرئيسى الذى يقوم به رجال الايروكوى هو الصيد والاشتغال بالأمور السياسية والحرب ، وكانت كلها تستلزم السفر الكثير ولهذا كانوا يتركون للنساء القيام بالحرف التى تستلزم الاقامة فى مكان ثابت .

وتمثل عصبة الايروكوى نوعا من النظام السياسى ، واذا حاولنا معرفة أصل نشأته نجد أن مرور الزمن قد أحاطه بالكثير من الغموض ، وأضافت اليه الأساطير كثيرا من الحواشى ، ولكن رغم ذلك فان خطوطه الرئيسية ما زالت واضحة . لقد بدأ هذا النظام على الأرجح فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، أو مستهل القرن السادس عشر ، أو كما يقول الايروكوى حتى الآن : « ثلاثة أو أربعة أجيال قبل مجىء الرجل الأبيض » . وتذكر الأســاطير أن اللذين أوعزا به اثنان أولهما يسمى « هياواثا » (Hiawatha) ويكتبونه أحيانا هيونهواثا (Hayonhwatha) والثانى يسمى « دجاناويدا » (Deganawida) وكانا ممن تنزل عليهم الرؤيا . واستطاعا بعد التغلب على كثير من العقبات أن يجعلا الناس يقبلون آراءهما . كانت قبائل الايروكوى فى ذلك الوقت فى حالة تنازع وحروب فيما بينها وبين جيرانها من غير الايروكوى . كانت العصبة التى دعيا الى تكوينها عصبة سلم وكانا يدعوان الى تحريم الحرب . وكانت قبيلة « أونونداجا » (Onondaga) هى القبيــلة التى قاومت الدخول فى ذلك التحالف ولكنها قبلت أخيرا الدخول فى عضوية العصبة بشرط واحد وهى أن تكون لها المكانة الأولى بينهم .

ووضعوا لهم قانونا سياسيا أو دستورا يتكون من مواد وتشريعات تشمل ما يمكن عمله ازاء أى طارىء تصور حدوثه واضعو ذلك الدستور ، وكانوا يحفظون هذا الدستور عن ظهر قلب ويتناقلونه عن طريق الرواية الشفهية الى أن كتبوه فى العصــور الحديثة ، وهو خليط بين السفسطة السياسية والسذاجة البدائية . وكانوا يتصورون أن هذه العصبة لا تقتصر على القبائل التى أسستها ، بل ان « السلام الأعظم » يجب أن يعم جميع القبائل التى تحيط بها حتى يمكن القضاء على الحروب قضاء نهائيا . ومــع ذلك فان القبائل المؤسسة لم ترض عن التنازل عما كان لها من مكانة سياسية ممتازة فى تلك العصبة وأرادت أن تجبر القبائل الأخرى على الانضمام اليها ، ولكن على

شرط أن تكون فى مركز أقل من مركزها . وما لبث النظام الذى وضع ليكون أداة لانهاء الحرب والذى كان يعرف باسم « السلام الأعظم » حتى أصبح أداة للغزو وأصبح مصدر رعب لمن كان حولهم من الناس . وها هو ذا مثل من مواد ذلك الدستور يوضح كيف كانوا ينشرون السلام بين من جاورهم من القبائل :

« عند اقتراح عمل « السلام الأعظم » لشعب أجنبى فان ذلك يتم عن طريق لجنة من الطرفين ويجب اغراء الشعب الأجنبى بطريق التفاهم والحث على أن يدخل فى السلام الأعظم . فاذا فشلت الشعوب الخمسة .... بعد اجتماع ثالث ... فان زعيم الحرب فى الشعوب الخمسة يرسل الى الرئيس الأكبر للشعب الثائر ويطلب منه ثلاث مرات أن يقبل السلام الأعظم ، فاذا أصر بعد ذلك اصرارا مطلقا على الرفض فان زعيم الحرب يجعل حفنة من المحار الأبيض المستخرج من البحيرات تسقط من يده الممتدة ، ثم يتقدم بسرعة ويضرب الرئيس المعارض بهراوته حتى يقتله . وبهذا يكون اعلان الحرب . وعلى زعيم الحرب أن يعد رجاله ليؤازروه ويعاونوه عند حدوث أى خطر . وتستمر الحرب حتى تكسبه « الشعوب الخمسة » ـ ثم تفرض « الشعوب الخمسة » السلام الأعظم بغزو الشعب الثائر .

وبعد استقرار السلام وانتهاء السلام وانهاء الحرب يعمل زعيم الحرب على جمع السلاح من ذلك الشعب ، وبهذا يستقر السلام الأعظم ، ويراعى ذلك الشعب جميع اشتراطات السلام الأعظم فى جميع الأوقات فى المستقبل .

وكلما يتم اخضاع شعب أجنبى يظل نظامهم الداخلى فى الادارة ساريا بينهم طالما كان ذلك مناسبا ، ولكنهم يجب أن يمتنعوا امتناعا تاما عن الحرب مع الشعوب الأخرى » [١] .

---

(1) Arthur C. Parker; The Clinsitution of the Five Nations. New York State Bulletin, No 184). Albany, 1916.

كان عدد أفراد المجلس التأسيسى للعصبة خمسين شخصا يمثلون عدة قبائل أصبحت أسماؤهم ألقابا تطلق على خمسين وظيفة ، أصبحت تسع وأربعون وظيفة منها وظائف مستديمة يشغلها ممثلون للمجلس ، وما زالت هذه الوظائف باقية بينهم حتى اليوم . أما الوظيفة الخمسون وهى وظيفة « دجانا ويدا » فيجب أن تظل شاغرة لأنه لا يمكن أبدا أن يوجد شخص آخر يستحق أن يسمى بهذا الاسم المبجل . وهذه الوظائف وراثية فى بعض فروع العائلات النبيلة ، ولكن الذى يختار مرشح هذا الفرع هم نساء ذلك الفرع . فاذا أساء هذا الشخص أو أظهر ضعفا فى وظيفته فللنساء الحق فى عزله ، وكما يقولون « اخراج قرون الوعل من » أى رجل يبعثون به كممثل لعشيرتهم وقبيلتهم فى ذلك المجلس . وكانت لهم طقوس متقنة عند قيامهم بالأعمال السياسية ، وعند قيامهم بعمل الشعائر الخاصة بالحزن عند وفاة أحد الرؤساء ، وعند تعيين الرؤساء الجدد الذين يحلون محلهم .

وكما حدث فى حالات أخرى فى تاريخ السكان القدماء فى الشعوب ، كان تحريم الحروب الداخلية بين القبائل سببا فى تحويل ذلك التنازع الداخلى الى شىء أكثر تمدنا — وهو لعبة الكرة . كانت قبائل العصبة تلعب لعبة الـ « لاكروس » (Lacrosse) ناظرة اليها نظرة جدية جدا . ومن المرجح أنه ليس من المصادفة أن تكون الاتحادات السياسية ودورات ألعاب الكرة بين القبائل أو بين المدن تسير جنبا الى جنب بين سكان أمريكا الأصليين . كانوا يستعدون لهذه اللعبة كما يستعدون للحرب ويلجأون فى ذلك الى المران والى الاستعانة بالقوى التى فوق قوى الطبيعة . ان لعبة الكرة التى كانت سائدة بين الأيروكوى هى أصل لعبة لاكروس كما نعرفها الآن ، وقد اختلفت لعبة الكرة بين الايروكوى عن مثيلاتها فى قبائل الجنوب الشرقى ووسط غربى أمريكا ، وذلك فى نوع المضرب المستخدم فى اللعبة وفى بعض التفاصيل

الأخرى ، والمضرب المعتمد الآن فى هذه اللعبة هو نفس المضرب الذى كان يستخدمه الايروكوى .

كانت عصبة الايروكوى قوة سياسية لها خطرها أدركتها كل من الحكومتين البريطانية والأمريكية . وفى أيام حرب الثورة الأمريكية تمكن القس صمويل كيركلاند الذى كان يقوم بالتبشير بين قبيلة الأويندا س من اقناعهم بالبقاء على الحياد فى تلك الحرب . ولكن الغالبية العظمى من الآخرين انضموا الى البريطانيين لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم انهم سيفقدون أراضيهم واستقلالهم اذا انتصر المستعمرون المهاجرون . وتم القضاء على عصبة الايروكوى عندما ذهب الجنرال سوليفان فى عام ١٧٧٩ لينفذ أوامر واشنجطون بالقضاء على هذا المصدر الذى يقوى جانب البريطانيين ، وكانت الطريقة التى اتبعها سوليفان هى حرق القرى والحقول بدلا من الالتحام فى حرب مع الايروكوى . وتدل كمية الطعام التى أحرقوها على مدى انتشار الزراعة بين الايروكوى اذ تصف وثائق تلك الحملة كيف قضت على ١٦٠٫٠٠٠ بوشل (البوشل ٣٦ لترا) من الذرة وكمية هائلة من الخضراوات من جميع الأنواع ، وعدد لا يحصى من أشجار التفاح ، اذ كان يوجد فى حديقة واحدة ١٥٠٠ شجرة . وانتهى أمر الايروكوى بعد أن أحرقوا قراهم وما لديهم من مؤونة يعيشون عليها ففر كثيرون منهم الى كندا ، وبقى البعض الآخر ليعقد الصلح مع المستعمرين . ومنذ هذا اليوم حتى الآن أصبح اللقب الذى يطلقونه على رئيس الولايات المتحدة هو « راناداجارياس » (Ranadagaryas) أى « مدمر القرى » .

وديانة الايروكوى يهمنا أمرها أيضا . فقد كان هناك فى الأصل كثير من العقائد السحرية والعادات المختلفة التى تبلورت منها فى الوقت المتأخر من عصر ما قبل التاريخ نواة ما أصبح بعد ذلك ديانة لها شىء كثير من الجمال والوقار . وفى أعقاب تلك الأزمة الشديدة التى مرت بالايروكوى بعد حرب الثورة ظهر نبى من قبيلة « سنكا » يسمى « جانيا دايو » (Ganyadaiyo)

ومعناه « البحيرة الجميلة » ، أدخل على تلك الديانة الكثير مما أمدها بقوة جديدة ووضع تفسيرات جديدة ، وما زالت هذه الديانة التى دخل عليها الاصلاح باقية حتى الآن . والموضوعات الأساسية التى تتكرر فى طقوس هذه الديانة هى شكر الخالق وشكر الآلهة العديدين من آلهة الكواكب وآلهة الزراعة لما منحوه للناس من نعم وطلب بقاء تلك النعم بينهم الى الأبد . وفى صلواتهم التى يصلونها فى كل احتفال دينى على مدار السنة ، بل وفى كل اجتماع لهم ، يكررون هذه المعانى ، عندما يشكرون ويبتهلون الى « أمنا الأرض » و « أخينا الأكبر الشمس » وأهم من هؤلاء جميعا « الخالق » . وفى بعض الصلوات كانوا يعددون هذه النعم يبدأونها بتلك التى فى البحر والنعم القريبة من سطح الأرض ثم الشجيرات والأشجار ، والأشياء التى فى الهواء ثم ما فوقها .

ويعيش الايروكوى فى الوقت الحاضر فى ست مناطق محددة اقامتهم فى داخلها فى ولاية نيويورك واثنتين فى أونتاريو السفلى وواحدة فى كويبك وواحدة فى ويسكونسن وواحدة فى أوكلاهوما . وقد هاجر كثيرون منهم الى المدن وأصبح لأفراد قبيلة الموهوك شهرة خاصة فى اقبالهم على العمل فى العمارات التى تشيد من الصلب وترتفع كثيرا عن الأرض . ويذكرنا اقبالهم على هذا النوع من العمل الحديث بأمر ذكره أحد أوائل المؤرخين فى عصر الهجرة الأولى اذ لاحظ ذلك المؤرخ مع الدهشة الشديدة كيف كان الايروكوى يعملون وهم على ارتفاع كبير دون أن يعتريهم أى خوف ، كما لاحظ الاطمئنان الذى كان يبدو عليهم وهم يمشون فوق عروق سقف منزل أو مخزن يشيدونه .

وما زالت عصبة الايروكوى باقية حتى اليوم فى كل من كندا وولاية نيويورك ، وتعترف بها حكومة الولايات المتحدة ، وهى النظام السياسى الذى يسيرون عليه . أما فى كندا حيث أدخلت الحكومة اليهم نظام المجلس النيابى فلم يعد هناك محل للاعتراف بهم كممثلين لنظام سياسى ، ولهذا أصبحت

العصبة حركة سرية تعنى قبل كل شيء آخر بالأمور الدينية أكثر من عنايتها بالسياسة .

وقد لعب الايروكوى دورا هاما فى التاريخ الأمريكى . وبالرغم من أن أكثر الأمريكيين لا يعرفون الآن الا الشيء القليل عنهم فانهم ما زالوا يستخدمون الأسماء التى أطلقوها على البلاد والمدن والممالك . فكلمة «كندا» كلمة ايروكوية معناها « المحلة السكنية » وكلمة شنكتادى(Schenectady) معناها « فى الناحية الأخرى من الأشجار » ، وكان الايروكوى يطلقون هذا الاسم فى الواقع على مدينة البانى وليس على مدينة شنكتادى الحالية اذ كانت توجد فى العصور البعيدة غابة صنوبر كبيرة بين هاتين المدينتين . وهناك أسماء أخرى يعرفها كل من يقيم فى ولاية نيويورك مثل اسم مدينة « كاناچوهارى » (Canajoharie) ، ومعناها « حوض مغسول » وقد سميت بذلك نظرا لوجود دوامة بين الصخور ، واسم مدينة « سكانيتالس » (Skaneatales) ومعناها « البحيرة الطويلة » ، وتكفينا الآن هذه الأمثلة فكل من يطلع على خريطة الولاية يرى الكثير من تلك الأسماء .

٤ — أما منطقة الغابات الجنوبية الشرقية فانها تشمل جنوبى الولايات المتحدة من شاطىء المحيط الأطلسى حتى حافة السهول ما عدا قبيلة السمينول (Seminole) فى جنوبى فلوريدا الذين كانت لهم حضارة شاذة لن نتعرض للحديث عنها فى هذا الكتاب . وكثيرا ما يقلل الناس من شأن حضارة الجنوب الشرقى لأنها زالت فى وقت مبكر من العصر التاريخى ، ولكنها كانت على ما يرجح أغنى وأهم الحضارات التى كانت فى شمال المكسيك .

كان السكان القدماء فى هذه المنطقة من جامعى البذور ، وكانت وجبتهم الرئيسية المحتوية على البروتين هى المحار المعروف باسم بلح البحر(mussels) الذين كانوا يحصلون عليه من الأنهار ، وقد خلفوا وراءهم حيثما أقاموا أكواما من محار هذا السمك اللذيذ الطعم مما يدل على أنهم كانوا يعيشون

فى مكان واحد فترة طويلة من الزمن . وزرعوا تدريجيا بعض النباتات مثل سالف العروس (amaranth) واليقطين وعبـاد الشمس من أجـل الحصول على بذورها ، وكذلك نبات الدخان . وليست هذه النباتات من الحاصلات المرغوب فيها تجاريا ولكنها أفادتهم فى تعلمهم طرق الزراعة فلما أتت اليهم الذرة والفول والقرع العسلى من المكسيك حوالى بداية العصر المسيحى أقبلوا على زراعتها فى الحال وكان ذلك سببا فى زيادة عدد السكان وتقدم الحضارة ، وهما الأمران اللذان كانا يصاحبان انتشار زراعة هذه المحصولات .

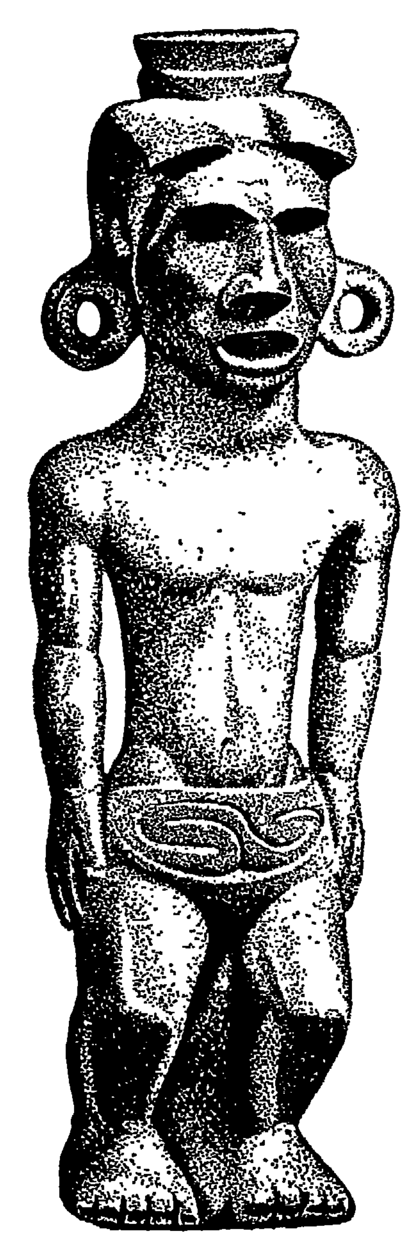
وما حل عام ١٣٠٠ ميلادية حتى كانت هذه المنطقة عامرة بعدد كبير من السكان المستقرين المتقدمين فى جميع الفنون . وكان يقوم أفراد هذه القبائل بنحت الحجر نحتا بالغ الدقة ، وكانوا يصنعون أنواعا كثيرة من الفخار وعليها زخارف ملونة كما صنعوا أيضا أدوات كثيرة من البرونز . وأهم من ذلك كله كانوا مزارعين ممتازين ، وقد ذكر الزوار المبكرون الذير زاروا تلك المنطقة وجود حقول مزروعة تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة .

وكان السكان يعيشون فى منازل من الخشب وملاط الجبس : يصنعون الهيكل من أخشاب السرو ويغطونها بخليط من الطين والطحلب الاسبانى ثم يرشونها بالجير ، وكثيرا ما استرعت قراهم أنظار من زاروهم فتحدثوا عنها لأن مثل هذه النظافة لم تكن من طابع القرى الهندية . كانوا يبنون مدنهم عادة حول ميدان متسع ، وفى أحد طرفى المدينة معبد ذو هرم ، وفى الطرف الآخر بناء مجلس المدينة . وكان الكهنة يقومون بعملهم بصفة مستمرة فى المعـابد ويحرصون على بقاء النار المقدسة مشتعلة ليلا ونهارا . وكان لقبيلة ناتشز (Natchez) فى المسيسبى كاهن — ملك من سـلالة اله الشمس ، وهـذا يذكرنا بالكهنة — الملوك فى مدنيات الدنيا القديمة فى بلاد الشرق الأدنى ، وهذه هى الحالة الوحيدة من هذا القبيل فى أمريكا الشمالية .

وكانت المعابد تشيد فوق مرتفعات كبيرة من التراب ، وهذا مستمد دون شك من الأهرام الطقسية فى المكسيك . كان هؤلاء النــاس يبنون جدرانا خارجية للأهرام ثم يملؤونها بعد ذلك ، كما كان يفعل المكسيكيون ، ولكنهم كانوا يستخدمون التراب أو الخشب بدلا من الحجر . وكانوا يجددون تلك الأكوام المرتفعة من آن لآخر باضافة طبقة جديدة ، وربما كرروا ذلك ســبع أو ثمانى مرات . وقد أقاموا الكوم المعروف باسم كوم « كهوكيا » (Cahokia) فى سانت لويس الشرقية ، وهو من أعظم الانشاءات البدائية فى العالم .

وحوت هذه الحضارة عقيدة ذات أهمية بشأن الموتى ، كما حوت أيضا شعائر دينية متقدمة تقوم بها الجماعة معا ، وكان أهمها احتفــال التطهير السنوى الذى كانوا يسمونه الـ « بسك » (busk) وكان يقام هذا الاحتفال عندما ينضج محصول الذرة ويصلح لأكله وهو فى أعواده . ففى هذا الوقت كانوا ينظفون جميع المساكن ويرشون جدرانها بالجير ، ويدفعون جميــع الديون ويطفئون النيران ثم يعيدون اشعالها من النار الخالدة فى المعبد . وكان كل شخص منهم يغتسل حسب طقوس معينة ثم يخرج بعد ذلك الى ميدان وهو يرتدى ملابس جديدة ليشترك فى الرقص .

وللتنظيم الاجتماعى والسياسى فى هذه المنطقة أهمية خاصة . فقد كانت المدينة هى الوحدة السياسية ، وفى داخل المدينة عشائر تســير على نظام الانتساب الى الأم وتعيش كل عشيرة فى حى خاص بها فى المدينة ، ولها مكانها المخصص لها فى الميدان عندما يجتمع أفراد القبيلة من أجــل الألعاب أو الاحتفالات . وكانت العشائر مقسمة الى مجموعتين « الحمر » و « البيض » ، وفى كل منهما كان لكل عشيرة مركزها الاجتماعى بالنسبة الى غيرها . كان زعيم الحرب من العشيرة التى تحتل المكانة الأولى فى الفريق الأحمر فى المدينة فى حين كان زعيم السلام من العشيرة التى تحتل المكانة الأولى فى الفريق الأبيض . ولم يقتصر عمل زعيم الحرب على قيادة المحاربين وتنظيم الدفاع ، بل كان من



مبسم لقصبة التدخين على هيئة انســـان ، من « هوبول »

اختصاصهم تنظيم جميع أنواع النشاط الجماعى مثل قطع الأشجار من الأرض واصلاح التحصينات (السور المصنوع من القوائم الخشبية والخندق) ، وما يحتاج اليه المعبد وبيت مجلس المدينة من تجديد . أما رئيس السلم فكان موكلا بأمور القضاء وهو الذى كان يحكم فى المخاصمات ويعمل على منع المنازعات ويرأس المجلس التشريعى المكون من رؤساء العشائر .

وكان يسود بينهم نظام أرستوقراطى اذ كانت للزعماء سلطة قوية ، وكانت أكثر القبائل استمساكا بهذا النظام قبيلة الناتشز (Natchez) التى كان لهـا نظام اجتماعى تنفرد به . كان يوجد فى هذه القبيلة جماعة أرستوقراطية قليلة العدد ينقسم نبلاؤها الى ثلاث طبقات ، ويأتى بعد ذلك العامة الكثيرو العدد الذين أطلق عليهم الفرنسيون اسم «ذو السمعة السيئة» . كان الأرستوقراطيون ينقسمون الى « الشموس » وهم الطبقة العليا ثم « النبلاء » ثم « الأشراف » . وكان يتحتم على كل فرد منهم سواء أكان ذكرا أم أنثى أن يتزوج من العامة . فاذا كانت المرأة من طبقة الشموس فان أبناءها يصبحون من طبقتها ، أما اذا كان الرجل من طبقة الشموس فان أبناءه ينزلون ويصبحون من طبقة النبلاء . ويتحتم على الابن أن يتزوج امرأة من طبقة الاشراف فينزل أبناؤه درجـة أخرى أى أن الجيل الثالث من فرع الذكور حتى ولو كان رئيس طبقـة الشموس نفسه يصبح من العـامة . وفى الوقت ذاته يستطيع أى فرد من العامة أن يصبح من الأشراف بل ومن النبلاء اذا قدم أبناءه قربانا ليضحى بهم عند موت أحد الأشراف .

واحتلت عادة تضحية الآدميين مكانا كبيرا فى هذه الحضارة كما انتشرت بينهم عادة تعذيب المسجونين . فاذا مات أحد الأفراد من طبقة النبلاء فان الزوجـة أو الزوج الذى من طبقة العـامة يقتل ويدفن مع النبيل ، وكانوا يحرصون كل الحرص على أن يتم هذا القتل دون أن يتألم الشخص المقتول وذلك باعطائه ثلاث كرات صغيرة من الدخان معجونة بمخـدر ليبتلعها ثم يخنقوه بعد ذلك .

وأهم المظاهر السياسية فى هذه المنطقة هى التحالف الذى كان بين القبائل فان جميع ما كان يطلق عليه اسم القبائل فى المنطقة الجنوبية الشرقية فى أمريكا الشمالية كان فى الحقيقة مدنا مرتبطة ببعضها برابطة التحالف ، ولم يكن تنظيم هذه المحالفات الا امتدادا مباشرا للتنظيم السياسى لكل من تلك المدن . وكانت هذه المدن المتحالفة تنقسم الى فريقين فريق الحمر وفريق البيض ، وكان يتحتم على كل مدينة بأكملها أن تكون تابعة لأحد الفريقين . وكان مجلس القبيلة مكونا من زعماء المدن ، وكان على رأس كل قبيلة زعيم للحرب من احدى المدن الحمراء وزعيم للسلم من احدى المدن البيضاء .

وكانت المسابقات فى الألعاب هى مظهر التنافس بين المدن ، وبخاصة فى نوع من لعبة « اللاكروس » يلعبونها بعصوين وكرة مخيطة من الجلد . ويلوح أن تلك التحالفات الأمريكية قد أدركت أنه لا يكفى وضع القوانين لفض المنازعات بين أعضائها ، فان أولئك الأعضاء كانوا فى حاجة الى فرصة لوضع حد لعداواتهم وذلك بعمل شىء لا ينتج عنه ضرر أو أذى . وتكاد تتشابه الصلة فى توزيع التحالفات فى أمريكا وبين ألعاب الكرة المنظمة بين الهيئات المختلفة . وسواء أكانت ألعابهم من أنواع لعبة اللاكروس التى كانت تلعبها قبائل شرقى الولايات المتحدة أم أنهم كانوا يلعبون لعبات الكرة الأخرى الشبيهة بلعبة كرة السلة التى كانوا يلعبونها فى الاحتفالات الدينية فى أمريكا الوسطى فان كلا النوعين متشابه فى كثير من مظاهره . وعند عمل الترتيبات للألعاب كان كل فريق من المتنافسين يلجأ الى السحر ، وكان فى الغالب نفس السحر الذى كانوا يفعلونه لكسب الحرب فيما مضى .

وكانت القرية التى تفوز فى النهاية فى هذه الألعاب تحقق أرباحا كثيرة نتيجة للمراهنات التى كان يراهن بها سكان كل بلد على فريقه أو من جراء حقوقهم الرسمية فى النهب . ويستطيع الانسان أن يقول ان كل مدينة فى منطقة الجنوب الشرقى كانت تتنافس مع كل مدينة أخرى فى لعبة اللاكروس . وكانوا

يبدأون اللعب فى كل مباراة مع أى مدينة أخرى بالشعائر التى كانت تسبق خروج الجماعات المحاربة الى القتال . فاذا تمكنت احدى المدن من قهر مدينة أخرى أربع مرات متوالية أصبح لزاما على المدينة المقهورة أن تنتقل الى الفريق الذى تنتمى اليه المدينة الفائزة فاذا كانت المدينة المقهورة من فريق المدن البيضاء أصبحت من فريق المدن الحمراء .

وبدأت حضارة المنطقة الجنوبية الشرقية فى الضعف والانحلال حوالى الوقت الذى وصلت فيه بعثة « دى سوتو » (De Soto) الى القارة الأمريكية فى عام ١٥٤٠ . ومن المحتمل أن الأمراض الجديدة التى جلبها البيض انتشرت فى القرى الهنديه انتشارا وبائيا ، وعندما بدأ البيض يتسللون الى المنطقة حاول الهنود أن يعيشوا كمزارعين بين جيرانهم البيض . وعلى أى حال فان أراضيهم كانت على حالة كبيرة من الرخاء . وعندما كشفوا وجود الذهب فى جورجيا عام ١٨٣٩ انتهى أمر قبائل المنطقة الجنوبية اذ حدث اذ ذاك ذلك الاقبال الجنونى على استخراج الذهب فقام البيض بجمع جميع الذهب وبعثوا بالهنود الى أوكلاهوما ضاربين بجميع ما كان بينهم من معاهدات عرض الحائط . واتضح فيما بعد أن رواسب الذهب قليلة وغير مربحة ، ولكن فى الوقت الذى أيقن فيه البيض من ذلك لم يعد للقرى الهندية وجود فى المنطقة الجنوبية الشرقية .

٥ — امتدت منطقة السهول العظيمة من الغابات الى جبال روكى وجنوبا الى حدود المكسيك وشمالا الى الغابات شبه القطبية والى الأرض القاحلة (Barren Ground) . كانت هـذه المنطقـة فى العصـور المبكرة مركز صيد الحيوانات الكبيرة ومركز حضارة الفولسوم — يومان . وحدث فيما بعد أن السكان الذين كانوا يعيشون قريبا من الحدود فى داخل منطقة الجنوب الشرقى أخذوا يتنقلون الى منطقة السهول متخذين طريقهم على امتداد وديان الأنهار . وأدخل أولئك المهاجرون الزراعة الى تلك الجهات ، وبالرغم من أن جميع

الصيادين لم يتحولوا الى الزراعة فقد أصبحوا يعتمدون عليها . كان الصيادون يتجولون فى المناطق المرتفعة فى منطقة السهول خلال فصل الصيف باحثين عن حيوانات الصيد ثم يعودون فى الشتاء الى قراهم وزراعتهم التى على وديان الأنهار ، أو يذهبون جنوبا الى المكسيك ليعيشوا مع قبائل الـ « پيوبلو » (Puebelos) الشرقية .

وعلى طول مجرى الميسورى سادت علاقة تدعو الى الدهشة بين القبائل التى تمارس الصيد وبين السكان المزارعين . فبالرغم من أن الفريقين كانا فى العادة فى حالة حرب مستمرة فقد كانوا متفقين على عمل هدنة عندما يزهر نبات العود الذهبى . وفى هذه الهدنة يستطيع الصيادون أن يأتوا الى قرى المزارعين كما يشاؤون ، ومعهم الجلود واللحوم المجففة ويأخذون منهم الذرة بدلا عنها . وفى ذلك الوقت يجلس الأعداء مع بعضهم البعض وكل منهم يتباهى بمعاركه ويحصى مغانمه ، ولكن عندما يحين وقت تحول هذا النبات الى بذور يأخذ الصيادون ما حصلوا عليه بطريق التجارة ويعودون الى التلال ، ومنذ هـذا اليوم حتى يحين الموسم التالى ويزهر نبات العود الذهبى يقتل كل من الفريقين من تقع عليه عينه من أفراد الفريق الآخر .

وكان يعيش سكان وديان الأنهار فى قرى تحيط بها حقول الذرة وتحصنها الخنادق والأسوار المقامة من أعواد الخشب . وكانوا يبنون منازل كبيرة من الطين تعيش فى كل منها بصفة دائمة احدى العائلات ، وكانت منازل المندن (Mandan) والهيداتسا (Hidatsa) تبلغ ثمانين قدما فى طولها وثلاثين قدما فى ارتفاعها فى أعلى نقطة فيها وهو المكان الذى يخرج منه دخان الموقد الذى فى وسط المنزل . وكان سكان تلك القرى يقضون معظم وقتهم فى قراهم ولكنهم كانوا يذهبون الى السهول للقيام ببعض الصيد فى فصلى الربيع والخريف ، وكانوا يستخدمون فى مثل هذه الرحلات مهمات خفيفة ويعسكرون فى خيام من الجلد ذات شكل مخروطى ويستخدمون لنقل أمتعتهم عربة خشنة الصنع

يسمونها « الناقلة الشبكية » ، تجرها الكلاب وكانت مكونة من عمودين يربطون اليهما الكلاب ويضعون السيور حول رقابها وبطونها ، وفى وسط العمودين شبكة يضعون فوقها أمتعتهم ، أما الأشياء التى لم يكن فى الاستطاعة وضعها فوق الناقلة فكان حملها من نصيب النساء .

وعندما عرفوا الجواد تغيرت الأوضاع فى منطقة السهول تغيرا سريعا اذ أن هذه المنطقة من المناطق التى على الحدود ، وسكانها خليط من سكان المنطقة الزراعية التى فى الشرق ، وقليل من القبائل الرحل التى تعيش على الصيد . كان الحصان حيوانا جديدا على أمريكا لأن الحصان الأمريكى الأصلى كان قد انقرض مع الماموث والرسيف . وأول الجياد التى وصلت الى هذه القارة هى الجياد التى أحضرها « كورتيز » (Cortez) الذى وصلت سفنه الى « تباسكو » (Tabasco) فى عام ١٥١٩ ، وكان معه فى رحلته الأولى ثمانية عشر جوادا ، ولكن هذه الجياد لم يكتب لها البقاء واذا كان قد بقى واحد منها حيا بعد المعارك التى خاضها كورتيز ومن معه فان الاسپانيين الجياع قد ذبحوه ليأكلوه .

وأحضر كورتيز فى رحلته الثانية ما يقرب من ألف جواد ، كما أحضر « دى سوتو » عندما رسا على شاطىء فلوريدا فى عام ١٥٣٩ نحو مائة منها .

وفى منتصف القرن السابع عشر كانت الخيول البرية تمرح فى السهول ، وكانت هذه الخيول على الأرجح من الخيول التى هربت من الاسپان الذين كانوا فى الجنوب الغربى من القارة . وكانت منطقة السهول مراعى مثالية فأخذت هذه الخيول تتزايد بسرعة كبيرة . وأقبل الهنود اقبالا شديدا على الامساك بها أو سرقتها من بعضهم البعض ، وأصبح ذلك بمثابة الرياضة الرئيسية بينهم ، وما وافى منتصف القرن الثامن عشر حتى كان كل هندى فى منطقة السهول يمتلك جوادا يركبه . وللمرة الأولى فى حياتهم أصبح ميسورا للهنود ، بفضل وجود الخيل ، استثمار قطعان الثيران استثمارا حقيقيا .

وأصبحت منطقة السهول كعبة تقصدها القبائل الهندية من جميع النواحى ، لأن وجود كميات لا حصر لها من الطعام وهى الثيران ، كما أن وجود الخيل التى يستطيعون بوساطتها سرعة الانتقال والصيد ساعد كثيرا على اقبال الناس على حياة البدو الرحل . فان السكان الذين كانوا يعيشون فى وديان الأنهار فى قرى مستقرة وجدوا أن قيامهم بحملات للصيد أكثر مكسبا لهم وأكثر متعة من عزقهم للأرض لزراعة الذرة ، ولهذا السبب أخذت الزراعة تضمحل ويقل شأنها .

وتحولت معدات الانتقال الخفيفة التى كانت تعتمد على نقلها بنقالات تجرها الكلاب الى معدات أكبر حجما وأثقل وزنا وكانت أشبه شىء بالمعدات اللازمة فى الحروب . أصبحت الخيام أكثر اتساعا ، وأكثر راحة لساكنيها ، وكان هيكل الخيمة مكونا من أربعة أعمدة رئيسية ونحو عشرين عمودا أصغر منها توضع حول الأعمدة الكبيرة على شكل دائرة،ويضعون فوق تلك الأعمدة سقفا مشدودة من جلود الثيران بعد اعدادها لذلك . وكانت هذه الخيام ذات بياض ناصع ومزخرفة بالألوان وريش الطيور ، وفى كل خيمة منها يستطيع عشرون صيادا أن يناموا فوق معاطفهم المصنوعة من الفراء حول موقد النار الذى فى وسط الخيمة ويعلقوا ملابسهم وأسلحتهم فى أعمدة الخيمة .

ويعتقد الناس أن حياة البدو الرحل حياة عرضية وغير منظمة ، ولكن كل الجماعات الهندية التى كانت تعيش فى السهول كانت تسير فى نظام ودقة كأى فرقة من فرق الخيالة فى جيش الولايات المتحدة . وكانت لهم طريقة خاصة ذات نظام دقيق فى أسفارهم ، فالنساء والأطفال والحيوانات التى تحمل الأمتعة فوق ظهورها كانت توضع فى الوسط ، يتقدمها ويمشى وراءها الرجال المسنون لحراستها ، أما الشبان فكانوا يمتطون خيولهم ويسيرون حولهم يتقدمهم كشافة منهم ليكونوا درعا تقيهم من هجوم العدو .

وكانت العناية بالرحلة أثناء السفر واقامة المعسكر من نصيب النساء ،

وكانت النساء تضع فوق ظهر كل جواد من خيول الأمتعة والمهمات أشـياء خاصة معروفة فاذا احتاج أحد المسافرين الى مخراز أو الى زوج من الموكاسين (نوع من الأحذية) أثناء السفر فان النساء يعرفن كيف يجدن ذلك فى الحال . فاذا ما وصلت الجماعة الى مكان المعسكر الذى تختاره الكشافة فان زعيم الجماعة يتقدم الى المكان الذى اختاره لاقامة خيمته ، وعند ذلك تنصب كل عائلة خيمتها فى مكان خاص معروف بالنسبة لموقع خيمة الزعيم ، كما لو كانوا فرقة حربية تقيم معسكرها . وكان معسكر هنود السهول أشبه شىء بقرية تتحرك بأكملها ثم تضع رحالها بعد عشرين أو ثلاثين ميلا على نفس الصورة التى كانت عليها . وكانت النساء تتعاون معا على اقامة الخيام المخروطية وفى انزال الأحمال من فوق ظهور الخيول ، وفى أقل من ساعة بعد اللحظة التى يقف فيها الزعيم بعد اختيار موقع خيمته يكون المعسكر كله قد تمت اقامته وبدأت النسوة فى اشعال النيران لإعداد الأكل .

ونظرا لعدم وجود أى حدود طبيعية فى منطقة السهول فان القبائل كانت دائمة النزاع فيما بينها ، خصوصا وأن الخيول كانت تغرى دائما بالاستيلاء عليها لأن الجواد يصلح لمساعدة سارقه على الهرب اذ يمتطيه ويسرع به بعيدا ، ولهذا أصبحت الحروب وسرقة الخيول هى الشاغل الأكبر لسكان منطقة السهول . وربما كان سكان السهول من الهنود أعظم من رأتهم الدنيـا من المحاربين ، وكان الرجال ينظمون أنفسهم فى جمعيات أشبه بالجمعيات الأخوية تتنافس فيما بينها من أجل الحصول على أمجاد الحرب ، كما كانت تتنافس أيضا فيما بينها فى سرقة الزوجات وهى احدى العادات التى كانت سائدة بين سكان السهول .

والى جانب حبهم لأمجاد الحرب ، كانت تتملكهم رغبة شديدة فى الحصول على معونة القوى التى تفوق قوى الطبيعة ، اذ أن هذه المنطقة كانت أصلح

المناطق للباحثين عن الوحى والرؤيا . كانت الأرواح تظهر للناس فى الحلم أو فى هيئة وحى وتمدهم بنصائحها عن الحرب وعن الصيد .

ولم يكن المراهقون وحدهم هم الذين يصومون من أجل ظهور الوحى لهم بل كان المحاربون الذين يشعرون بأن قواهم بدأت تضعف يفعلون ذلك أيضا ، اذ كانوا يصومون ويلجأون الى بعض الأساليب الماسوشية (نوع من الانحراف الجنسى يتلخص فى الحصول على اللذة الجنسية عن طريق تعذيب شخص آخر له) ليستدروا بذلك عطف القوى التى فوق القوى الطبيعية فتساعدهم .

وكانت قبائل الشوشون (Shoshon) فى الجنوب تذهب الى تلك الكائنات وتطلب منها أن تمدها ببعض القوى اذا وجدت أنها أهل للحصول عليها . وكان الشبان يطلبون الحصول على هذه القوى لتعينهم قبل كل شىء آخر على الفوز فى الحروب . ولم يكن للمتقدمين فى السن مكان فى حضارة منطقة السهول ، فالمثل الأعلى للرجل هو أن يكون محاربا عظيما ، وأن يسرق مئات الخيول وأن تكون له زوجات كثيرات ثم يموت وهو فى عنفوان قوته . فالرجال الطيبون الذين يقضى عليهم سوء الحظ أن يعيشوا حتى يصبحوا من العجائز يتركون ما اعتادوا عليه فى أيامهم الخالية ويعيشون وادعين مسالمين ، أما الأشرار الذين لا يسمح لهم تقدمهم الكبير فى العمر بمصاحبة الذين يخرجون الى الحرب فانهم يتحولون الى السحر ويصبحون سحرة .

وأهم شىء فى الحياة الدينية لسكان السهول هو احتفال واحد كبير يقام مرة فى كل سنة ويسمونه « رقصة الشمس » ، وفى هذه المناسبة تتجمع القبائل كلها ، وتحضر كل قبيلة معها ما يكفيها من الأطعمة وتعسكر كل منها فى مكان مخصص لها ، فتصبح القبائل كلها فى دائرة كبيرة قطرها ميل تقريبا . وكانوا يبنون لهذه المناسبة بيتا كبيرا من الطين شبيها بالبيوت التى كانوا يعيشون فيها قبل حياة البداوة التى أصبحوا عليها . وكانوا يقيمون مذبحا يرقصون حوله ، اذ كان الراقصون ينشدون الحصول على القوة برقصهم رقصا مستمرا

مدة طويلة وبتعذيب أنفسهم . وكان الهدف من ذلك الرقص هو ايصال الشخص الى حالة تنويم مغناطيسى يسمع فيها أصواتا ويرى الوحى .

وكان هؤلاء المحاربون الذين يعيشون فى منطقة السهول يمتطون صهوة الجياد ويلبسون قلانس من الريش ، وهم الهنود الذين كانوا يهاجمون قوافل العربات والذين خلد اسمهم فى قصص الأطفال وفى الروايات السينمائية الأمريكية . كان هؤلاء الهنود آخر السكان الأصليين القدماء الذين هزمهم البيض المستعمرون وأخضعوهم لسيطرتهم ، ولكن لم يتمكن البيض من ذلك الا بعد أن كلفوا فرق الفرسان فى جيش الولايات المتحدة ثمنا باهظا .

٦ — تمتد هضبة جبال روكى من أوتاه (Utah) وكولورادو (Colorado) شمالا حتى حدود كندا تقريبا ، وفى هذه المنطقة عاشت قبائل من الهنود لها حضارة من أبسط الحضارات فى أمريكا الشمالية ، وهى مستمدة مباشرة من أصل الحضارة القديمة التى كانت تعتمد على جمع البذور . لم يكن لأولئك الناس بيوت دائمة ، وكانت منازلهم تتكون من هيكل خشبى بسيط المظهر وجوانبه من الحشائش وأغصان الأشجار . ولم يعرفوا صناعة الفخار ولكنهم كانوا يصنعون سلالا دقيقة الصنع يستخدمونها فى كل ما يحتاجون اليه فى تخزين الأشياء ، وفى حمل البذور ، وفى غربلتها ، وفى الطبخ بطريقة الأحجار الساخنة (اسقاط أحجار ساخنة فى اناء مملوء بالماء) . وكانوا يطحنون الحبوب فوق مطحنة من الحجر الصابونى ، ولم يلبسوا من الملابس الا أقلها ، وكان هذا القليل مصنوعا من قلف الأشجار . وكانوا يمشون حفاة الأقدام طيلة أيام السنة ، ولكن فى أيام الشتاء كان الرجال يلفون حول سيقانهم أشرطة من الفرو بينما اكتفت النساء بلف القنب حول سيقانهن .

وكانت الوحدة الاجتماعية بين تلك القبائل هى العائلة الممتدة ، ولكنا نجهل الكثير من التفاصيل ، وعلى أى حال ، فانها كانت تتكون عادة من زوج وزوجة متقدمين فى العمر ومعهما أولادهما البالغون وعائلاتهم . ولم يتبعوا

نظما خاصة دقيقة فى الاقامة بعد الزواج ، فان الشاب والفتاة اللذين يتزوجان كانا يذهبان الى الاقامة مع والدى الزوج أو والدى الزوجة على حد سواء ، وكان الأمر الذى يرجح تلك الاقامة هو وجود الكمية الكافية من الطعــام فى المنطقة التى يختارانها . ولم يكن لهم زعماء أو تنظيم سياسى معروف . واذا كانت هناك أى سلطة لانسان فانها كانت سلطة المتقدمين فى السن وسلطة المطببين الذين كان يقتصر عملهم على شفاء الناس من الأمراض ، وامتازت عقيدتهم الدينية بما فيها من بحث عن الوحى والخوف الشديد من الأشباح .

٧ — وتشمل المنطقة الجنوبية الغربية من ولايتى نيومكسيكو والأريزونا وتمتد شمالا فتشمل أجزاء من ولايتى كولورادو وأوتاه ، وكانت تختلف عن منطقة جبال روكى بحضارتها الأكثر تقدما أكثر من اختلافها عنها فى المناخ . وقد قام كثير من العلماء بعمل البحوث الأثرية فيها ، ولهذا فهى معروفة لنا ومدروسة من الناحية الأثرية أكثر من غيرها من المناطق فى الولايات المتحدة ، وذلك لأن الجو الجاف ساعد على الاحتفاظ بالمواد الهشة التى كانت تتعرض حتما للفناء والدمار فى المناطق الحضارية الأخرى ، كما ساعدت طريقة التأريخ عن طريق حلقات الشجر فى معرفة تواريخ دقيقة أكثر من أى جهة أخرى ، وربما كانت كل هذه البحوث هى السبب فى اعتقاد الكثيرين فى تقدم وغنى تلك الحضارة ولكن هذا الاعتقاد فيه شىء من المبالغة أكثر مما تستحقه فى حقيقة الأمــر .

كان السكان الأوائل فى منطقة الجنــوب الغــربى من جامعى البذور وصائدى الحيوانات الصغيرة ، وقد تسلل اليهم فى الجزء الشرقى من منطقتهم بعض السكان من حضارة الفولسوم — يومان . وقد انقسم سكان المنطقة منذ عصر بعيد الى قسمين مختلفين فى تطورهما ، فالذين كانوا يسكنون فى الجزء الشرقى منها كانوا من صانعى السلال الذين كونوا الحضارة المعروفة باسم حضـــارة الـ « أنازاسى » (Anazasi) أما فى الغــرب فكانت تعيش القبائل

المعروفة باسم « كوشيز » (Cochise) الذين أصبحوا يسمون فيما بعد ال « موجولّون » (Mogollon) وال « هوهوكام » (Hohokam)



اناء من الفخار من صناعة قبائل الپيوبلو — من ولاية نيومكسيكو

وأقدم ما عرف حتى الآن من قرى حضارة صانعي السلال يرجع تاريخه الى عام ٢٠٠ ميلادية . ولم يكن لديهم فخار ، ولكنهم صنعوا سلالا فاخرة من النوع المجدول ، كما عرفوا أيضا نسيج خيوط القنب على سداة معلقة ولكنهم لم يعرفوا النول . ومن دراسة بقايا محلاتهم السكنية يمكن القول انهم كانوا يعيشون فى أكواخ مصنوعة من غصون الأشجار كما كان يعيش سكان الهضبة فى العصور التاريخية . ولم يعرفوا القوس ولكنهم استخدموا الحربة ذات القاذفة ، كما فعل أسلافهم منذ ألف سنة .

وحوالى عام ٧٠٠ ميلادية عرفوا زراعة البقول فى منطقة الجنوب الغربى وكان لذلك أكبر الأثر فى تنشيط حضارتهم . كانت الذرة والقرع العسلى معروفين لهم منذ وقت بعيد ، وكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على البروتين اللازم لوجبات طعامهم من صيد الحيوانات البرية التى كانت متوافرة فى منطقتهم . فلما زرعوا البقول وأمدتهم بكمية كافية من الغذاء البروتينى بدأت حياتهم تتجه اتجاها جديدا . وفى المائتى السنة التى أعقبت ذلك تطورت حضارة هذه المنطقة الجنوبية الغربية تطورا سريعا . ففى عام ٧٠٠ ميلادية كانوا قوما بسطاء من سكان القرى يعيشون فى مساكن محفور أكثرها تحت مستوى سطح الأرض أو فى كهوف ، ولم يمارسوا الزراعة الا بقدر محدود ، ولم يكن لديهم الا القليل من المعدات ، ولكن بعد مرور مائتى سنة كانوا يعيشون فى منازل ثابتة فوق سطح الأرض ومشيدة من الخشب والطوب . وحلت القوس والسهم مكان الأتلتل (القاذفة) ، وتقدموا فى جميع الفنون ومهروا فيها وعلى الأخص فى صناعة الفخار وفى النسيج ، فانتشروا وزادوا من رقعة منطقتهم ، وكانوا يذهبون من أجل التجارة الى مسافات بعيدة .

وبلغت حضارة الأنازاسى ذروتها بين عامى ١٠٥٠ ، ١٣٠٠ ميلادية وهو الوقت الذى شيدوا فيه المبانى الجماعية ومساكنهم المنحوتة فى الصخر . وأحد تلك المبانى الجماعية المبنى المسمى « بيوبلو بونيتو (Pueblo Bonito) الذى بدأوا فى تشييده عام ٩١٩ ولكنهم لم ينتهوا منه الا فى عام ١٠٧٦ أو بعد ذلك . كان هذا المبنى مشيدا فوق مساحة قدرها ثلاثة أفدنة ، ويمكن أن يعيش فيه ١٢٠٠ شخص . كان أمثال هذا ال « بيوبلو » يشيد حول ميدان فسيح يتوسط المبانى وكانت أسواره الخارجية رأسية ولا نوافذ فيها ، وكانت لهم بمثابة حصن يصعب التغلب عليه ويستطيع أن يصد هجوم أى عدو لا تكون معه آلات الحصار . وكان المبنى الرئيسى مشيدا فى ثلاث جهات من ذلك الميدان الفسيح ، وكانت مبانيه ترتفع على هيئة مدرجات اذ كانت

المبانى التى فى الصف الأمامى مشيدة من طابق واحد وكانت المبانى التى فى آخر الصفوف الخلفية ذات أربعة طوابق . وكانوا يعيشون فى الحجرات الأمامية من المساكن ، أما الحجرات الداخلية التى لا يصل اليها الضوء ، فقد استخدموها لتخزين ما لديهم .

وفى وسط الميدان شيدوا عددا من الـ « كيڤا » (Kiva) ، وهى مبان تحت مستوى الأرض شبيهة بمساكنهم التى كانوا يعيشون فيها فيما مضى من عصور ، ولكنهم لم يسكنوها بل استخدموها فى الاحتفالات الدينية ، ونواد يجتمع فيها الرجال . وتتمسك الديانة دائما بالتقاليد القديمة فلهذا احتفظوا بطابع منازلهم التى كان الجزء الأكبر منها تحت مستوى سطح الأرض واستخدموه ليكون « كيڤا » لهم بعد أن تركوه كمسكن يعيشون فيه . أما مساكنهم المنحوتة فى الصخر فقد كانت فى حقيقة الأمر قرى منحوتة فى الأماكن العلوية من صخور الجبل على هيئة كهوف تحميها كتل الحجر الرملى التى فوقها ، وكان كل كهف منها صالحا كل الصلاحية كمكان يحمى من فيه ضد هجوم العدو . ويحتوى « قصر الصخر » فى الجهة المعروفة باسم « ميزاڤردى » (Mesa Verde) على مائتى حجرة و ٢٣ كيڤا (Navajo).

وكان للحياة الجماعية أثر كبير على البيوبلو . فقد كان يتحتم على أى جماعة عائلية صغيرة أن تصنع لنفسها كل ما تكون فى حاجة اليه ، ولكن لم تلبث هذه البيوت حتى أخذت تميل الى التخصص . فالشخص الذى تظهر براعته فى حرفة من الحرف يركز جهوده فيها ، ويحاول أن يثبت نبوغه ومهارته باختراع أشكال جديدة ، وكان يتبادل ما ينتجه مع غيره من المتخصصين . وفى هذا الوقت أيضا بدأ تطور الحياة الدينية التى أصبحت فيما بعد الظاهرة الكبرى فى حضارة الجنوب الغربى . فقد زادوا فى حجم الكيڤا وكسوا جدرانها بالحجر وزخرفوها بالصور الدينية ، وأخذوا يزيدون من فخامة الاحتفالات الدينية مع مرور الزمن .

وربما كان التدهور الذى أصاب تلك الحضارة فى أيام ازدهارها يرجع الى عاملين هما الجفاف وانهاك التربة . فمن المعروف أن فترة جفاف مرت على تلك المنطقة بين عامى ١٢٧٦ و ١٢٩٩ . كما أن التربة الصحراوية مهما كانت غنية فهى معرضة للانهاك ، وقد ظلت حقول تلك الجهات تنتج الحاصلات مدة طويلة جعلت الناس يستقرون استقرارا تاما ، خصوصا بعد أن شيدوا تلك المبانى الفخمة . فتوقفوا عن التحرك من مكان الى آخر وظلوا الى جانب حقولهم مدة طويلة بعد أن بدأت تضعف تربتها . وعلى أى حال فان هذه الحضارة انهارت بعد عام ١٣٠٠ وهجر الناس بيوتهم المقطوعة فى الصخر ومساكنهم الجماعية الكبيرة واضطر من بقى منهم الى الرحيل نحو الجنوب .

ومن المحتمل أيضا أن يكون وصـــول أجداد الهنود من قبال النڤاچو (Novajo) هو الذى جعلهم يسرعون بترك المنطقة . كان أولئك القادمون الجدد يتكلمون لغة النادين (Nadene) ، وقد شقوا طريقهم الى هـــذه المنطقة من الشمال . وتتكلم قبائل البيوبلو فى الوقت الحاضر لغات متعددة تنتمى الى أصول لغوية مختلفة مما يدل على حدوث غزوات متكررة لهذه المنطقة ، وان الذين قاموا بها كانوا من القبائل الصغيرة التى تعيش فى جهات نائية ، وما لبثوا حتى تطبعوا بطباع أهل المنطقة الذين امتصوهم . وتقهقر البيولو الى المنطقة التى ما زالوا يقيمون فيها حتى الآن ، اذ تعيش منهم قبيلتا « الهوپى » (Hopi) و « الزونى » (Zuni) فى الغرب ، وينتشرون فى الشرق على طول مجرى الريو جراندى (Rio Grande) .

وكان للبيوبلو تنظيم عشائرى قوى وكانت عادة الانتساب لفرع الأم سائدة بينهم . كان لكل عشيرة حيها الخاص بها فى القرية ، ولها أيضا الكيڤا الخاص بها ولكن السلطة السياسية كانت مركزة بين أيدى المتقدمين فى العمر . ولديهم وظيفتان رئيسيتان احداهما يشغلها زعيم الحرب الذى كان ينظم أمور الفرق التى تخرج للحرب ، وينظم أيضا وجوه نشاط الشبان ، أما الوظيفة

الأخـــرى فهى وظيفة الكاسيك (Cacique) ، (وهو اصطلاح مستعار من الاسبانية) . وفى الوقت الحاضر يقوم زعيم الحرب بالاشراف على الشئون العملية كاصلاح المبانى العمومية وتنظيم الاحتفالات . أما الكاسيك فان شدة قداسته تحتم عليه أن يبقى بعيدا عن السلطة بعدا تاما .

وللمطر والحاصلات المركز الأول فى تلك الديانة وحولهما تدور حياتهم الدينية . وأهم معبودين لديهم هما الشمس وعرائس الذرة والى جانبهما عدد لا يحصى من المعبودات الأقل أهمية تمثل طبقات من الكائنات ولا تمثل كائنا واحدا معينا . ويرتدى الراقصون أثناء القيام بالشعائر الدينية أقنعة تمثل هذه الأرواح ويسمونها الكاشينات (Kachinas) ويصنعون دمى من هذه الكاشينات ليلعب بها الأطفال ويقصدون من ذلك تعليم الأطفال خصائص ومميزات هذه الأرواح المختلفة .

وقسموا السنة الى فصلين ، فصل الشتاء الذى كانوا يعتقدون أن الآلهة تقيم أثناءه فى البيوبلو ، وفصل الصيف الذى كانت الآلهة تذهب أثنـــاء شهوره الى الجبال . وفى وقت تغير الفصلين ، أى فى وقت الخريف ، كانوا يحتفلون بعودة الآلهة من الجبال احتفالا كبيرا ، وكان سكان القرية يلبسون ملابس تمثل الآلهة ويدخلون الى القرية وهم يرقصون ، وبعد ذلك يدخلون الى الكيڤات . وبعد فترة من الزمن يخرجون منها وقد ارتدوا ملابسهم العادية دلالة على أن الآلهة بقوا فى الكيڤا . وكانوا يقضون الشتاء كله فى سلسلة من الاحتفالات كانت فيها الآلهة تنتقل من كيڤا الى أخرى .

وكان النڤاچو يتكلمون اللغة النادينية ، وكانوا يعيشون فى الأصل فى هضبة جبال روكى كبدو رحل يمارسون الصيد ، وبين عامى ١٢٠٠ و ١٣٠٠ بدأوا يسيرون نحو الجنوب بعد أن اجتذبهم رخاء منطقة البيوبلو وتقدم حضارتها ، فاستقروا فى جنوبى كولورادو وفى نيومكسيكو الشمالية وتعلموا من جيرانهم معظم فنونهم سواء فى الزراعة أو فى صناعة الفخار أو فى النسيج

كما استعاروا منهم أيضا الكثير من مظاهر الاحتفالات الدينية . ومع ذلك فانهم آثروا أن يعيشوا فى منازل خاصة ولم يشيدوا على الاطلاق تلك المبانى العامة التى كانت سائدة بين الپيوبلو . وبعد أن أدخل الاسپان تربية الأغنام الى تلك المنطقة مالوا ميلا شديدا الى حياة رعى الأغنام وما زالوا كذلك حتى الآن . ولم يتحمس النڤاچو للزراعة ، والكلمة النڤاچية للذرة معناها الحرفى « طعام الأعداء » مما يدل على أنهم عرفوها للمرة الأولى من الپيوبلو الذين كانوا يحاربونهم . زد على ذلك أنهم عندما استولوا على الأراضى كانت هذه الأرض منهوكة التربة فلم يزرعوا أكثر من مساحات صغيرة حول قراهم .

وفى خلال الفترة التى احتل فيها الاسپان المنطقة الجنوبية الغربية أى منذ منتصف القرن السابع عشر حتى الحرب المكسيكية كانت قبائل النڤاچو مصدر متاعب لقبائل الپيوبلو الذين يعيشون الى الجنوب منهم ، اذ أن الپيوبلو لم يكونوا محاربين قديرين مثلهم ، ولهذا كانوا يغيرون عليهم فى أيام الحصاد وكانوا يستولون على قطعانهم بل وكانوا يخطفون نساءهم . وقد جعلتهم هذه الأعمال التخريبية يصطدمون اصطداما قاسيا بالقوات الأمريكية بعد حرب المكسيك . وفى عام ١٨٦٣ غزا الكولونيل « كيت كارسون » ("Kit" Carson) منطقتهم وأتم اخضاعهم بعد قتل عدد كبير جدا من أغنامهم ، جعلهم يفقدون مصدر طعامهم ، ثم جمع النڤاچو وأخذهم الى الأسر حتى عام ١٨٦٧ .

ولما كان النڤاچو قوما واقعيين مثل معظم شعب النادين فانهم استقروا بعد هزيمتهم يرعون أغنامهم وتقدموا فى فنونهم وحرفهم . فتقدموا كثيرا فى صناعة الأغطية وأوصلوه الى فن على درجة كبيرة من الجمال ، كما تقدموا فى صناعة الفضة التى تعلموها من الأسرى الاسپان . وكان لانتهاء الحروب وانماء مواردهم من رعى الأغنام وما تدره عليهم صناعة الأغطية والفضة من أموال سببا فى وجود كثير من أوقات الفراغ لدى النڤاچو ملأوه باقبالهم على الاحتفالات الدينية . ولم تكن تلك الاحتفالات تقام من أجل الاحتفاء

بالمحصولات كما كان يفعل البيوبلو ، بل كان يقصـــد منها شـــفاء المرضى فأصبحوا مع مرور الزمن جماعة ممن تتملكهم وساوس الأمراض . فاذا أحس شخص من النڤاچو بالمرض فان أقاربه كلهم يهبّون للحصول له على شفاء سحرى . وللحصول على الشفاء كان المطبب يرسم على الأرض بوساطة رمل ملون ينزل من بين يديه رسما منمقا ، وكانت هذه الرسوم جميلة ومعقدة ولها مدلولات ميثولوجية ، ويجعلون المريض ينام فوق هذا الرسم ويغنون حوله عددا كبيرا من الأغانى ، وفى أثناء ذلك كانوا يزيلون أجزاء الرسم واحدا بعد الآخـــر .

ونجح النڤاچو فى الاحتفاظ بشخصيتهم القبلية كما نجحوا فى الحيلولة بين البيض وبين تأثيرهم على حضارتهم ، وكان السبب فى ذلك راجعا بطبيعة الحال الى أن منطقتهم التى يعيشون فيها كانت أفقر من أن يمد اليها البيض أبصارهم للحصول عليها . وقد ازداد تناسلهم زيادة كبيرة فأصبح عددهم حسب احصاء حديث ٥٠٫٠٠٠ بعد أن كان عددهم فى عام ١٨٦٧ لا يزيد عن ٧٫٣٠٠ ، بيد أنهم فى الوقت الحاضر أصبحوا معرضين للمجاعة نظرا لأن مواردهم أصبحت لا تكفى هذا العدد الكبير .

وانقسمت حضـــارة الكوشيز (Cochise) القديمة الى فرعين يختلفان عن بعض نظرا لاختلاف المناخ . فالذين استقروا منهم فى الجزء الغربى من الولاية، وهى منطقة صحراوية أصـــبح يطلق عليهم اســـم الهوهوكام (Hohokam) على حين أصبح الذين يعيشون فى الهضبة الشرقية التى كانت على ارتفاع كبير وتسقط عليها الأمطار يسمون الموجولون . وبالرغم من أن كلا الفريقين من أصل واحد فان لكل منهما طريقة حياة تختلف عن الأخرى .

ويمكننا أن نتتبع حضارة الهوهوكام الى حوالى عام ٣٠٠ ق . م . وكانوا فى ذلك الوقت يستخدمون الفخار ، ويعرفون استخدام القوس ويزرعون الذرة ويعيشون فى مساكن محفورة تحت سطح الأرض . ومعلوماتنا الأثرية

عن الهوهوكام أقل من معلوماتنا عن حضارات الأنازاسى نظرا لأن الهوهوكام كانوا يعيشون فى قرى مسورة ولأنهم كانوا يحرقون موتاهم .

وفى مثل هذه المنطقة الجافة تصبح الزراعة على نطاق واسع شيئا مستحيلا اللهم الا اذا كان هناك نظام ثابت للرى . ولهذا السبب أصبحت هذه المنطقة هى المكان الوحيد فى أمريكا الشمالية الذى كان لدى أهله رى منظم . وفى عام ٧٠٠ ميلادية عرف الهوهوكام نظاما للرى استمروا فى تحسينه والتوسع فيه حتى عام ١٤٠٠ ، اذ كانت تبلغ قنواتهم فى اتساعها نحو ثلاثين قدما ، وعمقها عشر أقدام وبلغ طول بعضها ١٥٠ ميلا . فاذا ما وضع الانسان فى ذهنه ان الشعب الذى قام بمثل تلك الأعمال الهندسية لم يكن يستخدم الا الأدوات غير المتقنة المصنوعة من الحجر أو من الخشب يدرك ادراكا كاملا أن عملهم هذا كان عملا رائعا . ومن المؤكد أنه كان يسود بينهم نوع من السلطة المركزية استطاعت أن تشرف على تنفيذ الأعمال لأن مثل هذه القناة تستفيد منها قرى كثيرة ، ولابد أيضا من العناية المستمرة بهذه القنوات لأن الطمى كان يسد مجراها من حين ، لآخر وكان تطهيرها يحتاج الى عمل جديد .

وبين عامى ٦٠٠ و ٩٠٠ وصلت الى تلك المنطقة تأثيرات قوية من المكسيك نتج عنها تقدم فن الحفر فى الحجر والعظم والمحار ، كما عرفوا أيضا زراعة القطن التى وصلت اليهم من الجنوب ، كما انتشرت بينهم ملاعب الكرة التى كانوا يلعبون فيها لعبة شبيهة بكرة السلة التى كانوا يلعبونها على الطريقة المكسيكية مستخدمين كرة من المطاط .

وفى وقت ما بين عام ١١٠٠ وعام ١٤٠٠ أتى قوم يسمون ال « سلدو » (Salado) فغزوا هـذه المنطقة ، وكانت حضارة أولئك السلدو متأثرة جدا بحضارة الأنزاسى . وبدلا من أن يصدوهم عن بلادهم عاش الشعبان معا فى وئام ، ولكن لم يتأثر أحدهما كثيرا بحضارة الآخر . وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن سكانا من الشعبين كانوا يعيشون معا فى نفس القرى فى وقت واحد

ولكن منازل كل منهما وفخاره تختلف عن الشعب الآخر ، وهذا أمر يدعو الى العجب والدهشة . وربما كان وجود ملاعب الكرة التى أشرنا اليها كافيا كميدان يتنافس فيه الفريقان لاطفاء ما عساه أن يكون هناك من عداوة ، وبهذا امتنعت الحروب بينهما . وفضلا عن ذلك فان ضرورة تعاونهم لشق قنوات الرى والمحافظة عليها كان يحول دون قيام الحرب بينهما لأن مثل هذه الأعمال لا يمكن القيام بها فى منطقة تنقسم على بعضها ويتحارب سكانها فيما بينهم . وربما كان السبب راجعا أيضا الى أن الهوهوكام كانوا شعبا شرسا عند قيامه بالحرب فكان ذلك مدعاة لتجنب النزاع معهم أو مهاجمتهم . والهوهوكام هم أسلاف البيما (Pima) واليوما (Yuma) والپاپاجو (Papago) الحاليين وهم جميعا يشتهرون بفروسيتهم فى الحرب وقد استطاعوا الدفاع عن منطقتهم عندما غزاها الاپاش (Apache) المشهورون بحبهم للحرب ، كما أحسنوا الدفاع عن بلادهم ضد البيض أيضا .

وكان يسقط على منطقة الموجولون [1] ما يكفى لزراعة الذرة دون اروائها . ولما كان الحافز الذى جعل قبائل الهوهوكام يتعاونون فيما بينهم فى عمل مشاريع الرى وفى الصناعة غير موجود لديهم فان الموجولون لم يفعلوا الا الشىء القليل نحو تقدم بلادهم شبه الجافة . وكانت أهم حرفة لديهم هى صناعة الأوانى ، اذ كانت الأوانى المعروفة باسم « ممبرس » (Mimbres) التى تصنعها قبائل الموجولون تعتبر من أفضل ما يصنع فى المنطقة الجنوبية الغربية . وبمرور الزمن امتصت قبائل الأنزاسى هذا الشعب الذى لم يكن قد عرف الكتابة ، وفى العصور التاريخية احتلت بعض الجماعات المتجولة من الاپاش الناديين هذه المنطقة .

---

(١) اسم « موجولون » نسبة الى جبال موجولون التى سميت بدورها باسم أحد حكام نيومكسيكو الأوائل وكان يسمى « خوان اجانشيوفلورس موجولون » .
(المترجم)

٨ — وتمتد منطقة كاليفورنيا من جبال الروكى حتى شاطىء المحيط الهادى وتمتد شمالا الى ما نسميه الآن حدود كاليفورنيا على وجه التقريب ، وهى منطقة تهيأت فيها الفرصة أمام حضارة جمع البذور وصيد الحيوانات الصغيرة لتصل الى ذروة امكانياتها لأنها معزولة جغرافيا بالجبال وبالصحراء . وربما كان مناخها اللطيف سببا فى عدم الحاجة الى محاولة الانشاء والتقدم ، اذ أن هنود كاليفورنيا لم يعرفوا الزراعة أو الفخار أو النسيج وكانوا يصطادون الحيوانات الصغيرة واذا كانوا على مقربة من الشاطىء فانهم كانوا يصطادون السمك ، ولكنهم اعتمدوا فى غذائهم الرئيسى على ثمرة جوز البلوط . وهذا النوع من ثمار الجوز مر الطعم لأنه يحتوى على حامض التنيك ، ويعتبرها الناس عادة غير صالحة للأكل . ولكن الهنود كانوا يصحنون الثمرة بعد نزع قشرتها الخارجية ويعملون منها عجينة يضعونها فى حفرة يحفرونها فى الرمل ويصبون فوقها ماء ساخنا يصفى الحامض ويترك بعد ذلك عجينة لا طعم لها ولكنها مغذية يصنعون منها بعد ذلك ثريد جوزة البلوط .

وكان الجماعة الذين يقطنون جزيرة تشنل (Channel Island) يصنعون نوعا من الزوارق المنحوتة فى كتلة من الخشب ، ولكن فى جميع الجهات الأخرى كان هنود كاليفورنيا الذين ينزلون الى الماء يستخدمون نوعا من الطوف يسمونه « بلسا » (balsa) وهى حزمة من الأعشاب شكلها كشكل السيجار يحزمونها بأغصان نبات الباچونا (bajuna) ويركبون فوقها كما يركب الذين يقضون اجازتهم على شواطىء كاليفورنيا فى الوقت الحاضر الحيوانات المصنوعة من المطاط .

وكانوا لا يلبسون من الملابس الا أقلها ، وكانت مساكنهم بسيطة هشة مصنوعة من هيكل من أعواد الأشجار ، وجدرانها الجانبية من القش أو من قلف الأشجار ، بيد أنهم كانوا يقيمون فى كل قرية بيتا جيد البناء وهو بيت الرقص . وكان جزء من هذا البيت يشيد تحت سطح الأرض ، وكان مستديرا

وهو على ما يظهر مأخوذ من المساكن المحفورة تحت الأرض التى كانت معروفة بين الهنود ، وكانوا ينزلون اليها من الفتحة الصغيرة التى كانت تستخدم لخروج الدخان أو من نفق جانبى ، وكان هذا البيت يستخدم كناد للرجال وكمركز يقيمون فيه احتفالاتهم . وفى الليالى التى يشتد فيها البرد كان ينام فيه سكان القرية كلهم . وكانوا يوقدون النار فى وسط المكان ويغذونها بالوقود حتى يصبح المكان كله دافئا ، وعند ذلك يخمدون النار ويسدون فتحة خروج الدخان ثم ينامون هناك طول الليل ، فاذا ما أصبح الصباح وشعر أحدهم بالصداع فكان يعزو ذلك الى عمل الأرواح الشريرة .

وكانت فنونهم وحرفهم فى درجة منحطة باستثناء صناعة السلال التى نبغ فيها أولئك الناس ، اذ يلوح أنهم ركزوا كل ما لديهم من احساس بالجمال فى هذا الفن وحده . كانت قبيلة الهوپا (Hupa) تصنع سلالا كروية الشكل يدخلون فى صنعها ريش الطيور فتصير السلة كلها مغطاة بطبقة ناعمة الملمس من الريش المختلف الألوان . وكانوا يصنعون ثياب الحفلات من الريش الناعم يثبتونه فوق أرضية محبوكة ، تذكرنا بالعباءات المصنوعة من الريش لدى اليولينيزيين .

وكان نظامهم الاجتماعى هو نظام القبيلة الصغيرة . وأكبر الوحدات السياسية هى وحدة القرية المكونة من أناس تجمعهم كلهم صلة القرابة وينتمون الى أصل واحد ، ولم يكن لهم زعماء أو مجالس مدينة ، ومع ذلك فقد كانوا يتاجرون على نطاق واسع ويبادلون على ما يصنعونه من سلال ، وعلى المحار ، وجلود الأيائل . واتسع نطاق التجارة فى شمال كاليفورنيا فاضطروا لاختراع نوع من العملة اتفقوا على استخدامها ، وكانت من المحار المسنن الذى كانوا يصطادونه من المكان المعروف باسم پوجت ساوند (Puget Sund) ويتاجرون فيها فى جميع أرجاء المنطقة .

وكانت كل قبيلة من تلك القبائل لها طابعها المحلى الخاص بها ، وكان سكان المنطقة يستخدمون لغات كثيرة ، ولكل واد لهجته الخاصة .

كانت كاليفورنيا أشبه شيء بزقاق حضارى مقفل تأتى اليه الجماعات الصغيرة فتستقر فيه وتنسى كل شيء عن المكان الذى أتت منه ، فأصبحت أشبه شيء بفسيفساء من القبائل التى عاشت كل منها فى منطقتها الخاصة دون حاجة الى غيرها . وكان لدى أهل كاليفورنيا أسطورة خلق منمقة ، ولكن كل قبيلة من قبائلها اعتقدت أن الدنيا خلقت فى منطقتها التى تعيش فيها . وكان كل فرد من رجال القبيلة يستطيع أن يقف فى وسط واديه ويذكر لأولاده الأماكن التى صنع فيها الخالق كل شيء واحدا بعد الآخر . واعتبرت كل قبيلة أن منطقتها التى تعيش فيها هى مركز الدنيا ولم يحسوا بأى رغبة فى التجول بعيدا عنها .

فعندما أتم الخالق خلق هذه الدنيا وكل ما فيها هجمت عليه الحيوانات وقتلته فأصبح الها ميتا أى أصبح رمزا أدبيا لا يحتاج الى استعطاف أو صلاة. ولهذا السبب كان نشاطهم الدينى موجها الى الأرواح القريبة منهم ، التى كانت لها السيطرة على الصيد ولها القدرة على مد الناس بالحظ الحسن فى مختلف أنواع النشاط . وفى معظم قصص تلك المنطقة وأساطيرها نجد « كويوت » (Coyote) المكار الذى كان دائما يخادع الآخرين ويحصل على خير ما يمكن الحصول عليه بمهارته وسعة حيلته .

وكان الصبية يلقنون أسرار الرجولة فى بضعة احتفالات فخمة يلبسون فيها ملابس خاصة . وكانوا يستخدمون الآلة المعروفة باسم الثور الخوار فى هذه الشعيرة وهى من الحالات القليلة التى تظهر فيها هذه الآلة فى أمريكا الشمالية . وكان للسحر أهمية فى هذه المنطقة ، وكان يستخدم للسيطرة الاجتماعية وبالأخص فى أمور التجارة اذ كان التهديد باستخدام السحر الذى يجلب الأذى رادعا قويا للمدينين السيئين .

وكانت جنازات العائلات التى تستطيع تكريم موتاها جنازات فخمة . كانوا يخرجون الجسم من القبر للاحتفال به رسميا بعد أن تكون العائلة قد أعدت المبلغ الكافى لأجل هذه المناسبة . كانوا يقيمون هيكلا خشبيا يضعون فوقه الجسم أو الأجسام ثم يعلقون فى الأخشاب كل ما تمكنت العائلة من اعداده من السلال والأغطية والحلى . ثم يوقدون النار بعد ذلك ويتحول كل شيء الى دخان وهو مثال من المباهاة باتلاف المال .

٩ — امتدت منطقة الشاطىء الشمالى الغربى على امتداد شاطىء كولومبيا البريطانية من شمالى كاليفورنيا حتى جنوبى ألاسكا . وبالرغم من أن هذه المنطقة واقعة فى شمال القارة فان التيار اليابانى الدافىء أمدها بمناخ معتدل مع سقوط أمطار غزيرة عاونت على وجود غابة من أشجار الشوكران والتنوب الفضى والسدر . وتمتاز هذه المنطقة بأنها المنطقة الوحيدة فى العالم التى استطاعت أن تخلق لنفسها حضارة متقدمة دون أن تعتمد على الزراعة أو تربية الحيوانات المستأنسة . وقد ساعدها على بلوغ هذه الحضارة وفرة مواد الطعام ، فقد كانت أسماك السالمون تجرى فى كثير من الأنهار فى فصل الربيع وكان البحر يعج بأسماك القفندر والبكلاه والسردين ، كما كانت الأيائل والغزلان والدببة تمرح فى الغابات . وكانت النباتات التى تنمو تحت أشجار الغابات غنية بالثمار والخضراوات التى يمكن أكلها ، ولهذا فلم يكن السكان فى حاجة الى القيام بذلك المجهود الشاق الذى يستلزمه من قطع أشجار الغابة لزرع الأرض .

ولم يصنعوا أى نوع من أنواع الفخار لأن الأخشاب كانت متوافرة لديهم وكانوا يستخدمونها فى جميع احتياجاتهم ؛ فقد كانوا يطهون طعامهم فى صناديق خشبية بطريقة القاء الأحجار المحماة فى الماء . وكانوا مهرة فى حفر الخشب ، وكانت أوانيهم وأدوات احتفالاتهم الدينية على درجة عالية من

سمو الذوق الفنى . ووصلت مهارتهم فى حفر الخشب ذروتها فى زخرفة الأعمدة الطوطمية العالية المصنوعة من الخشب التى كانت من مميزات هذه الحضارة . وكانوا يصنعون السلال ، وينسجون ملابسهم على أنوال حقيقية مستخدمين خيوطا من قلف أشجار السدر يخلطونها أحيانا بصوف الماعز الجبلى وأحيانا بشعر الكلاب . وكانت ملابسهم بسيطة ، اذ كانوا يلبسون شيئا لحماية أقدامهم . وفى موسم الأمطار الذى يكاد يكون نصف شهور السنة فى هذه المنطقة كانوا يضعون فوق رؤوسهم قبعات عريضة لاتقاء المطر وهى من القش المنسوج ، وهذه هى الحالة الوحيدة التى كان فيها السكان الأصليون يلبسون القبعات فى حياتهم العادية ، وذلك طبعا غير القبعات التى كان يلبسها بعض الهنود الأمريكيين فى الاحتفالات الدينية .

أما منازلهم فكانت من الخشب وكانت مستطيلة الشكل ، وكانوا يثبتون الألواح الخشبية على القوائم العمودية . وفى الشمال كانوا يضعون الألواح عمودية وكان السقف هرمى الشكل (جمالون) أما فى الجنوب فكانوا يضعون الألواح أفقية وكان السقف مثلثا شبيها بسقف الزريبة . وكانت المنازل فسيحة ، ويعيش فى كل منها بضع عائلات ينتمون الى نفس الفرع ، يعيش فيها زعيم المنزل وأطفاله غير المتزوجين وبناته وأزواجهن وأطفالهن ، وربما يكون معه أيضا أخ صغير أو ابن أخ وعائلته ، كما كان يقيم معه عادة بعض أقاربه المسنين ، وواحد أو اثنان من الرقيق . وكان طول أحد هذه المنازل الكبيرة فى الجهة المعروفة باسم « كواكيوتل Kwakiutl » ، ٢٥٠ قدما وعرضه ٦٠ قدما . وكانوا يزخرفون الأعمدة الخشبية الرئيسية فى المنزل ، كما كانوا يزخرفون أحيانا الأعمدة التى فى أركانه برسوم تمثل شعار العائلة ، وتمثل تاريخها والشعار الذى اختاره هذا الفرع لنفسه . وكانت هذه الأعمدة الطوطمية مرتفعة وتبلغ فى بعض الحالات ستين قدما وترتفع كثيرا عن سطح

المنزل . وكانوا يضعون أيضا عمودا طوطميا فوق المقابر وعليه زخارف توضح في قصة رمزية تاريخ العائلة ، أو احدى الأساطير التي لها صلة بذلك الفرع من العائلة .

وكانوا يبنون قراهم على حافة الماء ، وكانت المنازل كلها تشيد في صف واحد يطل على الماء . وكانوا يبنون المراسي والزوارق على الشاطىء وفي خلال فصل الصيف ، أي في موسم صيد سمك السالمون ، وفصل الصيد ، وفصل جني الحاصلات ، تخرج القرية كلها وتعسكر قريبا من العمل الذي يقومون به حيث يعيشون في أكواخ خشبية واهية ويعملون منذ الفجر حتى يحل الظلام . ويخرج الرجال لصيد السمك أو للصيد . أما النساء فكن يعملن في تجفيف السمك أو اللحم ووضعه لفترة قليلة على النار وذلك فوق ضفات تبنى في المعسكرات . وكانت النساء والأطفال يجمعون الثمار من نباتات الغابة ويجففونها لأكلها في فصل الشتاء . وعندما تحل الشهور الباردة تكون المخازن ملأى بالصناديق الخشبية المصفوفة فوق بعضها وكلها ملأى بالأطعمة المجففة أحيانا والموضوعة في الدهن أحيانا أخرى . فاذا ما اطمأن الناس الى وجود ما يكفيهم من المؤن استطاعوا أن ينصرفوا الى الأمور الأخرى .

وأهم المظاهر الغريبة في هذه الحضارة هي الـ « پوتلاتش » (potlatch) وهي حفلة كبيرة منظمة تقام لاظهار ثراء صاحبها . كانوا يعلنون عن هذه الثروة في احتفال كبير ، يوزعون بعضها على الناس ويدمرون بعضها كرمز لثرائهم وعدم حاجتهم اليها ، وكان يقصد من اقامتها أن يلتحق صاحبها بعضوية جماعة ذات مركز اجتماعي ممتاز . وكانت الطريقة الوحيدة لحصول أي فرد على السلطة والمكانة هي عمل الـ « پوتلاتش » . كان زعماء البيوت الذين قاموا بعمل البوتلاتش يعتبرون نبلاء القرية . وكانت القرية هي الوحدة الاجتماعية الرئيسية وكانت منظمة على أساس نظام العشائر . ولم تكن المكانة الاجتماعية لأي فرد من نبلاء القرية حقا دائما مستمرا بل كان يتحتم على هذا

النبيل أن يعمل لاحتفاظه بها . وكان العامة المتصلون ببيت أحد النبلاء يعملون من أجله حتى يزيدوا من قدر بيته . فاذا تيسر لأحد العامة أن يجمع قدرا كافيا من الثروة لعمل پوتلاتش لنفسه فانه يرتفع الى مرتبة النبلاء . وكان أقل سكان القرية فى المرتبة الاجتماعية هم الأرقاء وكانوا عادة من أسرى الحرب الذين كانوا يجبرون على العمل فى بيت الزعيم حتى يفتديهم قومهم .

وقد نشأت عادة البوتلاتش دون شك من احتفال كانوا يقيمونه ليحصلوا على عمال يعملون فى تشييد المنازل الكبيرة واقامة الأعمدة الطوطمية . ولكن حدث فيما بعد أن هذا الاحتفال تحول الى نوع من المنافسة ووسيلة لاظهار مكانة أى جماعة من الناس بين القبائل ، وبالرغم من أنه كانت توجد فى بعض الأحيان حروب بين فروع القبيلة الواحدة كما كان يغير بعضهم على البعض الآخر لينهبوا ما لديهم ، فان البوتلاتش محا التنافس بين أبناء القرية الواحدة وحل محل الحرب بينهم . فاذا كانت هناك منافسة قوية بين أحد الزعماء وزعيم جماعة أخرى فانه يدعو هذا الزعيم الى حفلة پوتلاتش ويأتى الضيف ومعه جميع أتباعه وأهل منزله فيحتفى بهم المضيف احتفاء كبيرا ويكرم وفادتهم فى احتفالات تستمر بضعة أيام أو أسابيع ثم يقدم لهم الهدايا على حسب مكانة كل شخص منهم فى احتفال كبير . وفى الأزمنة السابقة كانت الهدايا من الأغطية والأوانى الخشبية والصناديق المزخرفة السطح ، والملاعق المصنوعة من قرون الماعز وفى بعض الأحيان كانوا يهدون الرقيق أيضا . ولكن بعد اتصالهم بالبيض أضافوا الى الهدايا غلايات غسيل الملابس وماكينات الخياطة والفونوغرافات وما شابهها . وبالاضافة الى هذه الممتلكات الحقيقية فقد كان أولئك الناس يعترفون بنوع آخر من الممتلكات ، وذلك بأن تكون لديهم حقوق خاصة فى بعض الأغانى أو الرقصات أو عضوية احدى الجمعيات الدينية ، كما كان من الممكن رهن الشعارات العائلية أو بيعها أو اهداؤها فى حفلة البوتلاتش .



قناع ملون ، من منطقة الكواكيوتل

ولم يقتصر الأمر على تقديم الهدايا بل كانوا يلجأون أيضا الى تدمير بعض ما يملكونه . كان المضيف يأمر أتباعه بايقاد النيران فيصدعون بأمره ويكسرون زورقا ويستخدمون أخشابه فى الوقود ، أو يحضرون كومة كبيرة من الأغطية ويصبون فوقها زيت السمك الذى كانت له قيمة كبيرة بين أولئك الناس ليزيدوا من اشتعال النيران . وكان المفروض أن الضيوف لا يمكنهم أن يغادروا أماكنهم القريبة من النيران وكثيرا ما كانت تشيط ملابسهم أثناء هذه الحفلات . ويتحتم على الزعيم الذى أقيمت من أجله هذه الاحتفالات أن يتقبل كل شىء دون أن يظهر عليه أى تأثر ، ولكنه ينزل هو وعائلته فى درجتهم الاجتماعية حتى يحين الوقت الذى يستطيع فيه أن يقيم حفلة پوتلاتش ردا على الحفلة التى أقيمت له وألا يقدم لمنافسة أشياء تعادل ما قدمه له منافسه فحسب بل يتحتم عليه أن يقدم اليه ضعفها أى مع فائدة

١٠٠٪ فاذا استطاع أن يقدم له أكثر من الضعف فانه يسبب العار لمنافسه الذى تنزل درجته الاجتماعية بعد مثل هذه الاهانة .

واستلزم تمويل تلك الحفلات الصاخبة بين المتنافسين خلق نظام للتسليف، وما يستتبعه من تحصيل ، والفوائد على الديون . وفى مثل هذا المجتمع الذى لا يوجد فيه اقتصاد يسير على نظام آلى ، وليس فيه أى نوع من أنواع الايداع غير السلف والهدايا فقد ترتب على وجود عادة البوتلاتش تضخم الرصيد لأنه فى بعض الحالات كانت ثروة الزعماء تزيد على ثروة القبيلة بأكملها . ولكى يحافظوا على استمرار عادتهم فقد اخترعوا نوعا من النقد المالى أسموه « النحاس » وهو طبق من النحاس يبدأ سعره بين عشرة وعشرين دولارا حسب قيمته الحقيقية . فاذا قدموا هذا الطبق كهدية متبادلة فان قيمته تتضاعف أى يزيد ثمنه فى كل مرة يتداولونه كهدية مائة فى المائة ، حتى بلغ ثمن بعض تلك الأطباق النحاسية ١٥,٠٠٠ دولار ، وبهذا أصبح البوتلاتش نوعا من الايداع ، وفيه دورات للايداع والسحب مع زيادة الفائدة فى ارتفاع وانخفاض المكانة الاجتماعية . وكانت الديون مضمونة لأنه مهما حدث ومهما كان مركز المدين حرجا فى وقت من الأوقات ، فان سمعة الانسان ومركزه الاجتماعى كان لهما المكانة الأولى فى هذه الحضارة ، ولابد له من دفع دينه .

ويلوح أن اقامة القبائل الهندية فترات طويلة فى أمريكا الشمالية لم تترك الا أثرا قليلا فى حضارتها المحلية ، التى يرجع أغلب أصلها فى الوقت الحاضر الى شمال أوروبا . فاذا استثنينا الكثير من الحاصلات المحلية التى أصبحت جزءا من الحاصلات الزراعية فى الدنيا كلها ، وباستثناء ما قدمه السكان الهنود الأصليون من معلومات فنية الى المهاجرين الجدد عما يمكن عمله عند الوصول الى منطقة جديدة للتغلب على صعوبات المعيشة فيها ، فان حضارتهم فى شمال أمريكا لم يكن لهـا أى فضل كبير على الأمريكيين الحاليين . ومما يستحق الذكر أن نظام التحالف الذى كان منتشرا فى شمال القارة الأمريكية لم يظهر

فى أى مكان آخر الا نادرا . فان هذه التحالفات ، على عكس الامبراطوريات ، تمتــاز بالأهمية التى يعلقونها على الابتكار الشخصى ، وعلى حرية الاختيار . ويمكننا أيضــا أن نظن أن تأسيس التحالف الذى أصبح يعرف الآن باسم الولايات المتحــدة الأمريكية مستمد من النظــم التى كانت ســائدة بين السكان الأصليين ، فانتشرت تقاليد الديموقراطية والحرية الفردية انتشـــارا قويا فى هــذه الأرض الأمريكية التى أعدها أولئك الهنود المعتدون بأنفسهم ، والذين كانوا لا يعتمــدون على غيرهم ، وتلقفهــا من أتى بعــدهم من الأمريكيين الحاليين .

الفصل الحادى والأربعون

الحضارات المتقدمة فى أمريكا الجنوبية

نشأت جميع المدنيات فى الدنيا الجديدة جنوبى نهر ريوجراندى . وبالرغم من أن جميع الهنود الذين هاجروا الى أمريكا الجنوبية أتوا من الشمال فان القبائل الشمالية لم تصل فى يوم من الأيام الى مستوى المدنية كما نفهم من مدلول هذه الكلمة ، لأنهم لم يستطيعوا تشييد المدن والاقامة فيها ، فقد ظل الهنود الذين عاشوا فى منطقتى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى فى أمريكا الشمالية والذين وصلوا فى حضاراتهم الى أعلى مستوى اذا قورنوا بغيرهم ، من سكان القرى والمزارعين .

ولم يصل المهاجرون الهنود الى المنطقة الواقعة الى الجنوب من ريو جراندى ويستقروا فيها الا بعد عدة آلاف من السنين بعد وصولهم الى الشمال لأن مثل هذه المدة كانت ضرورية لهم ليصلوا الى الجنوب فى أسفارهم من مكان الى مكان جيلا بعد جيل . ويرجع السبب فى تفوق سكان الجنوب على سكان الشمال الى حصولهم فى وقت مبكر من استقرارهم فى تلك المنطقة على محصول هام يكفى لاطعام عدد كبير من السكان ، وهو الذرة ، وهو المحصول الأمريكى الرئيسى الذى تم تدجينه فى هذه المنطقة . ويعتقد بعض المتخصصين فى دراسة النبات البرى (الذى لا يوجد له أثر فى الوقت الحاضر) أنه جىء به من مرتفعات جواتيمالا ، ويصر آخرون على أن تدجينه كان فى سهول پاراجواى ، وفى كلتا الحالتين فانه من نباتات أمريكا الجنوبية . وهناك عدد آخر من الحاصلات الغذائية التى تم تدجينها فى

الجنوب ثم انتشرت فيما بعد ووصلت الى شمالى القارة مثل البقول والفلفل والبطاطس والطماطم والفول السودانى ، وغيرها من الحاصلات الهامة .

ولم تكن هناك مندوحة من استسلام مدنيات أمريكا الجنوبية الراقية للاسپانيين لأن ادعاءات الأوروبيين بتفوقهم على غيرهم انما تقوم على قوة الأوروبيين الحربية ، وقد نال الغزاة الاسبان كل ما نالوه من نصر كامل سريع بفضل استخدامهم للأسلحة النارية وبخاصة المدافع التى لم يكن لسكان أمريكا عهد بها .

ومهما يكن من أمر ، فان سكان هذه الحضارات كانوا أكثر عددا وأذكى من أن تمتصهم أى قوة أجنبية امتصاصا كاملا . وفى جميع بلاد القارة الأمريكية نجد جميع الحضارات التى تسير على الطابع الأوروبى قد أخذت فى النهوض ، وذلك لأن الحضارات الهندية القديمة والطابع الجسمانى الهندى القديم أخذا يثبتان أقدامهما فى جميع مناطق المرتفعات من المكسيك وما وراءها نحو الجنوب .

وظهر فى المكسيك فى العصور القديمة نوعان من الحضارات ، وهما حضارات الهضبة فى وادى المكسيك وحضارات الأراضى الواطئة على شواطىء أمريكا الوسطى . وبالرغم من وجود عدد غير قليل من الحضارات التى ظهرت فى الجنوب فان هذا الكتاب سيقتصر على الحديث عن أهم ثلاث فيها وهى : مدنية المايا (Maya) التى كانت أهم وأفخم ما ظهر فى منطقة الأراضى الواطئة، ومدنية الأزتك (Aztec) التى كانت أهم ما ظهر من حضارات فى الهضبة ، ومدنية الانكا (Inca) العظيمة التى كانت مزدهرة على الشاطىء الغربى لأمريكا الجنوبية عند حدوث الغزو الاسپانى . ولكل حضارة من هذه الحضارات الثلاث طابعها الخاص فى الحياة ، يختلف عن غيره ، وكانت هذه الحضارات فى مناطق بعيدة بعضها عن بعض ، فلم تكد تعرف احداها

شيئا عن وجود غيرها ، وذلك بالرغم من أن كثيرا من علوم المايا قد وصلت الى حضارة الازتك .

عاش شعب المايا القديم فى المنطقة التى توجد فيها الآن ولايات «يوقاطان» (Yucatan) و « كمپيشى » (Campeche) و « هندوراس البريطانية » ومعظم « جواتيمالا » وهى مساحة تبلغ ١٢٥٫٠٠٠ ميل مربع . وكان المايا معزولين عن باقى شبه جزيرة المكسيك لأن المياه كانت تحيط بها من ثلاثة جوانب (ولم يكن المكسيكيون القدماء من الملاحين فى أى وقت من الأوقات) ، ويحدها فى الجهة الرابعة جبال كورديلليرا المرتفعة . وقد تقدمت مدنية المايا دون أى تأثير من مصدر خارجى ، بل وصلت الى ما وصلت اليه بفضل عبقرية شعب المايا نفسه وبفضل البيئة الخصبة التى أسعدهم الحظ بالعيش فيها .

كان اقتصاد هذه المدنية قائما على الذرة ولكن المنطقة غنية بجميع ما تحتاج اليه أى مدنية راقية ، اذ كانوا يزرعون البقول والقرع العسلى والفلفل الأحمر الحار (الشطة) والطماطم والبطاطة والكاكاو وكمثرى القاطور والدخان ، الى جانب زراعتهم للذرة . وكانوا يضعون « البانيلية » والبهارات فى طعامهم لتحسين مذاقه . وكانوا ينسجون ملابسهم من القطن كما استخدموا نبات القرع بعد تجفيفه كأوعية لهم . وأمدتهم الغابة بأنواع مختلفة من الخشب الجيد كما أن نوع الحجر الجيرى الذى فى منطقتهم كان من أحسن أنواع أحجار المبانى المعروفة فى القارة الأمريكية قبل مجىء كولمبس . كان هذا الحجر سهلا فى قطعه من المحاجر ، وتزداد صلابته بمجرد تعرضه للعناصر الجوية ، ويتحول الى جير عند حرقه . وكان يوجد أيضا فى جميع أرجاء المنطقة طبقات من الحصى صنعوا منها نوعا من الأسمنت الجيرى الطبيعى ، وتوافرت لديهم جميع المواد اللازمة لتشييد مبان حجرية قوية والمونة اللازمة لها . واستطاع المايا أن ينبغوا فى التشييد بالحجر ، وكانت أعمالهم المعمارية أفضل ما ظهر من نوعها فى الدنيا الجديدة ، على الأقل من ناحية الذوق

الجمالى . وبالرغم من أنهم لم يعرفوا استخدام مفتاح العقد المشيد من الحجر فقد شيدوا مبانى عظيمة جدا لها سقوف حجرية من نوع العقد ذى الطبقات . واذا زرنا اليوم المراكز الدينية العظيمة التى شيدوا فيها مبانيهم الدينية مثل تشيتشن اتزا (Chichen Itza) وأوكسمال (Uxmal) وبتن (Peten) فانا نقف مبهوتين أمام جمالها ، رغم ما أصابها من تخريب .

ويعد فن النحت لدى شعب المايا من أعظم ما ظهر من فنون فى أى عصر من العصور . فمعابد المايا ملأى بالمناظر المنحوتة على الحجر نحتا دقيقا متشابكا يمثل الآلهة مع صفاتها ، والطقوس الدينية ، ومشاهد انتصار الملوك كما نرى فيها أيضا الطيور والأزهار والأفاعى مرسومة فى أسلوب مبسط . ومن المرجح أن مدينة پالنك (Palenque) التى يرجع تاريخها الى الامبراطورية القديمة فى حضارة المايا كانت البلد الذى تقدم فيه هذا الفن الجميل ، ومنه انتشر الى غيره من البلاد ، فان كثيرا من تلك الأحجار المنحوتة وأعمال الجبس المصبوب يرجع تاريخها الى القرن السابع ، كما أن غطاء التابوت الكبير المصنوع من الحجر الجيرى الذى عثر عليه فى عام ١٩٥٢ فى معبد النقوش فى پالنك يمكننا أن نقارنه بأجمل النقوش المحفورة على آثار مصر القديمة .

كانت مدنية المايا فى حالة تدهور عندما حدث الغزو الاسپانى وكان الناس يعيشون فى قرى أو بين بقايا مدنهم القديمة ، وكانت مدن الامبراطورية القديمة مثل پالنك قد هجرها أهلها منذ وقت طويل واختفت بين أشجار الغابة النامية ، وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر عند ما نظف الأثريون هذه المنطقة وكشفوا عما بقى من جمال تلك المدن التى اندثرت منذ زمن بعيد ، وعرفوا مدى عظمة تلك المدنية .

ولم يكن أهل المايا أقدر النحاتين والمعماريين فى الدنيا الجديدة فحسب ، بل كانوا أيضا أعظم العلماء وكادوا يصلون الى اختراع طريقة منتظمة للكتابة . استخدم المايا كتابة تصويرية استعملوا فيها العلامات أو الاشارات كرموز

اصطلحوا عليها للتعبير عن المعانى . وبالرغم من أن مدنية المايا كانت فى تدهور عندما حدث الغزو الاسپانى فان الكهنة والطبقة الحـاكمة كانوا ما زالوا محتفظين بالمعرفة العلمية وفن الكتابة وكانوا مستمرين فى تقدمهم فيهما ، ولو تيسر لهم الوقت الكافى لتمكنوا من الوصول الى أسلوب للكتابة أكثر مرونة وأكثر تعبيرا . وعلى أى حال ، فان أول ما استهدفه الغزاة الاسپانيون هو محو العلم وأهله . ولهذا سارعوا بعد الغزو بالقضاء على تلك الجماعة الصغيرة من المتعلمين الذين كانوا يصونون هذه المعرفة . فجمع « دييجو دى لاندا »(Diego de Landa) مطران يوقاطان فى عام ١٥٦٢ مئات من كتب التاريخ والفلك والرياضيات وأحرقها فى الميدان فى بلدة « مريدا » ، ولم يظل باقيا من مكتبتهم الا تلك المجلدات القليلة التى أرسلوها الى أوروبا كتحف نادرة، وقد تمكن العلماء بعد سنوات من الدراسة من حل رموز الأسلوب التصويرى لكتابة المايا .

ومخطوط درسدن (Dresden) هو أهم ما بقى من كتب المايا ، وهو كتاب يبحث فى الرياضيات والفلك سجلوا فيه أوقات كسوف الشمس وخسوف القمر ، وجميع ما شاهدوه من أشياء غير عادية فى سير الكواكب ووضعوا لذلك نوعا من التقويم الطويل المدى . وتثبت هذه الحسابات الفلكية انه فى الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسپانى كان شعب المايا أكثر تقدما فى كل من الفلك والرياضيات من أى شعب فى أوروبا . وقد توصلوا أيضا الى عمـل تقويم مشوش ولكنه دقيق دقة فائقة ، وذلك باستخدامهم عدة أنواع مختلفة من الملاحظات التى تتفق مع بعضها فى نفس الزمن واستطاعوا بوساطتها أن يحددوا بدقة أى تاريخ يقع فى عصر « الدورة التقويمية » ومدتها ٥٢ سـنة وكل سنة ٣٦٥ يوما أى ١٨٫٩٨٠ يوما . واستخدم « الأزتك » (Aztek) و « الميكسـتك » (Mixetec) و « الزاپوتك » (Zapotec) دورة الأيام ٥٢×٣٥٦ التى استعارها كل منهم من تقويم المايا والتى سـماها الأزتك

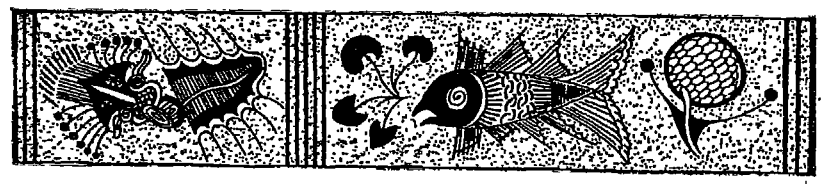
« حزمة السنين » ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحسبوا أكثر من دورة الاثنين والخمسين عـاما فقط ، وعجزوا عن الوصول الى حساب التاريخ الطويل الذى توصل اليه المايا . ونعرف من النقوش التى على آثار شعب المايا أنهم كانوا يعرفون الطول الحقيقى للسنة الشمسية ، ولهذا كان فى استطاعتهم عمل الحسابات المطولة لمعرفة موضع أى يوم منذ الوقت الذى بدأوا فيه وضع ذلك التقويم .

ومما يدعوالى الأسف أن تقدم المايا فى الناحيتين الثقافية والذوق الفنى لم يكن مرتبطا بما يقابله من التقدم فى العلوم السياسية والحربية . ومهما يكن من أمر فان سقوط الامبراطورية القديمة الذى حدث فى القرن التاسع لم يرجع الى غزو أجنبى بقدر رجوعه الى العوامل الاقتصادية الداخلية . فقد ركزوا اهتمامهم فى الفنون والعلوم الى الحد الذى جعلهم يتفوقون تفوقا كبيرا فى هاتين الناحيتين ويهملون نظم الاقتصاد والزراعة ، ثم انتهى بهم الأمر الى عجزهم عن سد حاجات السكان الذين ازداد عددهم . وفى القرن الثانى عشر تعرضت امبراطورية المايا الى غزو قامت به قبائل رحل من شعب التولتك (Toltec) الذين اضطرهم توسـع امبراطورية الازتك الى الرحيل عن مواطنهم فشقوا طريقهم بالقوة متجهين نحو الجنوب ، الى منطقة المايا ، حيث بدأوا حياتهم كجنود مرتزقة كما فعلت قبائل القوطيين فى الامبراطورية الرومانية .

واستسلمت الامبراطورية المتواهية لمهاجميها ولكن الغزاة الأجانب الذين أقاموا فى تلك البلاد امتصتهم حضارتها . وحوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ظهرت نهضة جديدة فى بلاد المايا ، ومنذ هذا الوقت حتى عام ١٤٠٠ ، مرت بالبلاد فترة ازدهار وهى التى نسميها « الامبراطورية الحديثة » وكان مركز حضارتها فى منطقة يوقاطان . وفى خلال هذا العصر شيدت مدينتا « تشيتشن اتزا » و « أوكسمال » ، ولم تكونا مدينتين بالمعنى المعروف فى الدنيا القديمة ، وانما كانتا مركزين دينيين . ومهما يكن من أمر ، فان المايا لم يكن لهم فى أى وقت من

الأوقات حكومة مركزية قوية ، ولم تكن امبراطوريتهم فى يوم من الأيام مملكة متحدة ، ولكنها كانت مجموعة من المدن يحكم كلا منها كاهن — ملك من بيت معين فى تلك المدينة ، يتوارث أفرادها هذا المنصب . وبين حين وآخر نجحوا فى عمل اتحادات بين تلك المدن ولكنها كانت اتحادات مفككة التنظيم، ولم يكتب لها البقاء لفترة طويلة ، وقبل أن يصل الاسپانيون بزمن طويل كانت حضارة المايا القديمة قد اضمحلت وانتهى أمرها .

أما الأزتك الذين كانوا يعيشون فى وادى المكسيك عند وصول كورتيز فى عام ١٥١٩ فقد كانوا حديثى عهد بالمدنية ، وكانوا فى الأصل قبيلة من قبائل « ناهوان » الذين هاجروا فى القرن الثالث عشر الى جزيرة مليئة بالأدغال فى بحيرة « تكسوكو » (Texoco) فاستقروا فيها وأسسوا مدينة « تنوتشيتلان » (Tenochitlan) . وهو المكان الذى تقوم فيه مدينة المكسيك الحالية . ونظرا لأن منطقتهم كانت من المناطق غير المرغوب فيها ، وفى الوقت ذاته يصعب الوصول اليها ، فقد ظلوا فى مكانهم غير معرضين للغزو ، وتقدموا تدريجيا فى مدنيتهم ، وزاد عددهم . وفى أيام رابع ملوكهم وكان يسمى « اتزكواتل » (Itzcoatl) (١٤٢٧—١٤٤٠) كونوا اتحادا مع ولايتين أخريين وهما « تكسكوكو »(Taxcoco)و« تلاكوپان »(Tlacopan)وشن ذلك الاتحاد الثلاثى الحرب ضد غيرهم من شعب الـ « نهوان » ووسعوا رقعة بلادهم حتى أسسوا امبراطورية شملت معظم المكسيك الوسطى ، وامتدت من شاطىء المحيط الأطلسى حتى شاطىء المحيط الهادى .



رسم على فخار من مدينة الأزتك

وكانت امبراطورية الأزتك تقوم على الغزو والنهب ، وهى تشبه فى ذلك الامبراطورية الأشورية فى الدنيا القديمة . فجمع حكامها ثروة طائلة وأصبحت لهم سلطة كبرى بفضل ما كانوا ينهبونه من غيرهم وما يأتيهم من الجزية ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا يذكر لتنظيم أو استيعاب القبائل التى أخضعوها لسلطانهم . ولما كان الأزتك يعتمدون فى حياتهم على شن الحروب فقد كان طبيعيا أن ينشئوا نظاما حربيا قويا . كانوا يدربون جميع الرجال الأصحاء على الحرب ، وكان أولئك الرجال على استعداد دائم لتلبية أى نداء للخدمة العسكرية . وكانت الحروب دائمة الحدوث بينهم ولكنها لم تكن تستمر عادة وقتا طويلا . كان السلاح الرئيسى الذى يستخدمه الأزتك حرابا ثقيلة الوزن يقذفونها على العدو بوساطة قاذفة خاصة ، كما كانوا يستخدمون الأقواس والسهام وسيفا خشبيا يثبتون فى حده شطفات من حجر الاوبسيديان . وقد جاء فى بعض المؤلفات التى كتبت عنهم انه كان فى استطاعة المحارب من الأزتك أن يقذف بحربته فتخترق درع المحارب الاسپانى وأن يقطع رأس الجواد بضربة من سيفه الخشبى . وكان الجندى العادى يحارب دون أن يرتدى من الملابس الا نقبة صغيرة حول الجزء الأوسط من جسمه ، ولكن زعماءهم كانوا يلبسون صديريات من القطن المدثر (مثل اللحاف) ينقعونها فى الملح لتكون أكثر مقاومة ، كما كانوا يلبسون خوذات من الخشب على هيئة رؤوس بعض الحيوانات . وكان الحكام العظام يذهبون الى الحرب وهم يرتدون دروعا من صفائح الذهب يغطونها بطبقة من نسيج زاهى الألوان من ريش الطيور .

وكانت المعارك ذات طابع احتفالى أكثر منها ميدانا تراق فيه الدماء . لأن الهدف منها هو أسر العدو لا قتله ، فلم يهللوا للمحارب اذا قتل رجالا فى الحرب ، ولكن شرف الفروسية الذى كان يرنو اليه قلب كل محارب ، كان من نصيب أولئك الذين يعودون بالأسرى الى العاصمة ليقدموهم قربانا على



المعبود « ثالوك » اله المطر لدى الاز تك

مذابح الآلهة . كان أعظم آلهتهم هو الاله « هويتزيلو پوشتلى » (Huitzilo (pochtli)اله الحرب ، ولكى يبقى هـذا الاله قويا ويجعل النصر فى الحروب من نصيب أتباعه فقد كان يتحتم عليهم أن يقدموا اليه قلوب عدد كبير من الأسرى المحاربين قربانا له . وكلما كان مركز الضحية كبيرا زادت قوة الاله ، ولهذا كانت الحاجة الى الضحايا الآدمية سببا فى الحرب ، وكانت الحرب هى الطريق الموصل الى أولئك الضحايا وهكذا دواليك .

كانت تنو تشتلان عند حدوث الغزو الاسپانى مدينة كبيرة جميلة مشيدة فوق عدد من الجزر فى بحيرة تسكوكو ، وكانت فى تنظيمها الاجتماعى وفى ادارتها مثلا للمدينة القبلية الهندية ، ولكن غناها جعلها تظهر فى مظهر العاصمة لامبراطورية كبيرة . ولم يكن بالمدينة الا عدد قليل من الشوارع ، وكانت تتخللها القنوات التى أقيمت عليها قناطر يمكن رفعها عند الحاجة . وعلى حافة الجزيرة كان الفلاحون يعنون بزراعة ما أسموه « الحدائق العائمة » وكانوا ينقلون حاصلاتها الى المدينة فى زوارق صغيرة من تجويف الأشجار . وكانت منازل الطبقة الأرستوقراطية مشيدة من طابق واحد ، ويتوسطها حوش كبير

يزرعون فيه الأزهار والشجيرات . أما معابدهم فكانت تبنى فوق أهرام ترتفع فوق مستوى منازل المدينة ، وأمام تلك المعابد ساحات كان يجتمع فيها الشعب الذى كانت تهتز مشاعره لرؤية الطقوس التى تراق فيها دماء الضحايا فوق درجات المعبد . وكان مجتمع الأزتك مجتمعا أرستوقراطيا ، وكانت حياة الطبقة العليا فيهم حياة بذخ ورفاهية . وكان المجلس القبلى ، وهو أكبر هيئة حاكمة ، مكونا من ممثلين يمثل كل واحد منهم قبيلة من القبـــائل ، وكان ينتخب على أساس ما كان يتحلى به من صفات .

وكان نظامهم القضائى على درجة كبيرة من التقدم ، وكانوا يشتدون فى معاقبة من يقترف أى جريمة اذ كانوا ينظرون الى الأعمال التى تقترف ضد المجتمع مثل الرشوة وسوء استغلال الوظيفة ، والسكر ، باستثناء المتقدمين فى العمر الذين لم يكن لهم نشاط فى الحياة العامة ، على أنها جرائم خطيرة . وربما كانت السرقة أمرا سهلا فى هذا المجتمع الغنى الذى كان لا يقفل فيه أحد باب بيته ، لو لم يعتبروها جريمة لا تغتفر ، عقوبتها الاعدام لمن يقترفها . وعنيت الدولة بأمر الشعب فلم يكن فيهم من يسرق بدافع الجوع ، وكانوا يزرعون مساحات من الأرض على جانبى الطرق بنبات الذرة ليأخذ منها المحتاجون متى شاءوا ، فاذا حدثت مجاعة سيروا الحملات الحربية ليحصلوا على موارد اضافية من الجزية التى يفرضونها على العدو يوزعونها بين الناس . وكان لدى الأزتك نظام غريب فى التطوع للرق ، كان له أيضا شىء من الفضل فى مساعدة الفقــراء .

كانت هناك أنواع مختلفة من الرق فى مجتمع الأزتك ؛ فقــد كانوا يسترقون فى بعض الأحيان أسرى الحروب ولكنهم كانوا فى أغلب الحالات يقدمونهم ليكونوا قربانا تعمل فى قلوبهم مدية الكهنة . ولكن العائلات الفقيرة التى أنجبت أطفالا أكثر من العدد الذى تستطيع أن تعوله كان فى استطاعتها أن تبيع واحدا أو اثنين من أطفالها ليكونوا رقيقا . وكانوا لا يســجنون

المجرمين ، ولكنهم كانوا يحكمون عليهم بأن يكونوا رقيقا لمدة معينة من الزمن ، وكانوا يسلمونهم الى الأشخاص الذين وقعت عليهم أو اقترفت ضدهم الجرائم ، لأن العدالة لدى الأزتك كانت تستهدف تعويض الشخص الذى وقع عليه الضرر أكثر من الانتقام من المعتدى . وكان هناك أيضا نظام التطوع فى الرق . ففى مقدور الرجل الذى لا يمتلك أرضا وعجز عن اعالة نفسه أن



صور على النسيج ـ من مدينة الأزتك

يقدم نفسه كرقيق ليصبح غيره مسئولا عن اعالته . وكان فى استطاعه المسرفين الذين يبعثرون ما يملكونه فى حياة البذخ أو فى حياة المقامرة أن يصبحوا رقيقا لغيرهم الى أن يحين الوقت الذى يستعيدون فيه ثروتهم . كما كان فى استطاعة الفتيات الجميلات اللاتى ولدن فى عائلات فقيرة أن يتطوعن فى الرق لمدة معينة

حتى يجمعن الحلى وأدوات الزينة اللازمة لهن ليعملن كعاهرات . ولم يكن الرق قاسيا ، اذ كان فى استطاعة الرجل الرقيق أن يتزوج وأن يكون صاحب السلطة على عائلته ، وأن يمتلك ويجمع ثروة خاصة به ، بل وصل الأمر الى الحد الذى كان فيه بعض الأرقاء يملكون أرقاء خاصين بهم ، وكان الأطفال الذين يولدون للأرقاء يعتبرون أطفالا أحرارا . وبالرغم من أنهم لم يسمحوا لأى شخص سبق له أن كان رقيقا فى وقت من الأوقات أن يرشح نفسه لرياسة القبيلة ، فان نظام الرق التطوعى ، فيما عدا هذه الحالة ، لم يكن يعتبر عيبا اجتماعيا كبيرا .

وكان الآباء يقومون بتعليم أبنائهم فى المنزل ، فاذا ما بلغ الصبى سن الخامسة عشرة كانوا يرسلونه الى مدرسة للعشيرة كانوا يسمونها « بيت الشباب » ، وفيها كانوا يتلقون دروسا فى الوطنية ، والحرب ، والتاريخ والموضوعات الدينية . وكان للمعابد مدارس تسمى الواحدة منها كالمكاك (Calmecac) للاعداد لوظائف الكهنوت ، وكثيرا ما كان الآباء يقدمون أبناءهم وهم فى سن الطفولة الى الكالمكاك التى كان التعليم فيها قاسيا ومعقدا . كانوا يعلمون الصبيان الكتابة ، وكانت نوعا من الكتابة التصويرية المقدسة وتشبه كتابة المايا ، وكانت تستخدم بنوع خاص فى القوانين وفى تحرير الوثائق التجارية . وكانوا يطلبون من الصبية أن يحفظوا عن ظهر قلب عددا هائلا من الأغانى والأناشيد التى يغنونها من الذاكرة وهى التى حفظت لنا الكثير من أساطير وآداب ديانة الأزتك . وكان الكهنة يعملون من بقى منهم فى المدرسة ، واختار الكهنوت مهنة له ، تنظيم الاحتفالات والطقوس المتبعة فى الأعياد والمناسبات الدينية . وكان الصوم وتعذيب النفس جزءا من هذا النظام التعليمى ، وكانوا يعطون أعلى الوظائف فى المعابد لأولئك الذين أظهروا التفوق والامتياز فى مدارس الكالمكاك .

لقد برر الاسپان غزوهم لامبراطورية الأزتك ونهبهم لها بادعائهم أن

واجبهم كمسيحيين يحتم عليهم أن يقضوا على زعماء أمة وثنية تقدم الضحايا الآدمية قرابين لآلهتها الملعونة. ولكن هؤلاء الضحايا فى نظر الأزتك لم يكونوا الا تعبيرا عن الشعور الدينى الصادق. فقد كان أولئك الآلهة فى حاجة الى التقوية، ولم يكن هناك ما يمدهم بالقوة أكثر من القلب الانسانى الذى يقدمه الكاهن الى الاله وهو ما زال ينبض ويقطر منه الدم فوق المذبح الحجرى بعد نزعه من الجسم. ولم يتعرض أولئك الضحايا الى أنواع التعذيب والمهانة التى كانت توقعها محاكم التفتيش الاسپانية على من كانوا يتهمونهم بالمروق عن الدين فى ذلك العهد. فكثير من أولئك الأسرى الذين يقدمون الى الآلهة كانوا يعاملون معاملة كريمة وينزلونهم فى منازل فخمة يقوم بالخدمة عليهم وصيفات، وكانوا يقيمون لهم الحفلات ليروحوا عنهم، وكثيرا ما كان هذا الموت الطقسى الذى يتم أمام جموع من المشاهدين الذين تتملكهم النشوة، سببا فى احداث النشوة الدينية فى نفوس الضحايا أنفسهم لأن موتهم فوق المذبح كان يضمن لهم الوصول الى أعلى السماوات، بل ان علم الضحية بأن جسمه سيقذف به ليتدحرج على درجات المعبد ليأخذوه فيأكلوه فى مأدبة دينية لم يكن أمرا فيه شىء من المهانة لأنهم كانوا يأكلون ذلك اللحم اعتقادا منهم بأن من يأكل منه يصبح أكثر اتحادا مع الله نفسه. ان هذا النوع من تقديم الضحايا الآدمية ليس الا فكرة دينية تشبه تناول القربان فى الديانة المسيحية ولكن مع الفارق، اذ أن الأزتك كانوا فى هذه الناحية واقعيين وعمليين فى صورة قاسية.

وشاء القدر أن تصبح المدنيات الهندية، وما حوته من كنوز الذهب، فريسة لطمع وتعصب الغزاة الاسپانيين. وعلى أى حال، فان استسلام امبراطورية الأزتك فى وقت قصير أمام كورتيز، الذى أتى اليهم ومعه قوة مكونة من أربعمائة وخمسين رجلا وثمانية عشر جوادا، كان راجعا الى مجموعة من العوامل التى كانت فى صالح الاسپانيين.

وأول هذه العوامل هو الارتباك الذى حدث بينهم فى البداية وتساؤلهم عمن يكون كورتيزوما الذى يريده . ففى جميع أرجاء المكسيك كانت تنتشر أسطورة « كوتزا لكواتل » (Quetzalcoatl) أو الثعبان ذى الريش ، وهو أحد آلهة التولتك الذى نزل فى العصور القديمة من السماء ليعيش على ظهر الأرض ليحكم الناس ، وأحضر لهم معه الفن والحكمة . وعندما طرده اله آخر أقوى منه هرب الى المحيط فى زورق مصنوع من جلود الثعابين ، ووعد أن يعود ثانية الى شعبه وستكون عودته ايذانا ببدء عصر ذهبى لهم . وكان « كوتزا لكواتل » يرسم أحيانا فى صورة رجل أبيض اللون ، وله لحية ، وكان مجرد التفكير بأنه من المحتمل أن يكون كورتيز هو الاله نفسه الذى عاد الى الحياة كافيا لشمل ارادة محاربى الأزتك ، فدخل كورتيز الى العاصمة دون أن يعترضه أحد .

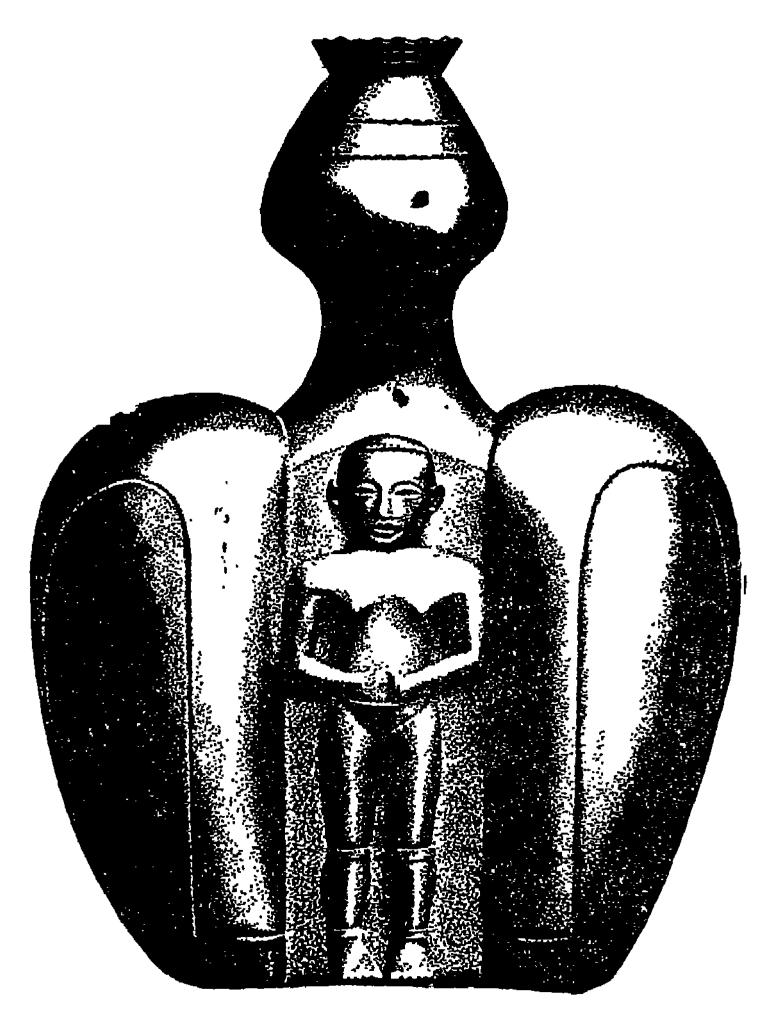
وسارع كورتيز بالقبض على الملك « مونتزوما » وأبقاه رهينة لديه ، ولكن هذا العمل العدوانى زاد من شدة خوف الناس ولم يبعث فيهم روح المقاومة . وسمحوا لكورتيز بالعودة الى الشاطىء فأناب عنه معاونه « ألفارادو » فأقفل الناس الأسواق وقبعوا فى منازلهم . وعندما حل موعد الاحتفال بعيد الـ « هويتزيلوپوشتلى » (Huitzilopochtli) اجتمع الناس فى الميدان ففسر « الفراداو » ذلك بأنه اجتماع حربى فأصدر أمره الى جنوده الذين أعملوا القتل فى الرجال والنساء والأطفال ، وقد أحدث عمله هذا رد فعل شديد فهاجت المدينة ولكن هذا الهياج جاء متأخرا جدا .

واتضح ضعف الامبراطورية واضطر المغلوبون على أمرهم الى الخضوع لقوة الغاصبين وأجبروهم على دفع الجزية ، ولكن الأزتك لم يرضوا عن الانضمام الى الامبراطورية الاسپانية ولم يحسوا نحوهم بأى ولاء . واستطاع الاسپان أن يغروا كثيرا من القبائل التى كانت خاضعة للأزتك بالانضمام الى جنود « ألفارادو » المحاصرين . وحتى الذين كانوا موالين لحكومة الأزتك

لم يقبلوا على حمل السلاح فى ذلك الوقت لأنه كان موسم الحصاد ، وتصوروا أن فقد محصولاتهم كان مصيبة أكبر من المصيبة التى تحيق بهم من نهب الغزاة . ولم يكن المحاربون الأزتك كفؤا لصد جنود يستخدمون البنادق ، كما أن أسلوب حروبهم ذات الطابع الاحتفالى لم يكن ذا جدوى ضد تكتيكات الاسبان الواقعية . لقد حاربوا بتصميم وشجاعة يائسة عندما استثارهم العدو ، ولكن الخيانة ، وانتشار الأمراض ، وخسائرهم الدامية ، اضطرتهم للخضوع والاذعان .

أما فى أمريكا الجنوبية فقد ظهرت المدنيات العظيمة فى هضاب الأندس . وما زال وصول المهاجرين الى أمريكا الجنوبية لغزا من ألغاز الدراسات الأثرية لأن منطقة البرزخ تكاد تكون منطقة لا يمكن اجتيازها حتى فى وقتنا الحاضر . فهى منطقة ملأى بالغابات ، ومياهها التى على مقربة من الشواطىء وعلى الأخص شاطىء المحيط الهادى صعبة فى الملاحة ، اذ توجد رياح مضادة ولا توجد فيها موانىء صالحة نظرا لأن الغابات تمتد حتى شاطىء البحر . وبالرغم من كل هذه الصعوبات فقد تمكن المهاجرون بطريقة ما من اجتياز هذه المنطقة الموحشة ثم انتشروا بعد ذلك فى أنحاء القارة . وفى الوقت الذى حدث فيه الغزو الاسپانى كان يعيش فى غابات الأمازون الاستوائية قبائل متوحشة تعيش فى أكواخ من القش المغطى بالطين ، وكان الرجال يصطادون السمك وكانت النساء يزرعن حقولا صغيرة من الذرة والفول السودانى ونبات المنيوق (Manioc) . وكانت البمپاس (سهول المراعى) فى الأرجنتين وسهول پتاجونيا آهلة بقوم رحل يعيشون على الصيد وعلى جمع البذور ، ولم تكن هنالك مدنيات متقدمة الا فى منطقة واحدة فقط وهى منطقة الأندس حيث عاش الناس فى المدن وتقدموا فى النواحى الفنية والسياسية والدينية .

ومنطقة الأندس مرتفعة جدا حتى ليظن الانسان انها مكان لا يصلح لتطور مدنية كبيرة ، ولكن هنود هضبة الأندس يتمتعون باتساع كبير فى



اناء من الذهب ، عثر عليه فى كولومبيا

رئتهم ، وبتركيز أكبر فى كرات الدم الحمراء ، ولهذا السبب يستطيعون أن يحتفظوا بكمية أكبر من الأوكسجين ويستطيعون أن يؤدوا أعمالهم فى أماكن مرتفعة يحس فيها الرجل الأوروبى بالدوار ويتحول لون وجهه الى الزرقة .

وهناك من يعتقد أن الهضبة هى المكان الذى بدأت منه الحضارة الأندية ولكن الأدلة تثبت أنه منذ أقدم العصور كان هناك قوم يعيشون فى منطقة

الشاطىء ، وقد خلفوا وراءهم بعض الآثار . كان أقدم المهاجرين الى منطقة الشاطىء قوما على علم بالزراعة ، فحطوا رحالهم فى وديان الأنهار ، وكانوا يعيشون على الخضراوات المختلفة وبعض المحصولات الجذرية والسمك . ونشأت حضارات مستقلة عن بعضها البعض فى الوديان القريبة من الشاطىء ولكن المنطقة الداخلية البعيدة عن الأنهار كانت منطقة صحراوية وغير صالحة للزراعة . واخترعوا طريقة للرى وذلك بحفر قنوات توصل المياه الى أبعد ما يمكن أن تصل اليه ، ولكى يمنعوا تبخر الماء فى هذه المنطقة الحارة ذات المناخ الجاف كانوا يضعون سقوفا فوق قنوات الرى . وكانوا يبنون قراهم فى الصحراء لأن الأرض الصالحة للزراعة كانت أثمن من أن تستخدم فى تشييد مساكن القرى .

وحوالى عام ١٠٠٠ ق . م . حدث تقدم فجائى فى حضارتهم وذلك عندما عرف المزارعون الذين كانوا على مقربة من الشاطىء زراعة الذرة والبقول وأضافوها الى محاصيلهم الجذرية .

وحدثت النهضة الحضارية الثانية فى القرن الثالث أو القرن الرابع بعد الميلاد وكان ذلك فى منطقة الوديان الساحلية الشمالية ، وهى التى تعرف بعصر « موشيكا » (Mochica) . ففى ذلك العصر وصلت الصناعة الى مستوى عال وبالأخص فى صناعتى الفخار والنسيج . فقد صنع أولئك الناس جرارا فى صورة رؤوس منحوتة راعوا فيها الأمانة التامة فى الأداء ويستطيع الانسان أن يقول عنها انها تمثل أشخاصا معينين . ورسموا على فخارهم الملون مناظر من الحياة اليومية ، ومن الأساطير ، ومن مناظر المعارك ، وكلها تعطينا صورة دقيقة عن حضارتهم ، وكانوا على ما يظهر قوما محبين للحرب، فوسعوا رقعة بلادهم عن طريق الغزوات الحربية .

وجاء العصر المتألق التالى حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ويسمى عصر « تهواناكو » (Tihuanaco) نسبة الى ذلك المركز الدينى الذى ما زالت خرائبه

حتى الآن باقية على الشاطىء الجنوبى من بحيرة « تيتسكاكا » (Titicaca) فى بوليفيا . وكانت هذه الامبراطورية تشمل جميع أراضى بوليفيا وپيرو ، ومن الصعب أن يتصور الانسان كيف استطاعت هذه المنطقة ذات التربة الفقيرة المكونة من الصخر ، والتى ترتفع ١٤٫٠٠٠ قدم عن سطح البحر أن تقوم بأود سكان توافر لديهم الوقت والمقدرة الكافيان لتشييد مبان كالتى شيدها أولئك التهواناكو . ففى الهضبة التى الى الشمال من ذلك المركز الدينى نجد أهراما من الحصى الكبير الحجم يبلغ ارتفاعها نحو أربعين قدما . وهى ليست أهراما جنازية ولم تشيد لأى غرض دينى وانما هى مجرد أكوام من الحجارة التى تكدست بعد تنظيف الحقول فكوموها فوق بعضها .

ومهارة التهواناكو فى نقل الأحجار الضخمة تدعو الى الدهشة . فقد شيدوا بوابات كبيرة يتكون كل جانب منها من حجر واحد زخرفوه برسوم محفورة . وهذه الرسوم وان كانت منمقة فان الابتكار ينقصها ، ونرى عليها رسوما كثيرة منقولة على ما يظهر من الرسوم التى كانت مستخدمة فى الأقمشة المنسوجة . ومهما حاولنا تفسير الطريقة التى استخدموها فى نقل حجر يزن ستين أو سبعين طنا لمسافة بضعة أميال فاننا لا نجد تفسيرا نرتاح اليه وسيظل ذلك سرا من الأسرار لأن هؤلاء الناس لم يعرفوا الأدوات اللازمة لمثل هذا العمل بل لم يكن لديهم الخشب اللازم لعمل السقالات والرافعات.

ومن الواضح أن سكان هذه المنطقة كشفوا فى وقت مبكر كشفا أحسن التهواناكو استخدامه ، وأصبح من ميزة جميع الحضارات الأندية التى ظهرت فيما بعد ، وهذا الاكتشاف هو مقدرتهم فى التنظيم وحسن توجيه الأعداد الضخمة من العمال . وظهر عدد من الامبراطوريات التى كانت الحروب سببا فى قيامها ، وانتشرت تلك الامبراطوريات فى الهضبة كلها . وضمت اليها تدريجيا الوديان القريبة من الشاطىء . ومن أهم هذه الامبراطوريات امبراطورية ال « شيمو » (Chimu) التى ظهرت حوالى عام ١٣٠٠ ميلادية

وكانت تمثل ، ولو جزئيا ، نهضة جديدة للموشيكو أدخل عليها التهواناكو بعض التعديلات . وامتاز هذا العصر ، مثل عصر الموشيكا ، بالصناعات الدقيقة كما يتضح ذلك فى الفخار الذى كانوا يصنعونه فى صور حيوانية جميلة الشكل . وكان الشيمو من سكان المدن الذين شيدوا مدنا كبيرة من نوعين ، أحدهما المراكز الدينية الشبيهة بما شيده التهواناكو ، والثانى مدن حقيقية كبيرة تشبه مدن الدنيا القديمة وكانت مراكز سكنية وحربية فى وقت واحد . وكان عدد السكان كبيرا وكانوا منظمين تنظيما حسنا ، والأراضى تروى بانتظام ، حتى لم يبق فدان واحد صالح للزراعة لم يستغلوه .

وكانت امبراطورية الانكا الشهيرة (١٤٣٨ — ١٥٣٢) آخر تلك الامبراطوريات وأعظمها شأنا . ويشير اسم « انكا » الى القبيلة التى كانت تحكم هذه الامبراطورية كما كان هذا الاسم يطلق على الملك الوراثى الذى يحكم الامبراطورية ، وقد توصلت الجماعة الحاكمة فى الانكا الى ما حققته من قوة باستفادتها من أساليب جمع واستخدام الأعداد الكبيرة من العمال التى كانت موجودة من قبل . وكانت الانكا فى الأصل عشيرة صغيرة من قبيلة تسمى « كوشوا » (Quechua) كانت تعيش فى أحد وديان هضبة بيرو . وكان هذا الوادى على ارتفاع ١٠٫٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ولهذا أمكنهم بسهولة زراعة الذرة والبطاطس وغيرهما من المحصولات . ولكن معظم الأرض كانت شديدة الانحدار فاضطروا الى الزراعة بطريقة المدرجات . وكانت هذه المدرجات ترتفع واحدة فوق أخرى آلافا من الأقدام ، وكانوا يعملون من آن لآخر ميازيب مكسوة بالحجر كافية لتخليص الأرض من مياه الأمطار مهما كانت غزيرة . واستغلوا مياه العيون وكانوا يحولون مياهها المتدفقة فتسقى مدرجا بعد آخر ، وقد أحسنوا تخطيط تلك المدرجات وعنوا بقوة جدرانها وما زلنا نراها حتى اليوم على جوانب التلال . وعرف السكان المرتفعات المختلفة والحاصلات التى يمكن أن تنمو فيها ، كما عرفوا أيضا

فائدة مخصبات الأرض اذ كانوا يحتفظون بكل المخلفات الآدمية والحيوانية لاستخدامها فى الحقول . وبالرغم من أنهم لم يعرفوا المحراث فاننا نستطيع أن تقارن حقول الأنديين بحقول الصينيين أو اليابانيين التى كانوا يزرعونها فى مدرجات ، ويستخدمون فيها المخصبات .

وكان الانكا مهندسين وبنائين مهرة ، وكانوا يبنون معابدهم وحصونهم من كتل ضخمة من الحجر ينحتون جوانبها حتى تصبح زواياها قائمة ويصقلون سطحها بدقة كبيرة حتى اذا ما استخدموها فى البناء كانت كل منها تكاد تكون ملتحمة بما جاورها دون أن يستخدموا المونة فى بنايتها . والمنطقة التى عاش فيها الانكا منطقة جبلية ، وكان من الممكن أن تتهاوى مثل هذه الجدران عند حدوث أول زلزال ولكنها ما زالت قائمة حتى الآن وبعد أكثر من خمسمائة سنة ، لم تتزحزح واحدة منها من مكانها ، ولا يستطيع الانسان أن يدخل سلاح سكين بين اثنين من أحجارها . وتجعلنا مبانى الانكا نحس بقوة ظالمة محشودة تأخذ بمشاعرنا ، وفى أيام الامبراطورية كانوا يذهبون بممثلى الجماعات الأجنبية التى يريدون ضمها اليهم ليزوروا الحصن الكبير فى « ساكاشواماان Sacashuaman » ، فكانت ضخامة البناء وقوته تؤثران فى نفوس السفراء فيخضعون لمطالب الانكا دون مقاومة . وقد تم تشييد هذا الحصن قبل وصول الاسپانيين بوقت قصير ، ولهذا لا يمكننا القول انهم فى وقت حدوث الغزو كانوا قد نسوا هذا النوع من الفنون .

وأدرك الانكا فائدة سرعة المواصلات فى امبراطورية كبيرة ، فبنوا طرقا أفضل مما بناه أى شعب قبلهم باستثناء الرومان . وكانت الطرق ضيقة لأنها صممت ليستخدمها أناس يجرون ، وليست للعربات ذات العجلات ، ولكنهم بنوها لتستخدم فى جميع الفصول وفى جميع أنواع الطقس فى أرض صعبة مارة بمناطق جبلية ، وتخترق كثيرا من الأغوار ومجارى المياه . وأقاموا استراحات بين مسافة وأخرى ليستريح فيها حملة البريد ، وينتظرون فيها

زميلهم الذى كان يقطع المسافة جريا ليأخذوا ما معه من رسائل . وكان من الميسور أن يبعث الانسان بهذه الطريقة رسالة من كوزكو الى كويتو وبينهما ١٣٠٠ ميل .

وضم الانكا القبائل المجاورة الى الامبراطورية بطريقة منظمة للتوسع جيلا بعد جيل . وكانوا يفضلون أن يتم ذلك الضم بطريقة سلمية كلما أمكن ذلك لأن الانكا لم يكونوا يرحبـون بالحرب حبـا فيها . وأخيرا اتسعت امبراطوريتهم فحوت كل هضبة الأندس وجميع المناطق القريبة من الشاطىء ممتدة شمالا الى كولومبيا وجنوبا الى بوليفيا وشيلى . والى الغرب كانت تعيش قبيلة « أيمارا Aymara » الهنـدية فى المناطق الواطئة ، وهم قوم غير متحضرين لم يستطع الانكا غزو بلادهم ، ولكنهم تمكنوا من تأسيس بعض المراكز التجارية بينهم .

كانت امبراطورية الانكا مثلا صارخا للدولة الجمـاعية المستبدة التى ترتبط أجزاؤها عن طريق اصدار الأوامر التى جعلت كل ما فى الدولة تحت سيطرتها المطلقة . كانت الأراضى ، والثروة المعدنية ، وقطعان اللاما والالپاكا ، ملكا للدولة . وكانت الدولة تشرف على ادارتها مقابل العمل الذى يقوم به الناس . وكانت الأراضى مقسمة الى ثلاثة أقسام : قسم منها للانكا (أى طبقة الحكام) وقسم للمعبد والقسم الثالث وهو أكبرها للشعب . وكانت أراضى الشعب تخصص للعائلات ويعاد تحديد مقدارها فى كل عام . فاذا ولد طفل جديد فى العائلة زادوا على الجزء المخصص لهم شريحة من الأرض ، واذا مات أحد أفرادها أنقصوا جزءا منها . وكانوا يعطون كل زوجين منزلا وأرضا وطاقمين من الملابس عند زواجهما . وكانوا يصدرون الأمر بتحديد يوم معين يتم فيه الزواج فيحضر الشبان والشابات غير المتزوجين الى أحـد المراكز الحكومية ويتركون لهم بضع ساعات ليتعارفوا ، أى أن الزواج كان يتم عن

طريق الدولة ، ولكن فى أغلب الحالات ، يتم ترتيب الزواج قبل ذلك بين الشاب والفتاة .

وعندما تزدحم احدى المناطق بسكانها كانوا ينقلون جزءا من السكان الى منطقة أخرى غير مسكونة فى الامبراطورية وكانوا يحرصون على نقلهم الى مناطق يكون مناخها وارتفاعها عن سطح البحر والزراعة فيها مشابهة للمنطقة التى تركوها . وكان هذا النظام الذى أطلقوا عليه اسم « ميتامى » (Mitamae) متبعا أيضا للمساعدة فى ابقاء بعض الجماعات المغلوبة خاضعة لسلطانهم . فبعد أن يضموا أحد الأقاليم الى مملكتهم كانوا يأخذون ما يقرب من نصف سكانه وينقلونه الى منطقة أخرى تبعد نحو مائة ميل عن موطنهم الأصلى ، ثم ينقلون جماعة أخرى من السكان الغرباء الذين لا يتكلمون اللغة المحلية ليحلوا فى المنطقة التى أخليت من سكانها . وبهذا استطاع الانكا القضاء على الحضارة القديمة للمغلوبين وفرض حضارة الانكا عليهم ، فلا تمضى أجيال قليلة حتى يتم استيعابهم .

وكان السكان مقسمين الى جماعات تتكون كل منها من عشر عائلات ، ولكل جماعة منها رئيس يمثلها ويصبح مسئولا عن سلوك جماعته كمسئولية زعيم الجماعة الصغيرة من الجنود عن سلوك جنوده . وكان لكل خمسة من الجماعات العشر رئيس آخر ، وكانت اثنتان من هذه الجماعات الخمسين تحت زعامة رئيس للمائة . ولكل خمسة من رؤساء المائة زعيم ، ولكل اثنين من هذين الزعيمين قائد يكون له حق الاشراف والزعامة على ألف عائلة . وكانت الامبراطورية مقسمة الى أربعة أقسام فى الجهات الأربع من العاصمة كوزكو ويحكم كلا منها نائب للملك . وكان محرما على رؤساء الأقسام السياسية أن يكون لأحدهم أى علاقة مباشرة بزميل له ، وكانت جميع الأعمال تأخذ طريقها مباشرة الى الزعماء ثم تصدر الأوامر من الزعماء الى من هم أقل منهم . وكان الانكا نفسه الذى كان من سلالة الشمس على رأس الجميع . وكان الانكا

يقوم بين حين وآخر فى موكب فخم بجولات تفتيشية فى بلاده .

ولم تعرف دولة الانكا معنى الفاقة ، فاذا حدثت مجاعة أو عجزت الحاصلات عن سد حاجة الناس صرفوا لهم ما يلزمهم من المخازن العامة للغلال . وكانت قطعان اللاما والپاكا ملكا للانكا ، وكانوا يجمعون تلك القطعان مرة فى كل عام فينتفون أصوافها ، ولا يقصونها ، ويوزعونها بين العائلات ليقوموا بغزلها فى خيوط ثم يجمعون تلك الخيوط لصباغتها ، ثم يجمعون بعد ذلك الخيوط المصبوغة ويوزعونها بين النساجين المحترفين ليصنعوا منها الملابس . وتقدمت فيهم صناعة النسيج الى درجة تدعو الى الاعجاب ويمكن مقارنة منسوجاتهم بأحسن ما أخرجه الصينيون أو الأوروبيون فى القرن السادس عشر . وكانوا يستخدمون اطارا بسيطا للنسيج دون استعمال المغزل ورغم ذلك تفوقوا فى صناعتهم بفضل مهارتهم اليدوية الممتازة .

واحتاج مثل هذا النظام الى عد أرقام هائلة . وقد حلوا هذه الصعوبة باختراعهم طريقة غريبة للعد بوساطة عمل عقد فى الخيوط وأطلقوا على هذه الطريقة اسم « كويپوس Quipus » ، وكانوا يعملون عقدا ذات أشكال مختلفة فى الخيوط ، لكل منها دلالتها ، وكانت أشبه شىء بطريقة الاختزال فى الكتابة ولكنها كانت تعتمد كثيرا على الذاكرة اذ لم يكن فى استطاعة أحد أن يقرأ الكويپو بدقة الا صاحبه الذى قام بعمله ، وكان فى استطاعة من يعملون الكويپو أن يقوموا بعمليات حسابية كبيرة بهذا النوع من تسجيل الأعداد .

وكان من عادتهم جمع عدد من الشبان لاعدادهم لخدمة الامبراطور . وكانت الدولة تتكفل بهؤلاء « الياناكونا Yanacuna » كما كانوا يسمونهم ، ويخصصون كلا منهم للقيام بنوع خاص من العمل . وكان منهم أحسن الفنانين والصناع ، اذ أدرك الانكا أن الشعب الذى اعتاد على تنفيذ ما يصدر



اناء مزخرف برسوم ملونة ـ من مدينة الانكا

اليه من أوامر ، واعتاد أن يعمل كما تعمل خلية النحل ينقصه الابتكار والدافع الى انتاج سلع ذات جمال فنى ، ولهذا كانوا يختارون هذه الجماعة ويدربونها لسد هذه الحاجة . وقد امتاز صناع المعادن من جماعة الياناكونا فى صناعة الأدوات النحاسية والفضية والذهبية ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد . وكانوا يستخدمون كلا من طريقتى الصب والطرق ، وعرفوا البرونز بخلطهم النحاس مع القصدير ، وعرفوا صناعة الأوانى المغطاة بالصفائح المعدنية بوضع أوراق

الذهب فوق اناء من الفضة ووضع أوراق الفضة فوق اناء مصنوع من النحاس والطرق فوقها لتثبيتها فيها . وكان الذهب يتدفق على العاصمة ، وكانت جدران القصر مزخرفة بطنف (أفاريز) من الذهب ، وكان الانكا يتناول طعامه فى صحاف من الذهب الخالص . وفى أيام الاحتفالات العـامة كانوا يحيطون الميدان الكبير فى كوزكو بسلسلة صنعت حلقاتها من الذهب . وكانت توجد فى معبد الشمس حديقة ذهبية كان كل ما فيها من أشجار وأزهار وأطيار مصنوعة من الذهب وفيها راع بالحجم الطبيعى يرعى قطيعا من اللاما وكلها من الذهب الخالص ، كما صنعوا الفراشات والحشرات الأخرى ، وكانت من الذهب المزركش المخرم وذات وزن خفيف ، وقد أتقنوا توازنها اذ كانت تتحرك فى الهواء طائرة فوق الزهور الذهبية .

وكانت هناك جماعة أخرى تشبه الياناكونا ولكنها من النساء يسمونها ال « اللاكونا Allcuna » كانوا ينتخبونهن وهن فى سن الثامنة أو التاسعة ويضعونهن فى مكان شبيه بالدير ، وتعمل بعضهن فى المستقبل كاهنات فى المعابد ويصبح البعض الآخر محظيات للامبراطور ، وكانوا يدربون هؤلاء الفتيات فى صناعة النسيج ، وكن يقمن بعمل جميع المنسوجات الجميلة فى قصر الانكا .

وكانوا ينتقون الحكام من بين النبلاء الوراثيين للقبائل التى أخضعوها لحكمهم . كان هؤلاء الشبان يذهبون الى مدرسة خاصة فى العاصـمة فى كوزكو . وكانوا يختارون أكفأ من فيهم ليشغلوا الوظائف الادارية فى العاصمة ، أما الباقون فكانوا يرسلون لادارة الأقاليم النائية . وكان منصب الانكا منصبا وراثيا ، وكان المرشح لولاية العهد هو أكبر أبناء الانكا الحاكم من أكبر اخواته . وعلى عكس الاعتقاد السائد بشأن الزواج من الأقارب ، فانا نرى بعد مرور ستة أجيال على هذا النوع من الزواج عددا من الحكام الأذكياء ذوى المقدرة الفائقة .

وكانت الغزوات التى يقوم بها شـعب الانكا غزوات منظمة وحسـنة الترتيب وتشبه تنظيمات الجيش الألمانى . كانت هناك فرق نظامية على استعداد للحروب خارج البلاد . فاذا عزم الانكا على غزو أى منطقة بدأ باعداد الطرق الموصلة اليها وبناء الحصون التى يرتد اليها الجنود ويملأونها بالمؤن . وكانوا يرسلون الجواسيس ليحصلوا على المعلومات الخاصة بالمنطقة التى يعتزمون غزوها ، وكانوا يبذلون جهودهم لاحداث نوع من الثورة المحلية فى ذلك البلد حتى يكون الدفاع عنه مفككا ومضطربا . وكانوا يفرضون على ذلك البلد المغلوب شروطا سهلة عند استسلامه ، وكثيرا ما كان يتم هذا الاستسلام دون الالتجاء الى الحرب .

وربما كانت امبراطورية الانكا أنجح الدول الجماعية الاستبدادية التى ظهرت فى التاريخ ، ومن سوء حظ الانكا ، بل ومن سوء حظ التاريخ أن الاسپانيين وصلوا الى تلك البلاد فى وقت حدث فيه تصدع فى الجبهة المتحدة لتلك الدولة . فان والد « أتاهوالپا Atahualpa » آخر ملوك الانكا كان قد تزوج امرأة من قبائل « كويتو Quito » الى جانب أخته . فاعترفت القبائل الشمالية التى لم يكن قد تم ادماجها فى الامبراطورية بابن الزوجة الكويتوية كملك على البلاد ، وكانت الثورة التى قام بها هـذا الابن فى عنفوانها عندما وصـل الاسپانيون . واستقرت أقدام « بيزارو Priazro » القائد الاسپانى فى البلاد بعرضه المساعدة ، ووضع رجاله فى خدمة «أتاهوالپا» للقضاء على تلك الثورة . فلما تم القضاء على الثورة وتمكن « أتاهوالپا » من اخضاع القبائل الشمالية سارع الاسپانيون الذين كانوا فى العاصمة فقبضوا عليه وقتلوه هو ومعظم نبلائه .

واتضح اذ ذاك العيب للحكم الاستبدادى أينما كان . فان النـاس اذا اعتادوا على تلقى الأوامر ، ولم يفكروا أبدا لأنفسهم ، فان روح الاقـدام تنعدم فيهم ويصبحون فريسة سهلة لأى زعيم يتولى السلطة . ولهذا استطاع

الاسپانيون أن يحكموا شعب الانكا فى صورة كان من المستحيل أن تحدث لو أن ذلك الشعب لم يعتد على تنفيذ كل ما يصدر اليه من أوامر من رؤسائه .

واتبع الاسپانيون كالعادة سياسة قصيرة النظر الى أبعد الحدود ، ولا يكاد يصدقها العقل ، فى استغلال تلك البلاد ، لأنهم لم يكن يهمهم الا الحصول على الذهب قبل أى شيء آخر ففشلوا فى المحافظة على القنوات ومجارى المياه اللازمة للرى ، والتى يعتمد عليها اقتصاد البلاد . وكان لانتشار الأوبئة واجبار عدد كبير من السكان على العمل فى المناجم أثر آخر فى ابادة جزء كبير من الشعب ، فلم تمض بضع سنوات على احتلال الاسپانيين للبلاد ، حتى نقص عددهم الى أقل من نصف ما كانوا عليه . وضاعت علوم ومعارف الانكا بقتل الاسپانيين للطبقة العليا فيهم ، ولكن أسلوب الحياة فى القرية الذى قامت على أساسه امبراطورية الانكا ما زال باقيا بين هنود منطقة الأندس حتى الآن . وقد أخـــذ عددهم فى الوقت الحاضر فى الازدياد ، ولهـــذا السبب بدأوا يتقدمون فى حضارتهم وسيبنون مستقبلهم على أساس قومى وطيد .

بعض المراجع الهامة

الفصل الثامن والعشرون

BURKITT, M.C.: South Africa's Past in Stone and Paint. Cambridge: The University Press; 1928.

CATON - THOMPSON, G.: The Zimbabwe Culture : Ruins and Reactions. Oxford: Clarendon Press; 1931.

CLARK, J.G.D.: The Prehistoric Cultures of the Horn of Africa. London; 1953.

HAMBLY, W.D.: Source Book for African Anthropology. Parts I and II. Chicago: Field Museum of Natural History, Anthropological Series, Publication No. 394, Vol. XXVI; 1937.

GOODWIN, A.J.H., and VAN RIET LOWE, C.: The Stone Age Cultures of South Africa. Capetown: Annals of the South African Museum, Vol. XXVII; 1929.

LEAKEY, L.S.B.: Stone Age Cultures of Kenya Colony. Cambridge: The University Press; 1931.

— : Stone Age Africa. London: Oxford University Press; 1936.

— , editor: Proceedings of the Pan - African Congress on Prehistory, 1947. New Work; 1949.

POND, A.W.; CHAPUIS, L.; ROMER, A.S.; and BAKER, F.C.: Prehistoric Habitation Sites in the Sahara and North Africa. Beloit, Wisconsin: Logan Museum Bulletin No. 5; 1938.

D'UCEL, J.: Berber Arts: An Introduction. Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1932.

Wulsin. F.R.: Prehistoric Archeology of Northwest Africa. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 19, No. 1; 1941

الفصل التاسع والعشرون

BAUMGARTEL, E.J.: The Cultures of Prehistoric Egypt. Oxford: Oxford University Press; 1947.

BREASTED, J.H.: A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest. New York: Charles Scribner's Sons; 1905.

BUDGE, E.W.: A Short History of the Egyptian People . London: J.M. Dent and Sons; 1914.

CARTER, H., and MACE, A.C.: The Tomb of Tut - Ankh - Amen. London: Cassell and Co.; 1923.

CHILDE, V.G.: New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London: Routledge and Kegan Paul; 1952.

EDWARDS, J.E.S.: The Pyramids of Egypt. Harmondsworth: Penguin Books; 1947.

HAYES, W.C.: The Scepter of Egypt. New York: Harper and Brothers; 1953.

HUZAYYIN, S.A.S.: The Place of Egypt in Prehistory: A Correllated Study of Climates and Cultures in the Old World. Cairo: Memoires de L'institut Egypte, Vol. 43; 1941.

MANCHIP - WHITE, J.E. Ancient Egypt. New York: Thomas Y. Crowell Co.; no date.

MURRAY, M.A.: The Splendour that Was Egypt. New York: Philosophical Library; 1949.

PETRIE, W.M.F.: Prehistoric Egypt. London: British School of Archeology in Egypt; 1920.

SELIGMAN C.G.: Egypt and Negro Africa: A Study in Divine Kingship. London: George Routledge and Sons; 1934.

TABOUIS, G.R.: The Private Life of Tutankhamen. New York: The McBride Company; 1930.

WADDELL, L.A.: Egyptian Civilization: Its Sumerian Origin & Real Chronololgy. London Luzac and Co.; 1930.

WILSON, J.A.: The Burden of Egypt. Chicago: University of Chicago Press; 1951.

CHILD, G.M.: Umbundu Kinship and Caracter, London: Oxford University Press; 1949.

COLSON, C, and GLUCKMAN, M. (editors): Seven Tribes of British Central Africa. London: Oxford University Press; 1951.

CULWICK, A.T., and G.M.: Ubena of the Rivers. London: G. Allen and Unwin; 1935.

DELAFOSSE, M.: The Negroes of Africa. Translated by F. Fligeman. Washington, D.C.: The Association Publishers; 1931.

DOKE, C.M.: The Lambas of Northern Rhodesia. London: G.G. Harrap Co.; 1931.

EVANS-PRITCHARD, E.E.: Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande. Oxford: Clarendon Press; 1937.

_____ : The Nuer, Oxford: Clarendon Press; 1940.

FORTES, M.: The Dynamics of Clanship Among the Tallensi. London: Oxford University Press; 1945.

_____ : The Web of Kinship Among the Tallensi. London: _____ Oxford University Press, 1949.

FORTES, M., and EVANS-PRITCHARD, E.E.: African Political Systems. London: Oxford University Press; 1940.

HUNTER, M.: Reaction to Conquest. London: Oxford University Press; 1936.

JUNOD, H.P.: The Vathonga, Cambridge: Deighton Bell & Co. 1935.

KABERRY, P.: Women of the Grassfields: A Study of the Economic Position of Women in Bamenda, British Cameroons. London: H.M. Stationery Office, for the Colonial Office; 1952.

KENYATTA, J.: Facing Mount Kenya. London Secker & Walburg; 1938.

KRIGE, J.D., and E.J.: A Realm of a Rain Queen: A Study of Lovedu Society. New York: Oxford University Press; 1943.

LUTTIG, H.G.: The Religious System and Social Organization of the Hererro. Utrecht: Kemink en zoon n.v.; 1934.

MEEK, C.K.: The Northern Tribes of Nigeria. 2 volumes. London: Oxford University Press; 1925.

NADEL, S.F.: The Nuba. London: Oxford University Press; 1942.

RADCLIFFE-BROWN, A.R., and FORDE, D., editors: African Systems of Kinship and Marriage. London: Oxford University Press; 1950.

REY, C.F.: The Real Abyssinia. Third edition. Philadelphia: J.B. Lippincott Co.; no date.

RICHARDS, A.I.: Land, Labour and Diet in Northern Rhodesia. Second impression. London: Oxford University Press; 1951.

RODD, F.R.: People of the Veil. London: Macmillan and Co.; 1926.

SCHAPERA, I.: The Khoisan Peoples of South Africa. London: G. Routledge Sons; 1930.

____ : A Handbook of Tswana Law and Custom. London: Oxford University Press; 1938.

____ , editor: The Bantu Speaking Tribes of South Africa. London: G. Rourledge Sons; 1937.

SCHWAB, G.: Tribes of the Liberian Hinterland. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 31; 1947.

SMITH, E.W., and DALE, W.M.: The Ila-Speaking Peoples of Northern Rhodesia. London: Macmillan and Co.; 1920.

TALBOT, P.A.: Peoples of Southern Nigeria. 4 volumes. London: Oxford University Press; 1926.

WAGNER, G.: The Changing Family among the Bantu Kavirondo. London: Memoranda of the International African Institute; No. 18; 1939.

WEEKS, J.H.: Among the Primitive Bakongo. London: Seeley, Service and Co.; 1914.

WILSON, M.H.: Good Company. London: Oxford University Press 1951.

WILSON-HAFFENDEN, J.R.: The Red Men of Nigeria. London: Seeley, Service and Co.; 1930.

WINGERT, P.: The Sculpture of Negro Africa. New York: Columbia University Press, 1950.

الفصل الحادى والثلاثون

HADFIELD, H.: Traits of Divine Kingship in Africa. London: Watts Co.; 1949.

HERSKOVITS, M.J.: Dahomey, an Ancient West African Kingdom. Vols. I and II. New York: J.J. Augustin, Inc:, Publishers; 1938:

KUPER. H.: An African Aristocracy. London: Oxford University Press; 1947.

MAIR, L.P.: An African People in the 20th Century. London: G. Routledge Sons; 1934.

MEEK, C.K.: A Sudanese Kingdom. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1931.

MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1934.

MADEL, S.F.: A Black Byzantium. London: Oxford University Press; 1942.

RATTRAY, R.S.: The Ashanti. Oxford: Clarendon Press; 1923.

ROSCOE, J.: The Baganda. London: Macmillan and Co.; 1911.

الفصل الثانى والثلاثون

BARNETT, L.D.: Antiquities of India. London: P.L. Warner; 1913.

CHILDE, V.G.: New Light on the Most Ancient East. Revised edition. London: Routledge and Kegan Paul; 1952.

MARSHALL, J., editor: Mohenjo Daru and the Indus civilization. London: A. Probsthain; 1931.

MACKAY, E.: Early Indus Civilizations. Revised edition. London: Luzac and Co., 1948.

MITRA, P.: Prehistoric India. Revised edition. Calcutta: University of Calcutta; 1927.

MOVIUS, H.L., Jr.: Early Man and the Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University; Vol. 19, No. 3; 1944.

— : Lower Paleolithic Cultures of Southern and Eastern Asia. Philadelphia: Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 38, No. 4; 1949.

PIGGOTT, S.: Prehistoric India. Harmondsworth: Pelican Books, 1950.

PRABHAVANANDA, S.: Vedic Religion and Philosophy. Editorial supervision by P.H. Houston. Mylapore, Madras: Sri Ramakrisna Math; 1950.

SEN, G.E.: The Pageant of India's History. New York: Longmans, Green and Associated Human Cultures. Washington: Carnegie Institution of Washington Publication No. 493; 1939.

WHEELER, R.E.M.: Five Thousand Years of Pakistan. London: C. Johnson; 1950.

الفصل الثالث والثلاثون

GROUSSET, R.: The Civilization of India. Translated by C.A. Phillips. New York: Tudor Publishing Co.; 1939.

HAWKRIDGE, E.: Indian Gods and Kings: The Story of a Living Past. Boston: Houghton Mifflin Co.; 1935.

HAWKRIDGE, E.: Indian Gods and Kings: The University Press; 1946.

HUTTON, J.H.: Caste in India. Cambridge: The University Press; 1946.

MORGAN, K.W., editor: The Religion of the Hindus. New York: The Ronald Press Company; 1953.

RICE, S.: Hindu Customs and Their Origins. London: G. Allen and Unwin; 1937.

RIVERS, W.H.R.: The Todas. London: Macmillan and Co.; 1906.

SEN, G.E.: The Pageant of India's History. New York: Longmans, Green and Co.; 1948. Vol. 1.

SENART, E.: Caste in India. Translated by E.D. Ross. London: Methuen Co.; 1930.

SWANATHA, S.V.V.: Racial Synthesis in Hindu Culture. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1928.

الفصل الرابع والثلاثون

DAVIDS, C.A.R.: Sakya; or Buddhist Origins. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1931.

RADH-KRISHNAN, S.: Gautama, the Buddha. London: Oxford University Press; 1938.

THOMAS, E.J.: The life of Buddha as Legend and History. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1927.

الفصل الخامس والثلاثون

ARCHER, J.C.: The Sikhs: A Study in Comparative Religion. Princenton: University Press; 1946.

CROOKE, W.: The Natives of Northern India. London: A. Constable and Co.; 1907.

ELWIN, V.: The Baiga. London: J. Murray; 1939.

HUTTON, J.H.: Caste in India. Cambridge: The University Press; 1946.

MORGAN, K.W., editor: The Religion of the Hindus. New York: The Ronald Press Company; 1953.

SEN, G.E.: The Pageant of India's History. Vol. 1. New York: Longmans, Green and Co.; 1948.

SENART, E.: Caste in India. Translated by E.D. Ross. London: Methuen and Co.; 1930.

الفصل السادس والثلاثون

ANDERSSEN, J.G.: Children of the Yellow Earth. New York; 1934.

———: Researches in the Prehistory of the Chinese. Stockholm: Bulletin of the Museum of Far Eastern Antiquities No. 15; 1943.

CHILI: The Formation of the Chinese People. Cambridge: The University Press; 1928.

CREEL, H.G.: The Birth of China. New York: The John Day Co.; 1937.

— : Studies in Early Chinese History. (First Series). Washington: American Council of Learned Societies. Studies in Chinese and Related Civilizations. No. 3; 1938.

CRESSEY, G.B.: China's Geographic Foundations. New York: McGraw-Hill Book Co.; 1934.

MOVIUS, H.L. Jr.: Early Man and the Pleistocene Stratigraphy in Southern and Eastern Asia. Cambridge: Papers of the Peabody Museum, Harvard University, Vol. 19, No. 3; 1944.

— : Lower Paleolithic Cultures of Southern and Eastern Asia. Philadelphia: Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 38, No. 4; 1949.

WHITE, W.C.: The Bone Culture of Ancient China. Toronto: University of Toronto Press. Museum Studies No. 4; 1945.

WU, G.D.: Prehistoric Pottery in China. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1938.

الفصل السابع والثلاثون

BUXTON, L.H.D.: China, the Land and the People. Oxford: Clarendon Press; 1929.

— : The People of Asia. New York: Alfred A. Knopf; 1925.

CREEL, H.G.: Sinism, A Study of the Evolution of the Chinese World View. Chicago: The Open Court Publishing Co.; 1929.

FUNG, Y.L.: A Short History of Chinese Philosophy. Edited by Derk Bodde. New York: The Macmillan Co.; 1948.

GOODRICH, K.C.: A Short History of the Chinese People. Revised edition. New York: Harper and Brothers; 1951.

DE GROOT, J.J.M.: The Religion of the Chinese. New York: The Macmillan Co.; 1910.

LATOURETTE, K.S.: The Chinese: Their History and Culture. New York: The Macmillan Co.; 1934.

PANKU: History of the Former Man Dynasty. Translated by Homer H. Dubs. Paltimore: The Waverly Press; 1938.

WALKER, F.L.: The Multi-State of Ancient China. Hamden, Connecticut: The Shoestring Press; 1953.

WILHELM, R.: A Short History of Chinese Civilization. Translated by J. Joshua. New York: The Viking Press; 1929.

WILLIAMS, S.W.: The Middle Kingdom. Reyised edition Vols. I and II. New York: Charles Scribner's Sons; 1883.

WITTFOGEL, K.A., and FENG CHIA-SHENG: History of Chinese Society: Liao (907-1125). Transactions of the American Philosophical Society, Vol. 36, 1846. New York: Distributed by The Macmillan Co.; 1949.

الفصل الثامن والثلاثون

CHIANG MONLIN: Tides from the West. New Haven: Yale University Press: 1947.

FEI, H.T.: Peasant Life in China. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1947.

FRIED, M.H.: The Fabric of Chinese Society. New York: Frederick A. Praeger; 1953.

HSU, F.L.K.: Under the Ancestor's Shadow. Routledge and Kegan Paul; 1949.

— : Americans and Chinese. Two ways of Life. New York: Henry Schuman; 1953.

KULP, D.H.: Country Life in Southern China. New York: Teachers College, Columbia University; 1925.

LANG, O.: Chinese Family and Society - New Haven: Yale University Press; 1946.

LAUFER, B.: Jade. Chicago: Field Museum of Natural History. Anthropological Series, Publication No. 154, Vol. X; 1912.

LEONG, Y.K.; and TAO L.K.: Village and Town Life in China. London; 1915.

MORSE, H.B.: The Gilds of China. London: Longmans, Green and Co.; 1909.

SIREN, O.: A History of Early Chinese Painting. London: The Medici Society; 1933.

YANG, M.C.: A Chinese Village. London: Kegan Paul, Trench, Trubner and Co.; 1948.

الفصل التاسع والثلاثون

EMBREE, J.: The Japanese Nation: A Social Survey. New York: Rinehart and Co.; 1945.

GROOT, G.J.: The Prehistory of Japan. Edited by B.S. Kraus. New York: Columbia University Press; 1951.

HEARN, L.: Japan: An Attempt at Interpretation. New York: The Macmillan Co.; 1904.

LATOURETTE, K.S.: The History of Japan. New York: The Macmillan Co.; 1947.

MUNRO, N.G.: Prehistoric Japan. Yokohama 1911.

REISCHAUER, E.O.: Japan, Past and Present, Revised edition. New York: Alfred A. Knopf; 1953.

SANSOM, G.B.: Japan: A Short Cultural History. Revised edition. New York: Appleton-Century-Crofts; 1943.

TAKEKOSHI, Y.: The Economic Aspects of the History of the Civilization of Japan. Vols. I, II, and III. New York: The Macmillan Co..; 1930.

الفصل الأربعون

BIRKET-SMITH, K.: The Eskimos. New York: E.P. Dutton and Co.; 1936.

CATLIN, G.: North American Indians. 2 volumes. London: Chatto. and Windus; no date.

CODERE, H.: Fighting with Property. New York J.J. Augustin, Inc., Publishers; 1950.

COLLIER, J.: The Indians of the Americas. New York: W.W. Norton and Company; 1947.

CURTIS, E.S.: The North American Indian. Second revised edition. 20 volumes. Norwood, Mass.: The Plimpton Press; 1907-30.

DALE, E.E.: The Indians of the Southwest. Nodrman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1949.

EGGAN, F.: The Social Organization of the Western Pueblos. Chicago: University of Chicago Press; 1950.

GRINNELL, G.B.: The Cheyenne Indians. 2 volumes. New Haven: Yale University Press; 1923.

HODGE, F.W.; editor: Handbook of the American Indians North of Mexico. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 30, Parts I and II; 1907.

JENESS, D.: Indians of Canada. Ottawa: National Museum of Canada, Bulletin No. 65; 1932.

KENTON, E., editor: The Indians of North America. 2 volumes. New York: Harcourt, Brace and Co.; 1927.

KINIETZ, W.V.: The Indians of the Western Great Lakes, 1615-1760. Ann Arbor: University of Michigan Press; 1940.

KLUCKHOHN, C.: and LEIGHTON, D.: The Navaho. Cambridge: Harvard University Press; 1946.

KROEBER, A.L.: Cultural and Natural Areas of Native North America. Berkeley: University of California Press; 1949.

— : Handbook of the Indians of California. Berkeley: California Book Co.; 1953. (Bureau of American Ethnology Bulletin No. 78; 1925).

LOWIE, T.H.: The Crow Indians. New York: Rinehart and Company; 1935.

MACGOWAN, K.: Early Man in the New World. New York: The Macmillan Co.; 1950

MARTIN, P.S.; QUIMBY, G.I.; and COLLIER, D.: Indians Before Columbus. Chicago: University of Chicago Press; 1947.

MORGAN, L.H.: The League of theHo-Dé -No-Sau-Nee or Iroquois. H.M. Lloyd, editor. 2 volumes. New York: 1901.

MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1934.

OPLER, M.E.: An Apache Life-Way. Chicago: University of Chicago Press; 1941.

OSGOOD, C.: Ingalik Material Culture. New Haven: Yale University Publications in Anthropology, No. 22; 1940.

PARKMAN, S., Jr.: The Oregon Trail. New York: Caxton House; no date.

PARSONS, E.C.: The Pueblo of Jemez. New Haven: Yale University Press; 1925.

RASMUSSEN, K.: The People of the Polar North. Edited by G. Herring. Philadelphia: J.B. Lippincott C.; 1908.

— : The Netsilik Eskimo. Copenhagen: Report on the Fifth Thule Expedition, 6921-24, VIII, No. 1 and 2; 1931.

RITCHIE, W.Z.: The Pre-Iroquoian Occupations of New York State. Rochester: Rochester Museum Memoir No. 1; 1944.

SELLARDS, E.H.: Early Man in North America. Austin, Texas: University of Texas Press; 1952.

SPECK,F.G.: Naskapi. Norman, Oklahoma: University of Oklahoma Press; 1935.

SPIER, L.: Yuman Tribes of the Gila River Chicago: University of Chicago Press; 1933.

STERN, J.: The Rubber-Ball Games of the Americas. New York: J.J. Augustin, Inc., Publisher; 1948.

SWANTON, J.R.: Indian Tribes of the Lower Mississippi Valley and the Adjacent Coast of the Gulf of Mexico. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 43; 1911.

____ : The Indian Tribes of North America. Washington: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 137; 1946.

: The Indian Tribes of North America. Washingon: Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology Bulletin No. 145; 1952.

UNDERHILL, R. M.: Red Man's America. Chicago: University of Chicago Press; 1953.

WISSLER, C.: The American Indian. Third edition. New York: Oxford University Press; 1938.

WORMINGTON, H.M.: Prehistoric Indians of the Southwest. Denver: Colorado Museum of Natural History, Popular Series No. 7; 1947.

——: Ancient Man in North America. Third edition, revised. Denver: Colorado Museum of Natural History, Popular Series No. 4; 1949.

ZEISBERGER, D.: History of the North American Indians. Edited by A.B. Hulbert and W.N. Schwarze. Columbus: Ohio State Archeological and Historical Society, no date.

الفصل الحادى والأربعون

BENNETT, W.C., and BIRD, J.B.: Andean Culture History. New York: American Museum of Natural History, Handbook Series No. 15, 1949.

BENNETT,W.C., and ZINGG, R.M.: The Tarahumara. Chicago: University of chicago Press; 1935.

COLLIER, J.: The Indians of the Americas. New York: W.W. Norton and Co.; 1947.

GANN, T.; and THOMPSON, J.E.: History of the Mayas. New York: Charles Scribner's Sons; 1931.

HAY, C.L.; and others: The Maya and Their Neighbours. New York: Applleton-Century-Crofts; 1940.

JOYCE, T.A.: South American Archeology. New York: G.P. Putnam's Sons; 1921.

KARSTEN, R.: A Totalitarian State of the Past. Helsingfors: Societas Scientarum Fennica; Commentationes Humanarum Litterarum XVI; 1949.

KELEMAN, P.: Medieval American Art. 2 volumes. New York: The Macmillan Co.; 1943.

MARKHAM, C.R.: The Incas of Peru. London: Smith, Elder and Co.; 1910.

MEANS, P.A.: Ancient Civilization of the Andes. New York: Charles Scribner's Sons; 1931.

MONGE, C.: Acclimatization in the Andes. Translated by D.F. Brown. Baltimore: Johns Hopkins University Press; 1948.

MORELY, S.G.: The Ancient Maya. Stanford, California: Stanford University Press; 1946.

MURDOCK, G.P.: Our Primitive Contemporaries. New York: The Macmillan Co.; 1935.

PARSONS, E.C.: Mitla, Town of Souls. Chicago: University of Chicago Press; 1936.

SPINDEN, H.J.: Ancient Civilizations of Mexico and Central America. Third edition. New York: American Museum of Natural History, Handbook Series No. 3; 1928.

STEWARD, J.H., editor: Handbook of South American Indians. Washington: Smithsonian Institution. Bureau of American Ethnology Bulletin No. 143; 1949. Vols. I-VI.

TAX, S., editor: Heritage of Conquest. Glencoe, Illinois: The Free Press; 1952.

THOMPSON, J.E.: Mexico Before Cortez. New York: Charles Scribner's Sons; 1933.

VAILLANT, G.C.: Aztecs of Mexico. New York: Doubleday and Compant, 1941.

فهرس الكتاب

(الأجزاء الثلاثة)

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)



هذا الكتاب

لو طلب منى أى انسان أن أختار لهذا الكتاب عنوانا غير « شجرة الحضارة » لما وجدت عنوانا أنسب من عنوان « قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث » فهذا ، كما جاء فى التعريف بالكتاب ، هو هدفه ، وهذا ما استطاع المؤلف بجدارة وحق أن يقصه علينا فى هذا المؤلف القيم الذى جمع فيه بين الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية والأثرية والاجتماعية ، وقص علينا فيه قصة ظهور الانسان على هذه الأرض وسار معه خطوة بعد أخرى وهو يتدرج من حياة لا تكاد تختلف كثيرا عن حياة الرئيسيات من الحيوانات حتى وضع قدمه على أولى درجات التمدن بانتقاله من حياة الاعتماد على جمع الغذاء الى حياة الاستقرار وانتاج الغذاء ، ثم الى عصره التاريخى . ولكنه لم يقف عند ذلك الحد فنراه يبحث عن المراكز التى استطاع فيها الانسان أن يحقق تلك الخطوة الكبرى ، وهى كلها فى بلاد الشرق الأدنى .

ومهما كان عنوان الكتاب والطريقة التى اتبعها مؤلفه فى تنسيق موضوعاته أو معالجتها فانه من الكتب التى يمكن أن نضعها تحت اسم « تاريخ الحضارة » التى أصبحت الآن من أهم الموضوعات التى يتحتم على طلبة الجامعات أن يدرسوها ، يستوى فى ذلك جامعات البلاد العربية أو جامعات أوروبا أو أمريكا مهما اختلفت مذاهبهم التعليمية .

من مقدمة

الدكتور احمد فخرى



مطبعة مصر شركة مساهمة

سنة ١٩٦١